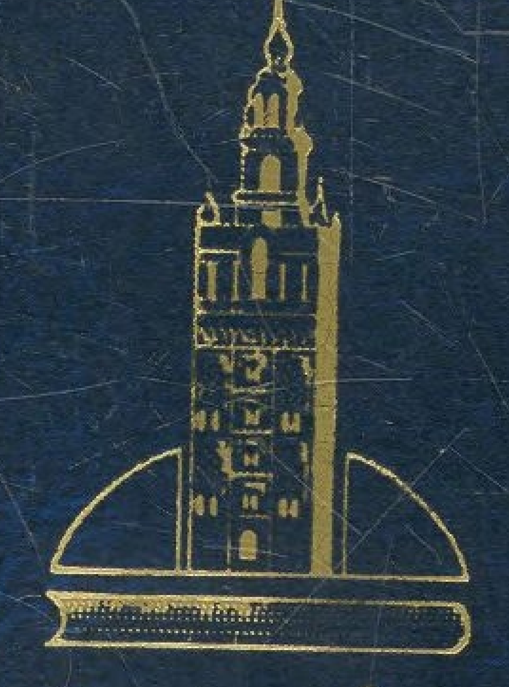
الجمعية التاريخية
حمص - سورية

مجلة
البحث التاريخي



إشبيلية
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية



تصدرها
الجمعية التاريخيه في حمص

ملاحظـات :

- البحوث والمقالات التي ينشرها الكتاب في هذه المجلة تعبر عن آرائهم الشخصية .

- ترتيب مواد العدد يخضع لاعتبارات فنية فقط .

المراسلات باسم المدير المسؤول :

حمص ـ الجمعية التاريخية ـ شارع عبد الحميد الدروبي

ص.ب ٨٤٨ ـ هاتف ٢٦٣٨٠

مجلة البحث التاريخي

تصدر عن الجمعية التاريخية بحمص

الفهرس



بين يدي القراء الاعزاء في وطننا العربي الكبير العدد الخامس من مجلة البحث التاريخي بوضعه المألوف في أعدادنا السابقة ،من حيث تنوع موضوعاته وشمولها لمعظم المواد التاريخية في مختلف عصورها، ملحين بصورة واضحة على التاريخ العربي ومقتربين أكثر من تاريخ مدينة حمص بالذات .

وقد رفدنا في جهدنا هذا زملاء أعزاء بثمرات أقلامهم الخيرة، وان ظل الغوث يأتينا من مكان قريب ،فما تجاوزت أصداء صوتنا الجوار في حماة وطرابلس ودمشق . وكم كانت أمانينا أوسع ومتلهفة لان تكون صفحات مجلتنا المتواضعة هذه منبرا لكل قلم ولسان في وطننا العربي . فما كنا ممن نال المنى ،وحمدنا الله في الحالتين . ولكن مازلنا في مطلع الطريق الذي تحف به العقبات وتكتنفه الصعاب .ولسنا في موقف التصنيف والتعداد لهذه المعيقات . وتكفي الاشارة الى صعوبة الخوض في حقول التاريخ التي ملئت أشراكا ،بثت عن قصد لمرام مختلفة الابعاد ،وتركت هكذا سنين وقرونا عديدة تعبث وتشوه أمجادنا وانتصاراتنا وماضينا ،لتنتقل بعد ذلك رواسبها وآثارها الى الحاضر والمستقبل . وقد رددها بعضهم كما هي دون مناقشة وتمحيص ومقارنة واخضاع لمبادىء العقل والواقع . وفي حالات متعددة دسم السّم بالدّسم وتجرعناه .

حقا ان التاريخ يدرس الامر الواقع كما حدث ،وحشر الاماني والاهواء والرغبات والاباطيل في تضاعيف الاحداث ليست من الواقع في شيء . ومنطق العواطف لايخدم القضية في كثير من الحالات .

غايتنا المساهمة في تخليص التاريخ من هذه الشوائب ،مؤمنين ببقاء العمل الصالح واخفاق ماعداه ،مرحبين بكل فكرة نزيهة وبكل جهد شريف .

محاور عديدة في الوطن العربي الكبير تسير في هذا الاتجــــــاه الان وأمنيتنا الكبرى/ في مجلة البحث التاريخي/ أن نكون علــــــى الطريق . لهذا نعمل وبهذا المنحنى نسير فان وفقنا وأصبنا الهـــدف فبتوفيق من الله عز وجل وهو حسبنا وان كانت الاخرى فما نحـــن بملوميـــــن .

حمـــص ٢٢/شعبان / ١٤١٠ هـ
الموافق١٩/آذار / ١٩٩٠ م

المدير المسؤول

محمد عبد الصمد الشاطر

صراع الوحدة والتجزئة في سورية ولبنان إبان الانتداب الفرنسي

الدكتور مسعود ضاهر
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في الجامعة اللبنانية - بيروت

في المنهج :

الاستعمار الغربي هو المسؤول عن تجزئة الوطن العربي وزرع كيانات قطرية يقودها زعماء موالون له

تلك هي المقولة التي تكاد تجمع الدراسات التاريخية العربية حولها وماتلبث أن تتمايز في داخلها على أساس تحميل الاستعمار الغربي وحده مسؤولية التجزئة في الوطن العربي ، أو تحميل السلطة والزعماء العرب معه جانبا كبيرا من تلك المسؤولية . يقول ساطع الحصري : " أما البلاد العربية ، فقد نكبت باستعمار دول أوربية عديدة : فرنسا وانكلترا في الدرجة الاولى ، وايطاليا واسبانيا في الدرجة الثانية . وهذا الاستعمار انشب مخالبه في مختلف أجزاء البلاد العربية في أزمنة مختلفة ، وفي ظروف متباينة وبأشكال متنوعة . وكانت هذه الاشكال متنوعة جدا :
من الاستعمار المباشر والسافر ، والاستعمار المقنع بقناع الحماية الرسمية ، أو الاحتلال الموقت ، الى الانتداب والوصاية المقترنة بقرارات عصبة الامم المتحدة ، وصار كل جزء من أجزاء البلاد العربية يكافح الاستعمار المسلط عليه بوسائطه الخاصة في أوقات مختلفة تبعا للفرص المتاحة له ، ضمن الشكل الاستعماري المفروض عليه ..)

لكن المسألة أكثر تعقيدا ولايسهل حلها بمجرد اتهام الاستعمار الغربي بتجزئة ماكان موحدا في ظل السلطنية العثمانية [٢] وتدل الوثائق التاريخية أن الهزائم المتلاحقة التي منيت بها السلطنة العثمانية في القرن التاسع عشر أغرت الدول الاوربية الاستعمارية على تحقيق أطماعها في السيطرة والتوسع في ظل عجز كامل للسلطنة عن حماية أراضيها والشعوب الخاضعة لها . وكان من الطبيعي أن تفتش القيادات الطبقية

العربية عن مصالحها الكثيرة بالارتباط التبعي مع الرساميل الاوربية وقواها العسكرية القادرة على حمايتها وترسيخ نفوذها ، وهذا ما يفسر الى حد بعيد ، ذلك السيل من اتفاقيات الحماية والوصاية التي منحتها بريطانيا لمشايخ البدو في الجزيرة العربية ، وما قدمته فرنسا من حماية فاعلة للوسطاء والزعماء المحليين المرتبطين بها في بلاد الشام حيث ارتبطت مصالح عدد كبير من التجار ، وزعماء البدو ، وأعيان العرب وكبار الملاكين العرب بالدول الاستعمارية الاوربية وبدؤوا مرحلة الانفكاك الكامل عن السلطنة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبلغت أوجها في الحرب العالمية الاولى(٣) فالقوى الاستعمارية على الصعيد العالمي كانت تعمل آنذاك لتوحيد السوق الرأسمالية العالمية بالقوة وتحت سيطرتها المباشرة وشكلت مقاطعات السلطنة العثمانية حقل الاختبار ، لذلك التوحيد القسري منذ حملة نابليون بونابرت على مصر • والمقاطعات الاكثر قربا من مراكز تلك الرساميل والتي سقطت تباعا في قبضتها(٤) وكان لابد أن يقود الصدام بين الدول الاستعمارية الاوربية في السلطنة العثمانية الى غلبة تلك الدول وهزيمة السلطنة لاسباب موضوعية على مستوى البنى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والادارية لكل منهما • وكان لابد أن يذهب حل المأزق التاريخي في وجهة القوى العالمية الغالبة : الامبرياليات عبر مشاريعها الالحاقية والتقسيمية على مستوى منطقة المشرق العربي(٥) لكن حل "المأزق التاريخي" في هذا المجال كان لمصلحة الامبرياليات العالمية أي باتجاه تعميق الازمة على الصعيد الوطني والقومي والتحرري للشعب العربي • وبالتالي جاء حل المأزق التاريخي حاملا معه مأزقا تاريخيا أشد شراسة مما كان عليه في السابق اذ انتقلت الجماهير العربية من حكم عثماني استبدادي مطلق الى حكم استعماري أوربي أكثر استبدادا وقدرة على النهب والتسلط وحمل معه مشاريع دويلات سلطوية ذات توجه رأسمالي واضح في مختلف أرجاء الوطن العربي•

لاشك أن الاستعمار الاوربي قد استفاد من ضعف السلطنة العثمانية الى الحد الاقصى لتحقيق مشروعه الرأسمالي الامبريالي في السيطرة على

العالم وهناك مؤشرات عدة تؤكد هذه المقولة عبر تجلياتها في الوطن العربي كالحماية والوصاية ، والامتيازات ، والقروض والاحتكارات ، والبنوك ، والشركات الاستثمارية بالاضافة الى الغزو العسكري المباشر(٦) ورغم التنافس الجدي الذي كان يصل الى حدود التصادم المسلح بين القوتين الاستعماريتين الكبيرتين ، فرنسا ، وبريطانيا ، في القرن التاسع عشر مطالع القرن العشرين فان تعاونهما على قاعدة الاتفاق السودي، بينهما لتفكيك السلطنة العثمانية وانتزاع ولاياتها تباعا كان واضحا باستمرار . كذلك تلاقت مصالحهما على دعم المشروع الصهيوني منذ عام ١٨٤٠ الرامي الى جمع شتات اليهود من العالم واسكانهم على أرض فلسطين وصولا لتحقيق شعار " أرض بدون شعب لشعب بدون أرض"(٧)

وعلى قاعدة تلاقي مصالح الامبريالية العالمية لدعم المشروع الصهيوني في اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين بات هذا المشروع الحليف الاستراتيجي الاول للامبريالية العالمية في الوطن العربي، وذلك منذ نشأته حتى الان وبخاصة في الانطلاقة المدعومة بقوة من الفرنسيين والانكليز والتي تجلت بتحول المشروع الصهيوني الى قمة مشاريع التجزئة الاستعمارية للوطن العربي لانه جاء وليد الهجمة الاستعمارية لتفتيت وحدة التراب العربي بين الشرق والغرب ومنع الوحدة المجتمعية العربية بالقوة كأحد الاهداف الاساسية التي وضعها الاستعمار الاوربي لمنع تكرار تجربة محمد علي باشا في مصر وسوريا وقد اعتبرت القوى الامبريالية العالمية أن الضمانة الاكيدة لترسيخ المشروع الصهيوني تكمن في اطلاق الفكر الطائفي والقبلي والعرقي في الوطن العربي ليتحول الى رديف وداعم حقيقي للفكر الصهيوني حيث لا آفاق مستقبلية لضمان أمن الدويلات الطائفية من الداخل والخارج .

لقد كانت مرحلة القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين كافية لتشكل قوى طبقية داخل الوطن العربي ، خاصة زعماء البدو ، وتجار المدن ، وكبار الملاكين ، وأعيان الريف وهي القوى التي ارتبطت تبعيا بالسر وبالعلن ، بالاحتكارات الرأسمالية العالمية وقدمت الضمانات الاكيدة لنجاح المشروع الصهيوني بالاضافة الى حماية المصالح الامبريالية

في الوطن العربي . وكانت نتيجة ذلك أن أكسبت المشروع الاوربي ركائز محلية لايمكن تجاهلها ابان البحث عن الجذور العميقة لولادة الدولة العربية المعاصرة ، وهذا ما أشار اليه وجيه كوثراني بقوله :" لقد درجت العادة على ربط التجزئة بالسياسة الاستعمارية هذا صحيح الى حد كبير ، ولكن مع ذلك ينبغي أن يطرح السؤال أيضا بصيغة أخرى: لما لم تكن " الوحدة " أمرا حاصلا قبل الدخول الاستعماري المباشر فانه من الضروري معرفة ماذا كانت أوضاع البلاد اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا تؤهل " للوحدة " وبناء الدولة القومية " ضمن المنظور الايديولوجي للبرنامج الذي طرحته الحركة القومية آنذاك(٩)

هذه الدراسة تأخذ منحى منهجيا مغايرا ، فمسألة الوحدة ليست مجرد احتمال واقعي له شروط نجاحه في مرحلة تاريخية محددة فحسب بل له شروط تكونه التاريخية الموضوعية وآفاق نجاحه المستقبلية أيضا بحيث تبرز القدرة الاستعمارية على منع تحقق تلك الوحدة بالقوة المسلحة مجرد حدث عابر سرعان مايزول تحت ضغط اصرار الجماهير الشعبية على تحقيق أمانيها في الوحدة والحرية والاستقلال وجلاء الجيوش الاجنبية عن أراضيها . تلك هي المقولة الاساسية التي نبني عليها هذه الدراسة أي وحدوية الجماهير الثابتة وسعيها الى تحقيق تلك الوحدوية متجاهلة القيادات المساومة أحيانا ومصححة خطاها معظم الاحيان .

التجزئة كتعبير عن مصالح الاستعمار والقوى الطبقية المتحالفة معه في الداخل :

تشير الوثائق التاريخية التي تناولت الحقبة الممتدة من انهيار السلطنة العثمانية في الحرب العالمية الاولى وفرض الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان أثر هزيمة ميسلون الى وجود مخطط استعماري انكلو- فرنسي للسيطرة على المشرق العربي ولاتختلف الا في بعض التفاصيل المتعلقة بمصير الاراضي التي شكلت متصرفية جبل لبنان سابقا وكيفية اندماجها بالوحدة السورية الخاضعة للانتداب . فبالنسبة للاستعمار ، يقول ذوقان قرقوط ، الذي كان الخوف المزمن من احتمال قيام وحدة قومية تنتظم البلاد يلازم لديه العمل على تفكيك أواصر

الامبراطورية العثمانية ، كانت هذه الفترة تجسيدا لاحلام وأهداف وخطط طال السعي وراءها في المسألة الشرقية (١٠)

لذلك لم تتحقق الوعود الكثيرة التي قطعها الاستعماريون الفرنسيون والانكليز لزعماء العرب خلال تلك المرحلة بل أمعنوا في تقسيم المشرق العربي الى دويلات طائفية ومذهبية تساعد في بلورة المشروع الصهيوني على أرض فلسطين بعد أن بدأ يشق طريقه العلني استنادا الى تصريح بلفور لعام ١٩١٧ (١١) لانكشفت الاوهام الكبيرة حول الدعم البريطاني للحركة الوحدوية العربية عن خيبة أمل مشوبة بالمرارة ورغم اعلان اتفاق لويد جورج ـ كليمنصو في ١٥ ايلول ١٩١٩ الذي قدم اضافات كثيرة ساهمت في تطبيق اتفاقيات سايكس بيكو ووضعها موضع التنفيذ فان بعض الدراسات القومية العربية لم تتخل عن فكرة الدعم البريطاني للحركة الوحدوية العربية . يقول ساطع الحصري " صحيح أن انكلترا ساعدت الثورة العربية أو ناصرتها بادىء الامر ، ولكن مناصرتها هذه كانت تجري ،طول الوقت بتردد وحذر ،فكانت تمون جيوش الثورة ـ مثلا ـ بالعتاد والذخائر ، ولكنها كانت تقتر فيها تقتيرا كبيرا فلا تعطيها من العتاد الا بقدر مايتراءى لها أنه ضروري للقيام بالحركات التي تريدها هي (١٢).

الوقائع التاريخية لاتنم عن مساعدة بريطانيا للثورة العربية بقدر ماتوضح أن تلك الثورة أدخلت منذ البداية في اطار المخطط الاستعماري الانكلو ـ فرنسي لتفتيت السلطنة العثمانية ودفعها الى الانهيار النهائي تمهيدا لاقتسام ولاياتها . فالقوى الاجتماعية التي حملت المشروع العربي النهضوي ضد العثمانيين تشكلت آساسا من بعض زعماء القبائل وكبار الملاكين وتجار المدن وأعيان الريف . وهي قوى طبقية كانت تسعى لايجاد مواقع لها في التركيبة الاقتصادية ـ الاجتماعية والسياسية الحديدة في حال انهيار السلطنة . وقدمت الدليل الملموس ، وفي أكثر من مناسبة ، على طبيعتها الطبقية كقوى مساومة للاستعمار الخارجي ولاتقف ضد مشروعه بصلابة حتى النهاية . وهذا ماعبر عنه أكثر من مؤرخ أو باحث تناول بالدراسة تلك الحقبة الغنية جدا

والمعقدة جدا في تاريخ المشرق العربي المعاصر خاصة سوريا ولبنان قبيل معركة ميسلون • لكن الخطأ المنهجي الاساسي في معظم تلك الدراسات أنها تشدد على مواقف النخب السياسية والقيادات الاقطاعية والعشائرية متجاهلة دور الجماهير الشعبية ، الصانع الحقيقي للتاريخ القومي الوحدوي • فاذا كانت القيادات السياسية آنذاك تتفاوت في جذرية مواقفها ومدى استعدادها للمساهمة مع الاستعمار الفرنسي فان الضامن الاساسي لاستمرارية الخط الوحدوي كانت المواقف الصلبة للجماهير الشعبية على امتداد المناطق والطوائف في سوريا ولبنان •

كان الموقف الذي اتخذته الحكومة السورية الموالية للانتداب بالغ الدلالة في التعبير عن المصالح الطبقية للقوى التي ساومت الفرنسيين وتعاونت معهم • وبالمقابل تجلى الموقف الوطني القومي الوحدوي المقموع في مواجهة الزحف الاستعماري الذي استطاع مرحليا أن يحول الانتصار الوحدوي لسنوات ١٩١٨ - ١٩٢٠ الى هزيمة في ميسلون كان من

نتائجها تشتت بعض القوى الوحدوية ، في حين استمرت الجماهير الشعبية ممسكة بخيارها القومي العربي الوحدوي رغم تعرضها لاقصى درجات القمع والارهاب الفرنسي •

وهذا ما أشار اليه ساطع الحصري بقوله : " كان يوم ميسلون فاصلا في تاريخ القضية العربية • أنه كان خاتمة الفصل الاول من القضية العربية وخاتمة فصولها الجديدة ففيه انحل الجيش النظامي الذي تكون خلال الثورة العربية ، وبعده تبعثر رجال الثورة ودعاة القومية ، في مختلف الاقطار ، وأخذوا يجابهون حياة كفاح جديدة شاقة ومتشعبة ، تختلف شروطها عن شروط الصفحة الاولى اختلافا جوهريا • ولذلك يحق لنا أن نقول بكل تأكيد " ان يوم ميسلون كان من أخطر الايام التي مرت على الامة العربية في تاريخها الحديث[١٣] لكن ما يؤخذ على مقولات نظرية للحصري ولكثير من المفكرين القوميين العرب الذين أرخوا لتلك المرحلة انهم اعتبروا الحركة الوحدوية من هذه النخبة وليست من صنع الجماهير الشعبية الصانعة الحقيقية للتاريخ • وهذا مايشير اليه نص

الحصري حول " تبعثر رجال الثورة ودعاة القومية في مختلف الاقطـــــار العربية " ويتأكد في نص لذوقان قرقوط يصف زعماء تلك المرحلة "كانوا (زعماء التيار الوحدوي) سجناء عواطفهم وأسرى مصالحهم الشخصيـــــة الفردية ، فتخبطوا في الجزئيات ولم تحكم سياستهم رؤية تاريخيـــة شاملة . وبالنتيجة لم يستطيعوا الارتفاع الى مستوى مسؤولية القضية القومية الكبرى فكان عليهم أن يبدأوا من جديد ، في ظل ظروف جديدة أوسع مدى ، وأعتى وأكثر تشعبا من ظروف الحكم العثماني .

معارك متعددة الجوانب في الداخل والخارج ... أهمها وحدة البلاد[١٤]

ويرفع ظافر القاسمي مقولة نخبوية الحركة القومية العربية الوحدوية الــى حدودها القصوى حين يقول" ان فكرة القومية العربية كانت فـــــي أول نشأتها ، ولم يكن يعرف عنها شيئا الا القلة القليلة من الرجــــال ، وان كانت موجودة فعلا في ضمير الشعب العربي عامة ، وفي ضمير الشعب السوري خاصة . وهذه هي وحدها التي حملت جميع الاعباء ، هي وحدهــــا التي قامت بتشييد هذا البناء . وسيكتب التاريخ أعمالها المجيــدة ، بحروف من ذهب يشع منها النور ، مابقي في الدنيا عروبة ، ومابقــي فيها عرب" (١٥)

لقد عجزت مقولات نخبوية الحركة القومية العربية الوحدوية عــــن تحليل حركة التاريخ العربي في سيرورتها المستمرة من التجزئة الى الوحدة فهذه السيرورة من صنع الجماهير الشعبية الوحدوية التي تمسكت حتـــــى النهاية بوحدويتها ولم تساوم عليها كما فعلت قيادات عربية كثيرة بدأت وحدوية وانتهت اقليمية تساوم الاستعمار وتشارك في ضرب القوى الوحدوية الشعبية ، ولايمكن فهم المأزق التاريخي لتلك المرحلة الا على قاعدة المقولة العلمية القائلة بوحدوية الجماهير العربية من جهـــــة ودور الاستعمار الخارجي في تنصيب قيادات مساومة واقليمية عليهـــا من جهة أخرى ومازال هذا المأزق دون حل في الغالبية الساحقة مـــــن الاقطار العربية نظرا لارتباط قياداتها تبعيا بالموروث الاستعماري المستمر حتى الان .

بعض خصوصيات الساحة اللبنانية :

تشكل المسألة الطائفية ركيزة أساسية لفهم ولادة دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠ ورغم أن دويلات تلك المرحلة (دمشق ، حلب ،العلويين حبل الدروز ، لبنان الكبير) ولدت حميعها بقرار استعماري فرنسي فان مايميز دولة لبنان الكبير ان زعامات طائفية مسيحية مارونية بشكل خاص ، طالبت بالحفاظ على صيغة متصرفية حبل لبنان مع تطويرها وتوسيع حدودها الجغرافية بما يضمن بقاءها واستمراريتها في الازمات الحادة خاصة وقد فقدت المتصرفية قرابة ثلث سكانها حوعا ابان الحصار البحري الذي فرضه الفرنسيون والانكليز على السواحل السورية واللبنانية بالاضافة الى الحراد والاوبئة ومظالم حمال باشا . فتجربة المتصرفية لعام ١٨٦١ ولدت بدعم أوربي مباشر مما فسح المجال أمام فرنسا وبريطانيا للتدخل المباشر في مصير السلطنة العثمانية وولاياتها العربية عبر سياسة حماية الطوائف المسيحية فيها . وهذا ما أشار اليه أدمون رباط بقوله : لقد استخدمت أوربا الطوائف غير الاسلامية في المشرق العربي ، خاصة الطوائف السورية ، لتتويج رقعة نفوذها الثقافي والاقتصادي ، ولكي تبني ، بعد الحرب ، سلطتها السياسية والعسكرية في سوريا (١٧)

وفي كتاب آخر أكثر حدة خصصه رباط لدراسة " التكوين التاريخي للبنان السياسي والحقوقي " يشير المؤلف الى أن ولادة الدولة اللبنانية لم تكن محرد حدث استعماري بحت بل نتاج تطور داخلي أيضا . فاستمرارية لبنان في ظل الانتداب الفرنسي لايمكن أن تجد تفسيرا لها الا بقوة ماضيه الذي أعطاه هوية مميزة بحيث حاءت ولادة الدولة اللبنانية تعبيرا طبيعيا وبخلاف باقي الدويلات السورية ، لم يكن لبنان الكبير صنيعة السياسة الفرنسية كما يشاع . وانشاء الدولة اللبنانية عام١٩٢٠ كان تلبية لموجبات تاريخ طويل ... لكن الجماهير الاسلامية اتخذت على الدوام ، خلال مرحلة الانتداب موقف الرفض المطلق للانتداب ، وبالمقابل اتخذت العلاقة بين المسيحيين وعلى رأسهم

الموارنة ، وبين فرنسا طابع الشكل الصوفي . ألم تأت "الام الحنون " لتحقق لهم أحلام الاجداد في بناء دولة لبنان الكبير ؟[١٨]

لكن المسألة الطائفية التي لعبت دورا هاما لصالح التغلغل الاستعماري الفرنسي بالدرجة الاولى ، في مناطق جبل لبنان ، لم تعط ثمارا يانعة عندما استخدمت في باقي المناطق السورية . وكانت النتيجة ان فشلت سياسة التجزئة الطائفية في الدويلات الاخرى في سوريا ولم تنجح في بناء دولة متماسكة داخل لبنان الكبير ، وقد تنبه كثير من المؤرخين الى هذه المقولة الهامة التي تربط بين التجزئة الاستعمارية ، وأبرز تجلياتها التجزئة الطائفية في ظل الانتداب الفرنسي ، بين القوى اللبنانية والسورية ذات المصلحة في الارتباط التبعي بالمشروع الفرنسي المعادي جذريا لمصالح الجماهير الشعبية الوحدوية في سوريا ولبنان . فقد اعتقد أنصار فرنسا وعلى رأسهم البطريرك الماروني الياس الحويك وخلفه البطريرك انطوان عريضة ، أن فرنسا شكلت استقلال لبنان وتضمنته وقد تنبه البطريرك الحويك ، في أواخر أيامه ، الى أن ذلك الاستقلال كان وهما خادعا ، فأطلت عبارته الشهيرة " فرنسا كالشمس ، تنير من بعيد وتحرق من قريب " أما خلفه البطريرك عريضه فتعرض لمضايقات كبيرة من المفوض السامي دومارتيل وهو الحامي للاحتكارات الفرنسية خاصة احتكار التبغ مما حمل البطريرك عريضة على تعميق الروابط السورية – اللبنانية وأصدر كتابه الهام " لبنان وفرنسا ١٩٣٦ والذي ضمنه أشد الانتقادات قسوة ضد الانتداب الفرنسي والسياسة الاستعمارية التي مارسها في سوريا ولبنان[١٩]

ان مراجعة دقيقة لوثائق تلك المرحلة تثبت أن دعاة الاستقلال اللبناني لم يفهموا الانتداب الفرنسي كاستعمار مباشر بل رحبوا به على أساس المعونة والمشورة تبعا لتحديد ذلك المفهوم في صك الانتداب لذلك قبلت به معظم الجمعيات اللبنانية السورية العاملة في مصر وبعض بلدان الاغتراب[٢٠] فوثائق اللجنة المركزية السورية في باريس للاعوام ١٩١٨ – ١٩١٩ ترى في تطبيق سياسة الانتداب الاهداف التالية : ضم المهاجرين السوريين واللبنانيين الى فرق جيش الطرق الفرنسي وبث

الدعاية المؤيدة لفرنسا في الاوساط السورية بأمريكا ، والعمل من أجل وحدة السوريين الموجودين في أمريكا وأوربا ومصر بغض النظر عن العرق والدين ، وتأمين الوحدة السورية وضرورة تنظيم سوريا تبعا لارادة أهلها ، أي ضمن نظام فدرالي ديمقراطي ومساعدة الصديقة فرنسا من خلال وصايتها على كامل سورية " ومن أهداف " اللجنة اللبنانية السورية في مصر " خلال تلك المرحلة تحرير سوريا والسير بها في سبيل الاستقلال تحت رعاية دولة فرنسا وبمساعدتها وبضمانتها على طريق الاستقلال الاداري لكل ولاية من الولايات السورية مع المحافظة على نوع الاستقلال الحائز عليه لبنان من قبل ، وعلى الصفة الخاصة به وعلى حقه في السعي لتحقيق أمانيه العادلة ، أما علاقات لبنان مع باقي البلاد السورية فسيوّحل أمر تقريرها لما بعد وحسب الظروف .

لدينا وثائق كثيرة حدا للجمعيات السورية واللبنانية خلال تلك المرحلة وكلها تطالب الوحدة السورية أولا ، ومنها جمعيات تدعو الى الحفاظ على امتيازات جبل لبنان أو وضعه المميز داخل الوحدة السورية وذلك بمساعدة مباشرة من فرنسا ، أو من بريطانيا أو من الولايات المتحدة الامريكية . " رابطة سوريا – جبل لبنان للتحرير " في نيويورك والتي كان من أعضائها جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحاني ، وايليا أبو ماضي ، ونسيب عريضة ، وشكري البخاش وأيوب ثابت وغيرهم ، طالبت في مذكراتها الى مؤتمر الصلح عام ١٩١٩ " بحل المسألة السورية على أساس الوحدة الفدرالية في سورية الطبيعية كلها تحت وصاية وحماية دولة واحدة كبرى ديمقراطية " . لقد تمسكت الجمعيات السورية واللبنانية في الداخل والخارج بالوحدة السورية وذلك بمعزل عن الاختلافات العرقية الطائفية في سورية ، لان الوحدة هي الركيزة التي تبنى عليها المشاريع المستقبلية لمواجهة تحديات العصر وقد عبرت اللجنة الوطنية السورية اللبنانية في البرازيل عن أهمية الوحدة السورية بشكل دقيق : تشكل سوريا وحدة حغرافية ثابتة ، ووحدة اثنية لان التباين الديني والطائفي عائق عابر سوف يتجاوزه التطور الزمني ويزيله ... ولسوريا الحق الذي لاتناقش فيه ، بالاستقلال وذلك

بسبب وحدتها الجغرافية الاثنية ... ان وحدة أجزاء سوريا تحت نفس الراية سوف تخلق قوة تكون معتبرة من جيرانها وتساهم في تحقيق علاقات حسن الجوار . هذه الوحدة سوف تنمي وتضاعف القوى الحية في البلاد وتضاعف مصادر النشاط والانتاج ، وسوف تعطي انطلاقة سريعة للتطور الوطني وتحقق الاندماج القومي .السوريون المعروفون بقابليتهم للتقدم سوف يصبحون أحد محاور الحضارة في آسيا .

أما تجزئة سوريا فسينتج عنها العكس تماما ، اذ أن كل جزء سيضعف بفقدان الدعم الناتج عن الوحدة .

أدرك السوريون واللبنانيون بعمق بالغ أهمية الوحدة الجغرافية والسكانية والاقتصادية فنادوا بها وتمسكوا بهذا الشعار حتى النهاية لكن ادارة الانتداب الفرنسي أمعنت في التجزئة الجغرافية والاثنية السياسية والمذهبية بما يضمن مصالحها ولم تحافظ على الوحدة الاقتصادية تحت ضغط الرساميل الفرنسية وكان هاجسها الاساسي في ذلك ضمان بناء المشروع الصهيوني على أرض فلسطين الذي توافقت عليه بريطانيا وفرنسا وعملتا معا على تنفيذه على أرض الواقع . ولايمكن فهم سياسة التجزئة التي مارسها الفرنسيون في سوريا الكبرى الاعلى قاعدة دعم المشروع الصهيوني وترسيخه على أرض فلسطين، وتمهيد الطريق أمام نفوذه نحو المناطق المجاورة . وهذا ما أشار اليه لونغريغ بقوله " رفض الفرنسيون اتباع سياسة التوحيد القابلة للتطبيق بسهولة والمرغوبة شعبيا وفضلوا سياسة التقسيم لانهم استندوا الى اعتبارات مغايرة تماما ... ولم يكن ثمة ضرورة قاهرة تستدعي عام ١٩٢٠ خلق دويلات صغيرة وضعيفة وغير قادرة على البقاء ، دويلات ينبغي لها دائما أن تستند الى الدولة المنتدبة لتحفظ وجودها ، الى جانب أن كلا منها يضم اقلية واسعة متذمرة لانها حرمت من الوحدة مع سوريا (٢١)

يتضح من ذلك أهداف السياسة الفرنسية في تجزئة سوريا ولبنان الى دويلات طائفية ومذهبية كانت تتعارض جذريا مع أماني السوريين واللبنانيين في الوحدة والاستقلال وقد عجزت القيادات المحلية في

الدويلات السورية عن الاحتفاظ بالتجزئة التي أقامها الفرنسيون عام ١٩٢٠ وصولا الى تبلورها في كيانات سياسية مستقلة وذلك تحت ضغط جماهيرها الوحدوية بالدرجة الاولى والانتفاضات الشعبية التي لم تهدأ طيلة مرحلة الانتداب . بالمقابل كان القيادات اللبنانية الوحدوية تعطف تباعا وراء دولة لبنان الكبير ، وذلك بهدف تأمين مصالحها الذاتية الطبيعية بالدرجة الاولى تاركة أمر تحقيق " الوحدة السورية " التي نادت بها الى المستقبل " وتبعا للظروف " .

الجماهير الوحدوية تفرض الوحدة السورية :

لعل المقولة الاساسية التي تفسر ، الى حد بعيد ، صراع الوحدة والتجزئة في سوريا ولبنان ابان مرحلة الانتداب الفرنسي هي التالية : جماهير وحدوية في مواجهة السياسة الاستعمارية الفرنسية ،وقيادات محلية ذات طبيعة طبقية مساوية . وقد ترتبت على هذه المقولة مواقف عملية أبرزها أن بعض القيادات المحلية كانت قادرة على المساومة مع الفرنسيين في فترات ضعف الجماهير الوحدوية وتعرضها للقمع والارهاب في حين تصبح المساومة معهم أكثر صعوبة أبان الانتفاضات الشعبية ولما كونت تلك الانتفاضات ، العسكرية منها والسلمية على السواء ، تشكل السمة البارزة لهذه المرحلة وتخترقها من البداية ، أي معركة ميسلون ، حتى النهاية ، أي معركة الجلاء بعد قصف دمشق بالمدفعية والطائرات الفرنسية ، فان القيادات المحلية السورية بقيت في الغالب ترفع باستمرار لواء الوحدة السورية الى جانب الشعارات الاخرى كالاستقلال والجلاء والسيادة الوطنية .

فسياسة التجزئة الاستعمارية التي فرضتها فرنسا بالقوة المسلحة كانت عاجزة عن اخضاع السوريين واجبارهم على القبول بها لانها تجاهلت الحقائق التاريخية للشعب السوري وتركيبته الحضارية الواحدة وسعيه الدؤوب من أجل نهضته الوطنية والقومية العربية . فالوحدة هي الاساس أما التجزئة فعمل استعماري بحت . وهذا ما أشار اليه يوسف الحكيم بقوله : " كان السوريون في بدء العهد الفيصلي ، الذي عقب

الحلاء التركي يرفعون عالي أصواتهم مطالبين بالوحدة العربية الشاملة شبه الجزيرة العربية. ثم رأوا عدم توفر مقتضيات هذه الوحدة والحصول عليها آنئذ ، فاكتفوا بطلب وحدة سوريا بمناطقها الثلاث : الشرقية والغربية والجنوبية ، وكما غلبوا على أمرهم ، بعد معركة ميسلون ودخول الجيش الفرنسي المنطقة الشرقية ، اكتفوا بتمني الوحدة في هذه المنطقة ولواءي اللاذقية واسكندرونة باعتبارهما من جملة أجزاء سوريا ولكن التجزئة خيبت آمالهم ، فازداد معظمهم نقمة على الانتداب " (٢٢)

ولايختلف هذا الموقف مع توجهات الملك فيصل الاول الذي القى خطابه الشهير في ٥ أيار ١٩١٩ في مبنى بلدية دمشق أمام جمهور غفير من أعيان البلاد وزعمائها الذين وفدوا الى العاصمة السورية من مختلف المناطق السورية واللبنانية ، قال فيصل في خطابه : " البلاد العربية لايمكن تجزئتها ... وبما أن بين سكان البلاد العربية اختلافات في طبقات العلم والتعليم ليس الا ، فالظروف ليست كافية لتجعلهم أمة واحدة وحكومة واحدة . لذلك رأيت الدفاع كما يلي : ان سوريا والحجاز والعراق قطعات عربية ، وكل قطعة فيها يطلب أهلها الاستقلال . وقلت ان نجدا والبلاد المساوية للحجاز من الاقطار العربية هي تابعة للحجاز ليس الا ، وهذه يرأسها والدي . أما سوريا فيجب أن تكون مستقلة وكذلك العراق يريد استقلاله .. دافعت عن سوريا بحدودها الطبيعية وقلت أن السوريين يطلبون استقلال بلادهم الطبيعية ولايريدون أن يشاركهم فيها شريك(٢٣)

هكذا تتجلى القيادة المساومة في أجلى مظاهرها . ولاينسى فيصل في مذكراته أن يشير الى اذعان الامم الغربية له واعطاء السوريين مايطلبون . لكن زين نورالدين زين ينقل نصا معبرا للمؤرخ الانكليزي تامبرلي يوضح فيه أسباب سقوط فيصل فيقول : " لقد سقطت الدولة (دولة الملك فيصل) السورية المستقلة ، دولة خلقتها بريطانيا العظمى وتعهدت برعايتها وفاء للعهود والمواثيق التي قطعتها على نفسها للعرب ، أو وفاء لبعض وعودها . لقد سقطت دولة سوريا لان قيامها

كان يتعارض معارضة مباشرة مع أماني فرنسا ومطامحها ، كما أنها سقطت في فترة من الظروف حالت دون النفوذ البريطاني من أن يتمكن من المحافظة عليها ... وأخيرا سقطت لان قوتها العسكرية لم تكن من القوة الكافية لضمان بقائها (٢٤)

والاصح أن الاتفاقيات السرية بين الفرنسيين والانكليز بدأت تتكشف مع نهاية الحرب العالمية الاولى .

وفي مواجهة هذه الاتفاقيات كانت الجماهير الشعبية تزداد تمسكا بوحدة البلاد السورية كنواة للوحدة العربية الشاملة ، في حين كانت معظم القيادات العربية تساوم على موقع لها في التركيبة الجديدة تحت ستار اعتماد الواقعية ورفض شعار" كل شيء أو لاشيء " وقد عبر محمد جميل بيهم عن تلك الاهواء بقوله : " كان السوريون والعراقيون وغيرهم من العرب الذين حارب أبناؤهم الاتراك في صفوف الشريف حسين أمير مكة ، كانوا يهللون ويكبرون فرحا بانتصار الحلفاء.. وقد عقدوا على الامير فيصل بن الحسين كبار الامال في تحقيق الوعود والعهود التي قطعها لهم حلفاؤهم خلال تلك الحرب ، وهم لايعرفون شيئا عن اتفاقاتهم السرية ، ولايعلمون ماوعد به بلفور الصهيونية العالمية ثم لما سمعوا بالانتدابات من بعد بدأت الشكوك تساورهم وأخذوا يرفضون كل انتداب ويطالبون بالاستقلال الناجز(٢٥)

هذا النص شديد الالتباس ويخفي المواقف المساومة للكثير من القيادات السورية واللبنانية مع الفرنسيين والانكليز . فقد اطلع فيصل على أبعاد المشروع الصهيوني على قاعدة وعد بلفور ، ومع ذلك أقدم على توقيع اتفاقيته الشهيرة المعروفة باسم اتفاقية فيصل - وايزمن التي يعترف فيها عمليا بوضع وعد بلفور موضع التنفيذ كما أنه قام بتوقيع اتفاقية مع فرنسا قبيل معركة ميسلون شكلت تحديا سافرا للتيار الوحدوي في سوريا ولبنان ، وقد وصف المؤرخ السوفياتي فلاديميرلوتسكي ردود الفعل الشعبي قائلا : "أثارت اتفاقية فيصل مع فرنسا التي وقعت بالاحرف الاولى في كانون الثاني ١٩٢٠ موجة جديدة من الغضب في البلاد وأدت الى انقسام الحزب العربي الفتي،واجتاحت

التظاهرات المعارضة لهذه الاتفاقية مدن سوريا كلها ، واتهم فيصل علانية بخيانة المصالح الوطنية " وبعد شرح التدابير العملية التي قام بها لاضعاف التيار الوحدوي وابعاد رموزه الاساسية عن السلطة يصف لوتسكي موقف فيصل بقوله : " استخدم أقصى درجات الديماغوجية فبينما كان يمارس في الواقع سياسة التواطؤ مع الامبريالية ،ويقمع نضال الثوار ، ويسمح للقوات الفرنسية بعبور أراضيه في طريقها الى تركيا لضرب حركة التحرير الوطني فيها كان يتشدق بالحديث عن استقلال سوريا الوطني ، وكان يلقي الخطب الحماسية في الاندية العربية ،ويؤكد أنه لم ولن يوقع آية اتفاقية تلحق الضرر بـ" القضية العربية "(٢٦)

تلك القيادات المساومة نجد لها نماذج مشابهة ابان الثورة السورية الكبرى لعام ١٩٢٥ وخلال المرحلة اللاحقة بكاملها. فيوسف الحكيم يروي في مذكراته عن العهد الفيصلي مايلي : " كانت شرائح من البورجوازية السورية تفضل الانتداب الفرنسي على الانتداب البريطاني ، بل على الاستقلال التام الناجز .. ولكنهم لم يجرؤوا على الجهر بآرائهم هذه الا بعد دخول الجيش الفرنسي دمشق(٢٧)

وأحد زعماء الثورة السورية الكبرى الدكتور عبدالرحمن الشهبندر، يروي في مذكراته عن تلك الثورة : " ان السبب الجوهري في فشل ثورة حماة فشلا سريعا هو احجام الزعماء الاعيان الذين تآمروا على تنفيذها فلما ظهرت الى حيز الوجود اختبأوا في بيوتهم ليروا مايكون من أمرها ، فان نجحت فهم المؤسسون لها وأصحاب الشأن فيها وان فشلت فهم عنها معرضون ويضيف : " الاعتماد على البدو كان في غير محله الا اذا كان الغرض من الاستعانة بهم قدح الزناد لان تجارب هذه الثورة دلتنا بصورة عملية أن البدو لايصلحون للحروب الدولية الثابتة التي تتطلب صبرا بل هم أصلح مايكون للهبات المؤقتة والايهامات (٢٨).

ويهاجم ذوقان قرقوط موقف الكتلة الوطنية السورية عام١٩٣٦ من مسألة الاقضية الاربعة والمدن الساحلية التي ضمت الى لبنان عام ١٩٢٠ وذلك بسبب دخولها في مساومة مكشوفة مع فرنسا لتوقيع اتفاقية

بحدودها الطبيعية ونصت المادة الثانية من القانون الاساسي للمملكة السورية على أنها تتألف من قطاعات ذات وحدة سياسية لاتقبل التجزئة (٣١)

في الواقع ، لم يخل بيان سياسي أو مطلبي في سوريا خلال تلك المرحلة من اشارة واضحة الى مطلب الوحدة السورية ورفض التجزئة والانتداب الفرنسي والعمل على الغاء كل تدابيره • وكانت المقاومة الوطنية للانتداب الفرنسي تتدرج من الاحتجاج السلمي والمواقف السياسية في المحافل الدولية والمقالات في الصحف خارج البلاد وداخلها ،والعرائض الشعبية ، وبرقيات الاحتجاج والوفود والاجتماعات السرية والعلنية ، الى التظاهرات الشعبية والهبات المسلحة ، والاغتيالات والثورات" هكذا لم يثن تقسيم سوريا الى دويلات صغيرة ،أهاليها عن مقاومة الانتداب الفرنسي ، كما لم يبعدهم عن التعاطف مع البلدان العربية في قضاياها والمشاركة فيها • وعلى ذلك وبعد أن تبين غوروفشل سياسة التجزئة واصرار البلاد على وحدتها قرر انشاء اتحاد بين الدول السورية الثلاث دولة حلب ، ودولة دمشق ، وأراضي العلويين المستقلة (٣٢)

يوسف الحكيم يشير الى الحدث نفسه بقوله : " لقد رأى كل مفكر من السوريين أن الاتحاد السوري لعام ١٩٢٢ هو بداية الوحدة السورية على أساس اللامركزية المتضمنة توسيع صلاحيات الولايات أو المحافظات حسبما تتطلبه حاجتها (٣٣) لكن الفارق بينهمانوعي يرتبط بالمنهج • فالجماهير الشعبية هي التي أجبرت غوروعلى اعادة توحيد تلك الدويلات في حين أهملها تماما نص يوسف الحكيم مع اشارة الى رجال الفكر من السوريين • وفي اشارات قرقوط توكيد لذلك المنهج حيث يقول: " كان الناس يقابلون الجنرال ويغان أثناء تطوافه بالبلاد مطالبين بالوحدة وباعادة الاقضية الاربعة أو بضم لبنان باتحاد مع سوريا (٣٤) ويؤكد عبد الرحمن الكيالي ان مطالب الامة السورية التي رفعتهاللمفوض السامي الجنرال ساراي نصت أولا على الوحدة التامة الطبيعية للبلاد بما فيها أراضي العلويين وجبل الدروز ولواء اسكندرونة ، مع البقاع والاقضية الاربعة التي الحقت بلبنان الصغير رغم ارادة أهلها ونص البند

للصداقة والتعاون تمهد الطريق لالغاء عهد الانتداب ، وكانت النتيجة ان بقيت الاتفاقية حبرا على ورق ولم يوقعها البرلمان الفرنسي ، مما حدا بقرقوط الى ابراز تلك المساومة بقوله : " فجأة بعد عام ١٩٣٦ أي بعد توقيع مشروع المعاهدة السورية الفرنسية واستلام الكتلة الوطنية الحكم من بابه الى محرابه ، اطبق الصمت من الناحية الرسمية على مسألة " وحدة أراضي الساحل والداخل "(٢٩)

وقد أثر ذلك الموقف بشكل مباشر على عمل التيار الوحدوي في لبنان الذي رفع باستمرار الشعار التالي : " تحقيق وحدة البلاد السورية العامة ووضع مادة خاصة في صلب الدستور السوري تنص على أن سوريا هي دولة واحدة لاتتجزأ مستقلة وذات سيادة (٣٠)

قد تطول الاستشهادات كثيرا في هذا المجال وكلها تؤكد أن تحليل مواقف القيادات السياسية في سوريا ولبنان يقتضي بالضرورة رؤية المصالح الطبقية لهذه القيادات والتي كانت تتحكم في مواقفها وتدفعها باتجاه المساومة والتصالح مع الاستعمار الفرنسي وبدون هذا البعد الاجتماعي الطبقي لايمكن فهم تلك المواقف المبدلة باستمرار بحيث من السهل رؤية بعض الزعامات في صفوف الانتفاضات الشعبية وفي قياداتها أحيانا ، في مرحلة عصيبة ورؤيتهم في صفوف القوى الموالية للانتداب في مرحلة أخرى لان سهولة الانتقال كانت أمرا يسيرا بسبب ضعف الرقابة الشعبية وقواها المنظمة على مواقف تلك القيادات بالمقابل لايتسع المجال لذكر المواقف الوحدوية للجماهير الشعبية وهي المقولة الاكثر ثباتا خلال مرحلة الانتداب لان الوحدة على مختلف الصعد هي الضامن الاساسي لنضالات تلك الجماهير ولاخيار لها الا بالوحدة ، ولاقدرة لها على المساومة والتصالح مع الاستعمار الفرنسي وهذا ما أشار اليه ذوقان قرقوط بقوله : " فمنذ البداية لم تعترف البلاد (السورية) بالتجزئة ولابالاتفاقات السرية التي ترتبت عليها هذه التجزئة ،ويضيف : " كان بيان الوزارة الاولى بعد المناداة بفيصل ملكا ، يقوم على المحافظة على الاستقلال التام ضمن الوحدة السورية ٠ وكان البند الاساسي في بيان وزارة هاشم الاتاسي أمام المؤتمر هو مطلب وحدة سوريا

التاسع على الغاء السياسة الطائفية على الاطلاق (٣٥)

وفي نداء الثورة السورية الكبرى في ٢٣ آب ١٩٢٥ جاء في المطلب الاول وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها ، والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة مستقلة استقلالا تاما (٣٦) وعلى جماهيرية هذه الثورة يقول ظافر القاسمي " الثورة السورية الكبرى هي ثورة عربية سورية .. وأما المحاربون فيها ، فكان بينهم المحامي والطبيب والعالم والاديب ، والشاعر والكاتب كما وجد أصحاب الحرف وصغار الباعة ، والمعتاشون بالكفاف وكما نال شرف الجهاد طبقة الاثرياء (البورجوازية على حد تعبير اليوم) وأدهش من هذا كله أن بعض المحاربين كان من الطلاب الذين يستكملون دراستهم في أوربا . لقد قطع بعضهم دراسته وعاد فورا الى مناطق الثورة ليحمل السلاح منهم الشهيد الدكتور عادل نكد الذي لم يكتب للبلاد أن تفيد شيئا من علمه وثقافته ، الا أنها جنت أعظم الثمرات من بطولته واستشهاده على أبواب دمشق (٣٧)

لكن عبد الرحمن الشهبندر كان شديد الوضوح في اتهامه لمواقف البورجوازية السورية بالمساومة مع الفرنسيين وخيانة الثورة ، وعدم الاعتماد على هبات البدو ، في حين امتدح مواقف الابطال الشعبيين ويقول : " عندي أن سيرة حسن الخراط ومن حذا حذوه من المجاهدين العصاميين من أفراد الطبقة الشعبية العامة تبرز أن الثورة تقدم الفرصة السانحة لبلورة صفات يمتازون بها ، وأنوار يتلألؤن بأشعتها (٣٨)

وكان لمواقف القيادات الشعبية صدى ايجابي في كافة ارجاء سوريا بحيث شلت يد الفرنسيين عن الحركة خاصة لجهة استخدام الورقة الطائفية من جهة ، وغزوات البدو من جهة أخرى . يقول الشهبندر : " ان الاحياء المسيحية التي تخلى عنها الفرنسيون في دمشق قد سلمت من النهب بفضل زعماء المسلمين ويجب أن تسلم فرنسا بأن سوريا اليوم هي غير سوريا المعروفة بتعود منازعاتها الدينية وأن الوطنية السورية حلت محل الطائفية وقامت تطالب بحقها المهضوم (٣٩) ويضيف : " حرم البدو على أنفسهم الغارة على البادية تلك السنة خشية أن يصادفوا فيها المجاهدين أو أن يسلبوهم حلالهم . ان جماهيرية التيار الوحدوي هي

الاساس في فهم حركة الصراع ضد الاستعمار الفرنسي وافشال مشاريع التجزئة وضمان الوحدة السورية • ولم تجرؤ القيادات المحلية رغم استعدادها الدائم للمساومة على خيانة مسألة الوحدة أو التنكر لها • ولم تتورع عن اتخاذ مواقف صدامية مع الانتداب بسبب الضغط المستمر الذي تمارسه الجماهير الوحدوية عليها ، ويشير نجيب الارمنازي في هذا المجال: "لم يكد يجتمع مجلس حلب عام ١٩٢٦ حتى كان أول قرار أصدره المطالبة بالوحدة السورية • فصدر الامر بحله ولم يجتمع مرة أخرى(٤٠) عند اعلان الدستور السوري رفض المجلس عام ١٩٢٨ تضمنه أي نص يعطي صلاحيات مطلقة للمفوض السامي فأوقف العمل به وحل المجلس • لكن المسألة أعمق من ذلك بكثير لانها تعارض جذور مصالح الانتداب الفرنسي وتنفسك بالوحدة السورية ، فقد نصت المادة الثانية من ذلك الدستور على مايلي: " ان البلاد السورية المنفصلة عن الدولة العثمانية وحدة سياسية لاتتجزأ ولاعبرة بكل تجزئة طرأت عليها منذ نهاية الحرب العامة (العالمية الاولى)وفي عام ١٩٣٣ رفض الوحدويون السوريون الاتفاقية المقترحة بين سوريا وفرنسا لانها تبقي على تجزئة سوريا [٤١] وشددت مؤتمرات ١٩٣٦ على ضرورة وضع نص في صلب المعاهدة الفرنسية ـ السورية يضمن وحدة الاراضي السورية وكانت نتيجة ذلك الاصرار ان انتصرت ارادة الشعب السورى في الوحدة والاستقلال والسيادة الوطنية وجلاء الجيوش الفرنسية عن الاراضي السورية واللبنانية ، لكن تلك الوحدة بقيت منقوصة بعد اقتطاع لواء الاسكندرون منها ، وبقاء الوحدة السورية ـ اللبنانية ملتبسة وغير محددة بنصوص •

بعض الاستنتاجات :

عندما لجأ الاستعمار الفرنسي الى التجزئة ليمنع حركة التوحيد القومي العربي من التبلور في مشروع سياسي متكامل في المشرق العربي كخطوة أولى على طريق المشروع الوحدوى العربي الشامل كان يضع في رأس أهدافه أن التجزئة هي السلاح الاكثر تهديما للمشروع الوحدوي • لذلك لم يكتف بالتجزئة الطائفية بل تعداها الى التجزئة المذهبية كما

تجاوز الانقسامات القبلية الى العشائرية والعائلية والمناطق وغيرها ، وقام بالتنسيق الكامل مع الاستعمار البريطاني لاطلاق المشروع الصهيوني وزرع كيان استيطاني عنصري يفصل مشرق العرب عن مغربهم ويرتبط وثيقا بمراكز الرساميل العالمية ويضع قواه العسكرية في خدمتها لقمع حركات التحرر في آسيا وأفريقيا .

بالمقابل لم تكن القيادات الوحدوية العربية قادرة على صياغة مشروع متكامل يفجر طاقات الجماهير الشعبية ويؤطرها ضد الانتدابين الفرنسي والانكليزي . وكانت بعض القيادات الوحدوية على علاقة تبعية وثيقة بالفرنسيين أو بالانكليز على أمل الاستناد الى أحدهما لضرب الاخر ، فتكررت بذلك تجربة محمد علي باشا التي انتهت بسقوط مصر في قبضة الاستعمار البريطاني وضياع الغالبية الساحقة من ايجابيات تلك المرحلة .

لكن مايميز مرحلة الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان على مرحلة محمد علي باشا أن تغييرا نوعيا قد تم على المستوى العالمي تجسد بانتصار النظام الاشتراكي في روسيا القيصرية واقامة الاتحاد السوفياتي ومع ذلك لم تسعَ القوى الوحدوية العربية للاستفادة من هذا التغيير النوعي الا في الحدود الدنيا حتى الآن ، معظم قياداتها الفاعلة كانت تتحاشى اقامة صلات مع الاتحاد السوفييتي وتفضل ابقاء الصراع في اطار الفرنسيين والانكليز كما أن بعض القيادات الوطنية والقومية لم تخفِ عداءها الشديد للافكار الاشتراكية في حين ارتبط بعضها في الثلاثينات بالحركات الفاشية والنازية الوافدة من ايطاليا والمانيا واسبانيا .

يضاف الى ذلك أن معظم القيادات الوحدوية العربية كانت تشدد على الوحدة الشكلية وتعمل على تغييب المضمون الاقتصادي والاجتماعي لهنا ، وبالمقابل تمسكت الجماهير الشعبية عبر تنظيماتها المهنية والنقابية والسياسية التي كانت في مرحلتها الجنينية بالمشروع الوحدوي لكنها عجزت عن بلورة مشروعها الوحدوي أيضا بما يضمن له التفافا وطنيا وقوميا يستطيع معه التصدي لمشروع التجزئة والانفصال ونتيجة لغياب المشروع الوحدوي الجذري والفاعل كانت الجماهير الشعبية تقوم بانتفاضاتها واضراباتها بشكل متقطع ودون تنسيق جدي في معظم الاحيان ولم تهدأ

الساحة الوطنية في سوريا ولبنان طيلة مرحلة الانتداب وعبرت عن نفسها بأشكال متفاوتة من الاحتجاج السلمي والمسلح معا (٤٢) ان قراءة عملية لوثائق تلك المرحلة توضح أن التجزئة كفعل استعماري لاقت صدى ايجابيا في نفوس قيادات طبقية في سوريا ولبنان تسعى الى السلطة والتحكم • وقد وجدت في الانتداب وعساكره دعما كبيرا في مشروعها السلطوي المحلي الذي تحول بعد الاستقلال السياسي الى دولة قطرية لها كل مظاهر الدول الكبرى من علم ، ودستور ، وبرلمان وجيش وجمارك وادارة ، ونقد وغيرها • دلالة ذلك أن الانتداب بشقيه الفرنسي والانكليزي ، لم يحرث في الفراغ بل في أرض بكر وأعطى زرعه ، أي التجزئة ثمارا يانعة مازالت مستمرة حتى الان ، وهي تتجذر أكثر فأكثر على قاعدة ماانتشته من مصالح طبقية ضيقة للقيادات المحلية على اختلاف انتماءاتها وطوائفها ومناطقها •

مع ذلك ، ورغم هذه الشبكة الواسعة من العلاقات الطبقية التي تزامن صعودها مع قيام دول التجزئة في الوطن العربي فان القراءة الكونية لتاريخ هذه الدول لاتقدم فهما عميقا لحركية التاريخ العربي بل تلغي العلم التاريخي بتلك الحركية •

فالتناقض الاساسي الذي نتج عن مشاريع التجزئة الاستعمارية قام منذ البداية بين الجماهير الشعبية العربية الوحدوية من جهة ،والاستعمار والقوى الداخلية المتعاونة معه من جهة أخرى ، ومع بروز التناقض المرحلي بين مصالح الاستعمار الانكلو ـ فرنسي والقيادات المحلية الساعية الى التفرد بالسلطة والنفوذ في دولها القطرية لعبت تلك القيادات دورا ايجابيا تحسد بوقوفها العلني أو الشكلي ضد الاستعمار الخارجي وقادت مرحلة الاستقلال السياسي بصلابة في سورية أكثر منها في لبنان وأدت الى رحيل العساكر الانكلو فرنسية عن سورية ولبنان وسائر أرجاء المشرق العربي ولم تكن معارك الاستقلال السياسي متشابهة في هذه الاقطار ، لامن حيث البرامج ولامن حيث القوى الاجتماعية التي حملتها • وسرعان ماتكشف الاستقلال السياسي في معظم أقطار المشرق العربي عن استمرارية معلنة للموروث الاستعماري نفسه دون تغيير

جذري . فالتناقض الذي برز مرحليا ابان معركة الاستقلال في بعض الاقطار العربية المشرقية كان من النوع الذي يمكن تجاوزه والعودة الى سياسة المساومة الطبقية والتبعية شبه الكاملة للاستعمار الغربي أو الاستعمار الحديد بالمقابل ، التناقض القائم بين الجماهير الوحدوية العربية مع الاستعمار الجديد ومراكز السيطرة المالية والاقتصادية والعسكرية كان من النوع الذي لايمكن حله بالمساومة وهو صراع مستمر يسعى فيه الاستعمار الخارجي الى تجويع الشعب العربي وسلبه حرياته الاساسية وحقه في الاستقلال والسيادة الوطنية والقومية ، وتسعى فيه الجماهير العربية الى تحررها الكامل وضرب كل موروثات التجزئة الاستعمارية وعلى رأسها اسرائيل ، وتجاوز الدول القطرية الى دولة الوحدة العربية الديمقراطية العلمانية .

بقي أن نشير في الختام الى أن صراع الوحدة والتجزئة في سوريا ولبنان ابان الانتداب الفرنسي يشكل بداية مرحلة نوعية في تاريخ العرب الحديث والمعاصر وتختلف جذريا عن المرحلة العثمانية السابقة في الكثير من سماتها ومضامينها وتوجيهاتها المستقبلية . فالوحدة الجغرافية التي سادت في الولايات العربية وظللتها السلطنة العثمانية طيلة عدة عقود قد اختفت لتحل مكانها دول قطرية ذات شرعية محلية واقليمية ودولية معترف بها وتسعى الى استنباط تاريخ قطري لها موغل في القدم .

أما الشعارات القومية العاطفية التي سادت في مرحلة مابين الحربين العالميتين ومازالت بصماتها واضحة في الفكر القومي العربي المعاصر فلم تعد قادرة على الفعل الجماهيري الوحدوي الذي حوصر بالحدود الاقليمية والتدابير القمعية التي تشكل الجامع المشترك الاكثر فاعلية بين الاقطار العربية على اختلاف انتماءاتها السياسية والعقائدية وبدا للقيادات القطرية أن تسييج الحدود بعناية فائقة ، وبعين ساهرة يمكن أن تحمي الانظمة القطرية أطول فترة ممكنة ، لكن من الواضح الان أن كيانات التجزئة تعاني أزمات حادة معها عاجزة عن تحقيق الشعارات التي نادت بها أي تحرير الاراضي العربية المحتلة وتحرير

الثروات العربية من النهب الامبريالي المستمر ، وتحرير الارادة العربية من الاستلاب ، وكما لعبت الجماهير الشعبية ، الواعية والمنظمة ،الدور الاساسي في معركة الاستقلال الوطني وجلاء الجيوش الفرنسية عن سوريا ولبنان ، فهي مدعوة الان وفي جميع الاقطار العربية للدفاع عن مصيرها وحقها في الوجود كجماهير حرة في وطن عربي حر . وهي تدرك جيدا أن دول التجزئة القطرية ليست الحل بعد أن تحولت الى عبء اضافي يرهق كاهل الجماهير الشعبية على مختلف الصعد .

أما دولة الوحدة القومية الديمقراطية العلمانية العربية فهي صمام الامان لدخول الشعب العربي في مواجهة تحديات العصر الراهن متجاوزا بذلك كل معيقات التجزئة العائلية ، والعشائرية ،والمناطقية والطائفية ، والمذهبية .

أما الايجابيات الكبيرة التي قادت اليها معركة الجلاء والسيادة الوطنية في مواجهة عساكر الانتداب الفرنسي في الثلاثينات والاربعينات والتي أعطت الدولة القطرية شرعيتها في نظر الجماهير الشعبية لسنوات طويلة . تلك الايجابيات فقدت الكثير من وهجها بعد أن وظفتها الدولة القطرية لمصلحة قواها الطبقية المسيطرة منذ الاستقلال حتى الآن . وفي حين ناضلت الجماهير العربية في سبيل الوحدة والحرية والتغيير الاجتماعي الجذري فان مأزق الدولة القطرية في المرحلة الراهنة يعكس مزيدا من القمع والتسلط والافقار ، والتجهيل ، والعجز عن مواجهة التحديات القومية الكبرى التي لايمكن حلها الا بالدولة القومية الوحدوية ذات المضمون الديمقراطي العلماني ، وعلى قاعدة التنمية الشاملة بأفق اشتراكي علمي ينتفي معه استغلال الانسان للانسان .

* الحواشـــــي *

هناك وثائق ومصادر كثيرة تناولت التطور التاريخي لهذه المرحلة وقد استفدنا منها في دراساتنا السابقة واثبتناها في كتابنا .
" تاريخ لبنان الاجتماعي ١٩١٤ – ١٩٢٦ " – الطبعة الثانية – بيروت ١٩٨٤ .
وسنكتفي في هذه الدراسة بالاشارة فقط الى بعض تلك المصادر خاصة تلك التي اقتبسنا منها استشهادات للمناقشة .

١ – ساطع الحصري " الاقليمية ،جذورها وبذورها " مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨٥ ص ١٢ –

٢ – يرى ادمون رباط أن التجزئة كانت موجودة في العهد العثماني وجاء الانتداب الفرنسي ليبني على ركائزها " ان موروثات العهد العثماني خاصة نظام الطوائف والنظام الاداري القديم كانت تثقل كاهل سوريا وتعيق حركتها باتجاه المستقبل فهناك حوالي ثلاثون طائفة متمايزة بعضها عن البعض الاخر ويعتبر مجموعها تكوينا " للامة السورية " . انما ، وبالمعنى السوسيولوجي للكلمة هذا المفهوم غير صحيح ... فالسمات الاساسية للامة ووحدة مؤسساتها لم تكن موجودة في سوريا اذ لكل طائفة حياتها الداخلية أو الروحية الخاصة بها وتتجلى في اختلاف شرائعها ونشاطها ...ولهذه التعددية الطوائفية عواقب وخيمة كانعدام الوحدة النفسية في البلاد والتي ينعدم معها وجود الامة السورية نفسها ،فالتركيبة الاجتماعية لسوريا المعاصرة (١٩٢٨) هي تركيبة طائفية واضحة .. لذلك كان الشعور القومي العربي الشعور الوحيد القادر على جمع السوريين وتوجيههم في هدف مشترك ، واعادة بعث تراثهم القديم وذلك بانتظار أن يؤدي تطور الاحداث والوقائع الى صهر السوريين في بوتقة واحدة "

٣ – وجيه علم الدين " العهود المتعلقة بالوطن العربي ١٩٠٨–١٩٢٢" بيروت ١٩٦٥ .

٤ – حول هذه النقطة تراجع المصادر الهامة التالية :
– بدر الدين السباعي "أضواء على الرسمال الاجنبي في سوريــــا ١٨٥٠ – ١٩٥٠ دمشق ١٩٦٧
– برهان الدجاني، شفيق الاخرس ،عامر الشريف " المصالح الامبريالية الاجنبية في الوطن العربي – بيروت
٥ – وجيه كوثراني " بلاد الشام :السكان ، الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين ، قراءة في الوثائق ، معهد الانماء العربي بيروت ١٩٨٠ ص ٢٤٠ .
٦ – حول هذه النقطة تراجع الدراسة الهامة حول حرب الاستعمار علـــى محمد علي والنهضة العربية .
٧ – في ٦ تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٤٠ يكتب المبعوث الفرنسي الخــاص الى جبل لبنان السيد دوبارتو الى رئيس وزراء فرنسا ووزيــــر خارجيتها السيد غيزو يقول : لبريطانيا مشروع آخر(يقصد غيـر المشروع الفرنسي) طالما أشرت اليه منذ زمن بعيد وأفشى سره عملاء الانكليز في الوقت الحاضر . هذا المشروع يومي الى اقامة دولـــة اسرائيل ... العمل نشيط لجمع لامعلومات حول أوضاع اليهــــود في فلسطين والبحث بامكانية جمع يهود أوربافيها . وهناك سعـي بريطاني لاختراق حبل لبنان ، والجبل هو سوريا ، اذ لاتستطيــع آية سلطة أن تستقر على السواحل اذا كانت في حالة حرب مـــع الجبليين ... وهناك سعي بريطاني لفتح أبواب فلسطين أمــــام ثلاثة ملايين اسرائيلي منتشرين في أوريا ... تلك هي الاساليب التي تتوسلها بريطانيا لاقامة نفوذها على حساب نفوذنا فـــي هذه المنطقة ..
٨ – تراجع مقالنا" جدلية العلاقة بين فكر التجزئة والفكر الصهيونـــي في المشرق العربي الحديث " المنشورة في محلة الوحدة السنةالثالثة العدد ٢٩ – ٣٠ الصادر في شباط – آذار ١٩٨٧ صفحات ٩٠ – ٩٧ .
٩ – كوثراني"بلادالشام " ص ٢٤١ – ٢٤٢
١٠– ذوقان قرقوط " المشرق العربي في مواجهة الاستعمار،قراءة فـــي تاريخ سوريا المعاصر القاهرة ١٩٧٨.

١١- يعبر ريمون أوزوكس أفضل تعبير عن وجهة نظر الفرنسيين التي تشدد على سيئات العهد العثماني تمهيدا لاظهار محاسن الادارة الفرنسية . ويرى مقدم الكتاب السياسي الفرنسي المعروف بيار آليب " عام ١٩١٩ وهل المفوض السامي للجمهورية الفرنسية الى بلاد دحرتها الحرب ، وأنهكتها المجاعة ، وشردت سكانها العصابات والاوبئة . فأعاد اليها النظام والامن بسرعة ، وتقدم المساعدة لجميع المحتاجين وهدأ من روع جميع الخائفين ، وشرع في اعطاء البلاد السورية تمثيلا سياسيا عصريا . ورغم جميع العقبات اندفعت البلاد نحو نهضة اقتصادية هي الآن(١٩٣٠) في أوج تطورها "

أما ريمون أوزوكس فيرفض مقولة تجزئة فرنسا لسوريا قائلا: " مايسمى بالتعبير المبهم سوريا لاتشكل وحدة بل فسيفساء من التقاليد والمعتقدات والاتجاهات المتباعدة لذلك كانت هذه استحالة في ارضاء الجميع ... أما فرنسا فلم تعتمد سياسة " فرق تسد " كما يتهمها المسلمون كل يوم بل باعدت بين الطوائف لعزلها بعضها عن البعض الاخر وللتخفيف من غلواء تعصبها الطائفي المذهبي ، لذلك نجد اليوم الطوائف السورية تتبع كل منها طريقها السياسي الخاص بها ، وذلك تبعا لرغبتها ودرجة تحضرها .

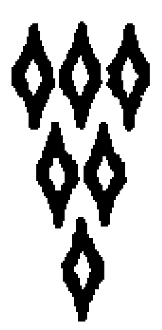
١٢- ساطع الحصري " يوم ميسلون " طبعة حديدة " دار الاتحاد "بيروت لاتاريخ ص ١٠٥

١٣- المرجع السابق - ص ١٨

ويرى أدمون رباط أن معركة ميسلون افتتحت مرحلة جديدة في تطور المسألة الوطنية السورية فحتى ذلك التاريخ كانت الحركة الوطنية في سوريا وثيقة الصلة بالحركة العربية الشاملة .ومع فرض الانتداب الفرنسي على سوريا بكاملها حصل انقطاع حاد أدى الى عزل سوريا عن مجرى الحركة العربية الواحدة التي كانت تعيشها الاقطار العربية الاخرى رغم خضوعها للانتداب البريطاني ."

١٤- ذوقان قرقوط"المشرق العربي في مواجهة الاستعمار " ص ٥ .
١٥- ظافر القاسمي"وثائق جديدة عن الثورة السوريةالكبرى ١٩٢٥-١٩٢٧ بيروت ١٩٦٥ ص ٩ .
١٦- يتحدث بولس نجيم (جوبلان) على الجذور التاريخيةللدولة اللبنانية في كتابه الهام :
Jouplain"la questin du lilosn"2ene edilion-Jounieh 1961
17- E.RABBATH"L'Evolulion jolihque.." P.25
18- E.RABBATH"La formalion historique du chihocn politique er Constitulivnnel-Essai de synthese " Nouvelle edidion . Uniuersith' Lihanaise 1986.PP.367ot 379.
19- Antoine ARIOA"Le hnloan er la Framce" Beyrouth 1936
وقدأشرفنا على ترجمته الى العربية وصدر في بيروت عن دار الفارابي ١٩٨٧ .
٢٠- الاقتباسات الواردة حول برامج هذه الجمعيات مأخوذةعن كتاب عصام كمال خليفة "أبحاث في تاريخ لبنان المعاصر" بيروت ١٩٨٥ صفحات ٧٥ - ٨٧ .
٢١- ستيفان لونغريغ " تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب " ترجمة بيار عقل - بيروت ١٩٧٨ - ص ١٤٩ .
٢٢- يوسف الحكيم " سوريا والانتداب الفرنسي " بيروت ١٩٨٣ - ص ٤٥
٢٣- زين نور الدين " الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان " بيروت ١٩٧٧ ص ١١٣ .
٢٤- ذكره زين الدين زين - المرجع السابق ص ١٨٧ .
٢٥- محمد جميل بيهم " لبنان بين مشرق ومغرب ١٩٢٠-١٩٦٩" بيروت ١٩٦٩ ص ١٠ - ١١ .
٢٦- فلاديمير لوتسكي " الحرب الوطنية التحريرية في سوريا ١٩٢٥- ١٩٢٧ مترجم عن الروسية باشرافنا ١٩٨٧ .
٢٧- يوسف الحكيم " سوريا والعهد الفيصلي " بيروت ١٩٦٦ - ص ٨٧-٨٨ .

٢٨- عبد الرحمن الشهبندر " ثورة سوريا الكبرى ، أسرارها ونتائجها " عمان ١٩٤٠ ص ٨٣ •
٢٩- ذوقان قرقوط " المشرق العربي في مواجهة الاستعمار ص ٨ •
٣٠- عصام خليفة " أبحاث في تاريخ لبنان المعاصر " مقالة مواقف النخب الاسلامية ١٩١٨ - ١٩٤٣ص ٣١ •
٣١- ذوقان قرقوط " المشرق العربي ص ٥ •
٣٢- ذوقان قرقوط " تطور الحركة الوطنية في سوريا ١٩٢٠-١٩٣٩ بيروت ص ٥٥ •
٣٣- يوسف الحكيم " سوريا والانتداب الفرنسي " ص ٨٧ •
٣٤- ذوقان قرقوط " تطور الحركة الوطنية " ص ٥٦ •



نبذة عن كشف أثري تاريخي في تل الميلان (الجزيرة السورية)

بقلم الدكتور عدنان البني
مدير التنقيب والدراسات الأثرية

تمهيـــــد :

انقضى القرن التاسع عشر والربع الاول من القرن العشرين ،ولم يكتشف من آثار سورية ،التي كانت ولاية عثمانية واحدة ،الا القليل واثر الحملة الفرنسية والحوادث المؤسفة (١٨٦٠) قام آرنست رينان ببعثته ((الفنيقية)) التي شملت ارواد وعمريت وجبيل وصيداوصور ،فكانت عملية مسح أثري أكثر من كونها عملية تنقيب بالمعنى الصحيح. وبعد بعثة رينان سمحت السلطة العثمانية ببعض أعمال التنقيب في الولاية السورية (أباماليك لازريف في تدمر ١٨٨٤ ،البعثة الالمانية في زنحرلي/شمأل ١٨٨٨ – ١٨٩٢ ،البعثة الالمانية في تدمر ١٩٠٢ و ١٩١٧ وبعلبك ١٩٠٠ – ١٩٠٤ ، بك في مقابر صيدا ١٨٨٧ ،ثم البعثة الانكليزية في جرابلس/كركميش ١٩٠٨ – ١٩١١ والبعثة الالمانية في تل حلف (الحولة الاولى) ١٩١١ – ١٩١٤ وأخيرا بعثة مقريدي بك وكونتونو ١٩١٤ .

وبعد انهيار الحكم العثماني وتفكيك أوصال بلاد الشام ودخول القوات الفرنسية عنوة الى سورية ، وقيام سلطة الانتداب ظلت تلك السلطة خلال الربع الثاني من القرن العشرين هي التي ترخص للبعثات الاثرية فسمحت لبعثات فرنسية ومن حنسيات أخرى بالتنقيب في عدد من المواقع (تل الصالحية/دورا أوربس ١٩٢٠ – ١٩٣٦ تل النبي مند ١٩٢١–١٩٢٣ تل المشرفة ١٩٢٤ – ١٩٢٧ – ١٩٢٨ ، تل حلف الجولة الثانية) ١٩٢٦ – ١٩٢٩ أرسلان طاش ١٩٢٨ ،تل أحمر/تل برسيب ١٩٢٩–١٩٣١ ، حماة ١٩٣٠ – ١٩٣٨ شكربزر ١٩٣٥ – ١٩٣٦ ،تل براك ١٩٣٥–١٩٣٦ ،قصر الحير الغربي ١٩٣٦ وبطريق المصادفة المحضة اكتشف موقع رأس الشمرة/ أوغاريت ١٩٢٨ وبدأت أعمال التنقيب فيه ١٩٢٩ ، وموقع تل الحريري/ماري/في ١٩٣٣ وبوشر التنقيب فيه في العام نفسه . واستمر العمل في الموقعين حتى قيام

الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ واكتسبا شهرة فائقة طبقت الافاق .

وخلال فترة الانتداب كان المتحف الوطني بدمشق مؤسسة وطنية أسهم هو ومتحف حلب في بعض أعمال التنقيب التي أوردنا ذكرها. ثم باشر مديره الامير جعفر الحسني ، رائد الاثار السورية ، خلال الاربعينيات بتشحيع بعض أعمال التنقيب الوطنية في مقابر حوبر وطفس وخسفين والعال وفيق وفي موقعي تدمر وبصرى .

وبعد الاستقلال بدأ العصر الذهبي لعلم الاثار السوري فقد عاد النشاط لمواقع كثيرة متوقفة ، وبخاصة رأس الشمرة وتل الحريري وقامت بعثات وطنية في الرقة وتدمر وعمريت وتل الكزل وعين دارا وبصرى وشهبا . ورخصت لبعثات أجنبية ومشتركة كثيرة .. وأخذ تاريخ آسيا العربية والغربية عموما يشهد انقلابات متتالية وفتحت آفاق رحيبة في علم ماقبل التاريخ امتدت على مليون عام وانطلقت شهرة مواقع مفتاحية في ست مرخو والقرماشة واللطامنة والمريبط وبقرص وتل الرماد وغيرها وغيرها ، وظهرت الى الوجود ابلا ومكتشفاتها الباهرة في تل مرديخ وايمار في مسكنة ، وأوغاريت البحر في رأس ابن هاني. وتعددت المشاريع الاثرية الاستثنائية في تدمر وبصرى ومشاريع الانقاذ في الفرات والخابور .

ومن الامارات البارزة في علم الاثار العربي السوري كثرة أعمال المسوح الاثرية والسبور ، وعدد المواقع التي شملتها هذه الاعمال، وعدد البعثات وعدد العاملين فيها ، وكمية مايطبع وماينشر عنها. ان عدد المواقع المنقبة ذو أهمية ودلالة ولاشك . ولكن قد تكون هذه الاهمية كمية فحسب . والاهم أن تخدم هذه الاعمال الاثرية التاريخ والحضارة بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، في مجال اكتشاف الدول والممالك وتحقيق هويات المدن والكشف عن دواوين المحفوظات (الارشيفات). وفي هذا المجال بالذات تحقق في سورية خلال السنوات الاخيرة مالم يتحقق في أي جزء من أجزاء العالم القديم .

في مدى عشرين سنة تقريبا تحققت هوية مدينة كحت في تل بري (١٩٦١) وابلا في تل مرديخ (١٩٦٨) وايمار في مسكنة ١٩٧٣ وشفرى في تل

القري (١٩٧٣) وآزو في تل حديدي (١٩٧٦) ودور كتليمو في تل الشيخ حمد (١٩٧٨) وزلفا في تل حمام التركمان (١٩٨٤) وتئيدو في تل براك وتوتول في تل البيعة وآوري أو أوريما في ممباقة (١٩٨٦) وأوغاريت يم أوبيروتي في ابن هاني (١٩٨٤) وأخيرا شوبات انليل في تل ليلان (١٩٨٤).

وحادت أكثر هذه المواقع المحققة الهوية بدواوين محفوظات غاصة بمئات بل ألوف الرقم المحررة بالمسمارية الاكادية البابلية والاشورية أو بالابجدية الاوغاريتية وغيرها ... ولم تزل أكثر هذه المواقع بداية الطريق من عطائها المؤمل.

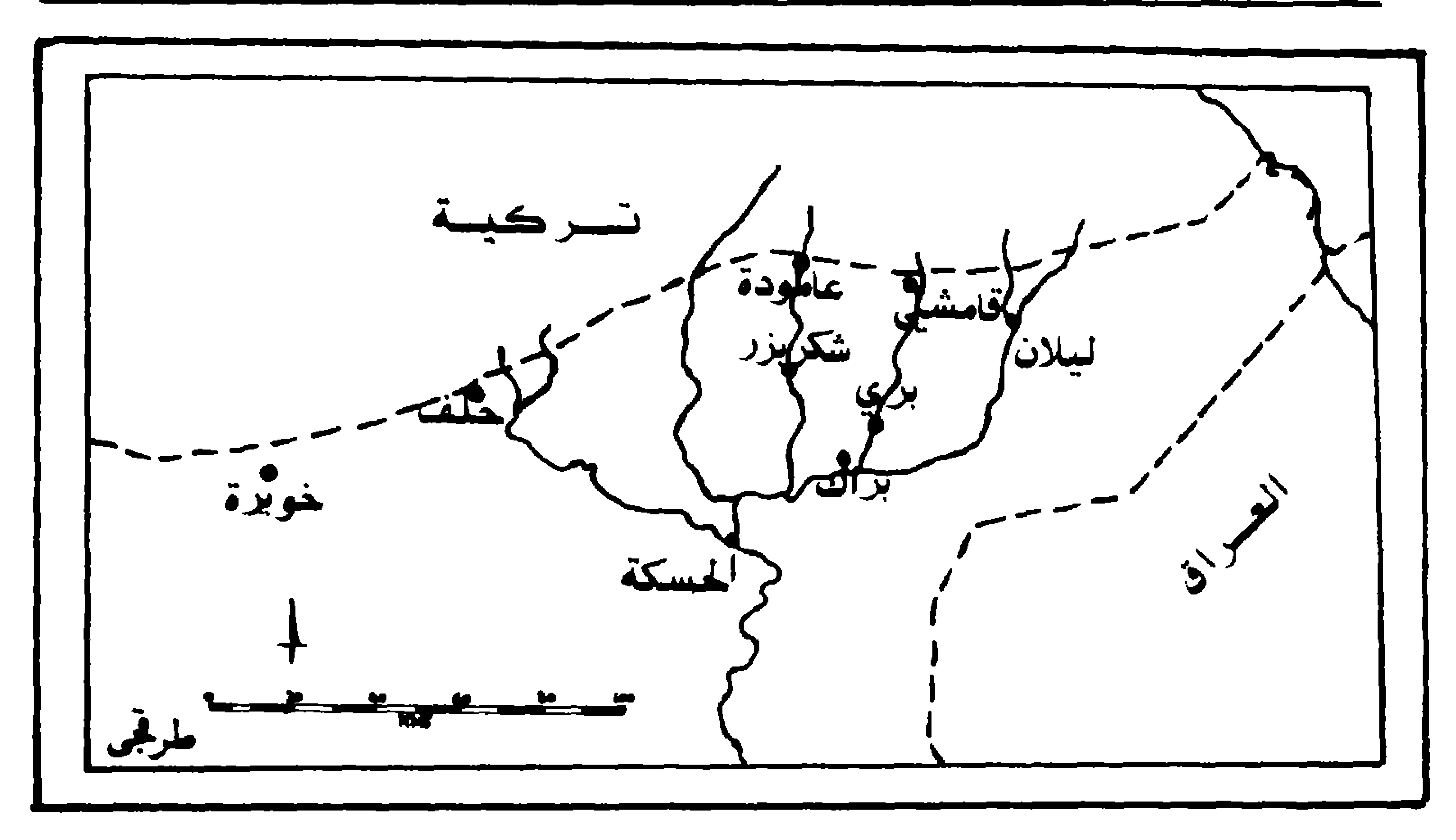
في هذه المرحلة يقوم العمل الاثرى باعادة بناء التاريخ وترميم أحداثه والقاء مزيد من الاضواء على تاريخنا وحضارتنا اللتين تعرضتا في الاونة الاخيرة الى احتهادات وتصورات بل اختلاقات هي في رأينا أكثر خطرا عليهما مما احترحه المستشرقون. فلنترك الذين يبحثون في التاريخ بلا مستندات أو مؤيدات ولنعد جميعا الى الارض الطيبة نستنطقها الحقائق.

وسنتحدث اليوم عن أحدث كشف أثري تم في قلب الحزيرة السورية أظهر مدينة حصينة رحيبة بناها أو أعاد بناءها الملك الاشوري الاموري الاصل، شمشي أدد وسماها شوبات أنليل (أي مقر الرب أنليل) في بحر القرن الثامن عشر ق.م.

وكما ذكرنا في مناسبة سابقة واثر عودتنا من ندوة خاصة بالجزيرة السورية عقدت في برن عاصمة سويسرا (ك٢ ١٩٨٦) ان الحزيرة السورية هي أكثر منطقة أثرية واعدة في العالم الاثري اليوم، فيها تنقب حوالي عشرين بعثة أثرية في منطقة غمرسد الخابور ومنطقة غمرسدي الحسكة الغربي والشرقي، وخارج هاتين المنطقتين، وفيها بعثات وطنية ومشتركة.

تل ليلان /شوبات انليل: الشكل (١)

يقع (تل ليلان) على بعد خمسة وعشرين كم الى الجنوب الشرقي من مدينة القامشلي عند التقاء وادي الحرة بوادي القطراني، ارتفاعه عن السهل المجاور حوالي خمسة عشر مترا مؤلف من قسم واطيء واسع مساحته



الشكـــل (١)

حوالي تسعين هكتارا، وأكروبول (قسم مرتفع) لايتجاوز خمسة عشر هكتارا، وفيه مركز المدينة القديمة. أول من أشار الى هذا التل، فيما نعرف هو الموصلي هرمز درسام من رواد التنقيب الاثري في الرافدين وقد تحدث عنه في مؤلف له منشور بالانكليزية ((آشور وأرض نمرود لندن ١٨٩٧ ص ٢٣٢، ٢٣٣)) كما اهتم به البارون فون أو بنهايم في كتابه المنشور بالالمانية والمسمى ((من البحر المتوسط الى الخليج، برلين ١٨٩٩ ص ١٤١ و١٦٧–١٦٨)) وكذلك الالماني اميل فورير في كتابه المسمى ((تقسيم الولايات في الامبراطورية الاشورية، ليبزيع ١٩٢١ ص ٢٠)) والاثنان الاخيران قدرا أنه موقع آشوري أو عاصمة آشورية. وقد نشر الاب بوادبار أول صورة جوية له في مؤلفه الفرنسي الشهير ((أثررروما في البادية السورية، باريس ١٩٣٤ ص ١٤٠)).

وفي ١٩٧٨ قصد هذا التل بالذات الاستاذ (هارفي وايس) من جامعة بيل الامريكية مرخصا من السلطات الاثرية والرسمية المختصة فأجرى فيه مسحا أثريا منهجيا دقيقا وتأكد من تسلسل العصور التاريخية التي مرت على التل بدءا من الالف الخامس (بدلالة فخار طور العبيد الشمالي).

واتضح له أن الموقع كان ازدهاره بخاصة في حوالي بداية عصرأكاد وابلا (٢٥٠٠ و ٢٤٠٠ ق.م) • وقدر أنه كان آنئذ أكبر مركز مدني في سهل الخابور •

كانت مواسم التنقيب في تل ليلان تجري في كل سنتين مرة واحدة ١٩٧٨، ١٩٨٠، ١٩٨٢، ١٩٨٥، ١٩٨٧)• وقد اتضح من الحفريات التي تمت في المدينة العالية أن النصف الاول من الالف الثاني في التل المذكور عرف ازدهارا حديدا للمدينة ، فقد ظهر في هذه الجهة معبد ضخم قائم على أنقاض معبد أقدم ، وهو مشيد باللبن • واجهته الشمالية مزينة بأقسام غائرة كالمحاريب تتوسط أنصاف أعمدة حلزونية الشكل• أما واجهته الجنوبية فالاعمدة فيها على شكل حذوع النخيل • وهذا الشكل في العمارة مشابه شكل معابد معروفة في مدينة آشور من عهد الملك شمسي أدد (القرن الثامن عشر ق•م) وكذلك في تل ريمة وأوروحمريين في الرافدين • الشكل (٢)

كان هدف الاستاذ (وايس) من مسحه الاثري ومن أعمال التنقيب أن يثبت أن هذا التل هو موضع مدينة شوبات أنليل العاصمة الشمالية للملك شمسي أدد ، وأن يكشف عن مختلف أحيائها • وقد تأكد له وللعالم الاثري أن شوبات أنليل هي في هذه السوية من تل ليلان ، وكان اسمها قبل ذلك وبعد ذلك ((شيخنا)) استولى عليها الملك الاموري الاصل شمستي أدد بن كيكابو بعد أن اعتلى عرش الاشوريين • ونظرا لمناعتها جددها وجعلها كما خاء في نصوص ماري قلعة راسخة في قلب البلاد (محفوظات ماري الملكية الجزء ١٤ رقم١٠١) وجعلها عاصمته الشمالية •

كان شمسي أدد قد أسس امبراطورية حوالي نهاية القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، قبيل عهد حمورابي البابلي • امتدت هذه الامبراطورية من جبال زاغروس حتى نهر الفرات وضمت القسم الشمالي من بلاد بابل وأواسط وادي الدجلة والفرات ووادي الخابور وأجزاء أخرى من سورية• وقد تحالف شمشي أدد مع مملكة قطنة وعاصمتها في تل المشرفة واحتل أو على الاقل وصل جبال لبنان • كما استولى على مملكة ماري القوية



الشكل (٢): منظر لواجهة المعبد الشمالي والجدران الداخلية في تل ليلان / سويات أنليل

في عهد ملكها زمري، لم فغر لاجئا الى مملكة حلب القوية .

وقد أقام شمشي أدد ابنه يشمع أدد على عرش مدينة ماري وكان ضعيف الهمة كما يتضح من مراسلات مدينة ماري (محفوظات ماري الملكية الجزء الاول ، رقم ١٠٨).

دام حكم شمشي أدد خمسا وثلاثين سنة ويقدر هارفي وايس أنه مات في حدود عام ١٧٧٥ ق.م. وخلفه ابن يشمع دحن ورغم علو همته وشجاعته فقد أكثر الاملاك التي حاز عليها والده ولكن سيطرته ظلت وطيدة في بلاد آشور نفسها وفي سهل الخابور .

* * *

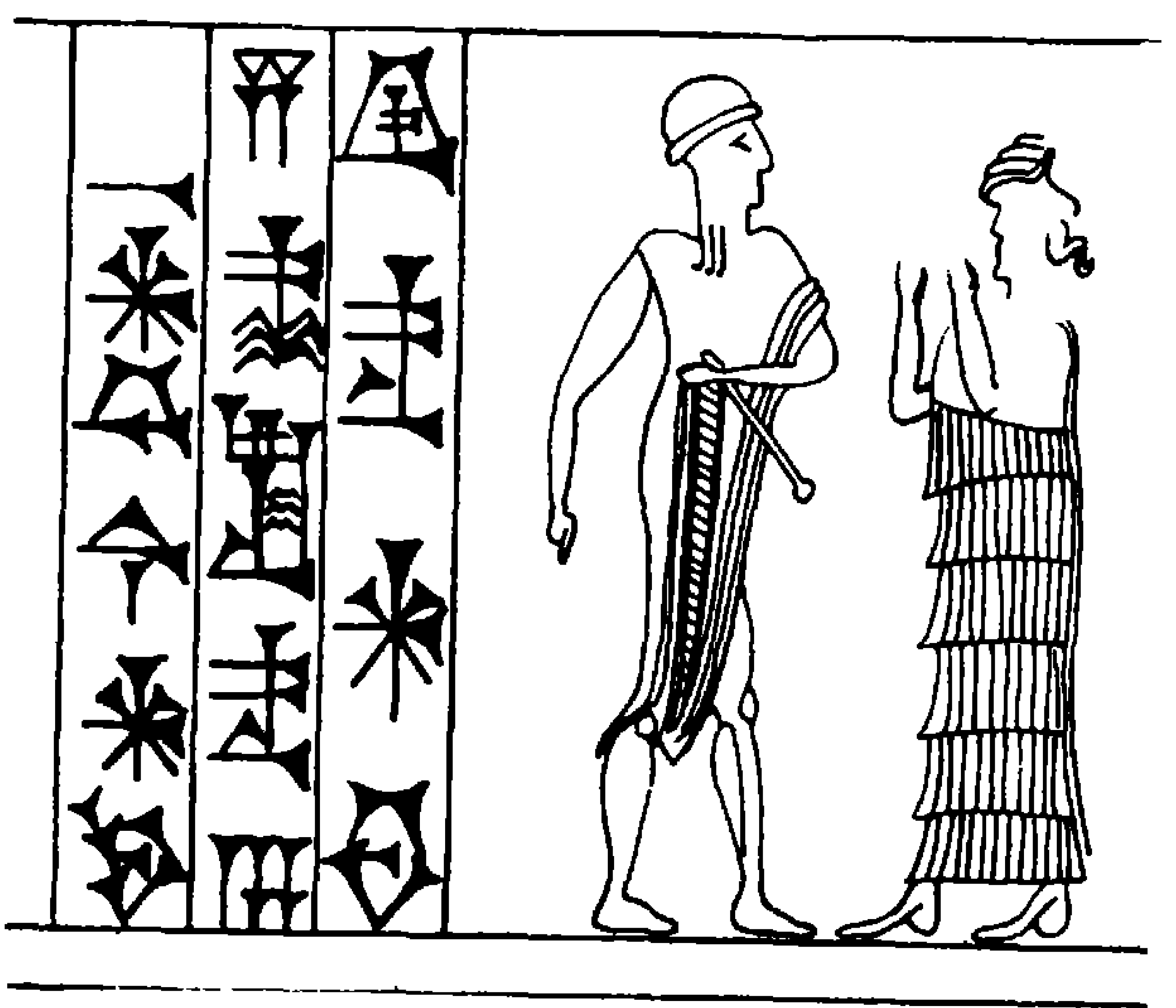
ان مدينة شوبات أنليل التي ظهر اسمها في رقم مدينة ماري منذ حوالي خمسين سنة يعني اسمها مقام الرب أنليل (شو ـ بات ـ آن ـ ليل) وشوبات من الجذر الاكادي وشب ومعناه جلس أو أقام ونقربه من وثب في العربية الجنوبية وتعني جلس . وكانت شوبات أنليل مجهولة الموقع شأنها شأن مدينة أغاديه عاصمة الاكاديين وواشوكاني عاصمة الميتانيين .وقدقدربعض العلماء أنها في مدينة آشور نفسها ورأى البعض الاخر أنها في تل شكربزر ، في الجزيرة السورية . وهناك من قدر قبل هارفي وايس أنها في تل ليلان وفي طليعتهم مرغريت فولكنر وتبعها وليم هالو وبارتل هرودا .

منذ البداية كان هارفي فايس يقول ان حجم تل ليلان وحصانته وكون السوية الهامة والاساسية فيه معاصرة للملك شمشي أدد ، وضخامة المعبد المكتشف في تلك السوية ، ومشابهة مخططه لمعبد الملك شمشي أدد في العاصمة آشور نفسها ، هي براهين أثرية قوية على صحة الفرضية القائلة بوجود مدينة شوبات أنليل في هذا التل .

وكانت نتائج التنقيب منذ ١٩٨٢ مؤيدة لهذا الاتجاه فقد عثر في ذلك الموسم على طبعات أختام تحمل أسماء موظفين تابعين للملك شمشي أدد وحكام مدن مجاورة لشوبات أنليل ومقترنة بها عادة كمدينة أفوم . ومع ذلك كان هناك تردد في قبول ذلك من قبل البعض حتى أتى البرهان ساطعا عام ١٩٨٥ . فقد وقعت البعثة الاثرية في معبد المدينة

على حوالي ستين رقيما تحمل اسم المعبد وختم الملك شمشي أدد وختم ابنه وأحيانا ابنيه وتأكدت في رأي قارئ الخطوط في البعثة رءم وايتنغ هوية الموقع بما لايدع مجالا للشك اذ أن اقتران هذه الاسماء لايحتمع الا في العاصمة الاشورية أشور وفي مدينتي ماري وايكالاتوم ولما كانت مواقع تلك المدن معروفة فليس أمامنا الا تل ليلان (ندوة برن/ك١/١٩٨٦/ قيد الطبع).

وجاءنا في ١٩٨٧ من الاستاذ وايس مدير البعثة أن بعثته كشفت في هذا الموسم عن جزء كبير من سور ضخم معاصر لشمشي أدد وخلفائه المباشرين وأنها أظهرت بقايا قصر معاصر أيضا وجدت في محفوظاته حوالي ١٣٠٠ رقيما مسماريا وبينها مراسلات ملكية لحكام المدينة في الفترة التي تلت موت شمشي أدد واتضح أن المدينة استرجعت اسم (شيخنا) الذي كان يطلق عليها قبل توسيعها واتخاذها عاصمة شمالية لشمش أدد في أيام امبراطوريته الواسعة .



ختم سوري أدد ،خادم شمشي أدد . من تل ليلان/شوبات أنليل .

الشكل (٣)

نأمل في تطور أعمال التنقيب في تل ليلان، أن تقع البعثة على بقية المحفوظات التي تلقي ضوءا ساطعا على بلاد الهلال الخصيب كلها ،في النصف الاول من الالف الثاني ق.م كما ألقت ابلا الاضواء على زمن النصف الثاني من الالف الثالث ق.م .

بعد كتابة المقال عن مدينة شوبات أنليل في موقع تل ليلان في الجزيرة السورية ، جاءنا في تقرير للاستاذ هارفي وايس أن الدراسة الاولية لحوالي ٣٠٠ رقيم فقط من الرقم المسمارية المكتشفة في تل ليلان عام ١٩٨٧ قد ألقت ضوءاً جديداً على الحياة السياسية والاجتماعية في الممالك القديمة التي كانت قائمة في المنطقة وخاصة مملكة حلب وعاصمتها الحصينة التي صعدت قوتها في هذا الحين بعد موت شمشي أدد ثم موت حمورابي البابلي ، اذ يتضح من الرقم ان الملوك كانوا يخاطبون أندادهم بعبارة ((يا أخي)) بينما كانوا يتوجهون لملك حلب بعبارة ((يا أبي)) . وظهر من هذه النصوص أن الخيل كانت مستخدمة في ملاحقة الاشقياء الذين كانوا يعيثون فساداً في أراضي المملكة شوبات أنليل التي استعادت اسمها القديم ((شيخنا)) . كما تذكر الرقم المسمارية أن أجور العمال هناك كانت تدفع بأكيال من الشعير ، كما تذكر حصص الخمرة والجعة في الحفلات الملكية . ومن الامثلة على ذلك تخصيص مايعادل ٨٠ ليترا من الجعة لحفلة ملكية على شرف أحد رجالات بابل .

ومن الطرائف الواردة في احدى هذه الرقم أن أحد الملوك يطلب من ((أخيه)) حضور حفلة على شرف ((أبيهما)) ملك حلب ويرجوه أن يجلب معه من بستانه مايتيسر من الثمار .

وثمة رقيم يتبين منه أن كل ملك كان يستخدم ((عيوناً)) على نشاط الملك الاخر وأن بعض عيون ملك شوبات أنليل (شيخنا) نكث بوعده ولم يرسل الفدية الامر الذي أثار غضب الملك الاخر فأرسل يعاتبه عتاباً شديداً .

ان عدد الرقم كبير ومع ذلك فان البعثة المنقبة تتوقع المزيد ويذكر هارفي وايس أن المراسلات مع مدينة ماري (تل الحريري) مازالت مغيبة في مكان من القصر لم تصل اليه أعمال التنقيب .

ان عدداً كبيراً من هذه الوثائق النادرة التي اكتشفت في تل ليلان مؤرخ بالسنة والشهر واليوم . وهو يغطي موضوع المراسلات والمبادلات في المنطقة في فترة تمتد من ١٧٣٩ الى ١٧٢٦ ق.م.

وهي أكبر ((محفوظات)) ملكية وجدت في الشمال من الرافدين منذ

أكثر من خمسين عاما ٠ وعند استكمال دراسة هذه النصوص الثمينة المحررة باللهجة الاكادية البابلية القديمة سيتضح الى أي حد كان دور الجزيرة السورية يضاهي دور جنوب الرافدين في بدايات الحضارة وفي عصورها المتقدمة ٠

السكة في مدينة حمص إبان العهد الأموي

بقلم الأستاذ محمد الخولي
أمين المتحف العربي الإسلامي

أثناء اعدادي دراسة عن نقود بلاد الشام ابان العهد الاموي، وجدت أن النقود التي أصدرتها مدينة حمص هي من أوفر السكات التي صدرت بين مدن أجناد بلاد الشام[1] ماخلا مدينة دمشق، وأكثرها تنوعا حتى انها تتميز ببعض سكاتها التي لم تكن لحاضرة الدولة الاموية نفسها مثلها، كالفلوس التي تحمل في زخارفها صورا لبعض الحيوانات كالاسد والفيل وحصان البحر واليربوع ومقدمة الحصان. إنّ تعدد هذه النماذج ووفرتها يشجع على نسبة السكات المغفلة المزدانة بصور بعض الحيوانات الى هذه المدينة والى الفترة التي صدرت بها نقود هذه المدينة المشابهة على الاقل. اذ أن حمص تكاد تكون المدينة الوحيدة بين مدن بلاد الشام التي زينت نقودها بهذا النوع من الزخارف. اذا ماتجاوزنا نماذج محدودة بعضها سك بطبرية مزدانا بصورة الاسد وآخر مزدانا بطائر صغير ونموذجا بدمشق تزينه صورة سمكة.

هنا لابد من الاشارة الى أن حمص لم تضرب الدنانير الذهبية شأن جميع الاجناد الاخرى، اذ كان اصدار النقود الذهبية قصرا على مدينة دمشق[2]، ولكن حمص تميزت عن أجناد بلاد الشام الاخرى بعد دمشق بأنها أصدرت الدراهم الفضية ولكن على نطاق محدود حتى أننا لم نستطع أن نرصد لها سوى درهمين اثنين تحدث عنهما البحاثة السويسري

---

(١) ـ عرفت أجناد بلاد الشام بمراكز ومناطق نذكرها كمايلي بحسب تسلسلها من شمال بلاد الشام الى جنوبها وهي: جند قسرين، جند حمص، جند دمشق، جند الاردن، جند فلسطين، وجند منطقة الشراة (الممتد بين دمشق ومدينة الرسول (ص) من بعض نواحيه قرية تعرف بالحميمة).

(٢) ـ هذا بالنسبة لبلاد الشام ولكن ثلاث سكات ذهبية أخرى اشتهرت بها كل من الاندلس وافريقية والحجاز (معدن أمير المؤمنين بالحجاز).

الدكتور ايليش (Dr.Lut ilisch)[٣] ، أحدهما من النمط العربي الساساني مؤرخ من عام ٧٢ هـ والثاني يعود الى فترة ما بعد اصلاح الخليفة عبد الملك بن مروان الذي حدث في عام ٧٧هـ ويحمل التاريخ ٨٥هـ ، وقد أشار الباحث المذكور الى أن هذين النموذجين ينتميان الى محموعتين خاصتين لم تتح لهما فرصة النشر .

أما مايخص مادة بحثنا فهي الفلوس النحاسية ، هذه المادة التي تفوق بأهميتها الاثرية الذهب والفضة وذلك بما تقدمه من معلومات محلية ذات صبغة اقتصادية وثقافية وسياسية وفنية واجتماعية تعطي فكرة عن السوية الحضارية لمجتمع المدينة في ذلك العهد ، وأحيانا تتضمن أسماء بعض المسؤولين الكبار ذوي الادوار الريادية في المدينة كالامراء والحكام والمشرفين على دار السكة . ذلك لان أمراء الولايات والاجناد كان لهم امتياز اصدار الفلوس النحاسية بالشكل والاسلوب الذي يرونه بالاتفاق مع المشرف على السكة الذي كان يرسل من دمشق والذي كان في غالب الاحيان قاضيا لضمان شرعية الاصدارات وصحة المأثورات التي ترد على السكة ، وكانت سلطته على متولي دار السكة والسباك والنقاش ، وقد كانت سلطته مقيدة بالنسبة لاصدارات الدراهم الفضية مما جعل معظم سكاتها تبدو متماثلة في قوالبها ومأثوراتها ماخلا أسماء مدن السكة فانها تختلف من مدينة لاخرى . أما بالنسبة للاصدارات النحاسية فكان يتمتع بشيء من الحرية حيث كان يضمنها أحيانا أسماء بعض الامراء أو اسمه نفسه صريحا تارة وبالرمز تارة أخرى ويزينها بزخارف مختلفة ذات طبيعة حيوانية أو هندسية أو نباتية مما يعكس بعض خصائص الاقليم ومميزاته وهذا ماجعل هذه المادة أكثر تنوعا وأشد جاذبية من اصدارات الذهب والفضة .

---

(٣)- في مقالة :
Die Umayyadischen Ond abbasidischen Kupfermünzen
Von Hims : Versuch einer chronologie
Münstersche Numismatische Zeitung x,3 August 1980 pp23-30
(سأشير الى هذا المرجع من الان فصاعدا د (ايليش) للتسهيل

أود أن أوضح هنا أنني عندما أذكر حمص أعني مدينة حمص بالذات حتى لايذهب الفكر الى منطقة جند حمص بكاملها: هذه المنطقة التي كانت واسعة جدا نسبيا حتى عهد يزيد الاول بن معاوية حيث كانت تشمل على كل من كور قنسرين ومنبج وانطاكية وسائر الكور الاخرى التابعة في الداخل والساحل بما في ذلك اللاذقية وجبلة وطرطوس[٤] وفي عهد يزيد المذكور أحدث جند جديد في شمال البلاد سمي بجند قنسرين وقد جمعت فيه : قنسرين وحلب ومنبج وانطاكيةومن في دائرتها وترك ماتبقى ليطلق عليه اسم جند حمص .

ان البحث في سكة حمص يقتضي معرفة بأسماء الامراء الذين توالوا عليها أو بالاحرى على الجند ككل وفترات توليهم حتى نتمكن من التعرف على تواريخ السكات التي تحمل اسماء بعض هؤلاء الامراء،وأهمية ذلك تكمن في أن أمير الجندكانت له صلاحيات واسعة فهو الذي يختار من رجاله أمراء على الكور التابعة ويقوم مقام الخليفة في اقامة الصلاة وقيادة الجيش وجباية الخراج ويأمر بضرب السكة ويقضي بين الناس . ولدى تحرينا عن أمراء حمص وجدنا أنفسنا أمام صعوبة لم تكن بالحسبان اذ أن ماستطعنا التعرف عليه منهملم يذكر على السكة بل ذكرت أسماء تخص أشخاصا آخرين،سنحاول من خلال وضع النماذج التي تحمل هذه الاسماء في مكانها المناسب من تطور صناعة النقود قدر الامكان علنا نجد لها صلة بتاريخ المدينة وذلك بعد أن أخفقنا في التحري عن صلة أصحاب هذه الاسماء بالتاريخ الاداري أو السياسي أو الفكري لهذه المدينة . لاشك أنه المفيد أن نستذكر أسماءالامراء الذين توالوا على حكم المدينة ، فقد يساعد ذلك في الدلالة على صلة ماتربط بين هؤلاء الامراء وأسماء الاشخاص الذين ذكروا على النماذج التي بين أيدينا وبالتالي فان ذلك مع استخدام النماذج التي تحمل تاريخا صريحا سوف يساعد على وضع تسلسل تاريخي تقريبي لمختلف

---

(٤)ـ صك لهذه المدينة فلس واحد من النوع العربي البيزنطي من نماذج الفئة الثانية التي سنأتي الى الحديث عنها لاحقا .

النماذج التي صدرت في هذه المدينة ، وهذا ماننطلع اليه ويتطلع اليه زملاؤنا في كل مكان مما سيكون له دور في القاء الضوء على آراء بعض الزملاء الذين وضعوا تقديرات زمنية لبعض النماذج معتمدين في ذلك على معطيات معينة سوف نتعرض للحديث عنها في حينها (٥).

* ولاة حمص في العهد الاموي *

	الخلفاء الامويين	السنة هجرة	اسم الوالي
١	معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية ٤١ - ٦٠ هـ	٤٦	مالك بن عبد الله
		٥٠	بر بن أرطأة
		٥٠	سفيان بن عوف الازدي
		٥١	فضالة بن عبيد
		٥١	بر بن أرطأة (ثانية)
		٥١	سفيان بن عوف الازدري (ثانية)
		٥٢	عبد الله بن سعيد الغزاري
		٥٢	مالك بن هبيرة
		٥٢	محمد بن عبد الله الثقفي
		٥٣	عبد الرحمن بن ام الحكم الثقفي
		٥٤	محمد بن مالك
		٥٤	معن بن يزيد السلمي
		٥٥	سعيد بن عوف
		٥٦	حنادة بن أمية
		٥٧	عبد الله بن قيس الغزاري

(٥)- يحسن الاشارة في نموذج تحدث عنه ووكر على النمط العربي البيزنطي يحمل اسم خالد باليونانية XAΛED وقد عزا هذا النموذج الى خالد بن الوليد فان صح هذا فسوف يكون أول نموذج نقد صدر في الاسلام اذ يمكن ارجاعه الى ما بين ١٥-١٦هـ.

تابع ولاة حمص في العهد الاموي:

	الخلفاء الامويين	السنة هجرة	اسم الوالي
	تابع معاوية بن أبي سفيان	٥٨	مالك بن عبد الله الختمعي
		٥٩	عمرو بن مرة
٢	يزيد الاول بن معاوية ٦٠-٦٤	٦٠ - ٦٤	خلال هذه الفترة عرف من ولاة حمص : الحصين بن نمير السكوني
٣	معاوية الثاني بن يزيد	٦٤	كان على حمص في هذه الفترة خالد بن يزيد
٤	مروان الاول	٦٤	ابن معاوية
٥	عبدالملك بن مروان ٦٥- ٨٦هـ	٦٥	النعمان بن بشير الانصاري
		٦٨	خلال هذه الفترة كان عبد الملك نفسه يشرف عليها
		٦٨	أبان بن عقبة بن أبي المعيط
		٧٣	محمد بن مروان
			أتى بعده عبد الله بن الحجاج
		٧٥	الوليد بن عبدالملك
		٧٩	توفي واليها أوسط بن اسمعيل البجلي
		٨١	عبيد الله بن عبدالملك
		٨٢	محمدبن مروان(ثانية)
		٨٥	مسلمة بن عبدالملك
٦	الوليدبن عبدالملك ٨٦-٩٦	٨٦	
		٨٧	هشام بن عبد الملك

تابع ولاة حمص في العهد الاموي

	الخلفاء الامويين	السنة هجري	اسم الوالي
٧	سليمان بن عبدالملك ٩٦–٩٩	٩٦	يزيدبن الحصين بن نمير (تولاها لسليمان)
٨	عمربن عبدالعزيز ٩٩ – ١٠١	٩٩	
٩	يزيد الثاني بن عبد الملك ١٠١–١٠٥	١٠١	
		١٠٣	يزيدبن الحصين بن نمير (ثانية)
١٠	هشامبن عبدالملك ١٠٥ – ١٢٥	١٠٥	
		١٠٧	عبدالملك بن القعقاع
١١	يزيد الثالث بن الوليد ابن عبد الملك	١٢٦	العباس بن الوليد (فارس بنومروان) (تولاها لهشام)
١٢	ابراهيمبن عبدالملك	١٢٦	مروان بن عبدالله بن عبد الملك
١٣	مروان الثاني بن محمد ١٢٧–١٣٢	١٢٧	أبو محمد السفياني
		١٢٧	معاويةبن يزيد بن الحصين بن نمير
		١٢٧	عبدالله بن شجرة
		١٢٨	زامل بن عمر السكسكي الحميري (كان على دمشق وحمص معا)
		١٢٩	سعيد بن هشام قتله مروان ١٢٩

حظيت بعض سكان مدينة حمص باهتمام بالغ من قبل الباحثين العرب والاجانب فظهرت في عدد من المصنفات المشهورة والمقالات والمحاضرات لعدد من الباحثين والمتخصصين في هذا الميدان ، يأتي في مقدمة الباحثين العرب عبدالرحمن فهمي الذي عرض لنقود حمص في مصنفه الشهير "موسوعة النقود العربية وعلم النحيات"(٥) كذلك المرحوم الدكتور محمد أبو الفرج العش الذي عرج على هذا الموضوع في بحثه الهام الذي أصدره بعنوان" النقود العربية والاسلامية مصدر وثائقي للتاريخ والفن" . أما الباحثون الاجانب فهم كثر يأتي في مقدمتهم الانكليزي جون وولكر "John wolker" في مصنفه الشهير(٦) الذي يعتبر بمثابة مرجع أساسي لكل من أراد البحث في النقود العربية الاسلامية المبكرة وخاصة نقود العهد الاموي ، حيث ضمن دراسته بعض النماذج التي صدرت في مدينة حمص خلال العهد المذكور من نقود المرحلة التي سبقت اصلاح الخليفة عبدالملك بن مروان والتي اشتهرت بالنقود العربية البيزنطية اضافة الى ستة نماذج تنتمي الى مرحلة الاصلاح ومابعدها . ثم يأتي دور الباحث السويسري الدكتور ايليش الذي أعد دراسته عن نقود حمص في العهد الاموي والعهد العباسي(٧) الا أنه لم يورد حديد بل كرر النماذج التي أوردها وولكر عن نقود العهد الاموي وأضاف نموذجا مؤرخا من عام ١١٧هـ وسوف نشير الى النماذج التي درسها هذا الباحث أثناء عرضنا لدراستنا الشاملة لنقود حمص خلال العهد المذكور أما الباحث الامريكي بيتس فقد اكتفى بدراسته التي قدمها الى مؤتمر بلاد الشام الذي انعقد في عمان في ٤ تشرين أول عام ١٩٨٧(٨) بالاشارة الى مانشره السويسري ايليش .

---

(٥)- عرض في الجزء الخاص بفجر السكة العربية بعض النماذج الحمصية العادية المحفوظة في المجموعة المصرية .

(٦)-(سأشير الى هذا المرجع بـ(وولكر) للتسهيل)
Catalogue of Muhammadan Coins
Arad-Byzantine and post reform umayyad london 1965

(٧)- كنا أشرنا الى دراسته سابقا بالحاشية رقم (٣)

(٨)- SYRIAN Copper Coinage in le Umayyad period

نشير هنا الى أن هؤلاء الباحثين وغيرهم من المهتمين بعلم النميات الاسلامية في العالم اذا كانوا ألمو بما ألمعنا اليه آنفا فلاشك أن هناك من النماذج الى لم يشر اليها بعد ومازالت كامنة في بعض المتاحف ولدى أصحاب المجموعات وهانحن في متحف دمشق ندلي بدلونا لنعرف بسكات حديدة لم يعرض لها أي من الباحثين الذين أتينا على ذكرهم ، ومرد ذلك الى أن حمص هي بلدنا وماتعكسه تربة هذا البلد كان يصل الينا معظمه لاسيما خلال الحقبة الماضية التي لم يكن اهتمام الجماعين فيها الا بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية وهاهي نماذج حديدة من الفلوس النحاسية تذر قرنها الاول مرة من خلال هذا البحث ونحن على مثل اليقين بأن زملاء سوف يأتون بعدنا ليضيفوا نماذج لم يعرفها أحد منا لان كنوز هذه الارض مازال حزء منها كامنا في حناياها ينتظر معاول المنقبين أو راحات الصدفة تمسح عنها غبار الماضي لتأخذ مكانها في دراسة أو شريحة مصورة نرى من خلالها ماغفل من أخبار التاريخ أو لتجثم في واحهة متحفية لتسعد برؤيتها الابصار وتنعم بالتعرف اليها البصائر .

وفيما يلي استعراض للمادة في دراسة عامة سوف نشير من خلالها الى جميع ماوصل الى علمنا من نماذج لسكات هذه المدينة والى توزع هذه النماذج في العالم .

وذكر فطانها المختلفة ، والامل أن ينهج هذا النهج كل من يتابع البحث في هذا الموضوع ليسهل تقييم كل نموذج من النماذج المعروفة جتى يومنا هذا .

ولدى استعراضنا للنقود التي سكت في مدينة حمص ابان العهد الاموي وجدنا أنفسنا أمام مرحلتين اثنتين :

المرحلة الاولى : وهي التي سكت بها النقود على النمط العربي البيزنطي وهي تبدأ من نقطة زمنية غير محددة ولكن أغلب الظن أنها تتوافق مع بدء مرحلة سك النقود في مراكز الأجناد الاخرى التي تقسمت اليها بلاد الشام . ذلك لان حمص لم تكن أقل شأنا عن غالبية هذه الاجناد اذا لم تكن من أهمها ذلك لانها كانت من الناحية العسكرية

الثغر الشمالي للدولة ومن الناحية الاقتصادية مركزا هاما تؤول اليه أهم طرق التجارة الدولية آنذاك التي تربط الشرق بالبحر الابيض المتوسط ، البرية منها القادمة من تدمر والمائية القادمة من الخليج العربي على قوافل العرب التنوخيين الذين كان تواجدهم يغطي شريط البادية مابين الخليج العربي والشمال حتى اللاذقية . اضافة الى كونها رأس عقدة هامة على طرق الحجيج المنطلقة الى الديار المقدسة . عبر بادية الشام فمنطقة الجوف فالحجاز ، ومن الناحية الاجتماعية ، تتميز المدينة بطابعها العربي منذ فترة ماقبل الاسلام ففي احدى ضواحيها المعروفة بالاندرين كان لهاشم جد الرسول قصر منيف .وكانت لجودة مناخها ولخصب ترتبتها وتنوع فاكهتها وخضارها يؤمها الحضر والبدو. ونظرا لهذه المميزات كانت البلد المفضل لدى الامبراطور البيزنطي هرقل ، وبعد الفتح العربي البيزنطي أغرت عددا من الصحابة بالاقامة فيها . اذ يكفي أن نعلم أنه نزل بها ٤٠٠ من أصحاب النبي من بني سليم فقط اضافة الى اقامة سيف الله وصاحب رسول الله خالد بن الوليد الذي اشتهرت المدينة به فأصبحت مدينة ابن الوليد .

وهكذا نجد أن مدينة حمص كانت من الاهمية بمكان وبالتالي لابد وأن السكة قد بدأت بها منذ بدء التفكير باصدار السكة لدى المسلمين الاوائل(٥) ولو نظرنا في نقود هذه المرحلة لوجدناها تتألف من ثلاث فئات :

الفئة الاولى : ذات المأثورات اليونانية والعربية والتي يرجع تاريخها الى عام ٣٠ هـ ،٦٥٠ م وتتمثل نقودها بالمواصفات التالية : في الوجه صورة هرقل محاطا بوسط من الزخارف تختلط فيه التعابير البيزنطية المسيحية بالتعابير الاسلامية التي نتميز منها كلمة KAΛON اليونانية التي تعني "جيد" أو "صالح" اضافة الى البسملة المختصرة بالعربية "بسم الله" وفي الخلف يبدو حرف M بالخط الكبير الذي يعني بالنسبة للنقود البيزنطية أنه يساوي ٤٠ نمية [٩] والى اليسار من الحرف ϵ M H والى اليمين ϵ I ϵ التي تعني بجملتها اسم مدينة حمص باليونانية وتحت حرف M يتوضع خط تليه كلمة طيب :

(٩)_ النمية هي وحدة القيمة الصغرى بالنسبة للنقود البيزنطية شأن القرش بالنسبة للعملة السورية .

١ ـ النموذج الاول :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة	
		٢٥مم	١	دمشق

وصف النموذج الاول :

الوجه : صورة لهراقل واقفا ممسكا بيده اليمنى عصا المطرانية يعلوها الصليب وبيده اليسرى يمسك بكرة يعلوها الصليب فوق الرأس صليب والى يمين الرأس هلال الى الجهة اليمنى من النقد نثر من الاحرف غير منتظم لكلمة KAΛON اليونانية التي تعني طيب والى اليسار يبدو الجزء الاول من البسملة " بسم الله " .

الخلف : الحرف M مع الرمز المنقوص الواقع في أعلا الحرف والذي يشبه زمر هرقل ☧ . الى يمين الرمزنجمة سداسية والى يساره الهلال . الى اليمين دائرة تحتوي رمزا ؟يليها الاحرف C I C والى اليسار ϵ ᴎ ϶والتي تعني مع ما أصابها من تحريف اسم مدينة حمص .
تحت حرف M خط معترض يليه كلمة طيب .

القطر	عدد الامثلة
٢٣مم	١٤ في مجموعة دمشق
	٢ لدى وولكر
	١ ايليش
	١ سبنك وولده مزاد ١٨ زيوريخ

توجد اختلافات طفيفة وبعض التحوير في بعض مظاهر النماذج الموجودة لدينا مثل حرف N في نموذجنا الذي هو تحريف عن الحرف M في اسم حمص في اليونانية . وكذلك اختلاف أمكنة النجمة والهلال وحلول الحلقات أحيانا بدلا من أحدهما .

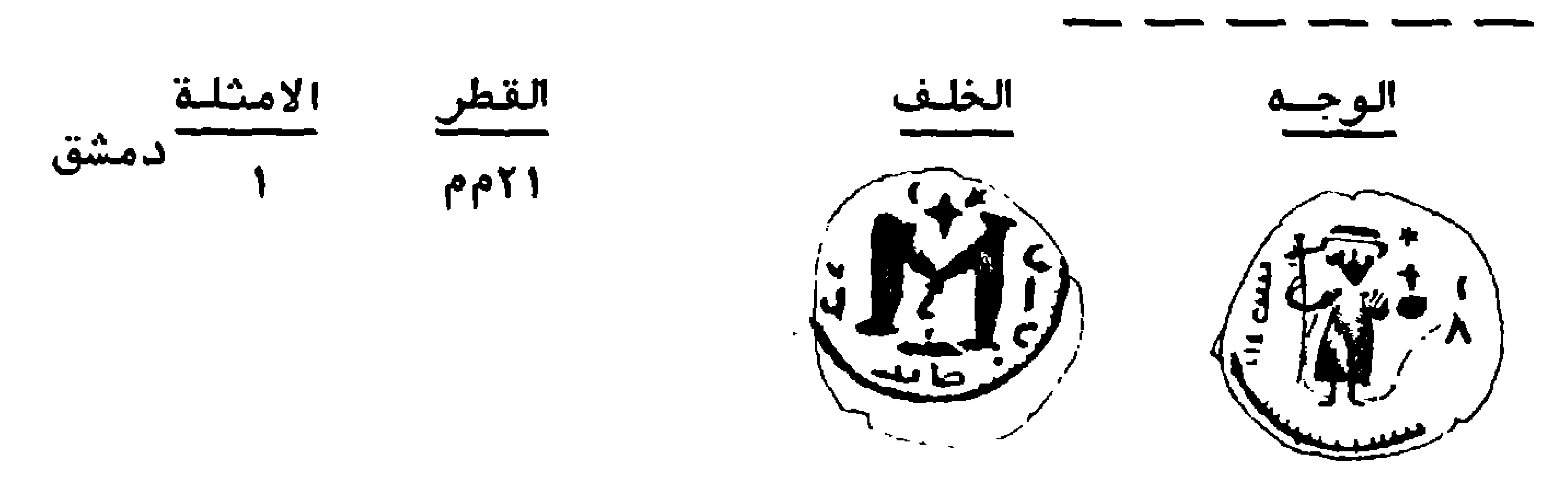
٢ ـ النموذج الثانـي :

الوجـه	الخلف	القطر	الامثلة	
		٢٠مم	١	دمشق

هذا النموذج يشبه سابقه ولكن يمكن ملاحظة بعض الاختلافـــــات الطفيفة في الوسط المحيط بالمعالم الرئيسية في كل من الوجه والخلفه

٣ ـ النموذج الثالث :

الوجـه	الخلف	القطر	الامثلة	
		٢١مم	١	دمشق



هذا النمودج آشبه بنماذج دمشق المماثلة من حيث قامة شخـــص الامبراطور وعمته وخلو الصليب من فوق رآسه والخلف كذلك يحمـــــــل شارات مختلفة والكلمة تحت المعترضة فيه هي أقرب لـ جائز منهال طيب كما أنه يوجد مايشبه الهلال تحت حرف M .

<u>الفئة الثانيـــــة</u> : تتميز نقود هذه الفئة في الوجه بصورة نصفيـــة تمثل الامبراطور البيزنطي (كونستانس الثاني) متوجها الى الامام٠على رأ٨٠ تاج مرصع يعلوه صليب ٠ يرتدي بذة امبراطورية ودرع ٠ فـــــي يد١ اليمنى يحمل كرة يعلوها صليب ، في الحقلين الايسر والايمن الـــى جانبي صورة الامبراطور كتابات يونانية مبعثرة وعربية أما خلـــف النقد فيشغل مركزه حرف m الموصول فوقه شارات والى يمينه ويســـــاره أحرف يونانية وتحته كتابة عربية ٠

النموذج ١ :

الوجـه	الخلف	القطر	الامثلة
		٢٠مم	

وصف النموذج الاول :

الوجـه: ١ ـ صورة الامبراطور كونستانس ببزته العسكرية وفوق رأسه صليب .

٢ ـ في الجانب الايمن " بحمص "

٣ ـ في الجانب الايسر "KAΛON" مبعثرة

٤ ـ كذلك في الجانب الايسر كرة فوقها صليب

الخلف: ١ ـ حرف m الموصول بعلوها نجمة ثمانية والى جانبها شارة أشبه بشكل الشدة

٢ ـ في الجانب الايسر M I) والجانب الايمن C H C ومجموعها يعني اسم مدينة حمص باليونانية

٣ ـ تحت حرف m خط معترض وتحته كلمة طيب .

القطر	الامثلة
٢٠مم	٥٣ في مجموعة دمشق
	مجموعة في وولكر
	مجموعة في ايليش
	١ دكتور ماهر الحسامي
	2-East Wood
	1-Ebeian
	1-G.C.Haines
	مجموعة T.O.Mabbtt
	2-Davies sherborn
	2-H.P.Borrell
	1-A.N.Clemenger

النمــــوذج ٢ :

الوجـــه	الخلــف	القطر	الامثلة
		١٩مم	١ دمشــق
مثل سابقه تقريبا ماخلا: ١- هلال ونجمــة الى يسارالرأس ٢- نجمة ثمانية في نهاية كلمة حمص	مثل سابقــه ماخلا: ○✻○ بدل ﺣ✻ﺮ في النموذج السابق		

الفئــة الثالثـــة : هذه الفئة تمثل نهاية مرحلة حفلت باختـــلافات كثيرة في مواضيع السكات وما اعتراها من تفاصيل تعبر عن عـــــدم الاستقرار الذي نجم عن الاضطرابات السياسية الداخلية المتمثلة بالصراع مع الخوارج وآل الزبير وآل البيت • والخارجية المتمثلة بالحروب مـــع الامبراطورية البيزنطية • وقد اقترنت هذه الفئة بنماذجها المختلفـــة بعهد الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان كما حملت اسمه ولقبه ويرجح باحثوا النميات بأنها بدأت في حوالي عام ٧٢ هجرية واستمرت حتـــى عام ٧٧ هـ ولحسن الحظ يحتوي المتحف العربي الاسلامي في دمشق علـــى مجموعة هامة من نماذج هذه الفئة بعضها خاص بمدينة حمص •
واليكم فيما يلي ثلاث نماذج من هذه الفئة :

النمــوذج١ :

الوجـه	الخلـف	القطر	الامثلة
		٢١مم	٦ في مجموعــة دمشـــق

وصف النموذج ١ :

الوجه : ١- في المركز: صورة عبدالملك بن مروان ينظرالى الامام وشعره مرسل على كتفيه •

- يمسك بيده اليمنى مقبض سيفه

- وبيده اليسرى الغمد وهو في وضع من يهم باستلال سيفه •

٢ - في النطاق : "لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين"

٣ - طوق يحف بالصورة والكتابة

الخلف:

١- في المركز: قائم يرتفع فوق أربع درجات في أعلاه دائرة بدلا من الصليب •

٢- الى يمين القائم بحمص

٣- في النطاق : "لا اله الا الله وحده محمد رسول الله"

٤- طوق محبب يحف بالمركز والنطاق •

النموذج ٢ :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		٢٢مم	١ نشره وولكر ١ مجموعتنا في متحف دمشق ١ سبنك مزاد زيوريخ ١٨ ١٩٨٦ ١ فريدي ابراهيم
الوصف : الوجه مشابه للسابق	الخلف كذلك مشابه للسابق ماخلا نجمة ثمانية تقع الى يسار القائم		

النمـــوذج ٣ :

الوجـــه	الخلـــف	القطر	الامثلـــــــة
		١٧مم	١ هذا النموذج يعـود الى جمعية النميـات الامريكية وقد نشره ووكر تحت رقـــم ANS 8 من مصنفـــه ١ شتيكل صفحة ٦١من كتاب العمــــلات الشرقية .

الوصف :

الوجه مشابه للسابق

الخلف كذلك مشابه للسابق ماخلا ذكـر كلمة "ضرب" الـى يسار القائم .

المرحلة الثانيـــة : تخص هذه المرحلة النقود المعربـة بشكل تام التـــي ضربت في مدينة حمص لدينا قرابة واحد وعشرين نموذجا من هذه النقــود يحتوي بعضها أسماء أعلام أشهرهم مروان بن بشير الذي ظهر اسمـــه على عدة نماذج أشهرها ذلك النموذج الذي يحمل صورة اليربوع [١٠] ناهيك عن نماذج أخرى مزدانة بزخارف نباتية وحيوانية ، ونماذج مقلـــدة لنماذج شهيرة اشتهرت بها مدن أخرى كدمشق وآخيرا نماذج هامة مؤرخة .

من خلال استعراضنا لنقود هذه المرحلة وجدنا أنه يمكـــــن تصنيفها الى عدة مجموعات بلغت الخمسة لكل منها خصائصها من حيـث التصميم والزخرف والروح وفيما يلي سرد لهذه المجموعات مع دراســة تبين وجهة نظرنا بالنسبة لكل مجموعة منها ودراسة لكل نمـــوذج

(١٠)ـ اليربوع حيوان بري يشبه الحرز غير أن قامته أطول وقائمتاه الاماميتان بمعدل $\frac{1}{6}$ من قائمتيه الخلفيتين. يأكل العشب والحشرات ، يعتبره عــرب الجزيرة العربية من عناصر الصيد المغرية كالارنـــب ويتلذذون بأكله . اشتهرت قبيلة عربية ببني يربوع كما سمي أشخاص بهذا الاسم كابن يربوع الفزاري الحمصي الذي تولى ديوان مصر في عهد واليها عبد الله بـن عبد الملك بن مروان .



في كل مجموعة عندما يقتضي الامر ذلك ،راجين أن نكون قد الهمنا فيما قدمناه الصواب وثوابنا بأننا قدمنا لهذه المدينة التاريخية العظيمة هذه الدراسة الشاملة التي لم يجتمع في أي دراسة أخرى ما تجمع بها من نماذج النقود التي أصدرتها هذه المدينة خلال عهد أمية •

المجموعة الاولى :

النموذج ١ :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		١٩مم	١

مأثورة الوجه :
"لا اله - الا الله - وحده
يحيط بها طوق

يشغل الخلف:
١- مأثورة قوامها :"محمد- رسول - الله "
٢- في القطاع الاعلى كلمة "ضرب"
٣- في القطاع الايسر " بحمص "
٤- في القطاع الايمن " سعفة نخل ذات ثماني أوراق تتوضع فوق درجتين "

صادفني نموذج آخر أعتبره فريداً من حيث زخرفة يعود الى الانسة أمل حسيني ،غصن النخيل فيه ذو ستة فروع ويرتكز على قاعدة ذات ثلاث درجات •

أعطيت هذين النموذجين الاولية في عرض هذه المادة لاعتقادي بأن غصن النخيل في كليهما قد حل مباشرة محل القائم الذي يرتفع على درجات ويحمل في أعلاه كرة أو دائرة في نقود عبد الملك بن مروان المصورة (انظر الفئة الثالثة - من المرحلة الاولى) والتي تمثلت كذلك على النقود الاولى بعد التعريب التي ظهرت على بعض السكات الفلسطينية لاسيما تلك التي تعود الى الرملة وطبرية وعلى بعض سكات المدن الاخرى وكذلك لورود اسم حمص شاقوليا كما كانت ترد على نقود عبدالملك المصورة •

النموذج ٢ :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		١٩مم	١ متحف دمشق ٢ وولكر٧٩٩-٨٠٠

مثل سابقه ماخلا :

آ - توزيع المأثورات في كل من الوجه والخلف

ب - هذا النموذج ذو نقط في مستهل مأثورة الوجه

حـ - غياب غصن النخيل

د - ذكر المدينة في أسفل مأثورة الخلف بدلاً من الجانب في النموذج السابق •

قد يكون سك هذا النموذج أتى مباشرة بعد النموذج الاول نظرا لموافقة في معالمه الرئيسية ومخالفته في التفاصيل فقط •

النموذج ٢ - آ :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		١٨مم	١ دمشق ١ د•ماهرحسامي

مثل سابقه

هذا النموذج مشابه للنموذج السابق ولكنه يمثل مرحلة جديدة حيث اختصر المشرف على السكة كلمة "ضرب" من خلف النقد ربما بقصد الموازنة الفنية التقريبية مابين نصوص الوجه ونصوص الخلف وربما شعر المشرف أن وضع كلمة "ضرب" أصبحت من نافلة مقتضيات العمل اذ آن ذكر " بحمص " أصبحت كافية •

النمــــوذج ٢ ـ ب :

الوجــــه	الخلــف	القطر	الامثلـــة
لا اله الا الله وحده حمص	محمد رسو الله	١٧مم	١ دمشــق

مثل سابقه

ان هذا النموذج يمثل ظاهرة يوقف عندها ، بالرغم من أنه قريب جدا من النماذج السابقة من حيث مأثورتي الوجه والخلف فانه امــــا ينازع النموذج الاول الاولية في الاصدار ذلك أنه ضمّن اسم المدينـــة في الوجه بعكس النماذج السابقة شأنه في ذلك شأن الدراهم الامويـــة المبكرة التي بدأت تظهر منذ عام ٧٩ حيث كانت تشير الى مدينة السكـــة في مأثورة نطاق الوجه . أو أنه يكون في محله من هذا التصنيـــف وفي هذه الحال تكون النماذج الذي أتينا على سردها أسبق بتاريـــخ اصدارها من هذا النموذج .

النمــــوذج ٢ ـ ج :

الوجـــه	الخلـــف	القطر	الامثلة	مكان حفظها
محمد رسول الله حمص	محمد رسول الله حمص	١٦مم	١	دمشـــق

نموذج من سقط السكة ؟

الحقيقة ان وضع هذا النموذج يدعو الى الحيرة اذ أن المأثورة الواحدة التي هي مأثورة الشهادة مع مدينة السكة وردت في الوجه والخلف معا . فهل هذا خطأ ارتكبه السكاك ؟ لو كان الامر كذلك لتكرر القالب نفسه وظهر فوق أحد الوجهين أثر لسكة ثالثة أو تأثر أحد الوجهين بفعل الطرق . ولكن الامر على ما أعتقد أنه لا يعدو استعراض مثلين من النقش في قطعة واحـــدة لاختيار أحدهما للسكة المقررة .

النموذج ٢ ـ د :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		١٥مم	١ دمشق

مثل سابقه ماخلا :

آ ـ ان اسم المدينة ورد في أعلا مأثورتي الوجه والخلف

ب ـ أحد الوجهين محاط بطوق

النموذج ٢ ـ هـ :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		١٧مم	عدة دمشق

هذا النموذج مغفل من اسم المدينة ، ولكنه يحمل نفس مأثورات النموذج (٢) ٠ فهل كان يصدر في حمص ؟٠ في الحقيقة أن هذا النموذج يرد عادة مع نقود دمشق ومع نقود حمص لذا فهو اما أن يكون مكان اصداره في حمص لكلا المدينتين أو في دمشق للغاية نفسها أو أنه سك لدائرة تعامل تفوق حدود مدينة واحدة بعكس المألوف في النقود التي تحمل أسماء المدن ٠

- النمـــوذج ٣ :

الوجـــه	الخلـف	القطـر	الامثلـــة
		١٥مم	١ دمشــق

يحتوي الوجه مأثورة التوحيدفي ثلاثة أسطر وفق ماهومألوف فــي بعضأمثلـة النموذج (٢)

في المركز: أسدا يتجه يسارا (١١)
في القطاع العلوي: " ضر " من كلمة ". ضرب"
في القطاع الايسر: " بحمص "

ملاحظة: صنف هذا النموذج في المحموعة الاولى رغم أنه مصور للاســباب التـالية : آ ـ مأثورة الوجه تشبة مأثورة النماذج السابقة

ب ـ ان اسم المدينة كتب شاقوليا شأن النموذج الاول ذي غصن النخيل

حـ ـ لانه نموذج وحيد وهو لايشبه أسد طبرية الرابــض الذي صور على خلف الفلس المؤرخ بـ ٩٦هجرية (١٢)

---

(١١) ـ الاسد يرمز الى البعث والقـــوة ((من محاضرة الدكتور علـــــي أبو عساف التي ألقاها في المركز الثقافي الالماني(جوتة)))

(١٢) ـ أنظر بحثي (نقش السكة على النقود الفلسطينية في صـــــدر الاسلاموالعهد الاموي) في المجلد .(١) من ((دراسات في تاريخ وآثار فلسطين)) .

النموذج ٤ :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		٢٠مم	١ دمشق

الوجه :

المركز: لا اله (الا)
(ا)لله وحد (ه)
ساسر (يك له)

النطاق: (بسم اللهضرب)
هذا الفلس بحمص

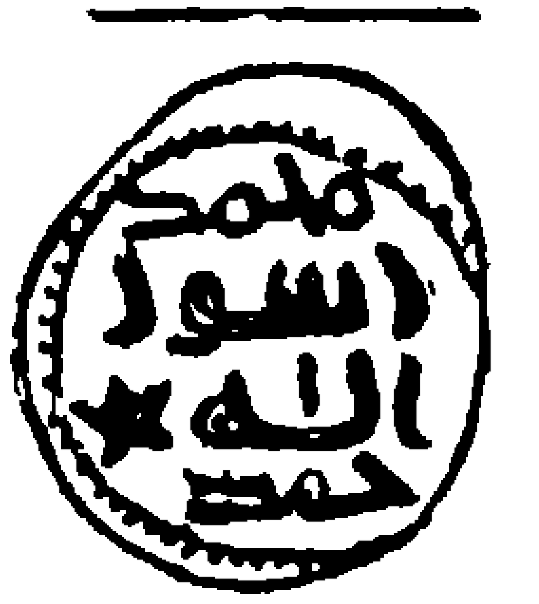
الخلف:

المركز: الله
(ا)حد الله
الصمد

النطاق: محمد رسول الله (أرسله بالهدى ودين الحق)

أرى أن هذا النموذج يتزاحم مع النماذج التي سبقت بالنسبة لاولية الاصدار ،ذلك لما فيه من بدائية متمثلة في أسلوب الكتابة وفي توزيع النصوص ووللخلل الواضح في كتابة المأثورات لاسيمامأثور الوجه (أنظر الضعف في أسلوب الكتابة ولاحظ قصور النصوص والخلل في التوزيع المتوازن للمأثورات لاسيما في مأثورة مركز الوجه) . كذلك هناك ناحية هامة وهي محاولة المشرف على دار المسكوكات استخدم مأثورات الدينار الذي كان يصدر في دمشق . أعتقد أن هذا النموذج هو الوحيد بين اصدارات حمص الذي يتضمن مأثورة الصمدية التي ترد عادة خلف الدنانير الذهبية وخلف الدراهم الفضية . ترى هل يمكن أن يكون المشرف قد اقتبسه من الدينار؟ وبالتالي لماذا هذا الضعف والاخطاء ؟ أم أن هذه المأثورات استعملت على النقود النحاسية بادىء ذي بدء حتى استقامت بمستوى كتابتهاوبتوزيع نصوصها و باكتمال مأثوراتها ومن ثم استعملت على الدنانير الذهبية ؟

النمـــــوذج ٥ :

الوجـــه	الخلـــف	القطـر	الامثلــــــة
		٢٢مم	٣ متحف دمشق ١ وولكررقم B.45

يمكن قراءة مأثورة الوجه كما يلي : [١٣]

/بسم ا/للد لا الـه

الا الله /وحده/

مأثورة الخلف :

محمد/رسول/ الله ★/ حمص /

لهذا النموذج صلة بالنموذج رقم١ وتوابعه ، لاسيما مايتعلق بشكل الخلف ، لذا يمكن أن يعتبر هذا النموذج مرحلة متطورة لذلك النموذج حاول المشرف من خلالها ايجاد التوازن بين كل من مظهري الوجه والخلف وذلك باضافة "بسم الله" الى مأثورة الوجه . وتأكيدا لهذا المعنى وضع نجمة في الوجه ليقابل بها نجمة وضعت في الخلف أساسا من أجل ملء الفراغ في السطر الثالث .

الشارة ((لحم)) الموجودة في أعلا الوجه تمثل محاولة لوضع كلمة ما قد تكون " حمص "

النمـــوذج ٦ :

الوجـــه	الخلـــف	القطر	الامثلــــة
		١٩مم	١ دمشـــق

(١٣)ـ وردت شارة مماثلة على النقود المؤرخة التي صدرت في حمص خلال مأثورة التاريخ الهامشية .

وصف النموذج ٦ :

الوجه :	الخلف :
المركز: بسم الله	المركز : محمد
لا اله الا	رسول
لله وحد (ه)	الله
النطاق: ....الملك بن مر (وان) طوق	النطاق: ... الفلس بحمص طوق

ملاحظات :

١ - ورد اسم عبدالملك في مكان البسملة وهذا يعني أن هذا الاصدار كان قبل أن يستقر الرسم بشكل نهائي .

٢ - وردت الالف من لفظ الجلالة الوارد في السطر الثالث من الوجه في نهاية السطر الثاني وهذا غير مألوف .

٣ - وردت الواو في نهاية السطر الثالث من الوجه بشكل مقلوب وهذا مالم يرد في نموذج آخر .

المجموعة الثانية : " المزينة بعناصر حيوانية "

النموذج ١ :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		١٧مم	١٥ في مجموعة دمشق ٤ ووكر وردت بالارقام من ٧٩٥ - ٧٩٨

الوجه :	الخلف :
المركز: رسم فيل متجه نحو اليمين	محمد
النطاق: "لا اله الا الله وحده"	رسول الله
	بحمص

لم يرد الفيل سوى على نقود حمص ويعتبر هذا النموذج من أشهر نماذج النقود المضروبة في هذه المدينة ذلك لتوافر أعداد كبيرة منها حتى لاتكاد تخلو مجموعة من أمثلة لهذا النموذج، تعتبر صورة الفيل الممثلة في وجه هذا النموذج من أكمل الصور التي وردت على مختلف النماذج الاخرى التي سوف نعرض بعض نماذجها فيمايلي. أمانقش الكتابة في الخلف فهو مضطرب في جميع النماذج التي عثرنا عليها حتى أننا لم نستطع العثور على نموذج واحد منها كتبت مأثورته من غيرما اضطراب أو نقص .

ربما كان السبب في ذلك بأن نقّاشا أعجميا ضعيفا باللغة العربية كان يتولى عملية الاصدار في دار حمص وان الاختلاف في رسم صورة الفيل يمثل المحاولات التي بذلت حتى تحسنت الصورة لتصبح على ماهي عليه في النموذج المعروض أعلاه . أما كيف اعتمدت صورة الفيل في هذه المدينة بشكل خاص فهو أمرمازال لغزا ، وفي رأيي أنه ربما كان بمثابة ذكرى للانتصار الكبير والحاسم الذي أحرزه المسلمون في موقعة القادسية التي حشد العدو الفارسي فيها كل قواه في مقدمتهم الفيلة التي تم التغلب عليهابرقعة الحمال باللون الاحمر فأخافت الفيلة فرجعت واضطربت الخيل من ورائها. أو لان الفيل كان من المواد التجارية الهامة القادمة من الشرق والذي كان بمثابة رمز للنشاط التجاري الذي كان يزاوله تجار المدينة . على أية حال فاني أوافق البحاثة وولكر في وضع هذا النموذج في مقدمة نماذج مدينة حمص في بحثه الذي عرضه في مصنفه الذي أتينا على ذكره اذا كان يريد من ذلك أسبقية هذا النموذج بين تلك النماذج التي اشتهرت باصدارها المدينة. وانني شخصيا أميل الى أنه مبكراً جدا ويسبق في ظهوره أي من نماذج المجموعة الاولى وربما سبق محاولات التعريب التي اشتهرت في أواخر السبعينات التي ظهرت خلالها صورة الانسان بشكل مقبول جدا والمتمثلة بصورة عبد الملك بن مروان وكانت النصوص فيها مدروسة ومتوازنة حتى ما انتسب منها الى مدينة حمص يفضل كثيرا ما أتى على نموذج الفيل هذا من حيث الصورة والمأثورة .

النموذج :

	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
١ ـ آ			١٧مم	من مجموعة دمشق ١ د. ماهر الحسامي
١ ـ ب			١٦مم	١ مجموعة دمشق
١ ـ حـ			١٦مم	١ من مجموعتنا في المتحف الوطني بدمشق
١ ـ د			٢٠مم	١ من مجموعتنا في المتحف الوطني بدمشق

النمـــــــوذج :

	الوجـه	الخلـف	القطر	الامثلـــــــة
١ ـ هـ			١٩مم	من محموعتنافي المتحف الوطنـــي بدمشـــق

النمـــوذج :

	الوجـه	الخلـف	القطر	الامثلــــــة
٢			١٩مم	٢ المتحف الوطني بدمشـــق

هذا النموذج هو طبق الاصل من النموذج رقم١ بتصميمه وتوزيـــع مأثوراته وأطواقه لكنه مختلف بشكل الحيوان فالحذع والقوائم فـــي حيوان هذا النموذج تشبه الفيل في النماذج السابقةولكن رأس الحيـوان أشبه برأس حصان البحر(السيد اشطة) • فهل أراد النقاش أن يتفزلـــك بتمثيل رأس الحيوان في هذين النموذجين ؟ أم أن طرق التجارة تعاملت كذلك بهذا الحيوان ؟ •

اذا كان لنا أن نستنتج شيئا مما سبق من المجموعة الثانيــــة فهو أن هذه المرحلة قد سبقت المرحلة التي كان على دار السكة فيهـــا مشرف وسكاك ونقاش اذ أن هذا الاختلاف في الرسم والخطأ المتكرر فـــي نصوص المأثورات لايمكن أن يحدث لوكان المسؤول عن دار السكة غيـــر عامل واحد وأعجمي •

النموذج :

	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
٣ –			١٦مم	١

الوجه :

في المركز: مقدمة حصان

في النطاق: مأثورة التوحيد

الخلف :

في المركز: كلمات مضطربة بتأثير ضربة ثانية ولكن "حمص" تبدو واضحة

لعل مسؤول السكة وصل الى علمه أن ثمة حديث نبوي يندد بمن يحاول برسمه أن يضاهي خلق الله لذلك صور مقدمة الحصان فقط بعد أن صور الحصان تاما على نماذج مغفلة أخرى ولهذا الموضوع شبيه في سكات دمشق غير أن الرسم هناك يمثل مقدمة الحصان متجهة نحو اليمين.

النموذج :

	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
٤ – آ			٢٢ ١٤–١٧مم	محموعة دمشق مجموعة المتحف البريطاني عرضها وولكر بالارقام ٨٠٤–٨٠٦ص ٢٤٥

الوجه :

المركز: رسم اليربوع متجه يسارا

طوق : بسم الله ضرب هذا الفلس بحمص

طوق

الخلف:

المركز: ما أمر به مروان بن

طوق : بشير

نطاق: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق

طوق

النمـــــوذج :

	الوجـه	الخلـف	القطر	الامثلـــة
٤ ـ ب			١٨مم	٢ مجموعة دمشق

الوجـه :

المركز: رسم اليربوع متجه يمينـا

طوق

نطاق: بسم الله (ضرب الفلس) بحمص

الخلـف:

المركز: بـامر

طوق مروان بن بشـــير

نطاق: (محمد رسول) الله أرسله (بالهدى)

طـوق:

النمـــــوذج :

	الوجـه	الخلـف	القطر	الامثلـــة
٤ ـ جـ			١٤مم	١ مجموعة دمشق

الوجـه :

المركز: رسم اليربوع متجه يسارا

نطاق: ذو أربع حلقـــات وأربع فواصل

الخلـف :

مثل النموذج ٤ ـ آ

النموذج :

	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
٤ ـ د		مثل خلف ٤ـآ	١٦مم	١

في النطاق : مثل نطاق ٤ ـ آ

هناك حيوانات يمكن أن نحد لها صلة بهذا الرسم أحدهما هو السلحفاة والثاني هو الحلزون ولكن مع ذلك فلا ينطبق هذا الرسم بشكل عام على أي منها ·

النموذج :

	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
٤ ـ هـ		مثل خلف ٤ـآ	١٦مم	١

المركز :

النطاق : مثل ٤ـآ

يتسم هذا النموذج بالبداائية والسرعة بالرسم وبقوة التعبير وهو على مايبدو يمثل أرنبا ·

النموذج :

	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
٥	بأمر مروان بن بشير	محمد رسول الله	١٥	٢ مجموعة دمشق ٢ ووكرص ٢٤٥ ٨٠٢ـ٨٠٣ ١ ووكرP.1cA
	طوق:	طوق :		
	نطاق: ضرب هذا الفلس بحمص	نطاق: أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله		

النمـــوذج :

	الوجـه	الخلـف	القطـر	الامثلـــة
٦			١٧مم	١ دمشـــق

الوجه :

المركز: مأثورة التوحيد
لا الـه / الا الله /وحده /

طـوق :

نطاق : (بسم الله ضرب هـــذا الفلس بحمص

الخلـف :

المركز: بـأمر
مروان بن
بشـــير

طوق :

نطاق : ذو أربع حلقات توحد منها اثنتان

طـوق :





قطر ١٦ - دمشق - تابع نرزلي ٦

ان هذه النمـاذج الستة التي وردت وتحمل اسم مروان بن بشيـــر تحعلنـا نتسـاءل كما تساءل غيرنـا ، من هو مروان بن بشير ومـــاذا كـان دوره بـالـنسبة لمدينة حمص ابان العهد الاموي وفي أية فتـــرة زمنية كان تواجده اذ أن اسمه لم يرد في قائمة أمرائهاء ومتـــى كـانت الفترة التـاريخية التي ظهرت خلالهـا هذه النمـاذج ومـاذا تعنـــي هذه الحيوانـات ، اليربوع والارنب والسلحفاة التي وردت عليهـــا دون غيرهـا ؟ ولمـاذا أتت هذه الرسوم بهذا المستوى من البدائية والتحويـــر كل هذه التساؤلات تفرض نفسها • وقد أتت الاجابة على بعضها من قبل بعض البـاحثين الاجانب مثل الانكليزي وولكر الذي يرى أن فترة مروان بن بشير هي في أواخر المئة الاولى من التـاريخ الهجري • ويـــــرى

السويسري ايليش أن فترة مروان بن بشير في أواخر العهد الاموي وأوائل العهد العباسي ، ويجمع الاثنان على أن مروان بن بشير هذا لم يرد له ذكر لدى المؤرخين وبالتالي مازال لغزا .

حاولت أن أتحقق من هذا الامر بحكم يسر اطلاعنا على المراجع العربية التاريخية ،فوجدتني مؤيد لرأييهمافي أن مروان بن بشير غير معروف ، ولكن حولت بحثي للتعرف على بشير الذي يمكن أن يكون والدا لمروان هذا ،أو على أخ ذي منزلة وشأن هام اذ أنها القاعدة المعتمدة الى حدما : أن الكبير يأتي من كبير لاسيما في تلك الايام فوجدت أن اسم بشير قد ورد في عدة مواضع وفي كل موضع وردمقترنا بدور أو مهمة لايصلح معها أن يكون أبا لمروان الا بشيراً واحداً وهو بشير الخزرجي الانصاري ،ان صاحب هذا الاسم اضافة الى أنه من ذوي الشأن في مجتمع المدينة فهو زوج أخت عبدالله بن رواحة وهو والد النعمان بن بشير الذي كان والياعلى حمص في عهديزيد بن معاوية . والنعمان هذا تولى حكم المدينةوهو من أوفده الخليفةيزيد الى قومه في المدينة أثناء ولايته على حمص ،ليدعوهم الى طاعة يزيد ومبايعته بعد أن تمردوا عليه وفشل النعمان بن بشير في مهمته تلك وكان ماكان من أمر يزيد الذي أشار الى جيشه باقتحام المدينة وأباحتها ثلاثة أيام وأتبع ذلك بحصار مكة ومن ثم ضربها بالمنجنيقات فكانت هاتان الفتنتان اضافة الى فتنةمقتل الحسين كافية بأن جعلت القلوب ـ حتى أقرب القلوب ـ تحنق على يزيد وتلوي عنه وعن خلفه من بعده (١٤) . وكان الخيار الثاني هو عبدالله بن الزبير خصم البيت الاموي العنيد الذي دانت له مصر والحجاز والعراق ومن لم يكن تحت سلطة من بلاد الشام كان مهيئا له . بعد أن عاجلت المنية يزيدا وسد الامر الى ابنه معاوية الثاني الذي كان حدثا وضعيفا

(١٤)ـ يتجلى ذلك في موقفأهل الاردن عندماوافقوا على مبايعة حسان بن مالك الكلبي أمير فلسطين على الدعوةالى آل أمية واشترطوا أن يجنبهمالغلامين عبدالله وخالدا ابني يزيد بن معاوية قائلين انا نكره أن يأتينا الناس بشيخ (أي عبدالله بن الزبير) ونأتيهم بغلام .

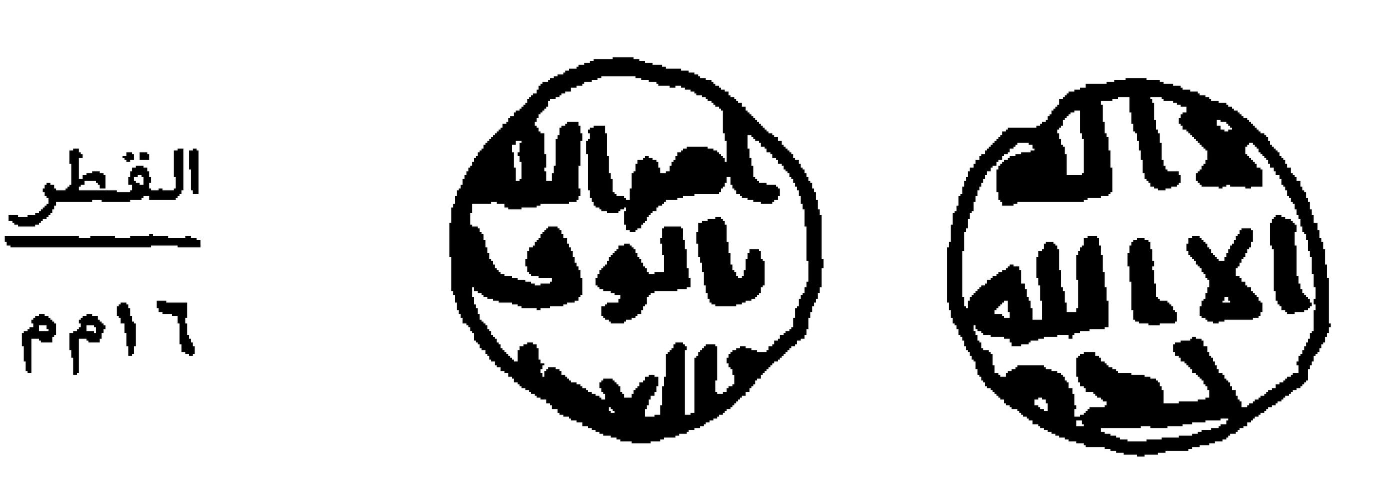
فاعتذر الى المسلمين عن مهمة الخلافة واعتزل في بيته حتى مات وشاءت الظروف أن يكون بعده مروان بن الحكم الذي كان همه الكبير هو أن يسترد سلطة بني أمية ، فبدأ يعمل على تركيز سلطته في دمشق ولكن أميرها الضحاك بن قيس الذي كان يدعو سرا الى عبدالله بن الزبير تصدى له وحدثت معركة مرج راهط في عام ٦٥ هجرية وانتصر مروان على الضحاك ولما علم أمير حمص النعمان بن بشير بهزيمة الضحاك فر منها ، وكذلك فعل زفر بن الحارث الكلابي أمير قنسرين اللذان أعلنا دعوتهما الى عبدالله بن الزبير وسهل ذلك على بن الحكم استرجاع كافة بلاد الشام تقريبا الى سلطة بني أمية .

يهمنا من سرد هذه الاخبار أمرين : الامر الاول : أن النعمان ابن بشير كان ذو مكانة كبيرة لدى الخليفة الاموي ويؤكد ذلك سفارته الى أهل المدينة وغيابه عن ولايته وأخيرا فراره من المدينة اذ من المألوف في مثل هذه الظروف أن يوكل أمر المدينة في غيابه الى أحد من الثقاة ومن خلال استطلاعنا الموضوع من النواحي التاريخية والسياسية والفنية نجد أن أقوى مرشح للحلول مكان النعمان هو مروان كما أنه من المحتمل أن يكون قد ولي مروان المذكور على دار السكة مقام مروان هذا في مرحلة انقلاب النعمان بن بشير على بني أمية بأن أصدر هذه الفلوس على غير نسق الفلوس ذات النمط العربي البيزنطي المألوف الذي تبناه بنواميه . فزينها باليربوع والارنب والسلحفاة وهذه الحيوانات الثلاث ترمز الى بقاع من الجزيرة العربية اشتهرت بالخصب . وربما قصد مروان بن بشير من ذلك أن يشير الى معالم اتسمت بها بقاع القيسية في فترة كانت القيسية كذلك منضمة الى عبد الله بن الزبير ،أي أنها (أقصد الصور) كانت ذات مضمون سياسي والامر الثاني : هو أن عبد الله بن الزبير كان في وضع سياسي لايمكن له فيه الا أن يستصدر النقود وقد ذكرت المراجع (١٥) أن أصدر الدرهم المعرب وكذلك فعل أخوه مصعب الذي يحمل في أحد وجهيه الجزء الاخير

---

(١٥)– انظر الشيخ محمد الخضري ص ٢٦٩ ج٢ . تاريخ الامم الاسلامية مصر ١٩٦٩ .

من مأثورة الشهادة :"محمد رسول الله"وفي الوجه الثاني" أمر الله بالوفاء و العدلين" • وقد عثرنا على فلوس مغفلة شبيهة الاآنها تحمل الجزء الاول من مأثورة التوحيد " لا اله الا الله/وحده " بدل مأثورة الشهادة وهاهو نموذج من هذه الفلوس :



القطر
١٦مم

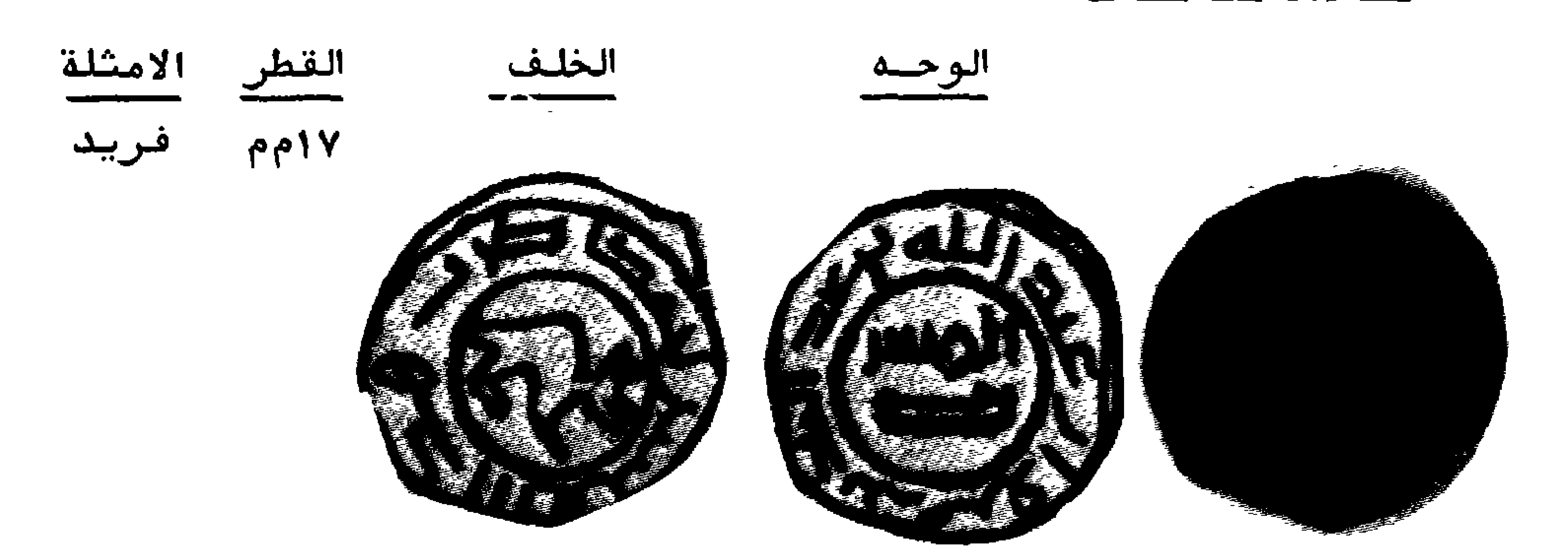
القصد من ذلك هو أن هذهالفلوس ليست بمستغربة ـ كما قد يشعر البعض ـ في تلك الفترة بالذات التي سبقت تعريب عبد الملك بحوالي عقد من الزمن • اذ أن عبدالله بن الزبير كان على دولة تساوي عشرة أضعاف ماكان تحت أيدي بني أمية وكانت تشتمل كما ذكرنا على ثلاثة أقطار كبيرة هي : مصر والحجاز والعراق وكان اتجاهه في ادارة هذه الدولة ذا طابع قومي وديني متشدد وقد ظهر ذلك في شعاره الذي تضمنته نقوده :"أمرالله بالوفاء والعدل"الذي كان يعبر عن سياسته في دولته وكان يريد أن يلحي على خصومه الامويين الاخلال بهذا المعنى في وقت انتهكوا فيه حرم المسلمين وتجاوزا من هم أحق منهم بالخلافة • ولايستبعد أنه كان يأخذ عليهم الاستمرار باستعمال النقود ذات الطابع البيزنطي التي تحمل صورا للاباطرة البيزنطيين •

يمكننا أن نفهم مما تقدم أن الامارة لاتعني بالضرورة الولاية على المدينة أو حكمها فقط وانما يمكن أن تعني الرئاسة بشكل عام كما تعني المسؤولية في المناصب المتقدمة على صعيد الادارة والجيش وهذا مايفسر استعمال لقب أمير قبل المشرف على السكة ، ويمكن أن تكون امارة مروان بن بشير من هذا النوع ـ كما أشرنا سابقا ـ اذإنه كان مكلفا بالاشراف على دار السكةعلى الارجح أثناء ولاية أخيه النعمان على مدينة حمص •

المجموعة الثالثة :

النموذج ١ :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		١٧مم	فريد



ان هذا النموذج يعتبر مفاجأة اذ أن الدراسات السابقة التي قام بها كل من لافو Lavoix ونوتزل Nutzel وولكر Walker وجميع المهتمين بدراسة النميات العربية الاسلامية قرأت العبارة التي في مركز الوجه " الفسطاط" التي هي القاهرة (١٦) والتي تكررت على عدد من النماذج موزعة الان في باريس وكوبنهاجن ولندن ودمشق .

وهنا في هذا النموذج تظهر نفس العبارة بشكل جلي على فلس من اصدار حمص اذ أنه يحمل في مأثورة حاشية الخلف اسم السكة حمص بشكل واضح وفي مركز الخلف رسم اليربوع كما ورد على سكة حمص التي تحمل اسم مروان بن بشير والتي قمنا باستعراضها .

في الواقع أن هذا النموذج يمدنا بحقيقة لانعرفها ألا وهي تكليف الخليفة عبد الملك بن مروان أحد أولاده الملقب بعبد الله بأمرة جند حمص فور خضوع بلاد الشام له (والمفروض أن عبدالملك كلف أحد أولاده واسمه عبيد الله بولاية حمص في عام ٨١هـ كما ورد في الشبت الوارد في مقدمة هذ البحث) وآثر فرار حاكم حمص السابق النعمان بن بشير الانصاري وحاكم قنسرين زفر بن الحارس الكلابي نظرا لما اشتهر به من ولائهما لعبد الله بن الزبير ، وقد أمده على مايبدو ببعض الرجال الذين كان يعتمدهم عبدالملك نفسه عندما كان واليا على مصر مثل المشرف على السكة أبوشريك الذي قرىء اسمه خطأ بالفسطاط .

(١٦) - أنظر وولكر P. 275 No 910

آنني أجد في هذا الفلس دعما لما ذهبت اليه من آن هنالك فلوس معربة تعريبا تاما سبقت تعريب عبد الملك للنقود الذهبية والفضية • وان هذا الفلس والفلوس التي تحمل اسم مروان بن بشير هي شواهد قوية على ذلك •

المجموعة الرابعة :

النموذج ١ :

الوجه	الخلف	القطر	المثل
		١٦مم	٢ دمشق ١ ووكر رقم ٨٠١ ١ ايليش

الوجه :

المركز: نقطة تحيط بها دائرة

النطاق: لا اله الا الله وحدة

الخلف :

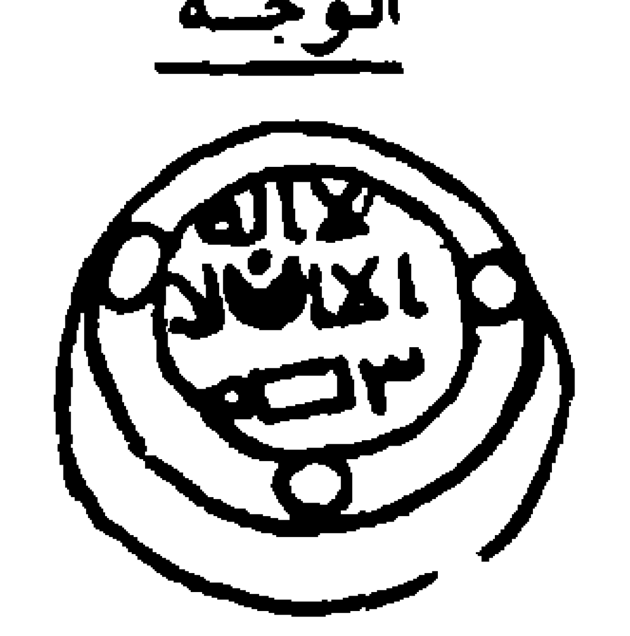
نقطة في وسط هلال

ضرب هذا الفلس بحمص

ملاحظة: النقطة فوق آخر كلمة (وحده) لم تردسوى على نموذج واحد كما آنه لم يشاهد مثلها على آمثلة دمشق •

ان هذا النموذج مآخوذ من نموذج مماثل شهير صدر في دمشق ومنها انتشر بحيث قلد في عدة مدن منها سرمين والحسر والرملة ونموذجنا هذا في حمص • ولكن لابد من الاشارة الى آن الانتشار الاعظم هو لنموذج شبيه تماما صدر أيضا في دمشق ، والاختلاف في هذا النموذج المشار اليه هو آنه يحمل في دائرة مركز الوجه (*) ،وفي دائرة مركز الخلف نجمة سداسية (✱) حيث تتوفر منه عدة آمثلة •

النمـــــــوذج ٢ :

الوجـه	الخلـف	القطر	الامثلـــــة
		٢٢مم	١ دمشق

الوجـــه :

المركز: لا الـه
الا الله لا
شريك لـه

الخلـــف :

المركز: نجمة خماسية حولها نقط
طـوق :
نطاق : محمد رسول الله أرسله بالـه(هدى)
طـوق :
نطاق : (بسم الله)ضرب هذا الفلس بحمص
طـوق :

يلاحظ في هذا النموذج فزلكة وترف في التصميم والاخراج وهندسة الحرف وذلك كما يلـي :

١ ـ انه فريد في تصميمه ليس فقط بالنسبة لاصدارات حمص بل بالنسبة لاصدارات العهد الاموي بكامله اذ لم يرد في اصدارات آية مدينة حتى دمشق نموذج على هذا النحو ،فهل يمكن أن يكون اصـــداره في فترة لم تكن فيه حمص سياسيا تضرب على منوال دمشـــق وبالتالي يكون مثل هذا النموذج تعبيرا عن تميزها .

٢ ـ الفزلكة في هندسة الاحرف وفلسفتها على هذا النحو لم ترد فــي نماذج أخرى ،أنظر كيف استبدل السكاك لفظ الجلالة بالهلال والقمر في الوجه ، واختصر كلمة (وحده)وكيف كتب المأثورة جميعها بالاسلوب المزوى للخط ونفذ (لا)في آخر السطر الثاني بالاسلوب اللين ،كمـا أن عبارة (لاشريك له) كلها لم تنفذ على هذا النحو في أي نموذج آخر،هذا في الوجه .

أما الخلف :

١ - لم نعلم عن وجود أي نموذج يحمل نطاقين اضافة الى المركزلذلك يمكن اعتبار هذا النموذج استثناء .

٢ - وردت النجوم في مراكز بعض الفلوس ولكن لم تكن رؤوسها لينة كما في هذا النموذج .

المجموعة الخامسة :

هذه المجموعة تتألف من النقود المؤرخة ، لذا يمكن أن نعتبر هذه المجموعة بالغة الاهمية ذلك لانها تعطينا فكرة عن أشكال النقود في فترة مابعد تعريب عبد الملك من الناحية الفنية في فترات زمنية مختلفة ، كذلك تقدم لنا مأثورات بأسلوب ومستوى كتابة يساعدنا في التعرف على النقود المعاصرة لها ولحسن الحظ توفر لنا في هذا المقال مالم يتوفر لغيرنا حيث أمكننا الحصول على نموذجين اضافيين عما هو معروف من النقود المؤرخة سابقا وفيما يلي تباعا هذه المجموعة من الفلوس .

النموذج :

١ - عام ٧٩ هجرية	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
			٢١مم	١

الوجه :

في المركز: لا اله
الا الله
وحده

طوق :

نطاق :بسم الله //هذ الفلس//
(كتابة غيرواضحة يمكن أن يكون آخرها (ص)

طوق :

الخلف :

محمد
رسول
الله

طوق :

نطاق :ضرب هذ الفلس ////سنة تسع وسبعين

طوق :

قد لايكون هذا النموذج من ضرب حمص ولكنه من النماذج الاولى التي صدرت بعد اصلاح عبدالملك والتي نشعر باستمرارها في عدد من النماذج المؤرخة في حمص وفي غيرها أي يمكن أن يتخذ كأساس للتعرف على الفلوس التي صدرت بعد اصلاح عبد الملك بن مروان والتي تشبه بتصميمها وتوزيع مأثوراتها الدينار والدرهم بعد مرحلة الاصلاح المذكورة ولاشك أن هذا النموذج يفضل غيره من حيث امكانية استيعابه لقدر أكبر من المأثورات .

النموذج :

٢ في عام ١١٠	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
المركز:	لا اله الا الله وحده	محمد رسول الله		هذا النقد عرضه وولكر في مصنفه برقم J.10 ص٢١٦ وهو من مجموعة جامعة جينا في لايبزغ
طوق :		طوق :		
نطاق :	ضرب الفلس سنة عشر (ومئة)	نطاق : بسم الله ضرب الفلس بحمص		
طوق :				

النموذج :

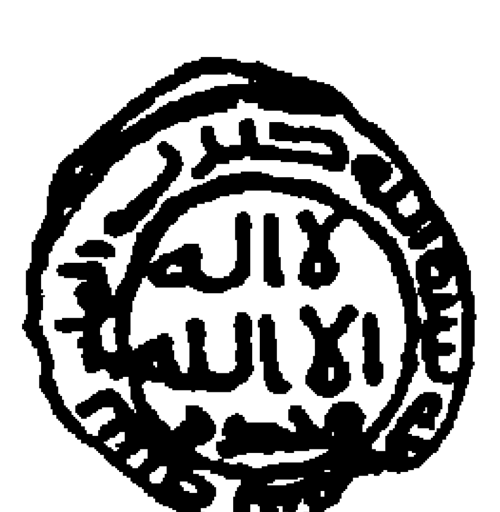
٣ في عام ١١٦	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
			٢٠مم	٤ دمشق ٥ وولكر رقم ٨٠٧- ٨١١ ص ٢٤٧

النموذج :

٤ في عام ١١٧	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
			٢٠مم .	١ دمشق ١ الدكتور ايليتش سويسرا آشار اليه مايكل بيتس

مثل سابقه ماخلا :
السنة التي يرجح أن تكون تسع عشرة ومئة)

النموذج :

٥ في عام ١٣٠هـ	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
			٢١مم	١ دمشق

مثل سابقه :
ماخلا اختلاف في مأثورة نطاق الوجه حيث أضيفت " البسملة "وتغير التاريخ الى "١٣٠هـ" وظهرت في الخلف نصف دائرة في أعلى مأثورة الخلف ونجمة الى جوار لفظة الجلالة في أسفل مأثورة المركز .

وهكذا نرى من خلال هذه المجموعة التي بدأت بتاريخ ٧٩هـ وانتهت بتاريخ ١٣٠هـ أنه لم يكن ثمة تغير في النمط ونصوص المأثورات لانها تمثل النموذج الافضل . قد يكون ذلك بعد محاولات تمثلها النماذج الاخرى التي تعبر بالفعل باضطراب أنماطها وأخطاء مأثوراتها وبدائية اسلوب كتابتها مرحلة سبقت هذه المرحلة والا فهل يمكن أن يقبل المستوى الادنى في الوقت الذي تتوفر فيه الامكانية للوصول الى المستوى الافضل ؟

أخيرا لابد من الاشارة الى أن هناك نماذج من الفلوس النحاسية المغفلة التي لانعلم بالتأكيد في أية مدينة سكت وقد ورد من حمص عدد منها . عرضنا نموذجا منها في نهاية المجموعة الأولى ومازال هناك عدد منها بحاجة الى مزيد من الدراسة .

نرجو أن نكون بهذا الجهد المتواضع قد أسهمنا في القاء المزيد من الضوء على آثار وتاريخ مدينة ابن الوليد وذلك استجابة لدعوة زملائنا وأصدقائنا في الجمعية التاريخية ، راجين أن نوفق مستقبلا في نشر بحث خاص عن النقود التي ضربت في حمص في العصور اللاحقة والتي تعتبر نادرة جدا .

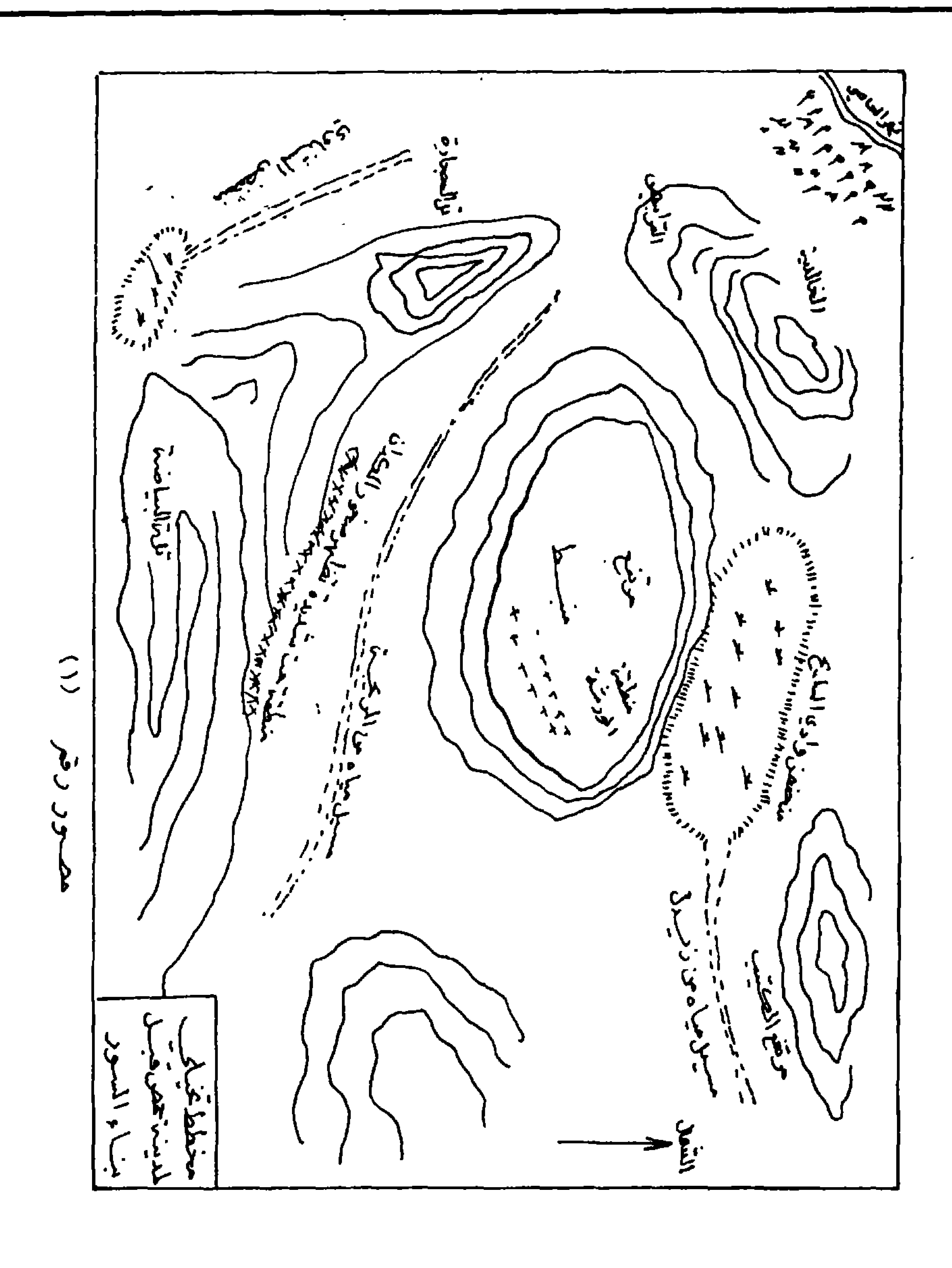
أبث شكري وعرفاني الى الاخوات والاخوة الذين مدوا يد العون لي أثناء اعدادي هذا البحث وأخص منهم : السيدات زميلتي منى المؤذن وناهد الحموي،ورحاب داوود وزوجها الاستاذ أحمد المفتي والاستاذ فاتح الاحمد والصديق أمين نجار والانسة أمل حسيني راجيا المولى أن يجزيهم عني كل خير .



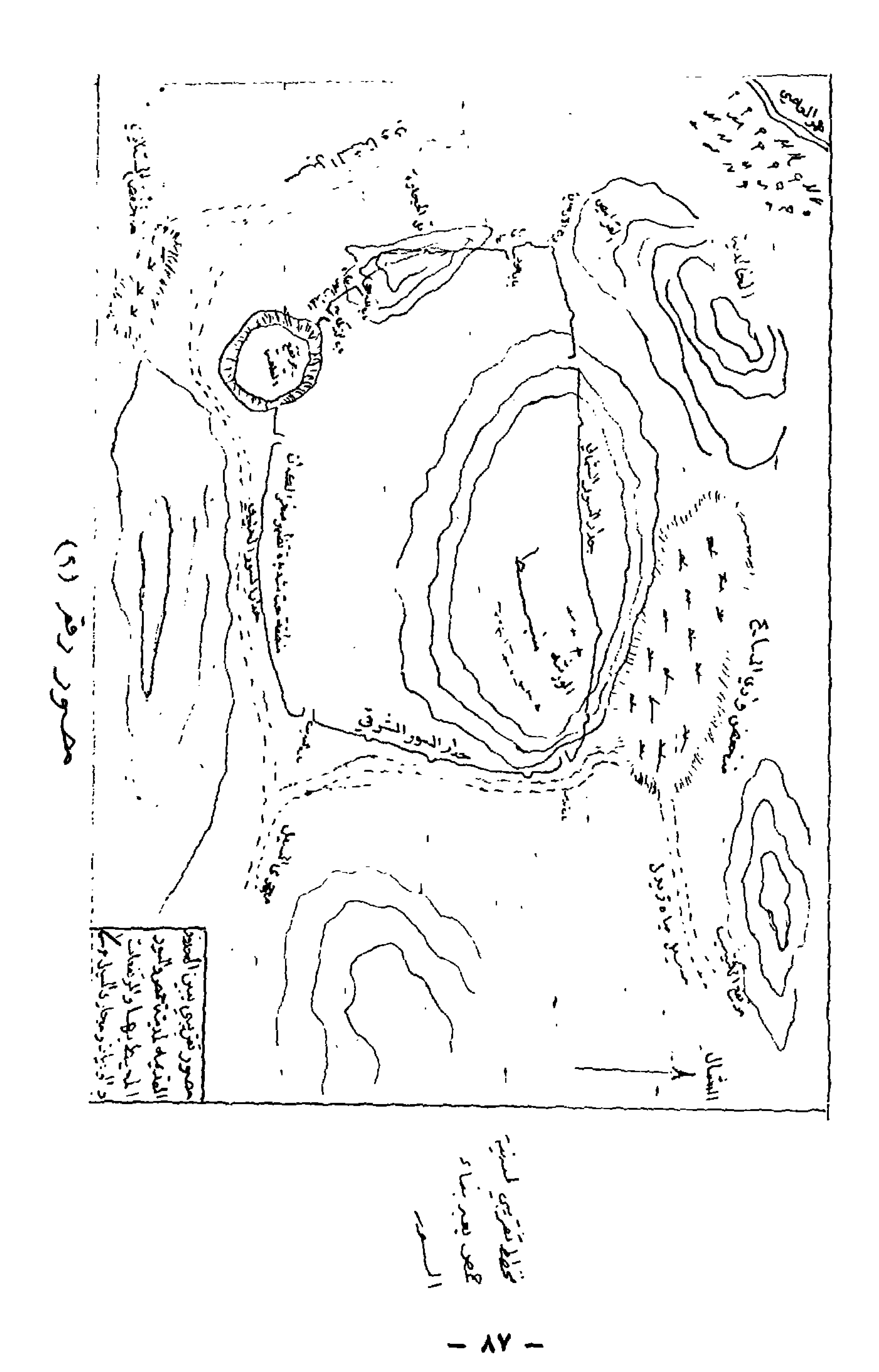
تقرير عن حفريات شرقي جامع النوري الكبير بحمص

بقلم الدكتورة تغريد الهاشمي
مديرة آثار حمص

ليس لدينا من الوثائق التاريخية والقرائن الأثرية مايشير الى سكن حمص قبل منتصف الألف الثالث قبل الميلاد وجل مانعرفه عن تاريخها القديم يعود الى نتائج التنقيبات الأثرية والوثائق المكتشفة في بعض المواقع كالمشرفة وقادش وايبلا وتل العمارنة وتل قلعة حمص(١) ومايتناثر في المصادر التاريخية من معلومات عنها واشارات عابرة تعوزها الدقة والامانة العلمية في أحيان كثيرة، وطالما أن التنقيب في تلك المواقع الهامة لايزال في بداياته لذلك فان الحديث عن تاريخ حمص ماقبل العصر الاسلامي لايخلو من نواقص وفجوات اضافة الى الغموض الذي يلفه فالتنقيبات الأثرية تقدم لنا المفاجآت باستمرار وان أي حديث عن تاريخها القديم سيكون غير دقيق مالم تجر تنقيبات نظامية وعلمية في المدينة القديمة تميط لنا اللثام عن تاريخها القديم المدفون هنا وهناك تحت سطح المدينة . وحسب المعلومات المتوفرة لدينا حاليا يعتقد أن أقدم موضع سكن فيه الانسان في حمص هو تلها الذي يقع جنوب غربي المدينة القديمة بالإضافة الى الاماكن القريبة من المياه . ان نتائج التنقيب في الطبقات الدنيا للتل المذكور أثبتت اعتمادا على دراسة اللقى الفخارية أن الموقع كان مأهولا اعتبارا من النصف الثاني للالف الثالث ق .م(٢) . وإذا جاز لنا أن نقول استنادا الى تلك النتائج أن حياة المدينة بدأت في العصر الحجري الحديث فاننا نرجح بأنها لم تكن آنذاك سوى قرية صغيرة ليست على شيء كبير من الأهمية ثم تحول مكانها الى قلعة (أنظر المخطط رقم١) وفي شمال شرق القلعة قرب موقع الورشة الحالي الذي يقع شرقي المدينة نشأت أول قرية زراعية . وعند توسعها كان لابد من امتدادها باتجاه القلعة واحاطة الاثنين معا بسور واحد (المخطط رقم ٢) وتكوين مدينة صارت عاصمة لدولة يحكمها ملوك كهنة . وأنها لم تبرز الى ميدان الحضارة الا بعد أن توقفت حياة مدينتي قطنة وقادش في العصر الروماني فورثت حمص أهميتهما وخلفتهما كعقدة مواصلات هامة في سورية الوسطى .



مصور رقم (١)



مصور رقم (٢)

ويتضح تاريخ حمص في عهد أسرة شمسيغرام التي حكمت حمص منذ مطلع القرن الاول قبل الميلاد بعد أن انتزعتها سنة ٩٦ ق٠م من سلطان السلوقيين وشكلت فيها دولة صغيرة حكمت حمص حتى الربع الأخير من القرن الاول الميلادي وكان هؤلاء الامراء العرب يتولون سدانة معبد الشمس المشهور ويتمتعون بثراء فاحش وشهرة كبرى وقد ضرب هؤلاء الامراء النقود بأسمائهم ولعبوا دورا بارزا في السياسة الداخلية الرومانية [٣]• وعلى الرغم من زوال النفوذ السياسي لتلك الاسرة في نهاية القرن الاول الميلادي بسبب تشديد الرومان قبضتهم على سوريا فان المكانة التي نالتها حمص في عهد أسرة شمسيغرام ظلت كما هي وتابعت المدينة ازدهارها في ظل حكم الولاة الرومان • ثم تصبح المعلومات التاريخية عن حمص أكثر وضوحا في العصر الروماني لاسيما بعد وصول الاسرة الحمصية الى عرش روما نتيجة لزواج جوليا دومنة إبنة كاهن معبد الشمس باسيانوس من القائد الروماني سبتم سيفير الذي أصبح امبراطوراً فيما بعد (١٩٣- ٢١١م) والذي كان له أثر كبير لا في تاريخ حمص فحسب بل في تاريخ روما والشرق الادنى حيث بدأ عهد الاباطرة السوريين الذين ساعدوا على انتشار النفوذ الثقافي السوري• وقد اهتم سيفير بسورية وطن زوجته وجعل من حمص عاصمة لسورية الفينيقية واستمر الاهتمام بمدينة حمص في عهد ابنه الامبراطور كاراكلا (٢١١- ٢١٥م) والامبراطورين ايلاغابال (٢١٨-٢٢٢م) والكسندر سيفير (٢٢٢-٢٣٦م) حيث أصبحت حمص مركز الامبراطورية ومحط أنظارها وتولي كثير من سكان حمص مناصب الدولة الكبرى وتمتعوا بعضوية مجلس الشيوخ وانتقادا لهذا التأثير العارم لمدينة حمص في روما كتب الشاعر الروماني الهجاء جوفينال" ان العاصي صب مياهه منذ فترة طويلة في نهر التيبر حاملا معه لغة سورية وتقاليدها وثقافتها" لقد عزز زواج جوليا دومنة من سبتم سيفير ووصول هذه الاسرة الحمصية الى عرش روما دور حمص العالمي وانتشرت تجارتها بين الخليج العربي والبحر المتوسط فوصل أهالي حمص بتجارتهم عبر البحر المتوسط الى

ايطاليا وغالية واسبانيا . وازدانت حمص آنذاك بعدد كبير من المنشآت الهامة كالقصور والمعابد والقلاع والحمامات ومن أهم تلك الأوابد التي زهت بها حمص في ذلك العهد معبد الشمس المشهور والصومعة وبعد انتشار المسيحية فيها ولاسيما في العصر البيزنطي غدت حمص مقر أبرشية وانتشرت فيها الكنائس الفخمة منها كنيسة القديسة هيلانة التي قال فيها المسعودي أنها من عجائب الدنيا والكنيسة الكبرى التي يقال ان رأس النبي يحيي نقل اليها بعد اكتشافه سنة ٤٥٣م(٤) وكانت من أكبر الكنائس المسيحية التي ارتفع بناؤها في سوريا خلال العصر البيزنطي اضافة الى كنيسة مار قسطنطين وربما تكون هذه المسميات الثلاثة لمكان واحد .

لكن للاسف زالت معالم تلك العصور الزاهرة واختفت المعابد والقصور الرائعة نتيجة الكوارث البشرية والطبيعية التي حلت بالمدينة وكان أفدحها الزلازل التي حدثت في القرنين الخامس والسادس الميلاديين وهدمت المدينة عدة مرات في الاعوام (٤٤٧ - ٤٥٨ - ٤٩٤- ٥٢٦- ٥٢٨)م.

وبسبب النكبات التي حلت في هذه المدينة وغيبت آثار الماضي من جراء الغزوات التي كانت تشن عليها من الروم البيزنطيين كغزوة الامبراطور نقفور فوكاس ٩٦٨م ثم غزوة باسيل سنة ٩٩٠م وأخيرا غزوة دوق انطاكية سنة ٩٩٩م وفيها لجأ بعض أهلها الى كنيسة مار قسطنطين تحرماً بها فأحرقها الروم بمن فيها .

فهذا الخراب والحرق اللذان كررهما الروم ثلاث مرات مترادفات أجهزا على عمران حمص بالكلية وحرماها المعابد العظيمة والقصور والاثار القيمة التي كانت تزدان بها في العصور السالفة (٥) ،يضاف الى ذلك استمرار السكن والعمران في المدينة القديمة مما أدي الى اختفاء نواة السكن القديم تحت منشآت المدينة الحالية وضياع مخططها القديم. كل ذلك يجعل التنقيب عن آثارها القديمة والتوصل الى مخططها القديم في غاية الصعوبة . ونتيجة لصعوبة القيام بأعمال تنقيب واسعة في المدينة القديمة كان لابد من مراقبة عمليات الهدم والبناء

التي تتم في المدينة الواقعة ضمن الأسوار لنتمكن من تلمس بعض أحوال الماضي . ففي باطن هذه المدينة قد توجد كنوز من تاريخها الدفين تنتظر من يخرجها الى النور . وأجوبة كثيرة عن الاسئلة التي تبدو حاليا بدون جواب سيصار بالتالي الى تقديمها ونشرها لان المعلومات الاثرية والتاريخية المعروفة عنها قليلة جدا . في الوقت الحاضر ولاتتناسب مع ماضيها الزاهي فقد ساعد موقعها الجغرافي الممتاز في أن تكون موطن نشاط بشري ساهم في حضارة سورية منذالقديم وساهم في اعطائها أهمية خاصة من الناحية التجارية فمن خلال نشاطها التجاري المتميز ساهمت في انتقال التراث الانساني اضافة الى التأثيرات السياسية . لذلك فان موقعها الجغرافي ونشاطها التجاري الهام جعلاها ذات دور فعال في السياسة العالمية خاصة أيام السلوقيين والرومانيين والبيزنطيين . لذلك آمل أن يكون عملي المتواضع هذا محاولة لإلقاء بعض الاضواء على فترة هامة من تاريخها وان يكون لبنة تضاف الى اللبنات التي قدمها آخرون غيري لإزالة بعض الغموض عن تاريخ هذه المدينة من خلال أعمال التنقيب فيها آملين أن يحمل لنا المستقبل ونتائج التنقيب القادمة مايساعد في إثراء معارفنا عن تاريخ حمص وينير لنا الدرب أمام خطواتنا الوئيدة وسوف نتحدث فيما يلي عن أعمال تنقيب قمنا بها في مدينة حمص والتي أدت الى نتائج هامة .

التنقيب الطارئ في حي الفاخورة شرقي جامع النوري الكبير بحمص :

(من ٩/أيار ١٩٨٨ ولغاية ٧ تموز ١٩٨٨):

في التاسع من شهر أيار ١٩٨٨ بدأنا التنقيب في العقارات ٣٠ ـ٣١ ـ٣٢/المنطقة العقارية الرابعة التي تقع في حي الفاخورة شرقي جامع النوري الكبير لملاحظتنا وجود معالم أثرية تنم عن جدار السور الشمالي للمدينة الذي يتجه من شرقها عند باب تدمر الى غرب المدينة عند برج الاربعين ،وذلك أثناء تقصي المدينة لتحديد مسار السور فيها على الواقع من أجل التحضير لندوة (أسوار حمص وقلعتها) التي

شاركنا فيها خلال المهرجان الثقافي السنوي الذي تقيمه محافظة حمص سنوياً (٦).

بدأنا التنقيب* باجراء الأسبار للتأكد من مرور السور فيها فجاءت النتائج الأولية تؤكد صحة افتراضنا فبعد أن قمنا باجراء سبر في النقطة التي توقعنا مرور السور فيها بدأت تظهر معالم واضحة لجدار بعرض ٣٠ر٢م وارتفاع ثلاثة مداميك ،والجدار المذكور مبني بحجارة بازلتية غشيمة لها قاعدتان الاولى ٢٥×٢٥ سم والثانية ١٥×١٧ سم وهو رقم وسطي (صورة رقم ٣) ثم تابعنا العمل لكشف باقي الجدار بعد أن توضحت معالمه على طول ٢م • وخلال العمل لكشف باقي الجدار تم كشف أرضية جميلة من الفسيفساء بطول ٨م وعرض ٤م ، لكن للأسف يوجد تشوه كبير في أماكن كثيرة منها نتيجة لأعمال تدمير وحرائق تعرضت لها المنطقة سابقاً • وتمثل لوحة الفسيفساء هذه مبنى على جانب كبير من الأهمية بالإضافة الى حي سكني يمكن أن يستدل منه على نمط عمارة حمص في تلك الفترة (صورة رقم٤) ويحيط باللوحة إطار رائع مزدان بتزيينات نباتية من أزهار الأكانتوس ذات الألوان الزاهية كالبرتقالي والأحمر والأبيض والأخضر (صورة رقم١٥)

وقد لاحظنا بأن هذه اللوحة استخدمت كأرضية مرة ثانية بدليل استكمال النقص فيها بقطع من الرخام الملون• ومما أثار انتباهنا اختراق السور لها في جزئها الشمالي مما يدل على أنها أقدم عهداً من الجدار المكتشف (A) ويبدو أنها كانت أكثر امتداداً نحو الجنوب نتيجة عثورنا فيما بعد على أجزاء كبيرة منها ضمن المدافن المكتشفة في الحنية • كما ظهر أثناء التنقيب باب بعرض ٢م وطول ٥٣ر٢م بعمق ٧١ سم كان يتوارى معظمه خلف الردميات والباب مبني بحجارة بازلتية كبيرة أما ساكفه فقد بني بحجارة كلسية ضخمة (صورة رقم ٦) • وقد تم تدعيم الباب لملاحظتنا وجود خطورة في ساكفه فبعد إزالة الردميات عنه وتعرضه لعوامل الطبيعة فجأة بدأت تظهر تشققات حديثة في الساكف إضافة الى تصدعات قديمة وعميقة لذلك قمنا بتدعيمه بمورينات خشب تلافيا للخطر الذي يمكن أن يحدث (صورة رقم٧) •

---

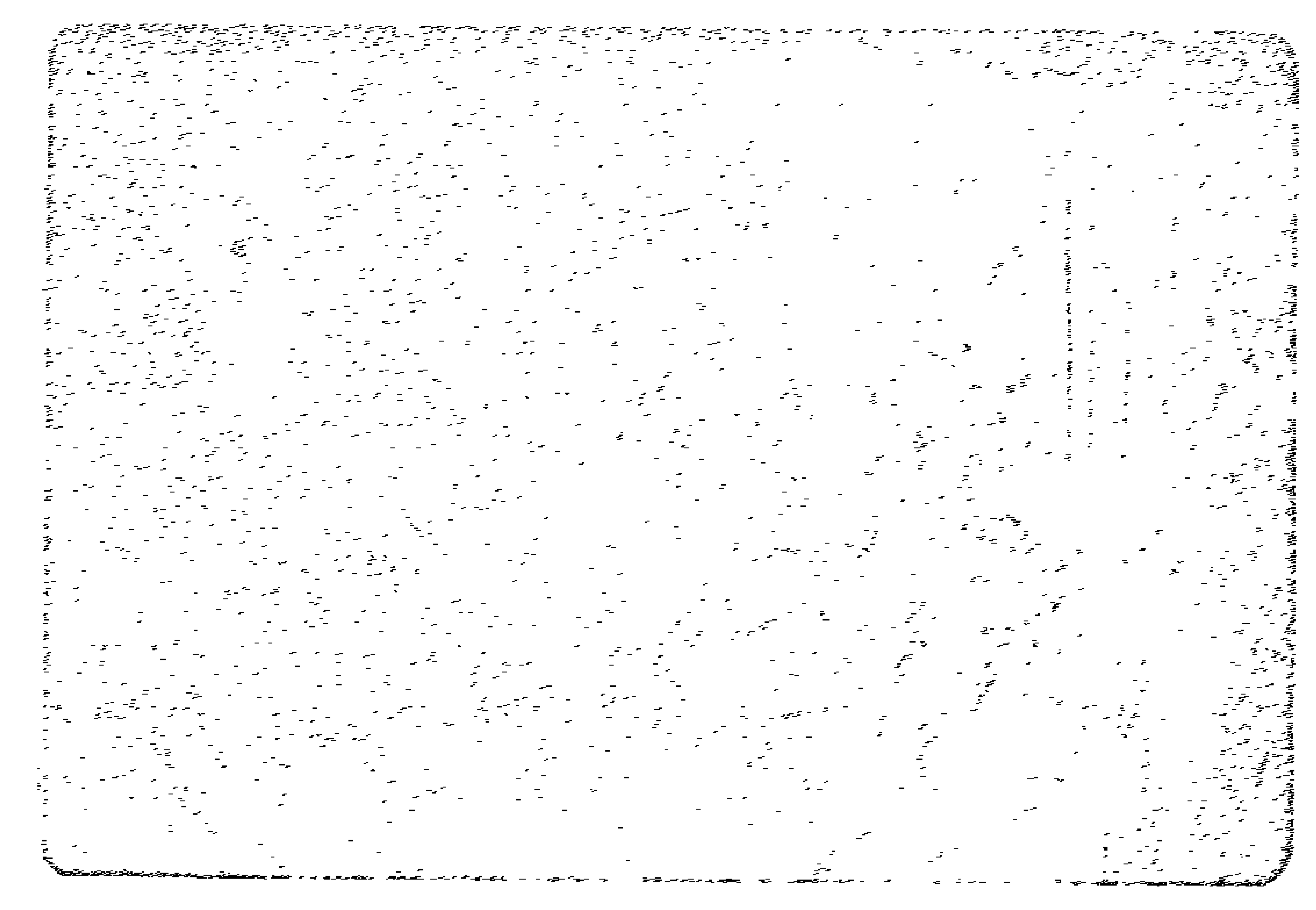
* شارك في التنقيب من دائرة آثار حمص الانسة نداء دندشي كما شاركت المهندسة مي النبهان برسم مخطط الحفرية فلهما الشكر •



صورة رقم ٢٠

أساسات السور المكتشف

صورة رقم (٥)
إطار اللوحة العربية



صورة رقم (٤)
لوحة الفسيفساء العربية وجدت في الجزء الغربي
من الحمامات ٢٠-٢١-٢٢/ [illegible]

مصور رقم (٧)
الباب بعد تدعيمه

تظهر في الصورة بداية الحنية وجزء من الضريح

الجدار الغربي الفاصل بين كنيسة جامع النوري الكبير
والكنيسة المكتشفة

بعد الانتهاء من كشف الباب وتدعيمه بدأنا بالعمل في الزاوية الجنوبية الغربية التي كانت تبدو مهمة للغاية لأنها بقيت بمنأى عن عبث الآليات الثقيلة التي عملت في الموقع سابقاً وكان يبدو واضحاً الترتيب الستاتيغرافي للطبقات فيها وفي هذه المنطقة بالذات توصلنا الى نتائج حفرية في غاية الأهمية فبعد إزالة الركام والأنقاض عنها بدأ يتوضح تدريجيا شكل نصف دائري (حنية) الى الجنوب الشرقي من الباب المكتشف يمتد قليلاً داخل حدود العقار المجاور وفي وسط الحنية ضريح مبنى بالآجر طوله ٢٠ر٢م بعرض ٣٠ر١م بارتفاع ٨٥ سم يتجه من الغرب الى الشرق تتوسطه حفرة صغيرة قطرها ٢٠ سم وعمق ٣٠سم وقد طلي الضريح مع الجدران بكلس يبدو أنه جدد ثلاث مرات . وقد تم العثور على قطعة صغيرة من الطلاء الكلسي الذي طليت به جدران الحنية وعليها خطوط ملونة حفظت للدراسة إضافة الى قطعة نقد برونزية متأكسدة ملتصقة بجدار الضريح . في الوقت ذاته استمر العمل لمتابعة كشف مسار الجدار المكتشف (السور) حيث بدأت تظهر تطورات في معالمه أولها زيادة عرضه حتى ٩٠ر٢م بالإضافة الى تخلخل سطحه الخارجي مما استوجب إحداث المربع (C) بأبعاد ٣×٣ م كما فتح المربع (D) في نفس اليوم في وسط الموقع .

في المربع (C) تم العثور على جزء من عمود غرانيتي داخل ضمن أساس السور ويبدو أنه من الأعمدة التي تعود الى المنشأة المكتشفة نفسها . وقد استخدم كأساس لجدار السور في العصر الإسلامي مما يدل على أن السور المكتشف أحدث عهداً من المنشأة ثم ظهر جدار آخر(B) بعرض ٨٠ سم يتصل مع الجدار(A) بزاوية التقاء حادة . ولدى العمل للوصول الى الأرضية التابعة له عثرنا على لوحة فسيفساء معظمها بحالة سيئة ماعدا الجزء الموازي للجدار والأرجح أنه يمثل إطار اللوحة المخربة . واللوحة المشار إليها مكونة من تزيينات هندسية مما يدل على أن اللوحة ترتبط تماما مع الجدار(B) وأثناء توسيع المربع (C) ظهرت آثار باب ذي عتبة حجرية بازلتية بعرض ١٢ر١ م

كما ظهر جدار آخر (C) يحدد أرضية من حجر البازلت ذات مستويات مختلفة مما يشير إلى مراحل بناء واستخدامات متعددة لهذا المكان .

وفي الجزء الجنوبي من السور ظهرت مساحة مرصوفة بحجارة بازلتية غشيمة بالإضافة الى كتل حجرية عادية متوضعة بشكل عشوائي يمكن أن يستخلص من بينها شكل قريب من الدائري وفي وسطه مواد مذابة وشديدة الصلابة بفعل حريق ذي درجة حرارة عالية ،وقد أرسلنا نماذج منها إلى معهد البتروكيمياء للتحليل لنستطيع تحديد هوية المنطقة المكتشفة واستخداماتها .

أما في المربع (A^2) فقد ظهر على عمق ٣٠سم جزء من لوحة فسيفساء لكن حباتها غير متماسكة وكانت تنفرط بسرعة باستثناء قطعة صغيرة منها مساحتها ١,٥٠ x ١,٥٠ م كانت بحالة جيدة وتمثل صلباناً بيزنطية الطراز ذات ألوان جميلة للغاية تتدرج بين الأبيض والرمادي والأزرق المتدرج الألوان . كان اكتشاف هذا الجزء من لوحة الفسيفساء ذا أهمية خاصة من حيث النتائج التي ترتبت عليه فمن خلاله استطعنا تحديد هوية المنشأة المكتشفة وأصبح واضحاً أنها كنيسة ذات شأن وبقي علينا أن نعرف اسمها .

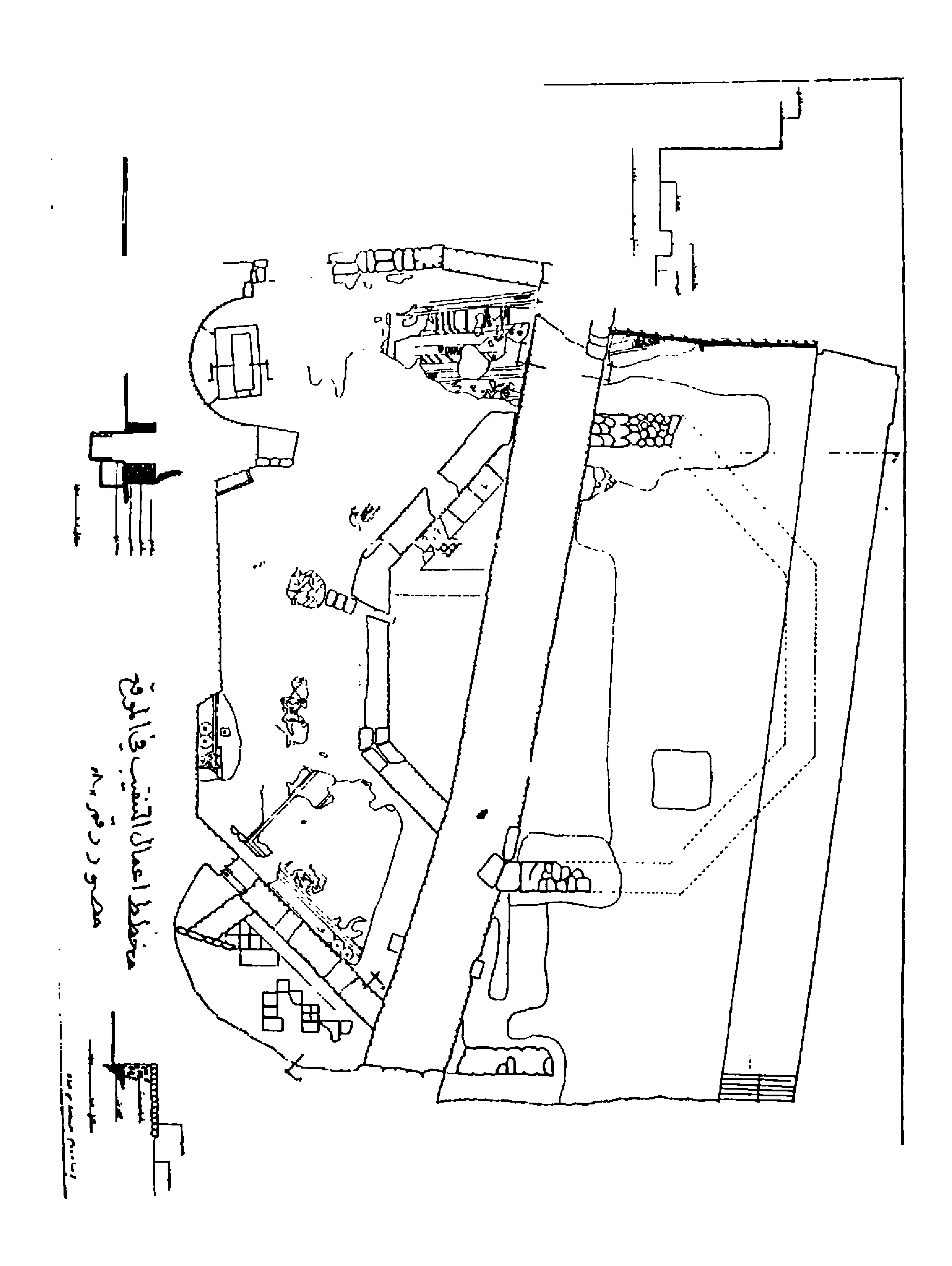
وبعد أن استكملنا التنقيب في الجزء الجنوبي من العقارات بدأنا باجراء الأسبار في الجزء الشمالي لمتابعة بقية أضلاع المثمن ولوحات الفسيفساء التي تزينه وان كنا نرجح آنذاك عدم وجود استمرارية لأضلاع المثمن في ذلك الجزء نظراً لانخفاض مستوى الأرض فيه مما يدل على أن تشويهها في أرضية المثمن وأضلاعه قد حصل منذ زمن ليس بالقريب ونتيجة لتراكم الأنقاض فيه وصعوبة العمل بالتالي عدنا للعمل في الجزء الجنوبي حيث قمنا بتنظيف لوحة الفسيفساء الغربية لتصويرها كما قمنا بإزالة الردميات من الفجوة التي وجدت الى الشرق من الضريح الذي يقع ضمن الحنية والتي يمكن أن تكون بئراً لأن التدقيق في شكله جعلنا نشك بأن يكون بئراً نظرا لوجود صخرة كلسية ضخمة عند نقطة الإلتقاء بين القوس الذي يضم الحنية وبداية القوس الآخر مما جعلنا نرجح بأن يكون مدفناً أو قبواً داخلياً يتبع للمبنى ،ولكن بعد

إزالة الردميات على عمق ٤ م لم نعثر على أي مؤشر يدل على وجـود مدخل لمدفن ،فأوقفنا عمل رفع الأنقاض منه لأننا وجدناه دون جدوى لاسيما وأن التراب أصبح رطبا مما جعلنا نرجح بأن المكان هو بئر.

في تلك الأثناء تابعنا كشف الجدار(B) وهو بطول ٧٠ر٥م وعـرض ٨٢سم وإرتفاع ثلاثة مداميك ،وتم تنظيف المكان قرب الباب المكتشـف حيث ظهرت استمرارية الجدار المذكور بطول ١٠ر١م فيكون الجـدار بالكامل ٩١ر٧م كما ظهرت آثار جدار آخر(G) يلتقي مع الجدار (B) وقد عثرنا على آثار في غاية الأهمية وقد حفظت للدراسة وهـي عبارة عن بقايا لوحات جدارية (فريسك) ذات رسوم ملونة بألـوان زاهية تتدرج بين الأحمر والبرتقالي والأصفر والعاجي مما أكد لنـا بأن جدران هذه الكنيسة الهامة مزينة باللوحات الجدارية إضافة الـى أننا عثرنا على بقايا من القرميد الذي يستعمل للأسقف وقد تـم الكشف عن ٧٠ر٣م من الجدار (G) وأثناء متابعة العمل لكشف تتمـة الجدار وتنظيفه عثرنا على لوحة فسيفساء أخرى ملاصقة للجـدار(G) مما يدل على أنها بنيت في الفترة نفسها وأنها ترتبط تماما مـع الجدار وهي بطول ٨٠ر١م وعرض ٢٠ر١م وهي بحالة سليمة نسبيا وتمثـل إطار لوحة الصلبان البيزنطية المكتشفة في المربع (B) .

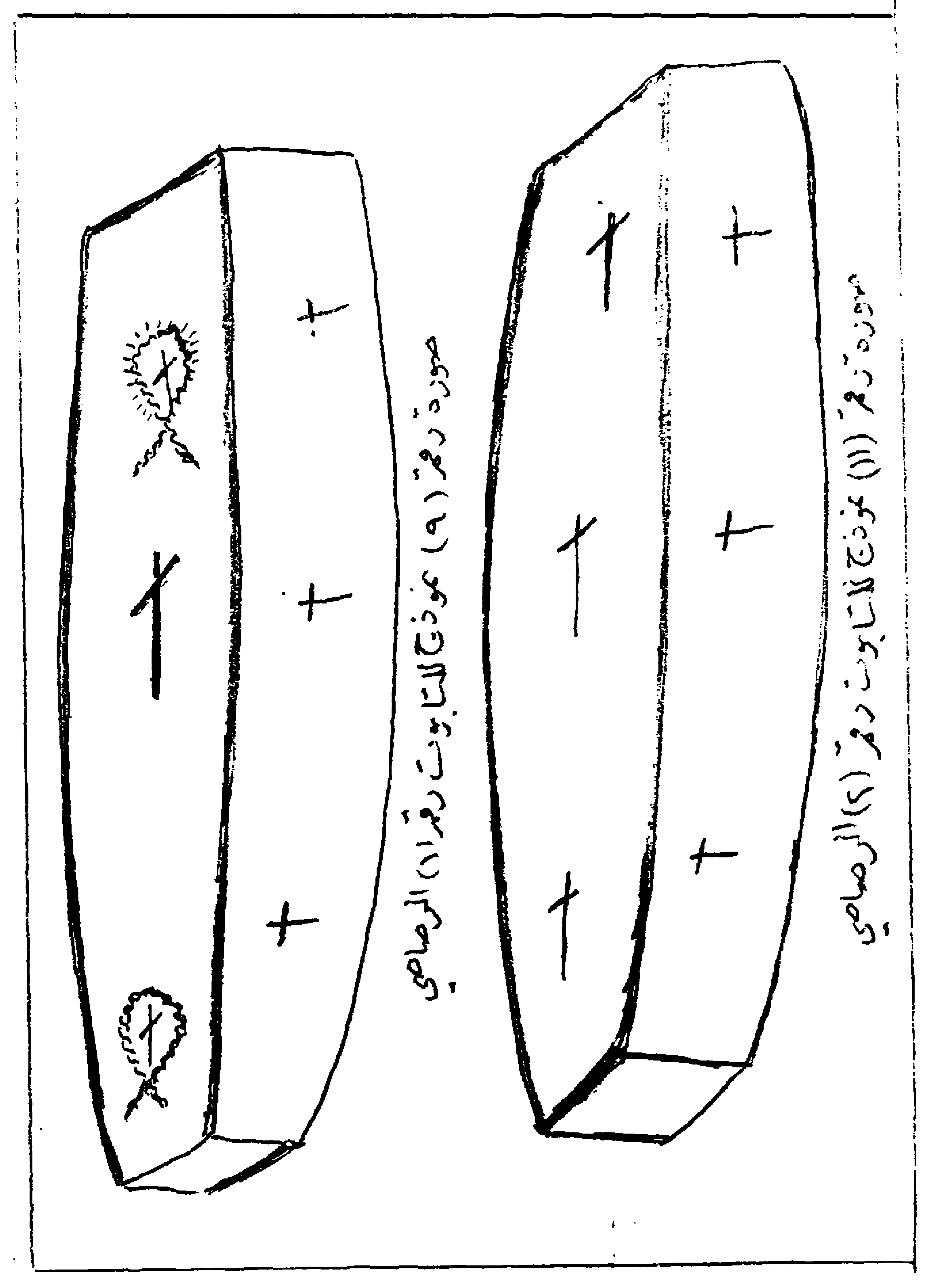
وتم الكشف عن ٧٠ر٣م من الجدار(G) بارتفاع مدماكين في قسمـه الشرقي وأربعة في الجزء الغربي منه كما وجد في منتصفه شكل قريـب من العتبة . وشيئاًفشيئاً بدأت تتوضح معالم الآبدة الأثرية المكتشفـة والتي هي عبارة عن كنيسة مثمنة الأضلاع يتراوح طول الضلع بين٨١ر٥ م للضلع الشرقيو٥٠ر٦م للضلع الجنوبي و٩٠ر٥م للضلع الغربي بسماكة تتراوح بين ٨٥ الى ٩٥سم ،وتزين لوحات الفسيفساء الاطار الخارجي للمثمن بينما يزدان المثمـن الداخلي بالرخام الملون والمرصوف بأشكال هندسية جميلة (الشكل رقم ٨) .

وبعد أن قمنا بترحيل الأنقاض من الجزء الشمالي للعقارات بدأنـا باجراء الأسبار فيه لكن الأمطار هطلت بغزارة يومها ولم نتمكن مـن العمل بتاتاً في ذلك اليوم حيث بقينا ننتظر مع الأستاذ نسيب صليبي(٥)


مخطط اعمال التنقيب في الموقع
مصور رقم ١٨

الذي جاء بتكليف من المديرية العامة للإشراف على التنقيب* آملين أن تكون سحابة صيف وتنقشع لكن الأمر كان أكثر صعوبة مما توقعنا مما جعلنا نقلق بشأن الفسيفساء أن يصيبها الضرر من جراء المطر الغزير فذهبنا تحت المطر لتفقدها وبدت لنا صورة المكان جلية بعد أن غسلتها مياه الأمطار . وتوضح مخطط الموقع أكثر فأكثر وظهر جمال لوحات الفسيفساء بألوانها الزاهية ورسومها البديعة . وكشف لنا المطر عن أشياء لم نكن قد رأيناها بعد فقد تبدت لنا بصورة جلية اللوحات التي كانت ترصف المثلثات التي تقع بين لوحات الفسيفساء بشكل هندسي جميل على شكل(حصير) . وقد عملنا يوم الجمعة في ١٩٨٨/٦/٢٤ عوضاً عن الخميس وبدأنا بفتح السبر الأول في القسم الشمالي(G) شمالي بطول ٤م x ٥٠ر٤م بعمق ٢٥ر١ م ثم تابعنا العمل في الأيام الثلاثة التالية لتوسيع الأسبار الشمالية حيث ظهرت على عمق أكثر من متر الأساسات العميقة لأضلاع المثمن المتبقية . ولكن على استمرار أقل من متر حيث بدأت تختفي المعالم نهائياً . وقد ظهرت لنا في اليوم التالي قطعة صغيرة من الفسيفساء غرب السبر P مستمرة داخل العقار المجاور ٣٢/ رابعة . وتمتد على نفس مستوى اللوحة الغربية المجاورة لجامع النوري والتي تم كشفها في السابق والتي تبدو غير مرتبطة بالمثمن المكتشف وفي الوقت نفسه كنا قد بدأنا باجراء سبر جديد في الجهة الشرقية من العقار قرب الطريق العام حيث ظهرت أساسات لجدار يتجه نحو الشمال يوازي الجدار(B) المكتشف في الجزء الجنوبي منه . وقد ظهرت أرضية من الرخام وأساس لجدار هو استمرار لأضلاع المثمن الخارجي . وبعد أن تم كشف واستكمال التنقيب في كامل العقارات المذكورة قمنا بفتح الضريح الذي تضمه الحنية نصف الدائرية وهو عبارة عن بناء من القرميد يحوي بداخله مجموعة عظام متفرقة إضافة الى كسر فخارية ،ويعلو الضريح المذكور ضريح آخر مبني بالحجر البازلتي يضم تابوتاً من الرصاص بطول ٨٨ر١م وتزين رسوم الصلبان غطاء التابوت وأطرافه (صورة رقم ٩)كنا قد علقنا آمالاً كباراً في العثور

* ـ تم العمل باشراف مديرية التنقيب لدى المديرية العامة للاثار والمتاحف ممثلة بالاستاذ نسيب صليبي الذي قدم الى حمص مرات عديدة للاشراف على العمل فله وافر الشكر والتقدير .



صورة رقم (٩) نموذج للتابوت رقم (١) الرصاصي

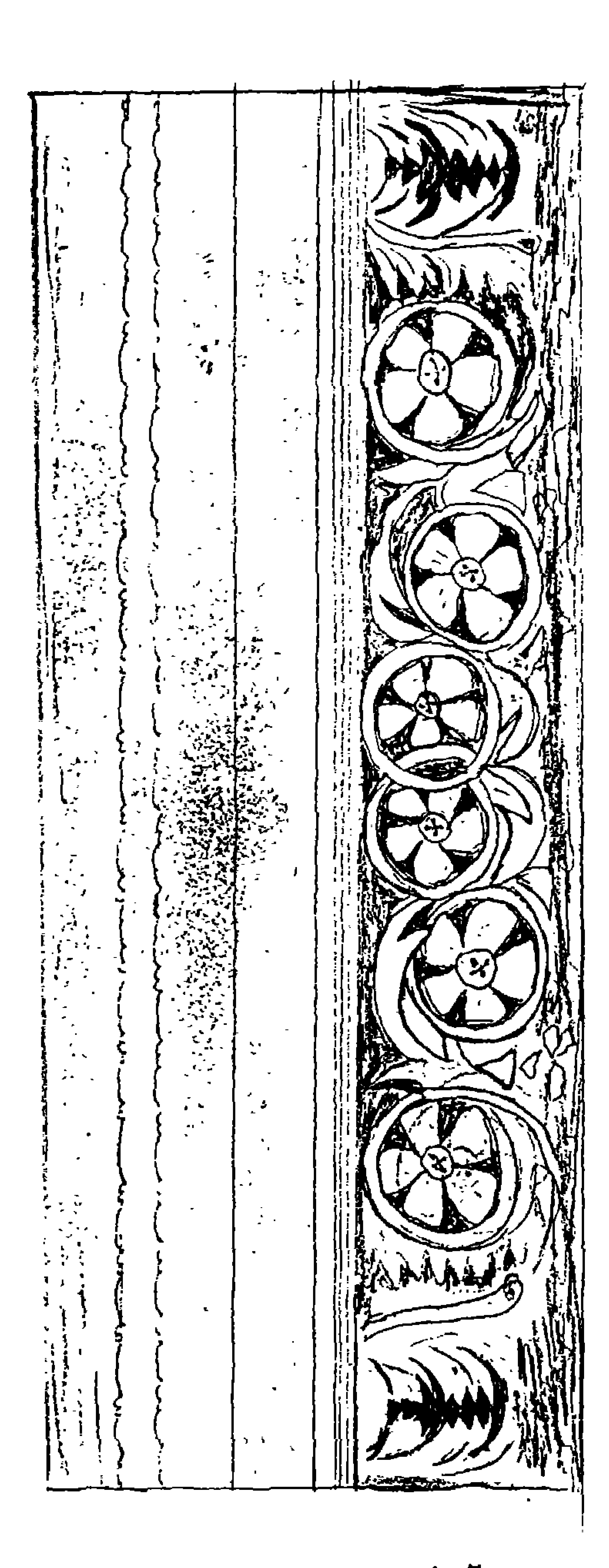
صورة رقم (١١) نموذج للتابوت رقم (٢) الرصاصي

على كتابات أو لقى مدفنية أو أي إشارات تفيدنا في تحديد عمره ولم نعثر بداخله على هيكل عظمي كامل وإنما على مجموعة عظام متفرقة تخلو من عظام الجمجمة لم توجد بمواضعها نظرا لتحويل مياه الصرف الصحي إليه ،لذلك كان أسفل التابوت تالفاً نتيجة الرطوبة وكان الشيء الهام الذي عثرنا عليه بقايا خيوط مذهبة تالفة . والى جواره وجد ضريح آخر من الرخام تزدان واجهته بتزيينات نباتية جميلة وهي عبارة عن زهرات نافرة محاطة باطار دائري وفي كل جانب صورة لبجعة (صورة رقم ١٠) وقد وجد بداخله تابوت آخر من الرصاص لكنه أصغر من سابقه ومزين بإشارات صليب محاطة بأكاليل من الغار (صورة رقم ١١) ويحوي بداخله هيكلاً عظمياً كاملاً وقد نقل التابوتان الى المتحف بينما أرسلت بعض العظام للتحليل وقد اضطررنا الى إبقاء تتمة الضريح الرخامي في مكانه نظراً لخطورة وضع الجدار بقي ضريح رابع لم نستطع الكشف عنه للسبب الانف الذكر .

وبعد استكمال التنقيب في كامل العقارات المذكورة بقي علينا اتمام المرحلة الاخيرة من التنقيب وهي الكشف عن ساكف الباب الخارجي المكتشف وقد انتهزنا فرصة قيام مديرية الأوقاف بإجراء إصلاحات في مكتبة الجامع النوري لاحداث بعض الأسبار في أرض وجدار المكتبة . بدأنا بإجراء سبر في الزاوية الجنوبية الشرقية لأرض المكتبة بطول ١م وعرض ٢٠ر٢م حيث عثرنا ضمن الردميات على كسر عظمية وفخارية ثم قمنا بفتح سبر جداري بطول ٦٠ر١م x ٨٠ سم وعمق ٦٥ سم وارتفاعه من مستوى الأرضية ٩٠ سم في المنطقة التي حددنا وجود ساكف الباب فيها حيث تم كشف ساكف الباب الذي خلا من أي كتابة أو زخرفة أو تاريخ للمبنى وإنما هو عبارة عن حجارة صماء .

نتائج التنقيب :

كان للتنقيب في حي الفاخورة أهمية كبيرة بالنسبة لتاريخ مدينة حمص إذ إن التنقيب فيه فتح أمامنا آفاقاً جديدة بالنسبة لتاريخها في العصور الرومانية والبيزنطية والإسلامية وخاصة فيما يتعلق بالأسوار ومخطط المدينة القديمة وتاريخ بناء المسجد النوري الكبير



مصور رقم (١٠) واجهة التابوت الزخرفي

وموقع الكنيسة التي أدى التنقيب في أنقاضها الى كشف منشأة هامة تعود الى العصر البيزنطي وعلى الأرجح تؤرخ بنهاية القرن الرابع أو مطلع القرن الخامس الميلادي ،وهي عبارة عن كنيسة مثمنة الشكل تزين الفسيفساء فيها أرضية المثمن الخارجية بينما رصفت أرضيته الداخلية بالرخام الملون بأشكال هندسية جميلة وازدانت جدرانها بالرسوم الجدارية (الفريسك) . وتعتبر لوحة الفسيفساء الغربية ذات أهمية كبيرة نظراً لندرة موضوعها فهي تصور مبنى على جانب كبير من الأهمية وقد يكون أحد الكنائس الهامة والمعروفة في ذلك الوقت بواجهتها الرئيسية الضخمة المبنية بالحجر البازلتي والتي تزينها الأعمدة . كما أنها مثلت صورة الهيكل في الزاوية الجنوبية الشرقية منها إضافة الى حي سكني ربما يصور بعض الأحياء السكنية في مدينة حمص آنذاك . ومن هنا تأتي أهميتها لأنها تدلنا على نمط العمارة في حمص آنذاك وكل ذلك يقع ضمن مجموعة من الإطارات الجميلة بعضها بأشكال هندسية وأخرى تبدو بتزيينات نباتية تشكل زهرة الأكانتوس بألوانها الجميلة العنصر الأساسي فيها . وحسب معلوماتنا تعتبر هذه اللوحة من أندر اللوحات التي تمثل المنظور.

ونعتقد بأن التدمير أو الحريق الذي تعرضت له المنطقة مراراً قد أصاب الباب الرئيسي للكنيسة ، إضافة الى واجهتها الرئيسية التي نرجح بأنها كانت تزدان بالأعمدة الغرانيتية . وحسب توقعاتنا فمن المحتمل أن يكون الباب الرئيسي لها في الضلع الجنوبي للصليب أو أن يكون مدخل الكنيسة الرئيسي في منتصف الجدار الغربي وقريب من موقع السور الحالي فإن الباب المكتشف ليس الباب الرئيسي وإنما هو ثانوي وقد يوجد في الطرف الشمالي للجدار باب فرعي آخر مناظر للباب المكتشف وقد يتم التوصل مستقبلاً الى الكشف عن أساساته عند التنقيب في تلك المنطقة . ويبدو لنا من أسلوب عمارة الجدار الغربي المكتشف أنه الجدار الأصلي للكنيسة في جزء كبير منه وأنه قد رمم أكثر من مرة للإستخدامات اللاحقة له ليكون جداراً للجامع النوري الكبير بدليل الاحجار المختلفة التي استخدمت في بنائه لذلك فان الجدار يمثل حدها الغربي

لكن لاتزال أمامنا مهمة معرفة حدودها الثلاثة الأخرى الشمالية والشرقية والجنوبية والتي نحن على يقين من وجود استمرارية لها في تلك الاتجاهات ،لأننا لم نعثر أثناء التنقيب على الهيكل أوالمذبح ولابد أنهما يقعان الى الشرق من المنطقة التي تم التنقيب فيها وتحت أرض الطريق العام شرقاً ،وهذا يدعونا الى القول إذا كان الجدارالمكتشف هو حدها غرباً فإن الجامع الكبير يكون قد بني بجوار البيعة النصرانية من جهة الغرب وليس علىأنقاضها كما يدعي الكثير من المؤرخين السابقين كابن حوفل وابن الفقيه والمقدسي وغيرهم لكونهم لم يطلعوا على مكان الكنيسة الحقيقي . وحسب المعطيات التي توصلنا إليها نتيجة التنقيب فقد بني الجامع مستنداً على جدار الكنيسة من الغرب وبعد تدميرها إثر زلزال أو حريق ، وعلى الاغلب اثر الغارات البيزنطية . كما تبين لنا بأن الجامع الكبير هو أحدث عهداً من السور المكتشف وقد استفاد المسلمون أثناء عمارته من الجدران القائمة وهي الجدار الشمالي الذي هو جزء من السور الشمالي للمدينة كما أنهم استفادوا من الجدران الغربية للكنيسة لذلك فإننا نرجح بأن السور الذي يشكل الجدار الشمالي لجامع النوري الكبيرهو أقدم عهداً من الجامع بدليل أنه استخدم مع جدار الكنيسة باعتباره حدوداً للجامع شرقا وشمالاً .

وبعد أن تأكدنا من هوية المكان المكتشف فإنه لاتزال أمامنا مهمة التأكد من إسم الكنيسة المكتشفة هل هي كنيسة مارقسطنطلين ؟ أم أنها كنيسة القديس يوحنا أو ماكان يطلق عليه إسم الكنيسة الكبرى أو البيعة النصرانية . ونعتقد ثانية بأن المسميات الأربعة ربما تكون لمسمى واحد . وقد تساعدنا أعمال التنقيب القادمة في التوصل الى نتائج قطعية في هذا المجال .

السؤال الثاني الذي يطرح نفسه الآن . كيف كان مخطط مدينة حمص في العصرين الروماني والبيزنطي ؟

وحسب اعتقادنا فان حدود المدينة كانت أوسع بكثير من حدود

المدينة الموجودة ضمن السور المكتشف لان اختراق سور المدينة للآبدة الأثرية المكتشفة في منتصفها تقريبا يدل على أنه بني بعد خراب الكنيسة من جهة كما أنه يدل من جهة ثانية على اضمحلال شأن حمص آنذاك وتقلص حدودها بالتالي • فإذا كانت حدود المدينة الواقعة ضمن الاسوار الحالية هي حدود المدينة الاسلامية لذلك أصبحت الضرورة ملحة الآن للبحث عن أسوار المدينة في العصور السابقة اليونانية والرومانية والبيزنطية لأننا وحسب المعطيات الحالية نؤكد بأن السور المكتشف والذي يمتد على طول ٢٤ م من العقارات المذكورة يعود قطعا الى العصر الإسلامي والذي يشكل جزءاً من السور الشمالي للمدينة والتي لاتزال بقايا جدرانه وأبراجه موجودة على الواقع بعضها ظاهر للعيان كالجدار الشمالي للجامع الكبير ببرجه نصف الدائري ،إضافة الى سور حي الاربعين • وبعضها الآخر طمس عندما ركبته المباني واستخدمت جدرانه كواجهات أمامية أو خلفية للبيوت المشادة حديثا أو أنه هدم لسبب أو آخر وانه بني حتما بعد دمار الكنيسة • إننا نعتقد جازمين بأن الأسوار السابقة للعصر الاسلامي تقع الى الشمال بعيداً عن الأسوار الحالية ولذلك لابد من تقصي معالم المدينة في الجهة الشمالية لملاحظة آية إشارات في طبوغرافيتها قد تشير الى احتمال وجود الأسوار التي تعود الى عصور أقدم •

لكن من الذي قام ببناء هذا السور ؟ وفي أي عهد تم تشييده ؟ إن المصادر التاريخية لاتسعفنا بجواب في هذا المجال وحسب المصادر التي اطلعنا عليها فإنها تتحدث عن قيام الخليفة الأموي مروان بن محمد بهدم أسوار حمص انتقاماً من أهاليها الثائرين عليه وربما فعل مثله الخلفاء العباسيون عندما ثارت حمص أيام الرشيد والأمين والمعتصم والمتوكل والمستعين •* وفي المصادر المشار اليها ذكر

* ـ حدثت فتن عديدة في حمص زمن الخلفاء العباسيين في عهد الرشيد سنة ١٩٠هـ والامين سنة ١٩٤هـ والمتوكل ٢٤٠و٢٤١هـ وفي عهد المستعين مرة في سنة ٢٤٨هـ وثلاث مرات في سنة ٢٥٠ هـ •

لقيام الأمراء الحمدانيين والملوك الايوبيين بتدعيم القلعة والأسوار بينما لاتتحدث تلك المصادر عن مسألة تضييق رقعة المدينة ومن ثم بناء أسوار جديدة .

إن أهمية هذه الاكتشافات تعود لأسباب عديدة إضافة الى ماذكرناه آنفا : منها أن الآثار المكتشفة والتي تعود الى العصور السالفة قليلة في مدينة حمص ولم يعد يوجد فيها من المباني القديمة التي تشهد على مدى عظمتها في تلك العصور ومن هنا تأتي أهمية التنقيب الذي كشف عن أثر يعد من أهم الآثار التي تعود الى العصر البيزنطي .

ان التنقيب شرقي جامع النوري الكبير فتح أمامنا آفاقا كبيرة للعمل في مجال التنقيب عن الآثار ضمن المدينة القديمة والتي لم تحظ سابقا بمجهود يذكر على قلته ،وقد طرح التنقيب على بساط البحث أسئلة كبيرة هي بحاجة الى جواب ومنها أن بعض المعلومات التي وردت عند المؤرخين السابقين ماتزال بحاجة الى تحقيق وإعادة نظر على ضوء المعطيات الجديدة وبخاصة فيما يتعلق بالكنيسة المكتشفة وبناء الجامع النوري الكبير إضافة الى الأسوار ومن زاوية أخرى تحققنا من صحة المعلومات التاريخية التي كانت تتحدث عن أهمية حمص في العصرين الروماني والبيزنطي عندما كانت مدينة عامرة ثم كيف بدأت أهميتها تضمحل نتيجة لأسباب عديدة يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ ـ ظهور نقمة على السلطنة في أواخر الحكم الاموي .

٢ ـ نقل مركز الخلافة من الشام الى بغداد أدى الى اهمال الشام .

٣ ـ الفتن والحركات الثورية العديدة التي قام بها أهالي حمص ضد السلطنة العباسية ووقوف أهالي حمص موقف المعارضة .

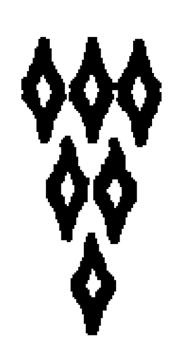
٤ ـ ضعف الدولة العباسية وبالتالي قيام دويلات عديدة متصارعة فيما بينها بالاضافة الى تعرض المنطقة للغارات البيزنطية والحروب الصليبية والمغولية والزلازل والاوبئة .

٥ ـ ضعف الامن وتفشي الامراض وانحسار الرقعة الزراعية وسيطرة البدو على زمام الامور .

كل ذلك ساعد في انحطاط شأن حمص ثم ازداد انحطاطها وتردي الاوضاع فيها خلال فترة الحكم العصماني .

وقد جاءت الشواهد الاثرية التي بين أيدينا تؤكد هذه الحقيقة لان اختراق السور الاسلامي لهذه الابدة يدل على خرابها واضمحلال شأنها . لذلك استخدمت بعض الاعمدة الغرانيتية التي كانت تزينها لتدعيم الأسوار إضافة الى أنه يدل على تقلص رقعة المدينة .

إن المنطقة المجاورة لجامع النوري الكبير تبدو ذات أهمية كبيرة من الناحيتين التاريخية والأثرية . لذلك فان التنقيب فيها خلال الفترة القادمة قد يحمل إلينا الكثير عن تاريخ مدينة حمص وربما يوصلنا إلى نتائج هامة تنير لنا بعض الصفحات المجهولة وتعطينا الإجابة عن الاسئلة الكثيرة التي تبدو حالياً بدون حل .



حواشـــي البحـــث

١ ـ قلعة حمص : وهي عبارة عن تل أثري يقع في الزاوية الجنوبية لمدينة حمص القديمة وتشرف قلعة حمص على سهلها من أعلى تل جزء منه طبيعي والاخر اصطناعي وتتخذ شكلا مستديرا في ذروته يبلغ قطرها نحو ٢٧٥م وترتفع حوالي ٣٢م عن سوية الطريق المجاور وتحاط بمنحدر ينحدر بسرعة نحو خندق كان يحيط بها وقد قامت بلدية حمص بردمه منذ عدة سنوات وتحول مكانها الى حدائق عامة بحيث لم يبق سوى أجزاء صغيرة منه في القسم الشمالي من القلعة .

٢ ـ قامت دائرة آثار حمص في عام ١٩٨٣ بتنقيب طارىء في قلعة حمص حيث تم اكتشاف كسر فخارية من النموذج المعروف بكؤوس حماة وهي نموذج من الفخار أرخ في الربع الثالث من الالف الثالثة قبل الميلاد وهذه القرينة الاثرية تؤكد وجود سكن في تل حمص معاصر لنفس السويات الاثرية المكتشفة في المشرفة (قطنا) وتل النبي مندو (قادش) وحماة وايبلا نشرت نتائج التنقيب في كتاب الموجز في تاريخ مدينة حمص وآثارها للاستاذ محمد ماجد الموصلي ،مطابع الروضة النموذجية ،حمص ١٩٨٤ صفحة ٩ .

٣ ـ د . سليم عادل عبد الحق ـ مقال مدينة حمص ـ الحوليات الاثرية ـ المجلد العاشر مطبعة الترقي دمشق ١٩٦٠ .
راجع مقال د . أنور حاتم ـ الذكريات السورية في روما ـ الحوليات الاثرية المجلد الحادي عشر والثاني عشر ـ مطبعة الترقي دمشق ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ .

٤ ـ اسبيرو جبور ـ قديسون من حمص ـ المنشورات الارثوذكسية ١٩٨١ صفحة ١٥ .

٥ ـ أحمد وصفي ذكريا ـ جولة أثرية ـ دمشق ـ دار الفكر ـ طبعة ثانية ١٩٨٤ ـ صفحة ٣٣٤ ومابعدها .

٦ - شارك في ندوة "أسوار حمص وقلعتها" الزميلان الاستاذان محمد الشاطر ومنذر حمودي عضوا مجلس إدارة الجمعية التاريخية وأدار الندوة الاستاذ محمد علي المعاذ وهنا لابد لي من شكر الاستاذ منذر حمودي على الملاحظات القيمة والمعلومات الهامة التي أمدني بها فيما يتعلق بأسوار حمص وتصوره لمخطط المدينة قبل بناء الاسوار فله وافر الشكر .



حصار حمص والفتح العربي الإسلامي للمدينة (دراسة تاريخية نقدية)

بقلم الأستاذ محمد عبد الصمد الشاهر
عضو إدارة الجمعية التاريخية

في الفترة الاخيرة كثر الحديث عن حمص وكثرت الاتهامات واللوم لابنائها على تقصيرهم بحق بلدهم، لان ماعرف عن حمص حتى الان قليل. معظم المدن السورية درست مرات ومرات فلم يبق فيها قلعة أو سور أو كنيسة أو مسجد الا درس دراسة مستفيضة. أما حمص فمازال يغلفها النسيان. هذا القول فيه كثير من الحقيقة كما يحمل في طياته بعض التجاهل لماقيل وكتب عن حمص، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر المؤلفات التالية :

تاريخ حمص لعبدالصمد بن سعيد ،تاريخ حمص لعمر الاتاسي،تاريخ حمص لمحمد مكي ، تاريخ حمص في حزأين للخوري عيسى أسعد وابنه منير حمص أم الحجارة السود ساطع محلي ، ربوع محافظة حمص لعمادالدين الموصلي الموجز في تاريخ حمص ماجد موصلي .

رغم كثرة عدد التصانيف والمؤلفات بقيت صورة المدينة ضبابية في بعض جوانبها لعاملين اثنين :

الاول منهما :

ان تفاصيل تاريخ حمص قبل العصر الروماني بقي مجهولا ومشوشا لانعرف عنه الا النذر اليسير ، وخاصة اذا ماعدنا الى ماقبل العصر الهلنستي ، فالباحثون لهذه الفترة توفيقيون تنقصهم المادة التاريخية والخبر الواضح . يقحمون الامور اقحاما ، فهم يتحدثون عن منطقة حمص وعن حمص المدينة وكأنهما شيء واحد ، وغني عن البيان أن قادش وقطنا وارثوذا هي غير حمص .

قالوا انها ايمسيا اليونانية ،(سترابون المؤرخ اليوناني أورد ذلك وكذلك بلنوس الروماني) . ولكن قبل ايمسيا ماذا كانت ؟ . ثم ان ايمسيا هذه نفسها ماذا عنها ؟ لاشيء ولاشيء كثير فيما أعرف والى حد بعيد فيما يعرفون ويوثقون .

المسؤولون في مديرية آثار حمص نقبوا في قلعة حمص ووجدوا اكسرا فخارية يعود تاريخها الى ٢٤٠٠ قم مما يؤكد وجود سكن في تل حمص خلال هذه الفترة .

كما أن أهالي حمص عثروا عام ١٩٢٨ في الجهة الشرقية من المدينة أثناء الحفر على انسان متحجر غريب الشكل حدا طوله نحو ثلاثة أمتار وطول قبره يزيد عن أربعة أمتار وله جمجمة كبيرة جدا توازي قدر جمجمتين من الجماجم العادية ، ونابة لطول الاصبع يظن أنه من آثار أقدم العصور المعروفة في التاريخ وأن هذا الشاهد المحسوس يؤكد صحة النظرية بسكن العمالقة في البقعة الحمصية قديما قبل زمن التاريخ وقبل نزوحهم الى جنوب سورية ،ثم حل محلهم الاموريون(١)

وحمص كما يقول الدكتور جواد علي هي(Emesa - Hemesa - Homesay) فيشبه تاريخها من أوجه عدة تاريخ مدينة تدمر فقد حكمتها أسرة عربية وازدهر تاريخها في الزمن الذي ازدهرت فيه حكومات المدن الاخرى والتي ظهرت على أثر الضعف الذي حل بالسلوقيين ، وتقع في السهل الذي يرويه نهر العاصي وعلى مسافة ميل منه و عرفت ب(emesa) عند اليونان والرومان ، وفي أيام بومبيوس كانت مدينة Arethusa المجاورة لحمص وهي الرستن مقر أسرة عربية حاكمة وفيها ولد القيصر (Elagabalus) وبلغت أوج ازدهارها في أيام (سبتموس سفريوس) وقد استدل بعض الباحثين من صور أسماء ملوك حمص على أصلهم العربي.(٢)

ماذا نستفيد من هذا النص ؟:

المدينة بالاصل تدعى اما حَمص أو حِمص أو اميسيا .

اذا الصحيح بأنها عرفت عند اليونان بهذا الاسم اميسيا) وليس اسما يونانيا لها ، فحمص بلا شك موجودة قبل اليونان والرومان بفترة طويلة .

---

١) ـ الخوري عيسى أسعد تاريخ حمص جـ١ ص ٣٢ ـ ٣٤

٢) ـ جواد علي تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٦٢٢ ـ ٦٢٣ جـ ٢

كان هذا القول في السابق يحتمل كثيرا من الجدل فالكثيـرون قالوا مازادت حمص في أقدم أصولها أن كانت بلدا سلوقيا ، وآخرون قالوا بل هي رومانية ولم تتجاوز النقود المضروبة في حمص عام ٦٥ قم وتابعوا : ليست احدى ممالك الاراميين كحماة كما أنه لم يرد لها اسم في التوراة ، وتتالت عملية التعتيم على هذا المنوال ... الى أن قرئت ألواح ايبلا التي ازدهرت بين عامي ٢٤٠٠ - ٢٢٥٠ق م .فانسحبت بعض سحب التعتيم عن هوية حمص القديمة حيث ورد عنها : (ومن المدن التي يأتي ذكرها نورد على سبيل المثال : مدننا ماتزال حية هـي مدينة (أرمان) التي يحتمل أن تكون مدينة حلب نفسها . ومدينـة ايميسيا أي حمص ومدينة ايمات أي حماة ثم مدينة ديماشكي التي يغلب على الظن بأن تكون دمشق العاصمة السورية الحالية [١]).

اذا حمص وقبل وجود اليونان اسمها ايمسيا وقد عرفها اليونان بهذا الاسم ولم يسموها به . وبهذا رد كاف على من قال بأن حمص مشكوك بقدمها وانها مازادت في القديم عن تجمع سكني صغير محصـور في حدود القلعة فقد ورد اسمها مقرونا بأكبر المدن السورية الهامـة والتجارية الكبرى . والقلعة بسكن أفقي لاتتسع الا لبصة بيوت أو قرية صغيرة ، فوجود اسمها مقرونا مع أمثال هذه المدن يخرجها من هـذه الدائرة الضيقة التي رسموها لها .

ليس لاحد أن يتحرج في شيء نريد المدينة تاريخها كما هـو لاكما نريد ، فالتاريخ مجموعة حقائق انقضت لامجموعة أمان تراد .

العامل الثاني :

ان تاريخها الميلادي والاسلامي غير منسق عند معظم من كتبوا لان مصادرهم عن المدينة تكاد تكون واحدة نظرا لقلة وضآلة هذه المصادر من هنا لعبت الاهواء والخيال دورهما في تسجيل هذه الاحداث . اذ نجد أن تاريخ عبد الصمد بن سعيد مازال مجهولا أورده المصنفون فيمـا كتبوا أمثال ياقوت الرومي وغيره وتاريخ ابن مكي لم يلق ضـوءا

(١)- وثائق ايبلا د . عفيف بهنسي ص ٢٨

يستنار به . وتاريخ عمر الاتاسي لاوجود له أورده فقط العلامة كرد علي في خططه [1] ويوميات الوفائي مازالت مخطوطة لم تنشر. ماذا بقي لنا بعد ؟ فلابد اذا من التفتيش في صفحات المصادر القديمة (الطبري - ابن الاثير - التاريخ المنصوري رحلة بن حبير - رحلة ابن بطوطة - أو لياجلبي - وصفى زكريا ... وهكذا نفعل ويفعلون ، وماورد في هذه المصادر غير كاف ولايروي ظمأ العطاش ، والمشكلة أن أحدا لم يعطف على مكتبات البيوت القديمة ويتصل بأصحابها ليرى ويرينا ماذا فيها ؟ .. والمشكلة الاهم والاوثق تلك هي مشكلة الحفريات الاثرية في مدينة حمص بالذات فمنذ القديم اسمها مسقط من قائمة المدن التي يجب أن تتم فيها الحفريات الاثرية . كل مانستطيعه الان دراسة بعض الاوابد الاثرية فيها وايضاح بعض ماغمض من تاريخها بقدر ماتسعف الحال . وهي خطوة متواضعة في آفاق تاريخ حمص العريق .

القلعة :

تل طبيعي ارتفاعه بالاصل لايزيد عن ستة أمتار حفر ماحوله ووضعت الحفريات في أعلاه حتى غدت القلعة المعروفة ، وغدا ارتفاعها حوالي ٣٢م ومحيطها ٩٠٠م لها في أعلاها أسوار وأبراج دفاعية ،فاذا ماهاجمها عدو ما مليء الخندق الذي يحيط بها من جميع جوانبها بالمياه ويتولى المحاصرون في أعلاها عملية الدفاع . يمدون من المدينة عند الضرورة على جسور متحركة ترفع وتوضع عند الحاجة اليها وهي أقدم ماسكن في المدينة ، وعندما ضاقت بهم توسعوا بالبناء فيما حولها واتخذوا للمدينة الموسعة سورا وأبوابا غير سور القلعة نفسها . وباب القلعة الرئيسي واقع في الجهة الشمالية للاتصال بالمدينة مباشرة .

وقد عرفت قلعة حمص بقلعة (أسامة) مع أن أسامة بن منقذ لم يبنها ،اذ أن أباه نصر بن علي بن منقذ أخذها من خلف بن ملاعب

(١)- خطط الشام كرد علي جا ص ٢٠

عام ٤٩٧هـ ١١٠٤م . كما أن القلعة الحمدانية انهارت عام ٥٦٥هـ نتيجة حدوث الزلزال ، فالابراج والجدران القائمة الان هي من صنع الايوبيين وهي التي امتنعت على السلطان . فعند مانزل السلطان صلاح الدين الايوبي على حمص دخل المدينة واستلمها وامتنعت عليه القلعة فخلف من يحصرها وسار الى حماة ثم الى حلب ثم رحل عنها بسبب نزول الصليبيين على حمص ووصل الى حماة ثامن رجب عام ٥٧٠ هـ وسار الى حمص فرحل الفرنج عنها فحصر القلعة وملكها في حادي عشرين شعبان ثم سار الى بعلبك(٥) ويخبرنا ابن نظيف الحموي في التاريخ المنصوري عما صنعه الملك المجاهد للقلعة والاسوار فيقول في حوادث سنة ٦٢٤ هـ (... وكذلك عمّر قلعة حمص ورفعها عما كانت عليه . وحصنها وعمق خندقها وأجرى المياه من الزراعة الى البلد نفسه وعمل قنوات وأجرى الماء في المدينة وعمل البساتين وتجرفت المياه في جميع أراضيها الغربية وزرع الارز عليها وغير ذلك وأطاعه العاصي وهذا لم يقدر عليه سواه من الملوك الذين تملكوا حمص(٦) . بينما نرى أن أولياجلبي يقول عن حمص بأن قلعتها ليس لها خندق وبابها متجه نحو الغرب ويأتي الماء الى المدينة بساقية شُقت من العاصي(عاش مابين ١٦١١ - ١٦٧٩م) (٧) .

هذا يوضح كيف يخطيء الرحالة والمؤرخون أيضا لعدم الدقة في تحري الخبر فالخندق موجود قبل الملك المجاهد/هوعمقه/وزيارة أولياجلبي تمت بعد اصلاحات المجاهد بمئات السنين .

(٥) - شفاء القلوب لاحمد الحنبلي ص ٨٦

(٦) - التاريخ المنصوري لابن نظيف الحموي ص ٨٦

(٧) - رحلة أثرية أحمدوصفي زكريا ص ٢٤ - ٢٥

الابواب والاســـوار : (٨)

في واقع الحال ما اتفق اثنان في عدد أبواب مدينة حمص ولا في أسمائها الحديدة والقديمة ، ولاغرابة في ذلك اذا أخذنا بعين الاعتبار أن كبار المؤرخين لم يتفقوا حتى الان على كيفية فتح المدينة حتى في التفاصيل الاساسية • وأقدم من تحدث عن الابواب بشيء من التفصيل الواقدي في كتابه فتوح الشام فقال بوجود أربعة أبواب للمدينة هي حسب توالي وتوزيع القادة عليها كما يلي : (فقسم أبوعبده عسكره فرقة" مع المسيب بن نجيه الفزاري وجعله على باب الجبل) مما يلي الباب الصغير ، وبعث فرقة أخرى مع المرقال بن هشام بن عقبة بن أبي وقاص فنزل بهم على (باب الرستن) وفرقة أخرى مع يزيد بن أبي سفيان فنزل بهم على (باب الشام) ونزل أبوعبيدة وخالد بن الوليد على الباب الصغير) •

مركز القيادة اذا على الباب الصغير ويقع غرب الباب الغربي للجامع النوري الكبير • فالحمام الموجود بالقرب منه لفترة وجيزة كان يعرف (بحمام الصغير) والباب الذي يليه (باب الجبل) يعرف الان باسم (باب السباع) • فلم يبق بابا يؤدي الى الرستن مباشرة سوى الباب الذي يعرف الان باسم (باب تدمر) وعلى هذا يكون هو (باب الرستن) بقي باب الشام بطبيعة الحال هو (باب الدريب) فهو الباب الرابع المتبقي والذي يؤدي الى الشام • بعدها تغيب المصادر عنا حول الابواب وأسمائها الى أن يأتي محمد المكي في يومياته عن الفترة (١٦٨٨-١٧٢٢) م فيقول ان للمدينة ثمانية أبواب هي (باب تدمر - باب هود - باب السباع باب الدريب - باب التكية - باب المدينة - باب البوابة - باب خان العشر) (٩)

---

(٨)- راجع مجلة البحث التاريخي العدد الثاني ص١٢٥ في دراسة ميدانية للقلعة والاسوار (محمد الشاطر- منذر حمودي) • وقد أظهرت الحفريات الجديدة بعض أجزاء السور وبعض الابراج في مناطق لم يكن للسور فيها أثر • على ضوء ذلك وبناء على معلومات اضافية أخرى أتعرض لصياغة بعض فقرات البحث السابق بما يتفق مع المعطيات الجديدة •

(٩)- تاريخ حمص محمد المكي ص ١٨ تحقيق عمر العمر •

بينما الابواب المعروفة حتى الان عندأهالي حمص ومازالت بعض آثارها قائمة حتى الآن هي : (باب التركمان ـ باب المسدود ـ باب هـــود ـ باب السوق ـ باب تدمر ـ باب الدريب ـ باب السباع) وهكذا تختلــف الابواب في عددها وأسمائها • أيام الفتح العربي الاسلامي كانت أربعة وفي ق ١٨م كانت ثمانية والمعروف الان سبعة أبواب على ماذكر أعـــلاه لاحظ أن الباب المسدود لم يذكر مطلقا لدى ابن مكي مع أنه موجـــود قبله بكثير اذ تشير الكتابة الموجودة على ساكفته أن بانيه المنصور ابراهيم الايوبي في ٦٤١هـ • بينما يقول الخوري عيسى عنه بأنــــه باب التركمان الذي دخل منه السلطان سليم فأغلق بالحجارة احتراما للسلطان وبقي مغلقا حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ويعرف بالباب المسدود[١٠] •بينما باب التركمان يقع الى الجنوب منه بحوالي خمسيـــن مترا ، ومازال البابان موجودين : الاول بشكل شبه كامل والثانـــي في آثاره وبقاياه ، شمال القلعة مباشرة • من المحتمل أن اسم باب التركمان كان يطلق على الباب المسدود فلما أغلق/اجلالاً للسلطان/فتـــح في السور باب آخر سمي بالاسم نفسه (باب التركمان) اذ أصبح الباب الاساسي مسدودا • وهذا يفسر قرب البابين من بعضهما بحيث لاتدعو الضـــرورة الى وجودهما معا • كما أن باب التركمان لم يذكر لدى ابن مكـــي مطلقا باسمه مع كثرة ذكره للتركمان بمرارة واساءتهم للمدينـــــة بأعمال النهب والتخريب • ولعل(الثغرة الموجودة في الجدار الشمالــي للسور سماها باب البوابة • أما باب التكية وباب خان العشر فلا أثــر لهما فيما بقي من آثار الابواب • مع أن آثار الابواب الاربعة الاساسية والاقدم مازالت موجودة • هذا وضع الابواب المحدثة على امتداد جدران السور • معظمها أقيم في العهد الايوبي ، خلا الابواب الاربعة الاساسيـة والتي كانت قائمة عند الفتح العربي الاسلامي للمدينة •

أسوار المدينة وأبراجها :

آسوار حمص لم تقتحم عنوة من قبل المسلمين • حاصروها غيرمرة

(١٠)ـ تاريخ حمص الجزء الثاني ص ٢٨٨ الخوري عيسى أسعد

وجرت حروب ومفاوضات كثيرة خارج المدينة كلها انتهت بالصلح. تكاد المصادر تجمع على ذلك مع اختلاف في التفصيلات الجزئية والشكليات لذا بقيت أسوارها وأبوابها البيزنطية سليمة لم تمس بشكل أساسي، حتى أواخر العصر الاموي اذ قام مروان الثاني آخر خلفاء الامويين برفع الاسوار وتقويتها عام ١٣٢ هـ بمساعدة القبائل القيسية ضد اليمنية المقيمة في حمص وماحولها . حيث خرجت عن طاعته فقمع ثورتها وحصنها ليأمن الفتنة ثانية.(١) وفي العصر العباسي لم يتبدل شيء في وضع هذه الاسوار مع وجود ثورات يمنية بدأت تظهر بالمدينة منذ مطلع ق ٣هـ على عمالهم لانحيازهم الى القيسية . على عكس ماكان عليه الحال في أوائل قيام الخلافة العباسية (٢) والتبدل الواضح في وضع الاسوار بدأ منذ أواخر ق٤ هـ أواخر ق ١٠م حيث أحرقها وهدمها البيزنطيون أنفسهم من خلال الهجمات التي تمت في عهد نيكفورس الثاني وباسلسيوس .

وفي أواخر القرن الذي يليه /الخامس الهجري/ أعاد الزلزال هدمها مرارا . وعاد الزلزال الى تخريبها في أواخر ق ٦ هـ فتهدمت القلعة الحمدانية الى أن جاء الايوبيون. فالقلعة وأسوارها وخندقها كلها من عمل الايوبيين . نخص بالذكر منهم الملك المجاهد (٣) اذ نجده في عام ٦٢٤هـ يقوم بالاعمال التالية: (وفيها شرع السلطان الملك المجاهد صاحب حمص في حفر خندق القلعة وتعميقه وتوسعته وحصانته لانه من الثغور الاسلامية المندوب الى حصانته ، وقد كانت القلعة قبل ذلك مترجلة صغيرة فعلاها وكبرها وحصنها وعني بها أتم عناية لله تعالى. وساق

(١)- الموجز في تاريخ مدينة حمص ص ٤٠ ماجد الموصلي .

(٢)- الحياة السياسية و أهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام . د أمينة البيطار ص ٥٣ .

(٣)- الملك المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادي ولاه الناصر يوسف حمص بعد موت ابيه سنة (٥٨١)هـ وكان شجاعا شهما مقداما يباشر الحرب بنفسه وحفظ المسلمين من الفرنج والعرب أما من ناحية الفرنج فبنى الابراج على مخائض العاصي ويركب لقتال العرب من ناحية البرية (شفاء القلوب لاحمد الحنبلي ص ٢٣١) .

الى حمص المياه وأطاعه في ذلك العاصي الذي لم يطع قبله لغيره من الملوك[14] بعد الايوبيين ما أصاب القلعة ولا أسوار المدينة أي اصلاحات أو أعمال انشائية على العكس تعرضت المدينة بكليتها ـ بما فيها الاسوار والقلعة ـ لعمليات التخريب والهدم على يد البدو والتركمان وقطاع الطرق[15].

أما عن مسار الاسوار وأماكنها فقد أكدت الحفريات الاثرية والانشائية الجديدة صحة ماذهبنا اليه في العدد الثاني[16] اذ أن الاسوار في الجدار الشمالي بعد جامع حي الاربعين أصبحت واضحة وقائمة وتوقيع الباب الصغير مقابل الباب الغربي للجامع النوري الكبير لم يعد مجال مناقشة .

أما فكرة وجود سورين للمدينة فلم نعثر لها (حتى الان) على دليل مادي ملموس كما أن حفريات حي الفاخورة أظهرت امتداد السور في اطار توقعاتنا السابقة ، وقرب الزاوية الشمالية الشرقية للجامع النوري الكبير هناك ظهر السور وعليه من الجنوب مباشرة يقوم باب الكنيسة التي أوردتها أخبار الفتوح[17] مازال الباب قائما لم يمسح من الوجود شأن أطلال السور التي أزيلت لتقام مكانه الابنية الحديثة المقررة . وقد ظهرت ضمن غرف الكنيسة لوحات الفسيفساء البديعة التي اقتلعت من مكانها انقاذا لها وأرسلت الى معامل الترميم في معرة النعمان . ثم قلت العناية بالسور حتى سرح حراس الابواب وألغيت الضرائب والمكوس التي كانت تجبى من كل شخص يدخل المدينة ولم يعد له أي فائدة دفاعية ، في أواخر الحكم العثماني .

---

(١٤) ـ التاريخ المنصوري ص ١٣٧ ابن نظيف الحموي .

(١٥) ـ مقدمة تاريخ حمص ابن مكي تحقيق عمر نجيب العمر ص ٩٣

(١٦) ـ مجلة البحث التاريخي العدد الثاني محمد الشاطر منذر حمودي (ص١٢٥)

(١٧) ـ لاحظ رواية البلاذري في هذا "بحث حول فتح مدينة حمص واستثناء ربع كنيسة يوحنا للمسجد (الجامع الكبير)

الفتح العربي الاسلامي للمدينة :

تهدف هذه الدراسة الى التفريق بين أمور ثلاث :

١) عملية الفتح وما تبعها من معاهدات وحروب ودور أهل الجزيرة في مد المدينة .

٢) قضية جلاء المسلمين عن المدينة في طريقهم الى اليرموك

٣) اضطرابات حمص وتحرك هرقل ومحاولته تحريض الحزيرة مددا لمدينة حمص مما أدى الى فتح الجزيرة نفسها .

هذه الامور نجدها في مصادرنا القديمة ودراستنا الحديثة أيضا متداخلة مع بعضها بحيث يصعب تمييز بادرة عن أخرى .

١ - عملية الفتح :

آ)- روايات الواقدي :

وهو أكثر من فصل عملية الفتح هذه - والملفت للنظر أن رواياته في فتوح الشام تختلف عنها في المصادر الاخرى فروايات الفتوح تقول أن المدينة امتنعت على المسلمين أكثر من مرة وجرت حولها معارك طاحنة في أكثر من مكان ومع ذلك لم يدخلها المسلمون عنوة كما لم يدخلوها بعد الصلح الاخير مباشرة ... منذ بدء الفتح الاسلامي لبلاد الشام أراد أهالي حمص الصلح مع العرب المسلمين لذا نرى فرقتهم في حيث ورد ان تنسلخ عن الحيش الروماني الذى جاء مددا لاهالي دمشق وتطلب الصلح من خالد الذي لم يجده مناسبا ولما يصل الى مدينتهم بعد (١٨)

وبعد القاء الحصار على حمص عقب فتح دمشق خاف أهالي حمص ودفعوا الحيش المحاصر (نحن بين أيديكم ان فتحتم حلب قنسرين وهزمتم جيش الملك) ومرادهم كسب الوقت ليصل اليهم المدد (١٩).

---

(١٨)- الواقدي فتوح الشام ج١ ص ٢٦

(١٩)- المصدر السابق ص ٦٤ - ٦٥

وبعد فتح قنسرين وانقضاء العام عاد خالد اليهم مسرعا ثم رفده أبوعبيدة بعد فتح بعلبك ووزع جنده على الابواب الاربعة المار ذكرها [٣٠] . وكانت المدينة قد تحصنت بعد أن أمدها هرقل بالبطريق هربيس فجرت مناوشات أعقبها صلح مقتضاه أن يرحل أبو عبيدة عنهم ثانية لقاء مده بالميرة . فقبل أبوعبيدة لانه وجد النصر الحاسم على المدينة سيكلف ثمنا باهظا لذلك قبل العرض واشترى الميرة وقايضها بغنائم الجنود فاشترى منهم (أهالي حمص) مايساوي ٢٠دينارا بدينارين حتى أفرغت المدينة من المؤن وكان الشرط أن لايعود اليهم المسلمون الا بعد أن يفتح الله على أيديهم مدينة من مدن الشام . وغاية أهل حمص الان كسب الوقت بانتظار مدد هرقل ثانية . والمسلمون لم تغب عنهم النوايا . فردوا عليها بشراء الميرة وترك البلد شبه خاوية من الزاد . وصلت أخبار الصلح هذا الى المدن العربية الاخرى فخافت وأسقط بيدها . أبوعبيدة استغل الفرصة وفتح الرستن حربا وشيزر صلحا وعاد الى حمص مسرعا ، فقالت الروم غدرت العرب . وأرسلو وفدا منهم للمطالبة بالتقيد ببنود المعاهدة . وبعد المناظرة نفي الغدر وان الحمصيين لم يستوثقوا لانفسهم جيدا ولكنهم أبوا تسليم المدينة واستعدوا للقتال . وفي هذه الجولة استشهد عكرمة بن أبي جهل وقبره مازال قائما في الحي المسمى باسمه في جنوب حمص)ـ مع أن هذا يخالف رواية الطبري التي تقول : بأنه جرح واستشهد في اليرموك .

وكان الحمصيون يقاتلون في الوقت المناسب ويلجأون الى حصونهم في حال الشدة الى أن كانت المكيدة التي دبرها خالد بن الوليد ومضمونها كما رواها خالد لابي عبيدة نفسه : أيها الامير قد رأيت أن من الرأي أن ننكشف للقوم غدا وندع لهم سوائمنا وابلنا فاذا تباعدنا عن مدينتهم ، وتبعتنا خيلهم وتباعدوا عن مدينتهم وصاروا معنا عطفنا عليهم ومزقناهم بالاسنة [٢]

(٣٠)ـ المصدر السابق ص ٨٧

(٢)ـ الواقدي فتوح الشام ص ٩٤ ج١

فانهزم خالد أمامهم وهو صاحب لواء الحرب يوم حمص فتبعه أهالي حمص وبدأوا عملية النهب فنهاهم أحد القساوسة الكبار قائلا لهم هذه مكيدة من مكائد العرب لان العرب لاتسلم أولادها وابلها ولو قتلوا عن آخرهم فلم يسمعوا له وتابعوا ملاحقة الحيش الاسلامي الذي تظاهر بأنه يريد (جوسيا أو الزراعة) . وبعد أن تأكد خالد بأنهم ابتعدوا عن مدينتهم بما فيه الكفاية ثبت لهم والتفت فئة من حيشه حولهم وسبقتهم الى الابواب وأوقع فيهم مقتلة عظيمة من بينهم هربيس حاكم المدينة وقاتل عكرمة . ومع هذا النصر المبين لم يدخل أبوعبيدة المدينة حتى انه لم يقبل الضيافة والاكرامات التي قدمت له ولحنده ولم يدخلها المسلمون الا بعد اليرموك(٢٢). وتبدأ بعدها قصة رحيلهم الى اليرموك التي اختلف الرواة فيها كما سيرد في بابه . ولم تكن شروطا للصلح هنا لانهم تحهزوا لليرموك وهذا من باب حسن المعاملة .

ب - الفتح برواية البلاذري :

وعملية الفتح لدى البلاذري في فتوح البلدان هي أيضا من رواية الواقدي ولكن بشكل مختلف وهي أكثر قبولا من روايته المماثلة في فتوح الشام :(قال الواقدي وغيره : بينا المسلمون على أبواب مدينة دمشق اذ أقبلت خيل للعدو كثيفة فخرجت اليهم حماعة من المسلمين ،فلقوهم بين بيت لهيا والثنية فولوا منهزمين نحو حمص على طريق قارا واتبعوهم حتى وافوا حمص فألفوهم قد عدلو عنها ورآهم الحمصيون وكانوا متخوفين لهرب هرقل عنهم وماكان يبلغهم من قوة كيد المسلمين وبأسهم وظفرهم فاعطوا بأيديهم وهتفوا بطلب

(٢٢)- الملاحظ أن الدكتورة سهيلة الريماوي في بحثها (الذي قدمته الى المؤتمر الرابع لتاريخ بلاد الشام) تحعل هذه المعركة بعد انسحاب أبي عبيدة الى اليرموك ورده الاموال الى أهالي حمص . والمعروف أنه بعد اليرموك لم تحر أي معارك مع أهالي حمص (المصدر السابق ص ٢٣٨)

الامان فأمنهم المسلمون وكفوا أيديهم عنهم فأخرجوا اليهم العلف والطعام وأقاموا على الارند. وهو النهر الذي يأتي انطاكية ثم يصب في البحر بساحلهاوكان على المسلمين السمط بن الاسود الكندي ،فلما فرغ أبوعبيدة من أمر دمشق استخلف عليها يزيد بن أبي سفيان ثم قدم حمص عن طريق بعلبك . فنزل بباب الرستن فصالحه أهل حمص على أن أمنهم على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وأرحائهم واستثنى عليه ربع كنيسة يوحنا للمسجد واشترط الخراج على من أقام منهم . وذكر بعض الرواة أن السمط بن الاسود الكندي كان قد صالح أهل حمص فلما قدم أبوعبيدة أمضى صلحه. وان السمط قسم حمص خططا بين المسلمين حتى نزلوها وأسكنهم في كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة(٢٣)

<u>حـ ـ الفتح عند الطبري :</u>

(من رواية سيف بن عمر مبسطة وتتلخص بحصار واحد يلقيه المسلمون على المدينة التي امتنعت شتاء رجاء أن يهلكهم البرد لان طعامهم لحوم الابل وشرابهم آلبانها). وطال الحصار ولم يفعل الشتاء بالمسلمين شيئا. وبعد أن كبر المسلمون تصدعت الجدران وخاف الناس وطلبوا الصلح فحصلوا عليه . فأجابوهم وقبلوا منهم على أنصاف دورهم على أن يترك المسلمون أموال الروم وبنيانهم لاينزلون عليهم فتركوه لهم(٢٤)فصالح بعضهم على صلح دمشق على دينار وطعام على كل جريب أبدا أيسروا أوأعسروا وصالح بعضهم على قدر طاقته ان زاد ماله زيد عليه زان نقص نقص وكذلك كان صلح دمشق والاردن بعضهم على شيء انأيسروا وان أعسروا بعضهم على قدر طاقته وولوا معاملة ماجلا ملوكهم عنه . وبعث أبوعبيدة السمط بن الاسود في بني معاوية والاشعث بن مئناس في السكون معه ابن عابس والمقداد في بلي وبلالا وخالدا في الجيش بن شتير وذهيل بن عطية وذا شمستان

---

(٢٣)ـ البلاذري فتوح البلدان ص ١٣٢ حـ ١

(٢٤)ـ الطبري حـ ٣ ص ٦٠٠

فكانوا في قصبتها وأقام في عسكره . وكتب الى عمر بالفتح وبعث بالاخماس مع عبد الله بن مسعود،وقد وفده وأخبره خبر هرقل وأنه عبر الماء الى الجزيرة فهو بالرهاء ينغمس أحيانا ويطلع أحيانا فقدم ابن مسعود على عمر فرده ثم بعثه بعد ذلك الى سعد بالكوفة ثم كتب الى أبي عبيدة : ((أن أقم في مدينتك وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام ، فاني غير تارك البعثة اليك بمن يكانفك ان شاء الله)) وبعدها بعث أبو عبيدة خالد بن الوليد الى قنسرين بعد فتح حمص وهي من حوادث عام ١٥ هـ .

د - الفتح برواية ابن الاثير :(٢٥)

((لما فرغ عبيدة من فتح دمشق سار الى حمص فسلك طريق بعلبك فحصرها فطلب أهلها الامان فأمنهم وصالحهم وسار عنهم الى حمص فنزل على حمص ومعه خالد وقيل انما سار المسلمون الى حمص من مرج الروم - غربي دمشق(٢٦) وكان هرقل قد أرسل الى أهل حمص يعدهم المدد وأمر أهل الجزيرة جميعها بالتجهز الى حمص فساروا نحو الشام ليمنعوا حمص عن المسلمين . فسير سعد بن أبي وقاص السرايا من العراق الى هيت وحصرها وسار بعضهم الى قرقيسيا ، فتفرق أهل الجزيرة وعادوا عن نجدة أهل حمص . فكان أهلها يقولون تمسكوا بمدينتكم فانهم حفاة فاذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم فكانت أقدام الروم تسقط ولايسقط للمسلمين اصبع فلما خرج الشتاء قام شيخ من الروم فدعاهم الى مصالحة المسلمين فلم يجيبوه . فناهدهم المسلمون فكبروا تكبيرة فانهدم كثير من دور حمص وزلزلت حيطانهم فتصدعت ،فكبروا ثانية فأصابهم أعظم من ذلك فخرج أهلها اليهم يطلبون الصلح ولايعلم المسلمون بما حدث فيهم فأجابوهم وصالحوهم على صلح دمشق. وأنزلها أبو عبيدة السمط بن الاسود الكندي في بني معاوية والاشعث بن ميناس

---

(٢٥)- ابن الاثير الكامل جـ٢ ص ٣٤١ - ٣٤٢ دار الكتاب العربي بيروت .

(٢٦)- حدد موقعه الدكتور عبد الكريم رافق قرب التكية السليمانية (دراسات تاريخية - العدد السادس ص ٦)

في السكون والمقداد في بلي ، وأنزلها غيرهم وبعث بالاخماس الى عمر مع عبد الله بن مسعود وكتب عمر الى أبي عبيدة أن أقم بمدينتك وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام فاني غير تارك البعثة اليك ثم استخلف أبوعبيدة على حمص عبادة بن الصامت وسار الى حماة ..))

رغم التشابه الظاهري في روايتي الطبري، وابن الاثير الانفتي الذكر فانهما يحملان في مضمونهما الكثير من التباعد والتشويش .

يستفاد من رواية ابن الاثير بأن نجدة أهل الجزيرة لاهالي حمص المحاصرين كانت بطلب من هرقل نفسه لمنع سقوط المدينة ولكن نجدات أهل العراق التي أرسلها سعد دونما طلب واضح من الخليفة عمر بن الخطاب ، منعت هذه النجدات من الوصول وتحقيق أغراضها . وبعد اعلام الخليفة بأمر الفتح بوصول الاخماس مع عبد الله بن مسعود ،عمر يكتب الى أبي عبيدة بالاقامة بالمدينة ويعده بالمدد . فلأي شيء يكون المدد الجديد طالما أن المدينة قد سقطت ونجدات أهل الجزيرة التي هيأها هرقل قد صدت .؟

رواية سيف بن عمر عند الطبري تجلي كثيرا من الغموض حيث نراه يقول أن أبا عبيدة بعد فتحه للمدينة أرسل الاخماس مع عبد الله ابن مسعود أيضا الذي أخبر الخليفة بخبر هرقل وتحريضه لاهالي الجزيرة / فهو ينغمس أحيانا ويطلع أخرى/ فيأتي رد الخليفة متوافقا مع واقع الحال هنا/ أقم بمدينتك واستعن بأهل الشام فالنجدة قادمة فكانت نجدة سعد . التي انهت تحشدات الحزيرة .

فهما متفقان في أن هرقل حاول ارسال النحدات من أهالي الجزيرة والاختلاف كما هو واضح حول زمان وأغراض هذه النجدات . وهي من حوادث عام ١٥ هـ عام فتح حمص/بأغلب الروايات/ وهو عام التوجه لليرموك بعد أن علموا بالحشود التي سيرها هرقل اليهم فاختار العرب اليرموك لتكون مكانا للمعركة بعد أن أخلوا مدن الداخل ومنها حمص .

ثم لنراقب فيما يلي رسالة أبي عبيدة الى عمر بعد الفتح وقصة نزوحه عن حمص الى اليرموك كم تباينت الاراء حول هذه القضية وتشعبت حتى لاندري هل رسالة أبي عبيدة الى الخليفة بشرى بالفتح مع الاخماس

الواجبة ؟ أم هي استئذان في الجلاء عن مدن الشام لملاقاة حشود الروم في اليرموك ؟ ولماذا غضب الخليفة وطلب من قيادات العراق" وهي أمام مسؤوليات جسام وعلى أبواب القادسية "أن تمد جند حمص وتصد حشود الجزيرة ؟ثم لماذا غضب عمر هذه الغضبة المضرية واستنفر بنفسه ونزل الجابية على أثر انسحاب المسلمين من حمص ثم وفي العام التالي يأتي الجابية أيضا ومنها الى الى القدس التي أبت التسليم الا اليه ؟ .

لا أورد الروايات بتفاصيلها دفعا للاطالة وسأكتفي بالاشارة الى مصادرها لمن أراد التعمق والمتابعة (٢٧).

أرى أن المسلمين بعد فراغهم من أمر دمشق ضربوا حصارهم على حمص فامتنعت المدينة خلف أسوارها المنيعة وجرت مناوشات وحروب حول الاسوار . وعندما يئست المدينة من مدد هرقل سلمت بشروط المدن الشامية الاخرى . وعندما شرع هرقل بارسال قواته وحشوده لملاقاة المسلمين في المعركة الحاسمة (اليرموك) انسحبوا الى المكان الملائم للمعركة ولتلقي المدد من المدينة المنورة في آن واحد وحسب اشارة خالد بن الوليد عليهم .

تخبرنا مصادر اليرموك بأن المسلمين هم الذين نزلوا المكان أولا ووافاهم الروم بحشودهم الكبيرة الى هناك . فلا شيء يوجب لوم الخليفة وغضبه واستنفاره فكل شيء يسير وفق خطة محكمة ومدروسة .

والثانية أن أبا عبيدة رد الاموال التي أخذها من الحمصيين عند رحيله الى اليرموك وأن الحمصيين أقسموا بدفع جند هرقل عن المدينة أورد ذلك البلاذري اذ قال : (حدثني أبو حفص الدمشقي قال حدثني سعيد بن عبد العزيز قال: بلغني أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ماكانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود

---

(٢٧)- الطبري ج٤ ص ١٥٤ وابن الاثير ج٢ ص ٣٤٠ - ٣٤١

فقالوا والتوراة لايدخل عامل هرقل مدينة حمص الا أن نغلب ونجهد فأغلقوا الابواب وحرسوها وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود . وقالوا ان ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا الى ماكنا عليه والا فأنا على أمرنا مابقي للمسلمين عدد، فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلسين فلعبوا وأدوا الخراج وسار أبو عبيدة الى جند قنسرين وانطاكية ففتحها(٢٨).

وعنه أخذكرد علي في خطط الشام(٢٩) وكذلك الازدي الذي قال عنه الزركلي لم أجد له ذكرا في المتقدمين (٣٠).

بينما الواقدي لايرى ذلك وعنده مايخالف هذا التصور: يقول الواقدي في مسيرجيوش الروم الى اليرموك(وأمرهم بالمسير الى اليرموك (الآمر هرقل) فسارت حيوش الروم يتلو بعضها بعضا لايمرون ببلد من مدائن الشام التي فتحها المسلمون الا ويعنفون أهلها ويقولون لهم : ياويلكم تركتم أهل دينكم وملتكم وملتم الى العرب . فيقولون لهم أنتم أحق بالملامة منا لانكم هربتم منهم وتركتمونا للبلاء فصالحنا عن أنفسنا فيعرفون الحق فيسكتون(٣١) هذا يدل على أنهم استقبلوا جيوش هرقل ولم يقاوموها واستضافهم زعيمهم أبو الجعيد في الزراعة ولكنهم غدروا به لاسباب مسلكية فقال الوافدي(حدثني أبوعبيدة عن صفوان بن عمرو عن عبدالرحمن بن حبير أن أبا الحعيد كان رئيسا من رؤساء حمص فلما اجتمع الروم على المسلمين في اليرموك دخلوا على حمص ونزلوا في بلدة تسمى الزراعة . وكان أبوالحعيد قد جعلها مسكنه لطيب هوائها ومائها وانتقل من حمص اليها فنزل عسكر الروم على الزراعة(٣٢).

---

(٢٨)ـ البلاذري فتوح البلدان حـ١ ص ١٣٨

(٢٩)ـ خطط الشام كرد علي جـ ١ ص ١٢٧

(٣٠)ـ الزركلي **الاعلام** .

(٣١)ـ الواقدي فتوح الشام جـ ١ ص ١٠٠

(٣٢)ـ الواقدي فتوح الشام ص ١٣٨ حـ

٣ – اضطرابات حمص وتحريض أهالي الحزيرة لتغذية هذه الاضطرابات :

هذه تحدث عنها الطبري في حوادث عام ١٧هـ بأن الروم بتحريض من أهالي الحزيرة اجتمعوا يريدون غزو حمص والقضاء على أبي عبيدة وخالد .(فلما سمع المسلمون باحتماعهم ضم أبوعبيدة اليه مسالحه وعسكر بفناء المدينة (حمص) وأقبل خالد من قنسرين اليهم فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة أو التحصين فأشار خالدبالمناجزة وأشار سائرهم بالتحصين ومكاتبة عمر فأطاعهم وكتب الى عمر بذلك. عمر يستنفر ويكتب الى سعد بن مالك باستنفار أهل العراق فنفرت قيادات العراق كلها لنجدة أبي عبيدة وخالد في حمص بل نفر عمر نفسه وخرج حتى حل بالجابية ولما بلغ أهل الجزيرةهذا الحشد الاسلامي تفرقوا..) . ومن قبل تفرقوا أيضا عندماحرضهم هرقل لنجدة حمص المحاصرة[٣٣] ومن الاهم من ذلك أن نجدات أهل العراق هي التي جعلتهم يتفرقون .

وعند ابن الاثيرقبل ذلك فهو يعود الى أخبار حشود الجزيرة لمد هرقل ضد أهالي حمص وذلك في أواخر عام١٦ هـ ثم يذكر الخبر نفسه في حوادث عام ١٧هـ تماما كما ورد لدى الطبري[٣٤] .

بعد هذا العرض يبدوا واضحا أن أبا عبيدة كتب الى عمر يستنفره ويستمده بسبب حشود أهالي الجزيرة مرتين : الاولى خلال عملية الفتح من عام ١٥ هـ . والثانية بعد أن استقر أبوعبيدةوالمسلمون في حمص عام ١٧ هـ .

فقد حاول أهالي الحزيرة أثارة الروم والبلاد الشامية ضدالمسلمين فيما يشبه التحريض على الثورة ، لذلك كتب أبو عبيدة يستمد عمر: (وكتب الى عمربخروجهم عليه وشغبهم أجناد أهالي الشام عنه). ثم نجد في نص الرسالة : (أن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على

---

(٣٣)- ابن الاثير ج٢ ص ٣٤٢

(٣٤)- المصدر السابق نفسه ص ٣٦٦ و ٣٧١

أهل حمص ...)[٣٥]. وبهذا دلالة كافية على تشبث الروم ومحاولتهم المتكررة للعودة الى المدينة مرارا نظرا لمكانتها الخاصة لديهم فقد أولوها الكثير من اهتماماتهم وسخروا الكثير من امكاناتهم للاحتفاظ بالمدينة أو للعودة اليها . أمثال هذه المحاولات لم تبذل تجاه أي مدينة من مدن الشام .

(٣٥)- الطبري ج٤ ص ١٩٥ - القاهرة .

المنصور الأول صاحب حماة محمد بن تقي الدين عمر

بقلم الأستاذ محمد عدنان قيطاز

لم تكن حماة في نهاية العصر القديم وبداية العصر الوسيط سوى بلدة صغيرة حانية على نهر العاصي في خشوع الزاهدين ، تستعيد ذكريات الماضي البعيد ، أيام كانت – والآراميون في شباب الزمان – بارزة كالابريز في المعنى الوجيز ، ان لم تتألق جنباتها حضارة ونضارة.. توهجت اباء وفداء

وماكاد العصر الايوبي يلقي بجرانه رفيقا شفيقا.. حتى دب في عروقها نسغ الحياة الجديد، فأصبح قفرها خصبا ، ووحشتها أنسا ، وفقرها غنى ، وطلولها الدوارس معاهد علم، ومنارات فضل ،وغدت حماة في بلاد الشام مدينة العلم والادب" كما يقول محمد كرد علي،بل أصبحت جامعة كبيرة ، كل منزل فيها دار علم، وبيت حكمة ومجمع أدباء وفقهاء ورجال فكر، ومستودع كتب ومؤلفات شتى ماتزال بقاياها عابقة بأريج العتق وجلال القدم ، وذلك بفضل استنارة حكامها ورعايتهم للحركة العلمية . ويأتي على رأس هؤلاء الحكام المنصور الاول محمد بن تقي الدين عمر .

التعريف بالمنصور محمد :

هو ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب(1) كان أبوه تقي الدين عمر – الملقب بالملك المظفر – سندا في البيت الايوبي ، شجاعا شديد البأس ، وعنده فضل وأدب . شارك عمه صلاح الدين في معظم حروبه مع الصليبيين وأبلى فيها البلاء الحسن ، كما ساعده على ارساء قواعد حكمه على مصر والشام ، وكثيرا ماكان يتولى تصريف شؤون مصر بالنيابة عنه . ثم قلده أمر حماة وملحقاتها سنة ٥٧٤ ه

(1)– مفرج الكروب ٤: ٧٧ وفيه شاهان شاه ،المختصر ٣ : ١٢٥

وبقيت بحوزته حتى وفاته سنة ٥٨٧ هـ .[١]

أما جدة نور الدين شاهنشاه بن أيوب - وهو الاخ الاكبر لصلاح الدين - فقد استشهد في حصار دمشق سنة ٥٤٣ هـ [٢].

وأصل البيت الايوبي يرجع الى أيوب بن شاذي بن مروان . وقد حاول بعض النسابة - على عادتهم في التقرب من أصحاب النفوذ - أن يردوا أصل الايوبيين الى العرب العدنانية ، وربما ردوهم الى البيت الاموي غير أن المؤرخ أحمد بن ابراهيم الحنبلي المتوفى سنة ٨٧٦ هـ يشير الى أن شاذي - الجد الثالث للمنصور محمد - من الاكراد الروادية ،وهي بطن الهذبانية من بلد دوين في أذربيجان[٣] .

ولادتـــــه :

لم يذكر أصحاب التراجم سنة ولادة المنصور محمد بن تقي الدين عمر ، لكنهم أجمعوا على أن وفاته كانت سنة ٦١٧هـ ،وله من العمر خمسون سنة ، وأن مدة حكمه ثلاثون سنة ، فاذا كانت سنة حكمه على حماة هي سنة ٥٨٧ هـ فان سنة ولادته تكون ٥٦٧ هـ/١١٧١م وهي السنة التي قطعت فيها الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد ، وخطب باسم الخليفة العباسي المستضيء . وهذا يعني أن ولادته كانت في السنة التي تم فيها القضاء على الحكم الفاطمي في مصر وقيام الحكم الايوبي .

ومن المرجح أن المنصور محمد ولد في"منازل العز" المطلة على النيل في أجمل بقعة من بقاع القاهرة ، وهي المنازل التي بنتها أم الخليفة العزيز بالله الفاطمي ، وبذلت في سبيلها ماوسعها البذل حتى أصبحت بهجة للناظرين . وكان تقي الدين عمر مغرى بتلك المنازل

---

(١)- المختصر ٣ : ٦١ - ٧١ - ٧٤ - ٧٦ - ٨٠

(٢)- وفيات الاعيان ٢ : ١٦١ ، شفاء القلوب : ٤٩،المختصر٣ : ٢١

(٣)- شفاء القلوب : ٢١ وماتلاها ، ومن شاء مزيدا من التفصيل حول أصل الايوبيين فيمكنه الرجوع الى ماكتبه الدكتور علي ابراهيم حسن في كتابه القيم" مصرفي العصور الوسطى" أنظر : ١٧٢ .

كلفا بمناظرها وجمالها الاخاذ ، فأسكنه اياها صلاح الدين ،ثم أن له بشرائها ، ولكن نفس تقي الدين عمر آثرت عليها مادون ذلك ،وجعلها مدرسة للشافعية ، وقيل : وقفها على فقهاء الشافعية (١).

اخوته :

كان للمنصور محمد أخوان يكبرانه سنا ، أحدهما سعد الدين شاهنشاه وهو والد سليمان شاه صاحب اليمن ـ وقد أغراه بعض الصليبيين بالملك فاطمأن الى صدقهم ، فلما تفردوا به شدوا وثاقه وأخذوه أسيرا وبقي في الاسر أكثر من سبع سنين حتى افتداه السلطان صلاح الدين(٢).
والآخر يقال له : شهاب الدين أحمد الذي استشهد في موقعة الرملة سنة ٥٧٣ هـ وهو في ميعة الشباب ، وقد حرضه أبوه على قتال الصليبيين ، ورأى من بسالته ما أثار اعجابه وسكن غضبه على أخيه (٣).

حياته الاولى :

نشأ المنصور محمد في كنف أبيه نشأة صالحة ، وقد تسنى له أن يأخذ نصيبا من العلوم الدينية والعربية . ولما آنس منه أبوه فطنة دفع به الى محدث الاسكندرية أبي الطاهر بن عوف السلفي فسمع منه الحديث وتأدب بآدابه (٤).

ولما استقرت حماة بيد تقي الدين عمر، رحل اليها ووجد على العاصي ماكان يحده من الجمال والجلال في" منازل العز" على النيل. غير أن الفترة الاولى من حياة المنصور محمد في ظل أبيه لم تكن وادعة كما يشتهي ، وانما كانت مشوبة بالحذر ، فالصليبيون يمدون أعناقهم الى حماة وماجاورها لبسط نفوذهم وتثبيت أقدامهم في

---

(١)ـ المختصر ٣: ٥٠ ،خطط المقريزي ٤ : ١٩٤
(٢)ـ مفرج الكروب ٢: ٦٠ ،الروضتين ٢: ٧٠ ،شفاء القلوب : ٢٧٢ ـ ٤٠٨
(٣)ـ مفرج الكروب ٢: ٦٠ ، المختصر ٤: ٥٩ ـ ٦٠
(٤)ـ شذرات الذهب ٥: ٧٧ ، فوات الوفيات ٢ : ٣١٥

المناطق الداخلية • وكانت رحلات الغزو أو المرابطة موصولة الاسباب وكثيرا ماكان المنصور محمد يرافق أباه في حروبه حتى أصبحت قعقعة السلاح وحمحمة الخيل مما تشتاقه النفس وتلذه العين • ولربما حضر مجالس أبيه ليكتسب خبرة في دنيا الناس ومرانا على أصول الحكم • ويحدثنا المنصور محمد في تاريخه " مضمار الحقائق" أنه ناب عن أبيه في حكم مصر سنة ٥٨٠ هـ خلال فترة وجوده مع صلاح الدين في بلاد الشام ، وعمره لايزيد عن الرابعة عشرة ، وكان الشاعر الكمال المغربي التنوخي ممن قصده مادحا راجيا نواله ، من ذلك قوله :

واذا خشيت من الزمان سجية	تردي فلا تعلق بغير محمد
من معشر أحسابهم لم تنقطع	عنا وجمرة عزمهم لم تخمد
زر محده تزر المكارم والعلا	وترى الندى يغشاه في وجه ندي (١)

كما نجد في تاريخه جانبا من هذه الحياة التي استمرت حتى وفاة أبيه سنة ٥٨٧ هـ في حصار منازكرد ، وكان في صحبته المنصور محمد الذي أخفى خبر موته حتى لايتسرب الى الجند فيكون سببا في اضعاف معنوياتهم ، أو يسري الى أعدائه فيطمعون فيهم • وكان المنصور محمد من الحزم والصبر بمكان ، ثم قفل راجعا مع الجند الى حماة ، ودفنه في ظاهرها ، وبنى الى جانب تربة أبيه مدرسة ، وأجرى عليها الاوقاف تخليدا لذكرى أبيه ، وأصبحت تربة أبيه معروفة باسم " التربة التقوية " (٢) •

علاقات المنصور محمد مع الحكام الايوبيين:

خلف المنصور محمد أباه على حكم حماة وملحقاتها سنة ٥٨٧ هـ ، وقد حاول توسيع دائرة نفوذه ، فاستولى على المناطق الجزرية ـ ميافارقين وماحولها ـ وطلب من السلطان صلاح الدين عهدا بذلك وشرط عليه شروطا ، ولكن السلطان نسبه الى العصيان ، ورأى هذه الخطوة من جانب المنصور محمد تحديا لارادته واستهانة بسلطانه • فطلب من

(١)ـ مضمار الحقائق : ١٩٧ وماتلاها •
(٢)ـ المختصر ٣ : ٨٠

ابنه الملك الافضل أن يزحف بقواته على المنصور محمد صاحب حماة ، كما كتب الى أصحاب البلاد الشرقية كالموصل وسنجار وديار بكر يحثهم على نجدة الملك الافضل والوقوف الى جانبه .

ولما أحس المنصور محمد بغضبة السلطان ، بادر الى مراسلة الملك العادل ـ عم أبيه ـ لاسترضاء أخيه السلطان ، واصلاح ذات البين. وقد نجحت وساطة الملك العادل ، فأقر صلاح الدين المنصور محمد على حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم ، واسترد منه الاجزاء الشرقية وجعلها تحت ادارة أخيه الملك العادل مقابل التنازل عما كان تحت سيطرته من بلاد الشام خلا بعض الاجزاء الجنوبية . ولما استتب للملك العادل ما أقر له عاد الى مصر يصحبه المنصور محمد للمثول بين يدي السلطان صلاح الدين وتقديم فروض الطاعة والولاء ، وعندما رآه صلاح الدين نهض اليه واعتنقه وأكرمه وأنزله في مقدمة عسكره ، ونسي ماكان منه وبذلك استقامت الامور للمنصور محمد ، وتحولت حماة من اقطاعية عسكرية الى مملكة وراثية (1).

وعندما مات صلاح الدين أصبحت بلاد الشام ومصر تحت ادارة أبنائه وآل بيته والامراء التابعين لهم ، ومع ذلك فقد تعرضت الاسرة الايوبية لخطر عنيف كاد يودي بحياة الاسرة لولا شجاعة الملك العادل شقيق صلاح الدين ـ ودهاؤه . ولم يأت هذا الخطر من الوجود الصليبي في المنطقة ، وانما جاءها ممن كانوا يتربصون بها الدوائر على أطرافها لاقامة ملك جديد على أنقاضها ، كما جاءها الخطر من داخل الاسرة الايوبية نفسها.

فقد قاد بكتمر صاحب أخلاط تمردا في الجبهة الشرقية يؤيده صاحب ماردين وصاحب الموصل وصاحب سنجار ، غير أن هذه الجبهة سرعان ماتصدعت بعد أن وقف الملك العادل منها موقفا حازما ، يعضده أبناء أخيه وعلى رأسهم المنصور محمد صاحب حماة ، ويمثلون الجبهة الغربية

(1)ـ مفرج الكروب ٢ : ٣٧٧ وماتلاها ، المختصر ٣ : ٨٠ ـ ٨١ ،شفاء القلوب : ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ،الكامل فى التاريخ ١٢ : ٨٢ ـ ٨٣

ويبدو أن مقتل بكتمر صاحب أخلاط غيلة سنة ٥٨٩ هـ قد عجل بنهاية التمرد ،ودفع بأمراء الجبهة الشرقية الى الاعتذار وطلب العفو[١].

وماكاد التمرد ينتهي حتى شب النزاع على زعامة الاسرة الايوبية بين الاخوين : العزيز صاحب مصر والافضل صاحب دمشق .. كان الاثنان محور هذا النزاع الذي اشترك فيه أمراء البيت الايوبي ، وقد دام سبع سنوات من ٥٨٩ هـ الى ٥٩٦ هـ ، وانجلت الفتنة آخر الامر بتوحيد البيت الايوبي تحت زعامة الملك العادل الذي دخل أول الامر حكما في نزاع الاخوين ، ثم تحول الى مشارك فيه مع العزيز صاحب مصر ، وأخيرا الى طامع بالسلطة بعد وفاة العزيز وموقف الجند من سلطنة ابنه الصغير وقد تمكن الملك العادل بما أوتي من ذكاء وحسن سياسة من تحقيق مطامعه الشخصية في وراثة أخيه صلاح الدين .

ومن الثابت أن المنصور محمد صاحب حماة انحاز الى جانب الملك الافضل صاحب دمشق منذ بداية الصراع ، وكاد يودي بحياته ، ولكن المنصور محمد بعد أن استقل عمه الملك العادل بالسلطة أحس بضعف مركزه وعدم قدرته على مجابهة قوات الملك العادل ، فأرسل اليه يعتذر عن مساعدته للاخوين : الأفضل صاحب دمشق والظاهر صاحب حلب ،ويطلب رضاه . فلما قدم رسول المنصور محمد تلقاه الملك العادل بالترحاب وخلع عليه وأظهر الرضى عن المنصور محمد ، وكتب اليه الملك العادل أبياتا تنم عن أدب الكريم وحكمة الحكيم :

أتظنني من جفوة أتعتب ... قلبي عليك أرق مما تحسب
لايوحشنك ماجنيت فتنثني ... متجنبا .. وهواك لايتجنب
ما أنت الامهجتي وهي التي ... أحيا بها ..فترى عليها أغضب
أنت البريء من الاساءة كلها ... ولك الرضى .. وأنا المسيء المذنب

وقال للرسول : ان كان قد صدرت منه هذه الزلة الواحدة ،فله من الحسنات مايمحوها ويمحقها . وطلب المنصور محمد من الملك العادل أن يزوجه

(١)ـ مفرج الكروب ٣ : ١٦ وماتلاها ،شفاء القلوب : ٢٠٢

ابنته ملكة خاتون ، فأجابه الملك العادل الى طلبه ، وزالت بهذه المصاهرة كل أسباب الجفاء (١).

وقد حاول الظاهر صاحب حلب أن يؤلب المنصور محمد على عمه الملك العادل في رسالة بعثها اليه ، يذكره فيها بسوء نية الملك العادل ، ويغريه بتوسيع ممتلكاته . ولكن المنصور محمد اعتذر عن اجابته متعللا باليمين التي حلفها للملك العادل ، ولايسعه أن يحنث بيمينه . فغيظ صاحب حلب ، وجرد حملة الى حماة وحاصرها سنة ٥٩٧ هـ ولكن المدينة امتنعت عليه . ولما أيقن الظاهر صاحب حلب باخفاق حملته صالح المنصور محمد على مال يدفعه اليه .. وعلى الدخول في طاعة الاخوين : الظاهر والافضل ان ملكا دمشق (٢).

ولم يكن هذا الصلح سوى محاولة من المنصور محمد لكسب الوقت ، وبقي ملتزما جانب عمه الملك العادل ، وقد ساعده على ذلك : اخفاق الاخوين في حصار دمشق ، ووقوع الخلاف بينهما ، ومجيء الملك العادل من مصر . ولما شعر كلا الاخوين بضعف موقفه بادرا الى مصالحة الملك العادل واسترضائه ، وبذلك قطع الملك العادل دابر الفتنة ، وقضى على مظاهر الفوضى في البيت الايوبي ، وأصبح سيد الموقف في مصر والشام. وقد بارك الخليفة العباسي عمل الملك العادل ، وخلع عليه لقب الملك العادل شاهنشاه ملك الملوك وخليل أمير المؤمنين (٣).

وفي عهد الملك العادل ضم المنصور محمد بارين" بعرين" بالقوة الى ممتلكاته ، وكانت بيد عز الدين ابراهيم بن المقدم ، فألزمه الملك العادل بردها . ولكن المنصور محمد امتنع ثم مالبث أن أرضى ابراهيم بن المقدم ،وتنازل له عن منبج وقلعة نجم بسبب بعدهما

---

(١)- مفرج الكروب ٣ : ٢٩ - ١١٣ - ١١٤

(٢)- المختصر ٣ : ٩٣ ، شفاء القلوب : ٢١٠ ، التاريخ المنصوري : ١٥ ، الكامل في التاريخ ١٢ : ١٦١ - ١٦٢ .

(٣)- مفرج الكروب ٣ : ١٣٢ وماتلاها ، المختصر ٣ : ١٠١ ،شفاء القلوب : ٢١٨ .

عن مركز حكمه . وقد اختار المنصور محمد عليها بارين لاكثر من سبب فهي أولا قريبة من حماة ويمكنه الاشراف عليها بصورة مباشرة ، وثانيا فان بارين تشكل خط المواجهة مع الصليبيين الفرنجة المقيمين على الساحل ، ولهذا كان ضمها الى حماة عملا صائبا فرضته الضرورة العسكرية . وبذلك أصبحت ممتلكات المنصور محمد من البلاد : حماة والمعرة وسلمية وبارين(١).

الحروب مع الصليبيين :

كان موت صلاح الدين وما رافقه من نشوب الصراع على السلطة بين أمراء البيت الايوبي عاملا هاما في خفوت حدة القتال مع الصليبيين ، وأصبحت المرابطة على الثغور أو القلاع ،والغارات الخاطفة أو الحصار المحدود هي البديل عن العمليات العسكرية الكبرى . ولعل الحكام الايوبيين كانوا يريدون التفرغ لتنظيم أوضاعهم الداخلية ، فرغبوا في تحقيق نوع من التعايش مع الصليبيين لانهم رأوا أن الوجود الصليبي على الارض العربية هو وجود موّقت وليس بذي خطر بسبب حالة الضعف التي يئن تحت وطأتها الصليبيون بعد هزيمتهم الشنعاء في حطين واخراجهم من بيت المقدس على يد صلاح الدين . لكن مثل هذه السياسة الوادعة لم تجد قبولا لدى المتشددين الاوربيين الذين كانوا يتطلعون الى الثأر والهيمنة على مقدرات الشرق العربي ،والتوسع ما أمكنتهم القدرة على ذلك . وكانت طوائف الداوية والاسبتارية تغذي مثل هذه الروح العدوانية ، وتعمل على ايقاد نار الحرب كلما استشعروا بانطفائها ، وهذا يفسر لنا دوام المرابطة على الثغور والقلاع والقيام بالغارات الخاطفة المتبادلة .

ففي سنة ٥٩٩ هـ أحرز المنصور محمد نصرا على فرنجة الساحل يعضده حكام حمص وبعلبك وحلب . وفي سنة ٦٠٠ هـ عقد معهم ـ أعني فرنجة الساحل ـ معاهدة بناء على طلبهم وموافقة الملك العادل . وفي سنة ٦٠١ هـ أغار الفرنج على حماة وتمكنوا من الوصول الى قرية الرقيطا على مشارف حماة ،وعادوا بغنائمهم وأسراهم مسرعين الى طرابلس بعد

(١)ـ مفرج الكروب ٤ : ٨١

تجديد الهدنة الى مدة معلومة ، وهي بالتأكيد ليست طويلة الامد.كما شارك المنصور محمد عمه الملك العادل في حصار طرابلس سنة ٦٠٣هـ رداعلى غارات الفرنج ، ولم يرجع الملك العادل الا بعد أن عقدوا معه صلحـا وفي سنة ٦١١ هـ اجتمع الفرنج من قبرص وطرابلس وعكا وانطاكيـة توّازرهم قوات آرمنية ، مستفيدين من وجود الملك العادل في مصـر مع قواته ،فخشي المنصور محمد أن تكون حماة هدفا لعملية حربيـة كبرى لاطاقة له بدفعها ،فسارع الى الظاهر صاحب حلب ، وطلب منـه التوسط لعقدالصلح،ونجحت الوساطة وبذلك تمكن المنصور محمد من ابعـاد خطر الفرنج عن حماة من دون قتال .

وهكذا نجد أن حروب المنصور محمد مع الصليبيين لم تكن معـارك ذات بال ، وانما كانت مقتصرة على الغارات والعمليات الثأرية التـي تنتهي بالنصر حينا ، وبالصلح حينا آخر ، وهذا النوع من القتـال هو الى التحريك أقرب منه الى التحرير ، أو قل هو ضرب من حرب الاستنزاف التي قادها المنصور محمد ضد الصليبيين(١).

وفـاة المنصـور محمـد :

لم يعمر المنصور محمد طويلا ، فقد أصيب بالحمى بعد وفـاة زوجته ملكة خاتون بنت الملك العادل بسنة واحدة ، وكانت امرأة ذات فضل ونبل ، جمعت بين رجاحة العقل وقسامة الوجه وسماحة اليد،وقد وجـد فيها المنصور محمد ماكان يطمح اليه من كرائم النساء ، واختار أكبـر أولاده منها المظفر محمود ليكون وليا لعهده ، وعندما ماتت سنـة ٦١٦ هـ حزن عليها حزنا شديدا ،ولبس الحداد هو وأولاده ،وأمر بصعـود أهل حماة الى القلعة للصلاة عليها . ويصف لنا ابن واصل مجلس العـزاء في المدرسة المنصورية بقوله : ورأيته وهوجالس يمنةالمحراب ،وهـو مكتئب حزين ، وهو لابس الحداد ، ثوب أزرق وعمامة زرقاء ،والـى

(١)- مفرج الكروب ٣ : ١٤٣ - ١٤٤ - ١٦٢ - ١٦٤ - ٢٢٣ ،المختصر ٣ : ١٠٣ - ١١٦،شفاء القلوب : ٣٣٧ وماتلاها ،التاريخ المنصوري : ٤٤ والحاشية رقم ١

جانبه أولاده الملك الناصر قلج آرسلان واخوته وعليهم كلهم الحداد، وقرآت القراء بين يديه ، ووعظت الوعاظ ، وأنشدت الشعراء المراثي[1].

ويذكر أصحاب التراجم أن المنصور محمد مات في عهد الملك الكامل في شهر ذي القعدة سنة ٦١٧ هـ وعمره لايزيد عن خمسين سنة [2].

وقد أوصى المنصور محمد في مرضه باطلاق جميع مماليكه واماثه كما أوصى باطلاق كل من في حبوسه ، وأثر عنه قوله : في الحبس من قد ظلمنا ، وفيه من قدظلمناه [3]. ودفن في تربة أبيه "التربة التقوية" شمالي حماة ، وتوهم الصابوني في تاريخه فذكر أنه مدفون بجانب الجامع الاعلى (الجامع الكبير) والصواب ماذكرناه [4]

الادارة والقضاء في عهد المنصور محمد :

يمثل المنصور محمد صاحب حماة رأس السلطة في محتمع المملكة الصغيرة الخاضعة لحكمه ، وكان يتولى الاشراف بنفسه على أمور الرعية منذ فراغه من صلاة الصبح وحتى دخول الليل ، لايشغله في ذلك مايشغل الحكام من الاستمتاع بملذات الحياة في ساعات لهوهم. وكان نهاره موزعا على أوقات العمل وقضاء المصالح ، ولم يحتجب عن الناس في أكثر أوقاته [5] يساعده في ذلك وزير يقوم بتنفيذ أوامره ونواهيه وآخر من تولى الوزارة في عهده زين الدين بن فريج الذي تآمر مع الجند بعد وفاة المنصور محمد وساعد على نقل ولاية العهد من المظفر محمود الى آخيه الناصر قليج آرسلان [6].

(١)ـ مفرج الكروب ٣ : ٦٤ ـ ٦٥ .

(٢)ـ مفرج الكروب ٤ : ٧٧ ،المختصر ٣ : ١٣٢ ،شذرات الذهب ٥ : ٧٧
النجوم الزاهرة ٦ : ٢٥٠ ،فوات الوفيات ٢ : الترجمة رقم ٤٤٤

(٣)ـ مفرج الكروب ٤ : ٧٧ ،التاريخ المنصوري : ٩٠ ـ ٩١ .

(٤)ـ تاريخ حماة : ١٢٠

(٥)ـ مفرج الكروب ٤ : ٨٠

(٦)ـ المختصر ٣ : ١٢٦ .

وكانت قلعة حماة هي مركز السلطة في المدينة ، وفيها مقر الحامية العسكرية ومستودعات السلاح والعتاد (الزردخاناة). وقد أعاد المنصور محمد بناء أسوارها وجعلها من الحجر والكلس بعد أن كانت من اللبن أيام أبيه تقي الدين عمر ، ووسع الخندق المحيط بها وزادفي تعميقه حتى صارت القلعة كما يقول ابن واصل في تاريخه مضاهية لقلعة حلب ، بل أجود وأحصن[1] ، وربطها مع حمص بجسر أطلق عليه جسر الحديد لمتانة بنائه سنة ٥٩٤ هـ [2]وقد عرف هذا الجسر فيما بعد باسم جسر المراكب أو جسر السرايا .

ويساعد المنصور محمد في تصريف شؤون المملكة نخبة من الامراء والعلماء ، فهناك كاتب الانشاء" كاتب السر" للديوان ، وهناك القضاة والفقهاء للمعاملات والخصومات واقامة الشعائر الدينية والحسبة والتعليم والنظر في أمور الاوقاف والمساجد وبيت المال والبيمارستان[3].

أما بر حماة فله مسؤول خاص يدعى" محافظ بر حماة " وقد عرفنا ممن تولى المنصب في عهد المنصور محمد الفقيه شهاب الدين البلاعي الذي أسره الفرنج في احدى غاراتهم على حماة ثم تمكن من الفرار والعودة اليها[4].

ولملحقات حماة كالمعرة وغيرها ولاة من قبل المنصور محمدللضبط والربط ، وربما كان الوالي من الفقهاء أو الامراء تسانده قوة من الجند ، والى جانبه قاضي للفصل في الخصومات والنظر في أمور الناس .

وقد جعل المنصور محمد لاصحاب الحرف مكانا يجتمعون فيه كل يوم لاعمال البيع والشراء وأطلق عليه سوق المنصورية (سوق الطويل)رتب فيه الباعة ، فكان كل أصحاب حرفة في جهة ، ورفع عنهم مايدفعونه من

---

(١)- مفرج الكروب ٤ : ٨٠

(٢)- التاريخ المنصوري : ٦

(٣)- المختصر ٣ : ١٧١

(٤)- المختصر ٣ : ١٠٦ ،التاريخ المنصوري : ٤٤ - الحاشية رقم١ نقلا عن تاريخ ابن الفرات .

مكوس أو خراج [1].

وهناك نقش حجري على قوس كتب في عهد المنصور محمد يعلن فيه بطلان المكوس والبدع من خراج السمن والعسل والقطن والعصفر والعفص وغير ذلك ، ولعن من بدله وغيره • وقد بقي هذا القوس حتى سنة ١٠٩٢هـ أي بعد أكثر من أربعة قرون من تشييده [٢].

غير أن القضاء كان له الدور البارز في ادارة المنصور محمد ،فقد تولى القضاء في حماة ابان فترة حكم المنصورمحمد عدد من القضاة الذين تميزوا بعدالة أحكامهم ورجاحة أحلامهموالتزام جانب التقوى في كل مايصدر عنهم • وقد عرفنا منهم ضياء الدين بن الشهرزوري قاضي قضاة بغداد وكانت وفاته في حماة سنة ٥٩٩ هـ وزين الدين بن عبد المحسن الانصاري،وبهاءالدين أباليسر بن موهوب ،وحجة الدين بن مراجل السلماني ، ولكن المنصور محمد سرعان ماعزل الاخير وولى مكانه سالم ابن واصل والد صاحب"مفرج الكروب في أخبار بني أيوب "غيرأن ابن واصل مالبث أن استعفى بعد مدة مراعاة للقاضي حجة الدين لما كان بينهما من قديم المودة كما عرفنا من القضاة عماد الدين بن القطب ونجم الدين بن عبدالرحمن بن أبي عصرون وكان عظيما جليل القدر عند الملوك بسبب مكانة والده [٣].

وكان للقضاة لباس خاص يميزهم في مجلس الحكم وهو ارتداء الطيلسان ولم تكن لهم دور خاصة بالقضاء بل كان جامع القلعة في حماة هو مكان التقاضي ، وفيه يجلس القضاة للحكم ، وفيه يحبس الجناة • وقد ذكر ابن واصل في تاريخه أن رجلا ولي أمرا فخان فيه ،فحبسه المنصور محمد بجامع القلعة [٤].

---

(١)ـ مفرج الكروب ٤ : ٢٧١

(٢)ـ تاريخ حماة : ١٢٢

(٣)ـ مفرج الكروب ٤ : ٧٩ـ١١٨ـ١١٩ـ ١٦٥ـ٢٧٣ـ٢٧٤

(٤)ـ مفرج الكروب ٤ : ٨٤

ويقوم القضاة اضافة لما تقدم بمراسيم ولاية العهد ليسبغوا اعليها الصيغة الشرعية ، وقد جاء في تاريخ ابن واصل أنه في سنة ٦١٦هـ تقدم المنصور محمد بتحليف سكان حماة لولده المظفر محمود ، وعمره اذذاك سبع عشرة سنة ، فكتب القاضي سالم بن واصل والد مؤلف" مفرج الكروب" نسخة اليمين ، واستحلف له الناس بولاية العهد (١)

وكان في حماة قاضيان : لاول لاتباع المذهب الشافعي ،والثانـــي لاتباع المذهب الحنفي : وقاضي الشافعية هو المقدم لانه يمثل مذهـــب المملكة ، وهو الذي يخطب في جامع القلعة ،ويؤم المنصور محمد في الصلاة

أما العسكر فلهم قاض خاص يطلق عليه اسم "قاضي العسكر" ،كمـــا يوجد قاض في كل ولاية تابعة لحماة . فهناك مثلا قاض في سلمية ،وقاض في المعرة ،وقاض في بارين ، وكثيرا ماتجري التنقلات بينهم كما حدث عندما اختار المنصور محمد قاضي المعرة ليكون قاضيا في حماة .

وللقضاة جرايات يأخذونها من بيت المال ،وقد يستعفي القاضي من الجراية ورعا وعفة اذا استغنى ، وهذا ماسوف نجده لدى بعض القضـــــاة الحمويين أمثال شرف الدين البارزي وغيره ، وكانوا في عملهم هـــــذا قدوة لغيرهم من قضاة العصر .

حركة العلم والادب :

كان المنصور محمد من طراز الحكام المستنيرين الذين عرفتهم أوربة في بداية عصر النهضة ،ورغم الحوادث المتلاحقة التي كانت تشهدها بـــلاد الشام بسبب الوجود الصليبي ،فان ساحات الحرب ومتاعبها لم تشغـــــل المنصور محمد عن ساحات العلم والادب ومافيها من لذائذ لايعرفهـــا الا أصحابها .

ويعود الفضل للمنصور محمد في ارساء قواعد النهضة العلميـــــة والادبية التي سطع نجمها في بلاد الشام ابان العهد الايوبي،حتى أصبحت حماة في عهده والعهود التي تلته من أبرز مراكز الثقافة العربية علـى

---

(١)- مفرج الكروب ٤ : ٦٤

امتداد أكثر من مائتي سنة . واني أعتقد أن عصر المنصور محمد كان ارهاصا لظهور عصر أبي الفداء الذي طبقت شهرته الافاق .

وقد نجح المنصور محمد ـ وهو العالم والمؤرخ والشاعر ـ في استقطاب العلماء والشعراء حوله ، وأسعدهم بحمايته ورعايته . وأصحاب التراجم يجمعون على أنه كان يحب العلماء والفضلاء من الناس وبخاصة أهل الادب والشعر ، ويحب سماع المديح ويجيز عليه . بل ان عدد من الشعراء الذين وفدوا اليه مادحين قد أتاح لهم فرص العمل في خدمته ، وأجرى لهم المرتبات التي تكفيهم عناء التنقل والارتحال طلبا للارتزاق ،فكنا نجد بين أعوانه من يقول الشعر سواء أكان الشاعر من طبقة العلماء أم من طبقة الجند، حتى أن قصيدة حسام الدين خشترين بن تليل كانت أجود ماقيل في تعزية المنصور محمد يوم وفاة زوجته ملكة خاتون،ولم يكن ابن تليل سوى واحد من جنوده (١).

ولعل أبرز الشعراء الذين نزلوا حماة ابان حكم المنصور محمد عليها أسعد بن يحيى السنجاري سالم بن سعادة الحمصي وشرف الدين الانصاري ،وكانت تهزهم شجاعة المنصور محمد في قتال الفرنج ،وتنشيهم انتصاراته عليهم ، فتثير في نفوسهم كوامن الابداع ويتبارون في انشاد قصائدهم في دار المزة بالقلعة ، فلاتنام العين الا على أهازيج الشعراء أو نعير النواعير . وحتى قال مارون عبود : لم يكن للملوك في هذا العصر شعراء مجيدون الا في حماة (٢).

ولم يكن العلم بأقل حظا من الادب ، فقد حرص المنصور محمد منذ بداية حكمه أن يكون في حماة من كل طائفة من أهل العلم أفضلهم ، وطار صيته بذلك ، حتى قصده القاصدون من أصحاب العلم والمعرفة ، ووجدوا عنده مالم يجدوه عند أصحاب الرئاسة في زمانه . فأصبحت حماة في عهده معهدا كبيرا يضم طوائف متعددة من أصحاب الثقافات كما أصبحت ملجأ لكل عالم أنكره قومه وضاقت عليه الارض .

---

(١)ـ مفرج الكروب ٤ : ٦٥ و ٧٧

(٢)ـ أدب العرب : ٣٠٦

ويذكر ابن واصل في تاريخه أنه كان في خدمة المنصور محمد أكثر من مائتي معمم من الفقهاء والنحاة وأهل اللغة والمشتغلين بالعلوم الحكمية والمهندسين والمنجمين - علماء الفلك - والشعراء والكتاب [1]. وكان ممن ورد عليه الامام سيف الدين الآمدي، وكان مجيدا في العلوم العقلية والنقلية، وله في الاصول والمنقولات عدة مصنفات، رد فيها على الامام فخر الدين الرازي والامام أبي حامد الغزالي وغيرهما من أكابر المتقدمين، وأوضح بطلان أقاويلهم. ولذا تحامل عليه المتحاملون من رجال الدين ونسبوه الى انحلال العقيدة ومذهب الفلاسفة فهرب الآمدي من مصر الى حماة مدينة الفكر الحر .. ولما دخل على المنصور محمد رحب به وأكرمه، وبنى له مدرسة هي المدرسة السلطانية المنصورية، وجعل القاضي شهاب الدين بن القطب معيدا فيها. وكان المنصور محمد يواظب على حضور مجلس الآمدي ويشتغل بجميع فنونه. وقد أثنى شيخ الاسلام العز بن عبد السلام على الآمدي بقوله: ماعلمنا قواعد البحث الا سيف الدين الآمدي. وحسب الآمدي شرفا مالقيه في رحاب المنصور محمد من اجلال وتقدير [2].

أما الكتب فكانت تحظى باهتمام خاص من المنصور محمد، فقد جمع منها أعدادا ضخمة تضم سائر فنون المعرفة، حتى أصبح لديه مالامزيد عليه. وكان حريصا على العناية بها وحفظها في خزائن داره في قلعة حماة. ويشير ابن واصل في تاريخه الى أن المنصور محمد كان يكثر من مطالعة الكتب ومراجعتها واستحضار العلماء والبحث معهم [3] وهذا ماسهل عليه تأليف طائفة من كتب الادب والتاريخ.

---

(١)- مفرج الكروب ٤ : ٧٩ ،المختصر ٣ : ١٢٥

(٢)- مفرج الكروب ٤ : ٧٨ ، المختصر ٣ : ١٥٥ ،طبقات السبكي: ٥ ١٢٩

(٣)- مفرج الكروب ٤ : ٨٠

آثار المنصور محمد :

جمع المنصور محمد في اهابه سجايا الحاكم ومزايا العالم،وكانت حماة في عهده قمة حضارية يفيء الى سفحها أعلام الادب والعلم من كل مكان . ولقد ترك المنصورمحمد _ فيما ترك من آثار _ جملة من المؤلفات عرفنا منها : كتاب مضمار سر الحقائق وسير الخلائق ،وكتاب طبقات الشعراء ، وكتاب درر الآداب في محاسن ذوي الالباب ،وديوان شعر لم يسلم من قصائده الا القليل .

١ _ مضمار سر الحقائق وسير الخلائق :

كتاب واسع في التاريخ ، اتبع فيه المنصور محمد طريقة الحوليات في سرد الاحداث . ومن المؤسف ألا يصلنا من هذا السفر الضخم سوى جزء واحد ، قام بتحقيقه الدكتور حسن حبشي عام ١٩٦٨ عن نسخة المكتب الاحمدية بتونس . وهذا الجزء يتضمن أحداث ثماني سنوات فقط : من بداية سنة ٥٧٥ هـ وحتى مستهل سنة ٥٨٢ هـ ،ويمثل فترة من عهدالسلطان صلاح الدين .

ويلاحظ أن المنصور محمد في تاريخه قد عمد الى بسط أخبارالدولة العباسية في بغداد ، وأعمال صلاح الدين وحروبه مع الصليبيين . وكان اهتمام صاحب المضمار بالغا بوقائع حملة قراقوش المظفري في المغرب لعلاقة ذلك بالبيت الايوبي ، وهذا الاهتمام نكاد لانجده عند مؤرخ سواه ولما كان المنصور محمد مشاركا في صنع الاحداث ، فهو يقدم لنا من خلال سرده لها سيرة ذاتية تتضمن تفصيلات أخباره وأخبارأبيه تقي الدين عمر ، حتى لتكتسب أحيانا صفة المذكرات اليومية مما يضفي على تاريخه قيمة خاصة .

وقد جرى المنصور محمد في تاريخه على أسلوب المتأدبين من غير عسرة ولاتكلف ، فألفاظه سهلة المأخذ ، وعباراته واضحة المقصد . وقد يلجأ الى الحوار وهو يسرد الاخبار ، فلا يشعر قارئه بالملل وأحيانا يستشهد بالنصوص الشعرية الكاملة مدللا على حسن تذوقه للادب وتقديره لاهله ، ولايختار منها الا ماكان طريفا نادرا ،ليجعل القارىء

أو السامع مستروحا بين جمال النثر وجمال الشعر ، وكلاهما واضح مبين.

وتاريخ المضمار بعد هذا لايخلو من حس نقدي سليم ، وفهم ذكي لسير الاحداث ، ولذا نرى صاحبه يعلل أحيانا مايراه بحاجة الى تعليل ، أو يحلل اذا كان في التحليل ابانة ونور . وقد لانكون مبالغين اذا قلنا ان كتاب المضمار من أهم الاصول التاريخية ، وأبرعها صياغة ، وأكثرها تصويرا ، وأشدها جاذبية ،وأعظمها متعة وفائدة .

ومن الواضح أن تاريخ المضمار قد حظي باهتمامات المؤرخين القدامى ، فمنهم من ذكره منوها بفضله ، ومنهم من نقل عنه نقلا يتراوح بين الاشارة والعبارة ، ومنهم من شكك بصحة نسبته الى المنصور محمد .

فقد اعتمد عليه ابن واصل في تاريخه ، وقال عنه : هو في عشرين مجلدة [1].وأتى على ذكره أبوشامة في صدد الحديث عن المنصور محمد بقوله : وصنف كتابا سماه المضمار ، جمع فيه جملة من التواريخ وأسماء من ورد عليه وأقام عنده [2]. كما ذكره أبو الفداء في تاريخه بقوله : وصنف الملك المنصور عدة مصنفات مثل المضمار في التاريخ [3] وابن شاكر الكتبي حيث يقول : وجمع تاريخا على السنين في عدة مجلدات ، ونقل عن شهاب الدين القوصي قوله : قرأت عليه - يعني المنصور محمد - قطعة من كتابه مضمار سر الحقائق وسير الخلائق وهو كبير نفيس يدل على فضله ، لم يسبق الى مثله [4]. وقال ابن العماد : وجمع تاريخا على السنين في مجلدات [5]. وينقل أحمد بن ابراهيم الحنبلي في تاريخه عبارة أبي الفداء نفسها [6].

(١)- مفرج الكروب ٤ : ٨٤

(٢)-ذيل الروضتين : ١٢٤

(٣)- المختصر ٣ : ١٣٢

(٤)- فوات الوفيات ٢ : ٣١٥

(٥)- شذرات الذهب ٥ : ٧٧

(٦)- شفاء القلوب : ٣٣٨

وأشار الى تاريخ المضمار عدد من المؤرخين المعاصرين أمثال الشيخ أحمد الصابوني في تاريخه [1] والزركلي في أعلامه [2] وكحالة في معجمه [3].

أما حاجي خليفة فانه يشكك في صحة نسبة المضمار الى المنصور محمد ، اذ جاء في كتابه كشف الظنون قوله : وتوهم بعض المؤرخين فأسند اليه _ يعني المنصور محمد _ وانما صنفه رجل من علماء عصره ويعني سيف الدين الآمدي _ كما هو المفهوم في المختصر [4].

ولدى الرجوع الى تاريخ المختصر في أخبار البشر لم أجد حاجي خليفة على صواب فيما ذهب اليه ، ذلك أن أبا الفداء صاحب المختصر لم يستخدم أية عبارة توحي بالشك في صحة نسبة المضمار ، وانما كان واضح العبارة عندما أسند المضمار الى صاحبه المنصور محمد [5].

ويبدو لي أن صاحب كشف الظنون كان يقصد ابن الوردي صاحب تتمة المختصر وليس أبا الفداء صاحب المختصر . ومن المؤكد أن ابن الوردي عندما قام بتلخيص المختصر والتذييل عليه لم يحافظ على جوهر الحقيقة التاريخية كما وردت عند أبي الفداء ، وانما أخل بها عند اختصاره ، فوقع في الخطأ ، ونسب كتاب المضمار الى غير صاحبه . وقد جاء في تاريخ بن الوردي _ وهو يتحدث عن المنصور محمد _ مانصه :وكان شجاعا يحب العلماء . وورد اليه منهم جماعة مثل السيف الآمدي وصنف له مصنفات مثل المضمار في التاريخ وطبقات الشعراء [6]. وهذه الكلمات التي أوردها ابن الوردي في تاريخه تنفي عن المنصور محمد الصفة العلمية وتجرده من مكانته السامية بين المؤرخين . والحقيقة كما رأينا هي

---

(١)_ تاريخ حماة : ١٢٠

(٢)_ الاعلام ٧ _ مادة الملك المنصور .

(٣)_ معجم المؤلفين ١١ _ مادة محمد الايوبي .

(٤)_ كشف الظنون ٢ : ١٧١٢

(٥)_ المختصر ٣ : ١٢٥ .

(٦)_ تتمة المختصر ٢ : ٢٠٧ .

خلاف ذلك ، فهو صاحب المضمار في التاريخ بلا امتراء ، ويؤيدما ذهبنا إليه صاحب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " وقد نقل عنه وكان معاصرا له وقريبا منه ، كما شهد بفضله ابن نظيف الحموي في " التاريخ المنصوري " وكان أيضا معاصرا له ولكنه غير قريب منه ، فقد جاء في تاريخه قوله : كان حسن السيرة ، عالما بالسير والتواريخ وعلم الكلام [١].

٢ - طبقات الشعراء :

يذكر الدكتور حسن حبشي أن الطبقات معجم للشعراء ، وفيه الكثيرون ممن طواهم النسيان [٢]، ويشتمل هذا الكتاب على طبقات الشعراء المتقدمين من الجاهلية والمخضرمين ٠ والاسلاميين والمحدثين ،كما يضم طائفة مختارة من أخبارهم وأشعارهم.

وقد أتى على ذكر الطبقات ابن واصل في تاريخه [٣] وأبو الفداء في المختصر [٤] وابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات [٥] وابن العماد في شذرات الذهب [٦] وأحمد بن ابراهيم الحنبلي في شفاء القلوب [٧] و حاجي خليفة في كشف الظنون [٨] والصابوني في تاريخ حماة [٩] والزركلي في الاعلام [١٠] وكحالة في معجم المؤلفين [١١] وفي كتابة التاريخ والجغرافية

(١)- التاريخ المنصوري: ٩٠

(٢)- مضمار الحقائق - ز

(٣)- مفرج الكروب ٤ : ٧٨

(٤)- المختصر ٣ : ١٣٢

(٥)- فوات الوفيات ٢ : الترجمة رقم ٤٤٤

(٦)- شذرات الذهب ٥ : ٧٧

(٧)- شفاء القلوب : ٣٣٨

(٨)- كشف الظنون ٢ : ١١٠٢

(٩)- تاريخ حماة : ١٢٠

(١٠)- الاعلام ٧ - مادة الملك المنصور

(١١)- معجم المؤلفين ١١ - مادة محمد الايوبي

في العصور الاسلامية [1]. وقد شذ ابن الوردي في تاريخه فنسبه الى السيف الآمدي خطأ ، وقد أشرنا الى ذلك وفندناه عند الحديث عن كتاب المضمار [2].

ومعظم هؤلاء المؤرخين يجمعون على أن طبقات الشعراء يقع في عشرة مجلدات وفي مكتبة جامعة ليدن نسخة غير تامة برقم ٦٣٩ محفوظات شرقية . ويشير صاحب فهرس المخطوطات المصورة الى وجود نسخة في مصر مصورة عن نسخة ليدن وتقع في/٥٨٠/ صفحة . وأعتقد أن هذه النسخة لاتشكل سوى جزء يسير من المخطوط الاصلي المسمى" أخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء المتقدمين من الجاهلية والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين وذكر مختصر من أخبارهم ومختار أشعارهم ومن تلاهم من الشعراء الى هذا الزمان والاوان " بدليل أن أول مافي النسخة الباقية ترجمة أبي الحسن علي بن محمدالتهامي،وآخرها تم الجزء الاول من طبقات الشعراء ، ويليه الجزء الثاني منه وهو آخر الكتاب ان شاء الله ، وأوله ذكر سعادة بن عبدالله الحمصي الشاعر الضرير ومختار شعره [3].

ويستفاد من هذه العبارة أن مابقي من كتاب طبقات الشعراء هو جزء من جزأين يشتملان على الشعراء المحدثين فقط ، أما أجزاء الكتاب الاخرى ـ أعني تتمة العشرة ـ فما تزال مفقودة ...

والكتاب ـ كما يفيد الجزء الباقي منه ـ من املاء الملك المنصور محمد في يوم الاربعاء ٢٢ ربيع الآخر سنة ٦٠٢هـ في دار المزة بقلعة حماة ، أي قبيل وفاته بخمس عشرة سنة .

---

(١)ـ التاريخ والجغرافية في العصور الاسلامية : ١٦٥

(٢)ـ تتمة المختصر ٢ : ٢٠٧

(٣)ـ فهرس المخطوطات المصورة ـ الجزء الثاني ـ القسم الثالث : ١٠ـ ١١

٣ – دور الاداب في محاسن ذوي الالباب :

لم يذكر هذا الكتاب سوى مؤرخين معاصرين هما : الزركلي في الاعلام [١] وكحالة في معجم المؤلفين [٢]. ونجد لدى الزركلي اشارة الى أن الكتاب مايزال مخطوطا ، غير أنه لم يحدد لنا مكان وجوده ،وقد حاولت مستقصيا أن أقف له على ذكر في معظم الفهارس الخطية أوالمصورة المطبوعة .. ولكني لم أوفق الى ذلك .

٤ – ديوان شعر :

ذكر ابن واصل في تاريخه ديوانا مجموعا للمنصور محمد [٣] ويبدو أن هذا الديوان لم يسلم من حوادث الدهور ،فلم تصلنا منه سوى قصائد ومقطعات وأبيات متفرقة أورد بعضها ابن واصل في موضع عدة من تاريخه [٤] ، كما أورد له صاحب فوات الوفيات [٥] وصاحب تاريخ حماة [٦] نتفا من أشعاره . ويكتفي أبوالفداء في تاريخه بذكرالعبارة التالية : وكان ينظم الشعر [٧] أما صاحب شفاء القلوب فينقل عبارة أبي الفداء نفسها [٨].

ويشير صاحب الاعلام [٩] وصاحب معجم المؤلفين [١٠] الى وجود الديوان ولكني لم أعثر على مايؤيد ذلك ، ومن المرجح أن الديوان مفقود مع جملة مافقد من تراث العرب الضخم .

---

(١) – الاعلام ٧ – مادة الملك المنصور .

(٢) – معجم المؤلفين ١١ – مادة محمد الايوبي

(٣) – مفرج الكروب ٤ : ٨١

(٤) – المرجع السابق : ٦٥ – ٦٨ – ٨١

(٥) – فوات الوفيات ٢ : الترجمة رقم ٤٤٤

(٦) – تاريخ حماة : ١٢٠

(٧) – المختصر ٣ : ١٣٢

(٨) – شفاء القلوب : ٣٣٨

(٩) – الاعلام ٧ – مادة الملك المنصور .

(١٠) – معجم المؤلفين ١١ – ماده محمد الايوبي .

يقول المنصور محمد من أرجوزة مفتخرا :

انـي مـن قوم كرام شمّ بحار جود وبحار علم
من كل ذي بأس شجاع شهم يذبّ عن هام العلا ويحمي
رُبّ حسود لي.. ولا أسمي يهرب من سهمي حين أرمي
أغفل عنه غفلة الاصمّ ولايمر قتله بوهمي
لو حل من خوف محلّ العصم أدركته بهمتي وعزمي(1)

وقال يذكر حروبه من الصليبيين :

كم قد أبدت بسيفي كل مفتخر حامي الحقيقة يوم الجحفل اللجب
وكم تركت بني الافرنج في رعب فصرت أدعى لديهم جالب الرعب
كفعل آبائي الغر الذين همو ا كانوا لدين الهدى كالوالد الحدب(2)

وقال متغزلا :

أربي راح وريحان ومحبوب وشادي
والذي ساق لي الملك..له دفع الاعادي(3)

وهذه الشواهد هي أفضل ماقرأته للمنصور محمد صاحب حماة ،ولئن دلت على كرم الخصال وشرف النضال ، فانها لاترقى به الى سماء الشعر والملوك هم حكام زمانهم ، أما الشعراء فهم ملوك البيان في كل زمان ومكان .

* * *

تلكهم هي صورة الحاكم الذي عرفته حماة ، وعاشت في أيامه عصرا زاهيا حافلا بالامجاد . لقد وطد دعائم البيت الايوبي فيها ،وأقام مملكة دامت أكثر من قرن ونصف ، وأرسى قواعد النهضة التي حمل لواءها أخلافه من بعده وعلى رأسهم الملك المؤيد أبو الفداء المؤرخ والجغرافي العظيم .

(1)ـ مفرج الكروب ٤ : ٨٣

(2)ـ المرجع السابق ٤ : ٨٢

(3)ـ فوات الوفيات ٢ : الترجمة رقم ٤٤٤

* كشـــاف المراجع والمصادر*

١ - أدب العرب : مارون عبود - دارمارون عبود - بيروت ١٩٦٨
٢ - الاعلام : خير الدين الزركلي - الطبعة الثانية
٣ - التاريخ المنصوري : ابن نظيف الحموي - تحقيق أبوالعيد دودو - مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق ١٩٨٢
٤ - التاريخ والجغرافية في العصور الاسلامية : عمر رضا كحالة - المطبعة التعاونية - دمشق ١٩٧٢
٥ - تتمة المختصر فيأخبارالبشر (تاريخ بن الوردي) : زين الدين عمر بن الوردي - تحقيق أحمد رفعت البدراوي - الطبعة الاولى - بيروت١٩٧٠
٦ - الروضتين في أخبار الدولتين: عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي الملقب بأبي شامة - القاهرة ١٢٨٧ هـ
٧ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن العماد الحنبلي - دار المسيرة - بيروت ١٩٧٩ .
٨ - شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : أحمد بن ابراهيم الحنبلي - تحقيق ناظم رشيد - سلسلة كتب التراث (٦٥) بغداد ١٩٧٨
٩ - طبقات الشافعية الكبرى : عبد الوهاب السبكي - الطبعة الاولى - مصر
١٠- فوات الوفيات : محمد بن شاكر الكتبي - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مصر ١٩٥١ .
١١- فهرس المخطوطات المصورة - الجزء الثاني - القسم الثالث : فؤاد سعيد - معهد المخطوطات العربية - القاهرة ١٩٥٩ .
١٢- الكامل في التاريخ : عز الدين بن الاثير - دار صادر - بيروت ١٩٨٢ .
١٣- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة - الطبعة الثالثة - طهران ١٣٧٨ هـ .

أبو الفداء صاحب حماة (تاريخياً وحضارياً)

بقلم الأستاذ وليد قنباز

ان حديثي* اليوم عن الملك العالم أبي الفداء صاحب حماة ذو فنون وشجون ، واني على يقين أننا سنعيش من خلاله حلما عذبا جميلا ، وستتناهى الى آذاننا وقلوبنا أنباء وأخبار ليس أحمل منها في الاحدوثة ، ولا أحسن في الذكر ولا أطيب في الخبر والنشر ٠

حماة مدينة أبي الفداء :

فحماة ٠٠ ابنة العاصي ، ومدينة أبي الفداء شهيرة في البلدان ، وقديمة الصحبة للزمان ٠٠ وقد أثبتت التقارير التي رفعتها البعثات الاثرية وفي مقدمتها البعثة الدانمركية برئاسة العالم الاستاذ هارولد آنفولت التي نقبت في قلعة حماة من عام ١٩٣١ــ ١٩٣٨ أن تاريخ المدينة قديم جداً جدا ٠٠ فالمكتشفات التي توصلت اليها في الطبقة الثالثة عشر يعود تاريخها الى العصر النيوليتي ، أي الى الالف الخامس قبل الميلاد (العصر الحجري الحديث) في حين يرى باحثون آخرون أن حماة كانت مرتعا للانسان الحجري القديم اذ اكتشف في موقع الشريعة من المدينة فك حيوان ضخم قام بدراسته عالم المتحجرات الهولندي نورمان وتوصل الى أن عمره /٧٥٠/ ألف سنة ،كما عثر على أدوات وآثار وسكن في موقع القرماشي ــ غربي حماة تعود الى/٢٠٠/ ألف سنة أي الى العصر الاشولي الاعلى ٠

---

* هذا البحث أعد ليلقى كمحاضرة عامة ،ومن هذا المنطلق فقد خلا من الحواشي والاشارات الى المآخذ والمراجع والمصادر في أماكنها ٠٠وسأورد في نهاية البحث ثبتا بأهم المراجع والمصادر التي اعتمدت عليها في اعداد البحث المطول والذي استقيت منه البحث المنشور في هذا المكان ٠

وهذا جميعه جعل حماة - ومن خلال الدراسات العلمية - من أقدم مدن الارض التي ماتزال الحياة تنبض في أرجائها.. ان لم تكن أقدمها على الاطلاق .

ويبين تقرير العالم آنفولت أن نواة المدينة قد تشكلت في القلعة منذ سبعة آلاف عام ، ثم شرعت النواة في التوسع ، وتمدنا المعلومات بأن الاكاديين استوطنوها في الالف الرابع قبل الميلاد في حين كانت مسكونة قبلهم من قبل العمالقة وهم أقوام من العرب القدماء ويسمون : الروتانيين أو اللوذيين .

ومع بداية الالف الثالث قبل الميلاد أضحت حماة مدينة مسورة وكان سكانها على دراية بالزراعة والري والسقاية والصناعات المحلية البسيطة ..

ومالبثت حماة أن خضعت لسلطة الاسرتين السومرية والاكادية حتى أواخر القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد عندما هاجمها العموريون متسللين اليها من البادية السورية فسلبوها ونهبوها وعاثوا فيها فسادا ، ولكنها سرعان ماعادت الى الحياة والتقدم وأضحت مركزا للعموريين أنفسهم .

وفي عهد العموريين تعرضت حماة لغزوات البابليين ، ثم جاءها الحثيون حوالي عام/٢٠٠٠/ قبل الميلاد وازدهرت المدينة حينا من الدهر

ولكن هذا الازدهار مالبث أن توقف في عام/١٧٥٠/قبل الميلاد بسبب اجتياح قبائل الهكسوس الرعاة لها ،وبقيت خاضعة لهم حتى عام/١٥٨٠/ قبل الميلاد ، ونالها العسف والتقهقر الى حد كبير في خلال هذه الفترة .

ومالبثت حماة أن عادت الى الازدهار والاستقرار مابين عامي ١٥٨٠ - ١٤٨٠ قبل الميلاد بسبب استقرار الاوضاع في أثناء احتلالها من قبل الحوريين والميتانيين ، ثم خضعت لملك مصر تحوتمس الثالث في خلال الحملة السادسة التي جردها على سورية وبقيت تحت الاحتلال الفرعوني حتى عام/١٣٥٠/ قبل الميلاد حين اجتاحت سورية قبائل الخابير (الحبيرو)فخربت مدنها وعاثت فيها فسادا ، ومن أبرزها مدينة حماة

التي هجرها أهلها وبقيت خالية من السكان وبقايا وأطلالا حوالي مائة عام .

ومع أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد ظهر الاراميون وهم الذين أسسوا ممالك مستقلة في أنحاء سورية ، وكانت مدينة حماة من أهم المدن التي تحدد بناؤها فازدهرت ازدهارا كبيرا ونافست الممالك الارامية الاخرى ،وان الاثار المكتشفة من تلك الفترة تدل على استعمال سكانها معدن الحديد ، ومعرفتهم بالري والزراعة بشكل جيد .

ثم عانت حماة من ضربات الاشوريين وهجماتهم المتوالية ،ومالبثت أن خضعت لهم كغيرها من المدن السورية في عهد شالما نصر الثالث /٨٥٩-٨٢٤/ قبل الميلاد ، ولكنها ثارت ضدهم فنالت التدمير الكامل على يد الملك الاشوري صارغون عام/٧٢٢/ قبل الميلاد والذى أجبر سكانها على الرحيل .

ثم أعيد بناء المدينة من جديد ، وخضعت من بعد لسيطرة الكلدانيين وفي خلال هذه الفترة احتلها فرعون مصر نخو الثاني عام /٦٠٧/ قبل الميلاد ،ولكن الكلدانيين أعادوها بعد ثلاث سنوات، وبانهيار حكم الكلدانيين استولى عليها كورش الفارسي وأعمل فيها يد الحرق ..

وبعد اجتياز الاسكندر المقدوني الاناضول وتغلبه على الفرس بعد معركة ايسوس عام/٣٣١/ قبل الميلاد ، دخلت حماة تحت نفوذه ، وبعد وفاته كانت من نصيب القائد سلوقوس نيكاتور عام/٣١٢/قبل الميلاد ، واستمرت تحت سيطرة خلفائه السلوقيين (الهلنستيين) فترة طويلة استطاعت في خلالها استفادة شيء من ازدهارها السابق ، وفي هذه الفترة تطورت فيها الزراعة وفنون السقاية والري ، وتمكن سكان حماة نفسها من ابتكار أسلوب فريد في فن ضخ الماء من نهر العاصي بواسطة دواليب خشبية كبرى تدور بقوة تيار الماء اطلق عليها اسم " النواعير" وقد أصبحت من أبرز مميزات حماة وعلاماتها ،ومانزال هذه النواعير تدور حتى يومنا هذا .

وتمر الايام الى أن كان عام/٦٤/قبل الميلاد حين دخلت حماة مع جاراتها تحت الحكم الروماني الذي شهدت فيه نوعا من الاستقلال الداخلي واستمرت في تطورها وازدهارها حتى كان العصر البيزنطي الذي ابتدأ في عام /٣٢٤/م ، وفي خلال هذا العصر تابعت المدينة تطورها وازدهارها وصلاتها التجارية والسياسية المهمة مع ماحولها وبخاصة مدينتي أفامية وانطاكية .

وفي عام/١٧هـ - ٦٣٨م/ فتحت حماة صلحاً على يد القائد العربي المسلم أبي عبيدة الجراح وجعلت من أعمال جند حمص في عهد الخلفاء الراشدين واستمرت كذلك في عهد الامويين ، الى أن كان العصرالعباسي الذي أصاب منذ بدايته سورية كلها بنوع من الفتور والاهمال ..

وحين شرع بعض الولاة في الاستقلال بولاياتهم عن الخلافة العباسية عانت حماة من الطولونيين والقرامطة والاخشيديين معاناة كبيرة ... ثم مالبثت أن دخلت في ظل حكم سيف الدولة الحمداني وتبعت مدينة حلب في منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ثم دخلت في حوزة بني مرداس ، وطفقت تتبع حلب مرة وحمص مرة ثانية ودمشق مرة أخرى حتى استولى عليها عماد الدين زنكي عام/٥٣٣ هـ - ١١٣٨ م/ وفي عهد ابنه نور الدين محمود وصلت الى مكانة كبيرة من التقدم والعمران والعطاء ، وفي عهد نور الدين نفسه حدث الزلزال العظيم عام٥٥٢هـ - ١١٥٧م/ والذي سمي بالزلزلة الحموية ونجم عنه خراب مدن سورية كثيرة ، ولكنه أصاب حماة بسوء كبير اذ تخربت معظم أبنية المدينة وأسواقها وأحيائها ، فأعاد نور الدين بناء معظم ماتهدم ، كما أعاد بناء أسوار القلعة والمدينة ، وبنى فيها الجامع والمشفى المعروفين باسمه .

وحين اجتاحت الجيوش الصليبية في خلال حملاتها العديدة مختلف مدن سورية وفلسطين وقفت حماة سداً منيعا تجاه الغزاة الصليبيين ولم يستطيعوا دخولها اطلاقا .

وفي عام/٥٧٠هـ - ١١٧٥م/ دخلها السلطان صلاح الدين الايوبي وولى عليها خاله محمود الحارمي ، وبعد ثلاث سنوات سار الفرنج بجموعهم

الى حماة ، فشددوا عليها الحصار حتى كادوا يفتحونها قهرا ، فجد سكانها في قتالهم ، وأخرجوا الفرنج الصليبيين الى خارج السور بعد أن اخترقوا بعض جهاته ،واستمر القتال أربعة أيام ، ثم رحل الفرنج عنها الى حارم خائبين ، وفي هذه السنة توفي الحارمي فسير صلاح الدين تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه الى حماة وأمره بحكم البلاد وحفظها وكان ذلك في عام/٥٧٤هـ ـ ١١٧٨م/ فتسمى بالملك المظفر،وألحق له صلاح الدين بمدينة حماة كلا من منبج وكفرطاب وميافارقين واللاذقية وبذلك بدأ حكم الاسرة الايوبية بحماة والذي استمر على مدى مائة وثمانية وستين عاما .

ومن الطبيعي أن ماذكرته كان عجالة في تاريخ المدينة ولسوف أتبسط قليلا في الحديث عن ملوك حماة الايوبيين ، ثم أستفيض في احاطة وشمول منذ ظهور أبي الفداء وحتى رحيله الى العالم الاخر ..

الاسرة الايوبية في حماة :

فالملك المظفر تقي الدين عمر كان أديبا محدثا وشاعرا بليغا وقائدا شجاعا ، واستمر حكمه حماة ثلاثة عشر عاما/٥٧٤ ـ ٥٨٧هـ ١١٧٨ ـ ١١٩١م/ .

وعقب وفاة المظفر الاول ورثه ابنه ناصر الدين محمد الذي لقب بالملك المنصور، وكان صلاح الدين الايوبي مايزال حيا ، فرفض صلاح الدين ماتم ثم مالبث أن تراجع وقرر للمنصور حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم .. وجلب هذا الاعتراف الرسمي من السلطان الايوبي الى الوجود شرعيا دولة حماة الايوبية وحولها من اقطاعية عسكرية الى مملكة وراثية .

واستمر حكم الملك المنصور ثلاثين عاما / ٥٨٧ هـ ـ ١١٩١م/ ٦١٧ هـ ـ ١٢٢٠م/ كانت من السنوات الغر التي حفلت بالانتصارات على الصليبيين وغيرهم ، بالاضافة الى التقدم والازدهار الكبيرين اللذين عما حماة ،ناهيك أن المنصور نفسه كان قمة في العطاء في نواح عديدات

بالاضافة الى أنه كان شاعرا ومؤرخا ترك لنا عدة آثار أبرزها :طبقات الشعراء في الادب ، وكتاب مضمار سر الحقائق وسير الخلائق في التاريخ ويمكن تسمية عهد المنصور عهدا رهاصا لظهور ملكنا أبي الفداء .

وبعد وفاة المنصور اغتصب ابنه قليبج أرسلان السلطة من أخيه محمود الذي كان وليا للعهد واستمر حكمه حوالي تسعة أعوام/٦١٧هـ -١٢٢٠ م / ٦٢٦هـ - ١٢٢٨م/، ثم تولى الحكم الملك محمود الذي تلقب بالمظفر الثاني وبقي فيه ستة عشر عاما/٦٢٦هـ - ١٢٢٨م/٦٤٢هـ - ١٢٤٤م/ وكان عهده صورة لعهد أبيه وجده في الشجاعة وحب أهل العلم والادب والشعر، ثم تلاه ابنه محمد الذي تلقب بالمنصور الثاني ، وحكم مملكة حماة مايبنوف على أربعين عاما/٦٤٢هـ - ١٢٤٤م/٦٨٣هـ - ١٢٨٤م/،وكانت هذه الفترة حافلة بالحروب مع التتر بخاصة ، وبازدهار العلم والادب بعامة وفي فترة حكم المنصور الثاني انتهى حكم الايوبيين في مصر عام/٦٤٩هـ ١٢٥٠م/ وبدأ حكم المماليك في مصر وسورية معا، في حين استمرت مملكة حماة الايوبية في الحياة ..

وبعد وفاة المنصور الثاني محمد تسلم الحكم ابنه محمود الذي تلقب بالمظفر الثالث وحكم حوالي ستة عشر عاما/٦٨٣هـ - ١٢٨٤م/٦٩٨هـ ١٢٩٨م/ وكان يساعده في الحكم والمشورة عمه الملك الافضل علي والد ملكنا أبي الفداء واستمر على هذا خمسة أعوام ثم توفي علي ،وبما أن المظفر الثالث لم يكن ذا عقب فان وفاته جعلت السلطان المملوكي في مصر ينتظر رغبة الامراء الايوبيين في حماة باختيار أحدهم للمملكة ، ولكنهم لم يصلوا الى رأي واحد وحال واحدة ، فاختار السلطان مملوكا اسمه (قرا سنقر) لنيابة سلطنة حماة ،ومن هنا خرج الحكم من أيدي الايوبيين في حماة ولكن كان في الميدان مناضل قوي ومطالب ملح وساع حثيث في سبيل ارجاع السلطة الى الايوبيين اسمه اسماعيل بن نور الدين علي .. ولقد تمكن من ذلك بعدلأي وفترة عصيبة حافلة .. فمن هو اسماعيل هذا .. ؟

أبو الفداء:

هذا المناضل هو ملكنا العالم اسماعيل بن الملك الافضل نور الدين علي بن الملك المظفر الثاني محمود ابن الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه شقيق صلاح الدين الايوبي ابن أيوب بن شاذي ..

ولقد ولد اسماعيل عام/٦٧٢هـ - ١٢٧٣م/ أميرا من سلالة الايوبيين في دمشق حينما جفلت عائلته من حماة اثر احاطة الموغول بها، وهو ثالث اخوته : أسد الدين عمر وبدر الدين حسن .

كني منذ صغره بأبي الفداء ولقب بعماد الدين ، وبدأ حياته بالدراسة والثقافة والدراية والتدريب على فنون القتال والصيد والقنص والفروسية ولقد حفظ القرآن الكريم مبكرا مع عدد من كتب التراث واشتغل في العلوم وتفنن في جمع أشتات الكثير منها ، وتم ذلك جميعه في مدينة حماة بعد أن عادت اليها العائلة عقب زوال الخطر المغولي الذي لم يدم سوى شهور معدودات .

وحين بلغ أبو الفداء الحادية عشرة من عمره توفي عمه الملك المنصور الثاني محمد ، وصار الملك الى ابن عمه المظفر الثالث محمود فأنعم السلطان المملوكي على الملك الجديد وعلى الملك الافضل والد أبي الفداء وعلى أبنائه جميعا ومنهم أبو الفداء بخلع وتشاريف سلطانية .

وفي العام نفسه وكان أبو الفداء يقترب من عامه الثاني عشر قصد السلطان المملوكي قلاوون دمشق في طريقة الى حصن المرقب لانتزاعه من أيدي الفرنجة الصليبيين ، فسار معه الملك الافضل من حماة ورافق أبو الفداء أباه في هذه الحملة ، ودخل الحصن مع المهاجمين وكان النصر المبين ، وكان هذا القتال أول قتال رآه .

وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره رافق السلطان قلاوون في حصار مدينة طرابلس الى جانب والده وابن عمه الملك المظفر، وكان النصر وهزيمة الصليبيين وعودة المدينة الى العرب بعد أن ظلت تحت حكم الفرنجة مايقارب القرنين من الزمان .

وتابع الامير الفارس أبو الفداء اسهاماته في القتال والجهاد والنصر

فاشترك وهو لم يبلغ العشرين من عمره في فتح مدينة عكا، وكان ذلك الفتح ايذانا بتطهير سواحل الشام جميعها من فلول الصليبيين .. كما شارك في العام نفسه في فتح قلعة الروم .. وبعد شهور رغب اليه والده أن يحمل بعض الهدايا الى السلطان في مصر ، فاجتاز المسافة من حماة الى مصر في ثمانية أيام فقط على خيل البريد .

وبعد وفاة والد أبي الفداء الذي كان يشارك ابن أخيه الملك المظفر في المشورة والحكم ، التحق أبو الفداء بخدمة ابن عمه الملك المظفر الثالث ، وبدأ يحتل المكانة التي كانت لابيه في المملكة .. وأصبح واحدا من كبار ـ ضباط جيش حماة الايوبي ..

وفي عام/٦٩٧هـ - ١٢٩٨م/ أسهم وهو ابن خمس وعشرين سنة في الحملة التي جردها السلطان المملوكي ضد الارمن في بلاد سيس في الاناضول (أرمينية) ووقعت الواقعة بعد عام واحد حين توفي الملك المظفر الثالث محمود من دون عقب عن/٤٢/عاما بعد مرض طارئ في أثناء رحلة صيد كان أبو الفداء رفيقه فيها ، ولقد مرض أبو الفداء قبل ابن عمه ، ولكن القدر عاجل محمودا واستبقى اسماعيل لما ينتظره من العظم والعظائم..

وكما ذكرت سابقا أن اختلاف الامراء الحمويين الايوبيين على اختيار المرشح الخلف جعل السلطان المملوكي يعين المملوك قرا سنقر الجوكندار نائبا للسلطنة في حماة ، وهو من القادة وأمراء الجند الذي كان السلطان بحاجة الى استرضائهم والاستعانة بهم ، وبذلك انتهى حكم السلالة الايوبية وبدأ حكم النواب واضطر أبو الفداء مع أخويه وأبناء عمومته الى استقبال قرا سنقر الذي نزل في دار الملك المظفر حين وفد حماة ، وقاموا بوظائف خدمته ..

سعي أبو الفداء في سبيل استرجاع الحكم :

وفي خلال حكم قراسنقر يتحرك أبو الفداء على رأس جيش حماة منضما الى الجيوش السائرة لملاقاة الموغول اثر تحركهم الجديد .

وبعد قرا سنقر تولى نيابة السلطنة في حماة زين الدين كتبغا ومن بعده سيف الدين قبجق ، وفي عهد الاخير خرج أبو الفداء ثانية

على رأس العساكر الحموية للقاء الموغول من حديد .

وفي خلال هذه الفترة نال أبو الفداء وعدا من السلطان في مصر بامارة حماة والحق يقال انه كان يعمل بدأب ونشاط مستمرين في استرداد مملكة حماة للاسرة الايوبية واستخلاصها لنفسه ، وتابع في توطيد علاقاته مع السلطان عن طريق الاتصالات المستمرة والخدمات المتوالية .

وفي عام /٧٠٢هـ - ١٣٠٢م/ شارك في مطاردة الموغول الذين عاثوا فسادا في وادي الفرات حتى بلغوا القريتين من أعمال حمص ،ولقد تم النصر وأبيد الموغول عن بكرة أبيهم .

وعندما عزل السلطان الناصر محمد عن السلطنة المملوكية في مصر وهرب الى الكرك ومنها الى دمشق خف أبو الفداء لملاقاته ومناصرته ، فنال وعدا جديدا بحكم حماة ثم رافق السلطان نفسه في حملته على مصر لاسترجاع عرشه ، وتم الاسترجاع ونال وعدا جديدا ..

ولكن السلطان لم يف بوعده وعين مملوكا اسمه : اسندمر على حماة ووقع النزاع بينه - أي اسندمر- وبين أبي الفداء ، فغادر أبو الفداء حماة واستقر في دمشق ، وحاول اسندمر استرضاءه واقناعه بالعودة الى حماة ولكن لم يستطع .

وقام أبو الفداء بزيارة صديقة ملك البدو(العرب)في منطقة حماة عيسى بن مهنا وحثه على تذكير السلطان بوعده ، وذهب عيسى الى مصر وبالفعل نفذ السلطان وعوده فأصدر أمرا بنقل اسندمر الى حلب وتعيين أبي الفداء مكانه وذلك في الثامن عشر من جمادى الاولى من عام/٧١٠ / للهجرة الموافق الرابع عشر من تشرين الاول من عام/١٣١٠/ للميلاد،وبذا عادت حماة الى الحكم الايوبي كما يقول أبو الفداء نفسه في تاريخه بعد احدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يوما وصار أبو الفداء نائبا للسلطان فيها .

حكم أبو الفداء في حماة :

وبعد عامين فوض السلطان الى أبي الفداء حكم حماة ملكا لانيابة وأذن له أن يخطب له في حماة وأعمالها على ماكان عليه الملك المنصور وأضاف اليه

معرة النعمان وبارين(بعرين).. وبعد فترة يسيرة أضحى من أبرز ملوك سورية وولاتها جميعا .

وفي عام/٧١٥هـ - ١٣١٥م/ شارك أبو الفداء على رأس الجند الحموي في فتوح ملطية في تركيا الى جانب جيوش مصر وعساكر الشام .

واستدعاه السلطان الى مصر غير مرة لمرافقته في رحلات الصيد وفي ندوات الادب والثقافة والفكر ثم مالبث أن منحه لقب سلطان في عام /٧٢٠هـ - ١٣٢٠م/ وكان عمره حينذاك/٤٧/ عاما ..

وهكذا أضحى أبو الفداء سلطانا الى جانب السلطان يزهو بعودة حماة الى حكم الايوبيين وأنه المحتفظ به ، وأنه المجاهد المقاتل الذي قاتل أعداء العرب والاسلام على اختلاف انتماءاتهم، وأنه قصد الحجاز ثلاث مرات لاداء فريضة الحج ، وأنه لاينى عن التنقل بين مصر والشام وأنه المنهمك في احداث عصره والمتصدي لها قائدا للجند وحاكما لولاية ونائبا مميزا من نواب السلطان ، ثم سلطانا على منطقة مهمة من مناطق سورية .. وهو الى هذا استطاع أن يجمع الى هذه الحياة العملية الجاهدة المضطربة حياة التأمل والدراسة والتأليف وأن يشارك في العلوم جميعها مشاركة جيدة بالاضافة الى أنه الحاكم الهادئ الذي يتسم بالعدل والحلم والبساطة ولم يتسم بالشره وحب المال والمظهر لانه كان رجل علم وثقافة أكثر منه رجل احتراف سياسة وحكم.. ومن هذا جميعه كان أبو الفداء بدعا في الملوك والسلاطين جميعا .

ولم يتوقف أبو الفداء عن الجهاد والعمل ، ففي السنة نفسها جهز عسكر حماة للاغارة على الارمن في بلاد سيس الاناضول فعادوا غانمين منتصرين وفيها أيضا شرع في عمارة المربع والقبة والحمام على ساقية نحيلة في ظاهر حماة (موقع ناعورة الدهشة وبستانها الى الشرق حاليا) وفرغ منها بعد عام وجاءت جميعها من أنزه الاماكن .. فالمربع هو القصر الذي يسكن في فصل الربيع وهو في أجمل موقع لنهر العاصي في حماة وفي الدهيشة .. لان الناظر أو الداخل اليه تأخذه الدهشة والحيرة لما كان يشاهده من جمال موقعه واحكام بنائه وحسن هندسته وبديع زخرفته .. ولقد حاول السلطان الناصر محاراته ببناء دهيشة في قلعة مصر وأرسل المهندسين الى حماة لكشف دهيشتها ورسم تصاميمها..

والقبة كانت تضم على أحد أركانهاالمرقب(المرصد)الذي كان أبو الفداء يرصد من خلاله النجوم والكواكب والمحرات والآفاق .

وأما الحمام فكانت تقع الى الشمال من ذلك كله .

كتاب تقويم البلدان :

وفي هذه السنة نفسها/٧٢١هـ - ١٣٢١م/ فرغ أبو الفداء من تأليف كتابه العظيم" تقويم البلدان" في الجغرافية والذي بقي في صياغته وترتيبه وتبويبه أربع سنوات كاملات .. وان تمكن مليكنا العالم من علم الفلك وعلم الرياضيات وتضلعه فيهما دفعاه الى أن يتخذ موقف الناقد من سائر الكتب الحغرافية التي ظهرت حتى عصره فهي تهمل كما يقول - ضبط الاسماء أو ذكر المواقع الفلكية من طول وعرض من جهة ، أو تهمل الجهات نتيجة الحهل بالاطوال والعروض من حهة أخرى ولذا اعتمد أبو الفداء على مصادر ثلاثة في تأليف كتابه هذا :

١ - مشاهداته الشخصية في بلاد الشام وفلسطين والحجاز ومصر والصعيد والحزء الشرقي من آسيا الصغرى وأرض الحزيرة العليا .

٢ - المصادر الجغرافية التي ظهرت حتى عصره وأشار اليها بأمانة علمية

٣ - المصادر الشفوية الموثوقة .

ويتجلى المنهج العلمي في تضاعيف هذا الكتاب فهو يبدأ بمقدمة عامة يذكر فيها مساحة الارض وشكلها وتقسيمها الى أقاليم سبعة ، ثم يبدأ الحديث عن الاطوال بدءا من حزر الخالدات (حزر الكناري) والمسافات ، ووسائل قياسها ، ثم يشرع في ذكر البحار المعروفة فالانهار فالجبال ، ثم يجعل لكل بلد اقليمين : حقيقي(أحد الاقاليم السبعة المعروفة) وعرفي (الناحية أو المملكة الموجود فيها) ثم يتبع ذلك بدراسة جغرافية اقليمية ، ووضع في خاتمة كل منطقة من المناطق الثمانية والعشرينالتي درسها جدولا مقسما الى عشرة أبواب ذكر في الاول اسم البلد وفي الثاني أسماء المنقول عنهم والثالث لدرجات الطول والرابع للدقائق الطولية ، والخامس لدرجات العرض والسادس لكسور درجات العرض من الدقائق ، والسابع للاقليم الحقيقي،والثامن

للاقليم العرفي ، والتاسع لضبط الاسماء والعاشر للاوصاف والاخبار العامة ..

ويرى الباحثون أن أبا الفداء اتبع في ذلك طريقة مبتكرة عن طريق عرض بيانات عن البلدان في شكل جداول لم يستخدمها جغرافي قبله ..

ويعددون مزايا الكتاب وأبرز أفكاره فاذا هي كثيرة ورائعة ويأخذون عليه بعض المآخذ التي لاتنقص من قيمته عربيا وعالميا .. فتقويم البلدان جعل أبا الفداء أحد الرواد المبكرين للجغرافية الحديثة وطريقة تأليفه جديدة وحديثة ومبتكرة ومن هنا فقيمته الذاتية متفوقة .. ولقد ملأ فراغا كبيرا لكونه مرجعا جغرافيا مختصرا ومركزا بالنسبة للعصر الذى وجد فيه سواء في المشرق العربي والاسلامي والغرب الاوربي .. ولقد اختصره ونقل عنه واهتم به وزاد عليه وذيله وتأثر به واعتمد عليه عدد كبير من علماء العرب والترك والفرس.. وأما الغربيون فقد وجدوا فيه كنزا ثمينا ونال من هذا المنطلق اهتمامهم المبكر وبشكل رائع وملفت للنظر ، فقد ذكروه وأثنوا عليه منذ أواسط القرن السادس عشر وأسموه جغرافية أبي الفداء واشتغلوا بدراسته علميا ونقديا واقتطفوا منه مقتطفات ، ثم نشروها مع ترجمة لاتينية عام/١٧٦٦/م في لايبزك على يد العالم جوهان . كوهلر.. ثم طبعوه في فينا عام/١٨٠٧/ ومعه ترجمته باللغة اليونانية وأصدره المستشرق رايزكة بترجمة كاملة ، ثم أخضعه العالمان الفرنسيان رينود وجوبار للترجمة والدراسة بتكليف من الجمعية الاسيوية الفرنسية .. ثم نشره البارون جوكان دي سلان بالاشتراك مع رينود باللغة العربية في باريس عام/١٨٤٠/في/٥٣٩/ صفحة وصدراه بمقدمة باللغة الفرنسية وهذه الطبعة هي التي صورتها مكتبتا المثنى في بغداد والخانجي في مصر وقدمتاها الى العالم العربي ...؟

ومن هنا فكتاب تقويم البلدان لم يطبع بعد في المطابع العربية وانما أخذناه عن أوربا التي نعمت بنصوصه ومعلوماته على مدى سنين طويلة وبقي أثره قائما فيها حتى أواسط القرن التاسع عشر ونحن عنه

غافلون..وهذه هي شهادات الغربيين به :

يقول العالم ميخائيل اماري الايطالي : " ان كتاب تقويم البلدان قد حاز الاعجاب لاسلوبه المتزن ونقده القويم".

ويقول العالم الفرنسي رينود : "ان العصور الوسطى الاوربية لم تعرف كتابا يمكن مقارنته بتقويم البلدان لابي الفداء".

ويقول العالم الروسي كراتشكوفسكي : " ان كتابين عربيين فقط آثارا من الاهتمام عند الغربيين أكثر من تقويم البلدان ، وهما القرآن الكريم وألف ليلة وليلة".

ويقول العالم البلجيكي الكبير جورج سارتون في كتابه " المدخل الى تاريخ العلوم" المنشور باللغة الانكليزية :" ان أبا الفداء كان أعظم جغرافيي عصره ، لافي الديار الاسلامية فحسب ، بل في أي مكان ".

أبو الفداء العالم الموسوعي :

ولعل بروز أبي الفداء كعالم جغرافي يفتح لنا آفاقا واسعة في ميدانه الثقافي والفكري ، فلقد كان الرجل موسوعي الثقافة بحيث استوعب معظم علوم عصره ، وكان في تكثرها من المبرزين الاعلام حتى قال فيه الاسنوي في طبقاته :

" كان جامعا لاشتات العلوم ، أعجوبة من أعاجيب الدنيا ، ماهرا في الفقه والتفسير والاصلين ، والنحو والعروض ، وعلم الميقات والفلسفة والمنطق والطب والتاريخ ، وغير ذلك من العلوم ، وقد صنف في كل علم تصنيفا أو تصانيف " .

ويقول ابن الوردي : " ليس في الملوك بعد المأمون أفضل منه ".

ومن هنا فقدغدت حماة في عهده محط رحال أهل العلم من كل فن ومنزلا للشعراء ومركزا للادب ، وكان مجلسه يحفل بالعلماء والفقهاء والشعراء والفلاسفة والكتاب .. ومن الطبيعي أنه كان بينهم جميعا الرائد والمقدم والعالم .. الذي رفد المكتبة العربية بهذه المؤلفات :

١ ـ الكناش : في سبعة علوم وفنون(نحو وتصريف ـ فقه ـ طب ـ تاريخ ـ أخلاق وسياسة وزهد ـ أشياء ـ فنون مختلفة..)..وتوجد

في القسطنطينية أقسام مخطوطة منه .

٢ ـ الموازين : في علم الفلك ، وتوجد نسخة مخطوطة منه في مكتبة بودليان في أوكسفورد ـ لندن .

٣ ـ الحاوي : في فقه الامام الشافعي .

٤ ـ العروض والاطوال : في الجغرافية .

٥ ـ البئر المسبوك في تواريخ الملوك" وتوجد نسخة مخطوطة منه في دار الكتب المصرية في القاهرة .

٦ ـ مختصر اللطائف السنية في التواريخ الاسلامية في التاريخ .

٧ ـ تاريخ الدولة الخوارزمية .. في التاريخ .

٨ ـ شرح نظم الكافية..في النحو .

٩ ـ نوادر العلوم ..

١٠ـ المخطوطة في الاخلاق والاداب والزهد والوعظ .. وهناك نسخة مخطوطة منه في المغرب .

ولعل هذه الموسوعية الشاملة تبدو لنا عمليا الى جانب النواحي النظرية والتأليفية عند أبي الفداء ..

فهو طبيب .. وصيدلي .. وعالم نبات .. وفلكي .. وفيلسوف .. وفقيه .. ومؤرخ.. وجغرافي .. ووشاح .. وشاعر .. ونحوي .. وعالم منطق .. وعالم أصول عربية .. وأديب .. وعالم ميقات .. ولكل واحدة من هذه شواهد رائعة وطريفة ومؤلفات سامية وعظيمة جعلت من أبي الفداء واحدا من علماء عصره البارزين وندر بين ملوك المسلمين من بلغ مبلغ علمه ،وكان لهذا يحب العلماء ويقربهم ويحرص على اقتناء الكتب النفيسة النادرة حتى انه جمع في مكتبة جامعة /٧٠٠٠/ مجلد وقفها للناس كي ينهلوا من كنوزها ومجانيها.. وليس هذا فقط بل ان العلماء أنفسهم كانوا يقصدونه من كل حدب وصوب حتى غدا محاطا بجو علمي يتلاءم مع اتساع آفق ثقافته المتعددة الجوانب .. ولعل الشعراء كانوا في مقدمة الوافدين وأبرزهم : ابن نباتة المصري وصفي الدين الحلي وابن مطروح والشهاب محمود حتى قال مارون عبود في كتابه أدب العرب حين دراسته أدب عصر الدول المتتابعة :

" لم يكن للملوك في هذا العصر شعراء مجيدون الا في حماة حيث بقيت هذه العادة ردحا من الزمن ، ولهذا لم يكن الشعر هناك صناعة لفظية .."

عود الى سيرة أبي الفداء :

وأعتقد بأنه آن لنا بعد هذه الجولة أن نعود الى أبي الفداء ومسيرته الحياتية بعد أن غدا سلطانا فنراه في عام/٧٢٢هـ - ١٣٢٢م/ يشترك مع عسكر حماة في فتوح آياس من منطقة سيس .. وفي السنة نفسها ذهب الى مصر وانطلق مع السلطان الناصر الى منطقة الاهرام ، وحضر هناك وصول رسول صاحب برشلونة ، ثم رافق السلطان الى الصعيد ومنه الى القاهرة ، وعاد الى حماة مغمورا بالانعام والعطايا .. وبعد فترة وجيزة دعاه السلطان ثانية الى مصر ، وهناك حضر استقبال رسل التتر ، ثم انطلق مع السلطان الى الصيد ثم عادا الى القاهرة ،ومنها قصد حماة عاصمة ملكه .

وفي تلك الفترة أنشأ أبو الفداء الجناح الشرقي من جامع النوري وضمه الى الجامع - وهو القسم المطل على نهر العاصي - وأسماه "الروشن "

وفي العام/٧٢٦هـ - ١٣٢٦م/ خرج بعسكر حماة شرقا ووصل الى قناة العاشق الواصلة من سلمية الى حماة ، وقام بقسمتها على الامراء والعسكر لانها آلت الى التلف بسبب ما اجتمع فيها من الطين والاحجار واستطاعوا جميعا تحريرها في نحو اسبوع ، ثم عادوا الى حماة..

ويموت أخوه السلطان حسن ، وفي العام التالي تموت والدته فيعمد الى عمارة جامعه .. جامع الدهيشة (الواقع الان في حي باب الجسر الى الشرق من القبة والمربع والحمام ، ويسميه العامة عندنا (جامع الحيايا) وذلك لتشابه ثمانية أضلاع رخامية في كل من عضادتي شبابيك حرمه المطلة على نهر العاصي على شكل الافاعي ، ولقد بنى في شمالي الجامع ضريحا له وشيد فوقه قبة وبجانبها مئذنة مثمنة ، وحين سئل عن بناء الضريح قال : "ما أظن أني أستكمل من العمر ستين سنة ،فما في أهلي - يعني البيت الايوبي الحموي - من استكملها .." .

المختصر في أخبار البشر :

وفي عام/٧٢٩هـ ـ ١٣٢٩م/ انتهى أبو الفداء من كتابه سفره الثاني الضخم.. المختصر في أخبار البشر " وهو في التاريخ ، ويحدثنا بنفسه عن أسباب تأليفه هذا السفر فيقول :

" انه سنح لي أن أورد في كتابي هذا شيئا من التواريخ القديمة والاسلامية يكون تذكرة يغنيني عن مراجعة الكتب المطولة " .

وهذا السفر مختصر لمؤلفات تاريخية سابقة وفي مقدمتها الكامل لابن الاثير وقد اختصر التواريخ القديمة في خمسة فصول وقعت في/١٠٠/ صفحة ، ثم أتبع ذلك بالتواريخ الاسلامية مرتبة على السنين بدءا من ظهور الاسلام وحتى بداية الحروب الصليبية ووقعت في/٣٤٠/صفحة ،ثم أتبع بالفترة التالية حتى عام/٧٢٩هـ ـ ١٣٢٩م/فوقعت في/٣٧٠/صفحة ومن هنا يرى بعض الباحثين أنه ليس لابي الفداء من فضل في الكتاب سوى حسن الاختيار والتنسيق والجمع في العصور السابقة له أما عندما يلج عصره ، فتصبح لمادة الكتاب قيمتها المباشرة وبخاصة فيما يتعلق بالاحداث التي شهدها المؤلف أو اشترك فيها ، فالكتاب لهذه الفترة الممتدة على حياة أبي الفداء والى حدما للفترة القريبة السابقة ولما يتصل من أحداثها بالدولة الايوبية وبفرعها الحاكم في حماة على وجه الخصوص .. هذا الكتاب هو أصل رائع وفريد يعكس لنا حياة ذلك العهد ، ونحن مدينون به لحس أبي الفداء التاريخي وشغفه العلمي.

ويلاحظ الدارسون أن أبا الفداء مع التفاته للشؤون العسكرية والعامة كان يعنى بالنواحي الفكرية ، ويلتزم بالاختصار في كل الفترات،ويحدد ذلك عن طريق الانتقاء وهو في ذلك جميعه متواضع ، واسع الصدر،متزن في أخباره ، معتدل في حديثه حتى عن الخصوم .

ولقد خضع الكتاب للبحث والنقدورأى فيه العلماء جوانب مضيئة وأخرى كابية.. فالدكتور عمر فروخ يرى في ثناياه علم تعليل التاريخ من طرف وسيطرة القصة على عدد من الجوانب في سرد التاريخ من طرفآخر.. وهناك آراء أخرى عديدة بين مؤيد ومتحفظ وبخاصة فيما يتعلق بالتواريخ السابقة لعهده ، في حين يتفق الحميع على ندرة الكتاب

وروعته بالنسبة لعصر أبي الفداء ، وعلى الرغم من ذلك كله فالكتاب احتل مكانة بارزة قديما وحديثا وأحدث أثرا مرموقا في الشرق والغرب على حد سواء ، فعند العرب هناك من اختصره وذيله وانتخب منه ، وعند الغرب حظي في وقت مبكر باهتمام المستشرقين ، وكان في مقدمة الاصول التاريخية التي اكتشفوها وعمدوا الى نشرها وترجمتها وهكذا أصبح المختصر كما يقول الاستاذ العالم جب : أصلا من أصول الاستشراق في القرن الثامن عشر ، فقد طبع أولا باللغة العربية في أكسونيا في مطلع القرن الثامن عشر ، ثم نشر العالم حادنير القسم المختص بسيرة الرسول العربي محمد عليه الصلاة والسلام في آوكسفورد مع ترجمة الى اللغة اللاتينية .. ثم نشر العالم فيرجيس ترجمة فرنسية لهذه السيرة في باريس عام/١٧٣٧/م، وتبعتها ترجمة العالم موراي الى اللغة الانكليزية في لندن .

وعني بالتاريخ كله رائد الاستشراق الالماني رايسكه فنشر في عام /١٧٥٤/م ترجمته اللاتينية حتى عام/٤٠٦هـ - ١٠١٦م/وقام العالم آبلر في كوبنهاجن بترجمته كاملا وأصدره بخمسة مجلدات كبيرة بين عامي/١٧٨٩-١٧٩٤/م ثم نشر مع الاصل العربي في فيينا بخمسة مجلدات أيضا .

وفي غوتنجن نقل القسم المتعلق بالجاهلية وطبع على حدة ،كما نقل القسم المتعلق بمصر وطبع مع ترجمة لاتينية وشروح في عام/١٧٧٦/م كما نقلت أقسام منه وطبعت مترجمة الى اللغة الفرنسية في الفترة ذاتها .

وفي عام/١٨٣٧/ ترجمت منه أقسام ونشرت في باريس مع ترجمة فرنسية لدوفرحيه في حين نشر فيشر فيلايبزك أقساما مع ترجمة لاتينية وترجم في الهند الى اللغة الاوردية في عام/١٨٥٦/،ثم طبع كاملا باللغة العربية في القسطنطينية عام/١٢٨٦هـ - ١٨٦٩/م.. في أربعة مجلدات نقلا عن طبعة أوربا ثم طبع في مصر نقلا عن طبعة القسطنطينية ثم طبع في بيروت نقلا عن طبعة مصر .

ويقوم الدكتور الباحث حسن الساعاتي بدراسة الكتابين معا: تقويم البلدان والمختصر في أخبار البشر،ويخرج من الدراسة بأن لابي الفداء منهجا خاصا في البحث يقوم على القواعد التالية :

١ ـ الوفرة في جمع البيانات ،وتظهر في كثرة المصادر التي استقى منها مادة كل بحث من بحوثه .

٢ ـ الدقة في تفسير البيانات وتفنيدها .. فهي دقة فائقة مرجعها الامانة العلمية التي كان يتحلى بها ، ومنطقه السليم في تفهم الامور .

٣ ـ الاختصار في العرض وايجازه الشديد في خطبة كل كتاب ، ودخوله المباشر الى لب الموضوع ، فهو انما يكتب مختصرات تكون بمثابة مذكرات يجد فيها الغناء عن مطالعة الكتب الكبيرة في كل موضوع من الموضوعات التي عالجها .

٤ ـ الوضوح في تناول البيانات وعرضها .. انه وضوح ارادي والتزام بتوضيح مايكون غامضا منعا للبس وسوء الفهم ، واجتهاد في تيسير الصعب الذى يحتاج من القارئ الى عملية اعمال فكر شاقة قد لاتوصله بالضرورة الى الرؤية الكاملة التي يصورها المؤلف .

وهكذا استطاع الملك العالم أبو الفداء بفضل سفريه الرائعين تقويم البلدان والمختصر في أخبار البشر .. أن يجعل اسم : أبي الفداء صاحب حماة علما بارزا في كل مكان شرقا وغربا ، ففي قاعة المحاضرات في الجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس نقشت أسماء عدد من الذين شادوا علم الجغرافية انسانيا على مر العصور واسم أبي الفداء ثالث الاسماء ..

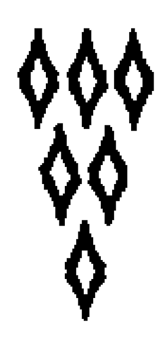
وعلى واجهة مكتبة السوربون في باريس نقش اسم أبي الفداء في رأس قائمة أسماء الشخصيات العالمية التي أثرت في الحضارة الانسانية كما أن هناك دراسات وأبحاثا أكاديمية في روسيا وفرنسا وألمانيا وانكلترا وبلجيكا وغيرها عن علم أبي الفداء وأبحاثه في التاريخ والجغرافية والفلك ، وقد تعجبون اذا سمعتم بأن أي عالم فلك في العالم اذا توجه الى دراسة القمر فان جبل أبي الفداء في القمر نفسه هو أول مايصادفه ، والسبب أن أبا الفداء كان أول من اكتشف هذا الجبل في القمر من خلال مرقبه في حماة ووصفه ، فكان أن أطلق العلماء الغربيون على هذا القمر اسم جبل أبي الفداء .. ونحن ـ وللاسف العميق ـ

لاندري شيئا عن الرحل وعن أعماله وعن أثره عربيا وعالميا ، وكم هو جميل ومشرف أن نستدرك مافات وأن نعوض تقصيرنا الفاضح في هذا المجال .

عودة أخيرة الى حياة أبي الفداء :

ونعود مرة أخيرة الى سيرة حياة أبي الفداء فنجده بداية عام/٧٣١هـ - ١٣٣١م/ يصاب بوعكة صحية ، ثم تزداد حالته الصحية سوءا ، فما كان منه الا أن قام بتوزيع كتبه ومخطوطاته الخاصة على أصحابه من العلماء العاملين ، وحين سئل عن السبب أجاب قد يأتي من نسلي وأهلي من لايعرف قيمتها فتضيع ، وأما عند هؤلاء العلماء فهي لن تضيع ..

ومع يوم السبت الثالث والعشرين من محرم عام/٧٣٢هـ/الموافق للسابع والعشرين من تشرين الاول من عام/١٣٣١/م ودع أبو الفداء الحياة الدنيا وختم أيامه بهدوء وهو لم يكمل الستين من عمره ،وبذلك تحقق كلامه وحدسه حينما بنى ضريحه بنفسه قبل خمسة أعوام ،وبموته انطوت صفحة مهمة من تاريخ حماة وتاريخ الفكر والثقافة العربيين وتاريخ العطاء الانساني ، ولقد خرجت مدينته وماحولها بكل من فيها وراء نعشه مودعة باكية ووقف الشعراء راثين باكين .



* أهم المصادر والمراجع المعتمدة في البحث *

آ ـ المخطوطات :

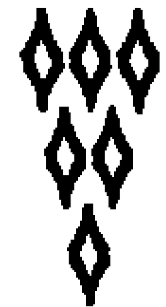
١ ـ المعتبر في تتمة المختصر في أخبار البشر لنوري باشا الكيلاني .
٢ ـ تاريخ حماة لاحمد قدري الكيلاني .
٣ ـ طبقات الشافعية للاسنوي .
٤ ـ الملك المنصور محمد لعدنان قيطاز .
٥ ـ أبو الفداء ـ حياته وآثاره لوليد قنباز .

ب ـ الكتب المطبوعة :

١ ـ تقويم البلدان لابي الفداء ـ طبعة مصورة عن طبعة باريس/١٨٤٠/ اصدار مكتبة المثنى في بغداد ومكتبة الخانجي في القاهرة .
٢ ـ المختصر في أخبار البشر لابي الفداء .. القاهرة/١٣٢٥هـ ١٩٠٧م /
٣ ـ تتمة المختصر أو ذيل تاريخ أبي الفداء لابن الوردى ـ القاهرة /١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٨م/
٤ ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل الحموي ـ القاهرة /١٣٧٢-١٣٩٢ هـ ـ ١٩٥٣ ـ ١٩٧٢م/.
٥ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العمادالحنبلي ـ القاهرة /١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م/.
٦ ـ صبح الاعشا في صناعة الانشا للقلقشندي ـ القاهرة / ١٣٣٠ ـ ١٣٣٧هـ ـ ١٩١٣ ـ ١٩٢٠م/.
٧ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ـ حيدر آباد ـ الهند ـ /١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م/.
٨ ـ النحوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي ـ دارالكتب المصرية ـ القاهرة ـ /١٣٤٨هـ ـ ١٩٢٩م/.
٩ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ـ القاهرة/١٢٩٩هـ ـ ١٨٨٢م/.
١٠ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ـ استامبول /١٣٦٠هـ ـ ١٩٤١م/.

١١- الاعلام لخير الدين الزركلي - دار العلم الملايين - بيروت /١٣٩٩هـ ١٩٧٩م/ .
١٢- ترويح القلوب في ذكرملوك بني أيوب للمرتضى الزبيدي - دمشق /١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م/.
١٣- تاريخ الادب الجغرافي لكراتشكوفسكي - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة /١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م/.
١٤- تاريخ حماة لاحمد الصابوني - المطبعة الاهلية في حماة/١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦م/.
١٥- أدب العرب لمارون عبود - دار الثقافة - بيروت/١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م/
١٦- رحلة ابن بطوطة - القاهرة/ ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٨م/.
١٧- رحلة ابن جبير - القاهرة/١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨م/.
١٨- مملكة حماة الايوبية لاحمد غسان سبانو - دمشق/١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م/.
١٩- أبوالفداء - عدد خاص صادر عن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية بمناسبة الاحتفال بمهرجان مرور/٧٠٠/ عام على ولادة أبي الفداء - مطبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي - دمشق/١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م/.
٢٠- ديوان صفي الدين الحلي- دار صادر ودار بيروت - لبنان/١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م/.
٢١- ديوان ابن نباتة المصري - مطبعة التمدن القاهرة/١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م/
٢٢- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب لابن الحنبلي - طبعة وزارة الثقافة والفنون في بغداد /١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م/.
٢٣- التاريخ المنصوري لابن نظيف الحموي - طبعة المجمع العلمي العربي دمشق/١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م/.
٢٤- معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف الياس سركيس - مصر /١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م/.
٢٥- القاموس المحيط للفيروز آبادي - مطبعة البابي الحلبي - القاهرة /١٣٧١هـ - ١٩٥٢م/.

٢٦- مجلة الفيصل السعودية - العدد /٢٦/ لعام/١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م/
٢٧- مجلة العمران الصادرة عن وزارة الشؤون البلدية والقروية في دمشق - العددان (٢٩- ٣٠)لعام١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م/٠



قراءة اقتصادية في تاريخ القرامطة (الموحدون)

بقلم الأستاذ منذر خضر حمودي
عضو الجمعية التاريخية بحمص [٧]

إن أهل الشام هم الذين أطلقوا هذا الإسم على التنظيم الإسلامي الثوري الإنقلابي المناهض للممارسات الأموية والعباسية ،والذى كان يتزعمه فلاسفة إخوان الصفا ، وذلك لأول مرة ،في عهد المأمون العباسي وفي هذه التسمية إشارة إلى أن التنظيم المذكور كان يعمل سياسياً على قرمطة /قضم/ الدولة العباسية ، ليسهل الإنقضاض عليها وتصفيتها ، وفي بلاد الشام ذاتها يورد القصاصون الشعبيون العبارة التالية : لولا سلامك يسبق كلامك لقرمطتك وفصفصت عظامك • بينما كان أصحاب التنظيم القرمطي يسمون أنفسهم بالمؤمنين الموحدين •

إن دراستي للقرامطة ،لاتعني أنني سلفي أقدم الماضي لكي ينسخ ويطبق في هذا العصر ، ولكنها تعني أنني أقدم تراثاً متقدماً في عصره ،لأن القرامطة تحدوا غلق باب الاجتهاد واجتهدوا ،فكان اجتهادهم محترماً في نظر الأجيال اللاحقة لعصرهم رغم كثرة معارضيهم من أبناء ذلك الزمان ، أما عن وعي أو بلا وعي ، نعم أقدم هذا الماضي التراث لكي يكون حافزاً لنا اليوم من أجل الإقدام على كسر القيود والخلاص من سبات الجمود •

انني أرى القرامطة حركة سياسية إجتماعية تستلهم الإسلام بحسب اجتهادها كما أنها لاتتجاهل شأن الأديان الأخرى ، عملت على تثوير الناس ضد السلطات المستبدة أياً كان دين ومذهب هذه السلطات ،تسلحت الحركة القرمطية بنظرية توفيقية تجمع بين العقل والنقل وبين الدين والفلسفة /كما في فلسفة الفارابي وابن سينا/ وتوازن بين العمل والزهد كما توازن بين السلم والحرب.إن ما أقدمه اليوم من منجزات القرامطة هو أميل الى الايجابيات منه الى السلبيات وهذا لايعني أنني في المستقبل سوف أتجنب التحدث عن سلبياتهم إزاء عصرهم وتقصيرهم إزاء عصرنا •

أود في هذه الدراسة المجتزأة الذهاب بعيداً في دراسة ظهور

القرامطة وأسباب نشوئهم وانتماءاتهم قبل وصول المعتصم العباسي الى سدة الخلافة العباسية ، تاركاً هذا العمل الى دراسات أخرى ،لا أراها لازمة في الوقت الحاضر على الأقل .

لقد أقدم المعتصم العباسي على تسريح العرب من الجيش بعد استقدامه العساكر التركية ، وإحلالها محل العساكر العربية جنداً وقيادة/ بعضهم يعزي ذلك الى كون أمه تركية وبعضهم يرجع ذلك الى شجاعة الأتراك ورخص أجورهم ، ولكنني أرى أن الأهم في الأسباب يعود الى عدم قبول العرب السلطة العباسية بديلة لسلطة الرضا من آل البيت بعد سقوط الأسرة الأموية/ومع أن الأتراك حتى عهد الواثق العباسي ظلوا أداة مسخرة بيد الدولة العباسية ، لكنهم بعد ذلك العهد، جعلوا من الدولة العباسية ألعوبة بيدهم ،يتقاذفونها وفق مصالحهم(١) ونتيجة لذلك عاد العرب المسرحون إلى حياة البداوة ،والى العمل السياسي بجانب المعارضة بغية الإنتقام من الدولة التي آذتهم في موارد رزقهم ومشاعرهم العربية فاستفادت المعارضة عامة والقرامطة بخاصة من هذه الحادثة ، فضموا الى صفوفهم قوى ناقمة على السلطة العباسية ،وكانت القوى المشار إليها ،مدربة على إستخدام السلاح غالباً ومتمرسة على فنون القتال وتحمل قسوة الطبيعة العربية ، فازدادت حماسة لإسقاط السلطة ، بعد أن أشبعت بأفكار الحركة القرمطية المرتكزة على مبادىء الفلسفة وتقوى الدين(٢)/بمعنى آخر سيادة المنطق والعقل وفتح أبواب الجنة لكل فاعلي الخير والصلاح/ . بينما بقيت الدولة العباسية سائرة في ظل التغلب التركي ، نحو ظهور الإقطاع العسكري ، على نطاق واسع ، وتكاثر المكوس والضرائب غير المشروعة والتلاعب بالعملة ، باعتبارها وسيلة للتوفير والإثراء ، بحيث وصل النظام المصرفي في الامبراطورية العباسية الى درجة متقدمة من التطور ، رافقها ظهور طبقة رأسمالية متحالفة مع السلطة من أجل استغلال الجماهير،كما كان التحكم البيروقطاعي ، محالفاً وملازماً للاقطاع العسكري ، على حساب أملاك الدولة وأملاك الخلفاء الضعفاء بالدرجة الاولى ، وبالضغط والاكراه على حساب المواطنين بالدرجة الثانية ، وبوسائل الرشوة والالجاء

والتهجير والمصادرة والتزويد بالدرجة الثالثة وقد عبر عن هذا الظلم المحدق بالرعية المؤرخ مسكوية بقوله : وصاروا - أي الناس - بين هارب حال ، وبين مظلوم صابر لاينصف وبين مستريح الى تسليم ضيعته الى المقطع ليأمن شره (٣).

وفي مجال الصناعة ، سخط كل من المستغل والمستغل على النظام العباسي الفاسد ، سخط المستغل ،لأن الدولة لم تحمه من إغارة الأتراك على المؤسسات الصناعية ، بهدف السلب والإبتزاز ، كما أنها لم تحمي المستغل نفسه من تعدي الاتراك المباشر عليه ، ومن جشع الرأسماليين المالكين لوسائل الانتاج (٤)/من قراءتنا للتاريخ العام نرى أن الحكام الذين لايمثلون شعوبهم وبالتالي يفقدون ثقة هذه الشعوب بهم ،يلجأون الى اصطناع المرتزقة،في بادىء الأمر يلتزم المرتزقة جانب الطاعة والقيام بالأعباء الموكولة إليهم ، ثم عندمايطمئن المرتزق الى قوته ويكتشف ضعف سيده ، وبعد تساوي الحاكم والمرتزق في عدم الإرتباط بالوطن ومصالحه يظهر الصراع بين السيد والمسود على أشده ،كتنافس بين جانبين على المكاسب الخاصة فحسب / ومن هنا اضطرت الفئات المسحوقة الى التحالف ، ومن ثم العمل على إيجاد تنظيمات تهدف الى تحسين ظروفها والخلاص من المستغلين ، علماً بأن العمال كانوا من الأحرار والعبيد ، وكذلك كان المزارعون من هؤلاء وأولئك(٥).

لقد استطاعت الحركات الباطنية بعامة والحركة القرمطية بخاصة توظيف مساوىء النظام العباسي في نشر دعوتها ، التي بدأت بالعمل في المدن أولاً ، ثم في الأرياف والبادية ثانياً ، فأخذ دعاتها يفندون مساوىء النظام العباسي في أوساط العمال الزراعيين والصناعيين وأصحاب الحرف والتجارة والموظفين والجند والملاكين الناقمين والمتذمرين حتى شملت معظم فئات الرعية ، قائلين /أي القرامطة/ الى أتباعهم لاتعادوا علماً من العلوم ، أو تهجروا كتاباً من الكتب ، ولاتتعصبوا الى مذهب من المذاهب ، لان رأينا ومذهبنا يستغرقان/يستوعبان/ المذاهب كلها (٦).

ماكان لدعوة القرامطة أن تجذب الناس إليها ، لولا فساد النظام العباسي وتململ الجماهير من شدة وطأته عليها ، من ناحية ،ولولا تسلح القرامطة بالعلم والمنطق المرتكزين على كتب الفلسفة عامة وعلى الفلسفة اليونانية وفلسفة الفارابي وسواه من الفلاسفة العرب بخاصة . حيث عملوا على تطبيق هذه النظريات في كل مكان سيطروا عليه وتبعاً لذلك قال القرامطة : بوجود تضارب حاد بين مصالح الأفراد أي بين الغني والفقير أو بين مجموع الفقراء ومجموع الأغنياء على الغالب ... اذ أن الطبقة المالكة ، بغية الإحتفاظ بثروتها ومصالحها قد لجأت الى قوتها الإقتصادية والسياسية ، تدافع بهما عن وجودها ومكانتها ، وبذلك أصبحت الملكية الشخصية في الامبراطورية العباسية أساساً للسلطة العباسية. ، واستأثرت الطبقة المالكة بالحكم والتشريع ، بما يخدم الارستقراطية الحاكمة وأعوانها من ملاك الأراضي ، ومن كان تابعاً لهما ، فعمل هؤلاء جميعاً على معاداة القرامطة ،واستعدوا كل القوى الرجعية على محاربتهم باستمرار .(٧)

وازاء كل التحالفات الرجعية ، استقطبت الحركة القرمطية كل المستضعفين ، من سائر العناصر والعصبيات المقهورة فضلا عن الطامحين الى تحسين واقعهم عبر تغيير الحكومات أو سقوط الدول الضعيفة،فانتظم في الحركة القرمطية أهل السواد والاكراد والفرس وبعض العرب ومعظم الأعراب(٨)وكل المقهورين والمضطهدين بشكل أوآخر . وعلى هذا الأساس نشأ الجيل الاول من القرامطة في شبه الجزيرة العربية ،فكان تنظيمهم مهتما في بادىء الأمر ، بسيادة مبادئه الهادفة الى تقديم المصلحة العامة على المصالح الخاصة ، ولم يكن يفكر بجمع المال والجري وراء زخرف الحياة الدنيا ، وكانت دعواهم : أنهم يعملون من أجل سيادة مبادىء الإسلام بروحه المحمدية ، لامن أجل سيادة السلطان (٩)وانطلاقا من هذا المنحى ، وعندما كان أبو طاهر الجنابي يحاصر بغداد ويضايقها فقد أعطى الأمان الى كل الناس ماعدا أصحاب السلطان ، لانهم يشربون الخمر ، ويلبسون الحرير ، ويعينون السلطان الذي يحجب عنه الرعية ، ويظلم اليتيم والأرملة ويسمع القيان(١٠).

في الكلام الآنف الذكر إشارة واضحة الى إنحراف الخلفاء العباسيين عن روح الإسلام المحمدي وفيه غمزة صريحة الى فساد دولتهم، قياسا بدولة القرامطة الفتية وحكامها الثائرين على مظاهر الضعف والانحراف في دولة الخلافة والولايات التابعة لها . وهكذا كانت الحركة القرمطية تختلف اختلافاً بيناً بالافكار والاهداف عن ثورة الزنج ، فالحركة القرمطية هي حركة ثورية ، ذات أفكار إنقلابية ، مسلحة بفلسفة ذات تعاليم اشتراكية عميقة بفكرها ، جديدة بعنفها على المجتمع وذات أهداف بعيدة المدى ، بينما كانت حركة الزنج /التي سبقتها / ثورة لها هدف سلطوي، ولاترتكز على أسس فكرية متكاملة ، وليس لها جذور عميقة تمثل مختلف فئات المجتمع المتضرر من النظام القائم (١١) بخلاف الحركة القرمطية ، التي شدت الناس الى اصلاحاتها الثورية المبنية على أسس فلسفية دينية تمشيا مع مقتضى حياة ذلك العصر ، فشملت هذه الاصلاحات مختلف مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية .

إن صرخة احتجاج ونداء بالمساواة في عصر ، كان فيه الإنسان يباع ويشرى ، تعدل إن لم تفق ، كل أصوات ثوار الحركات الإجتماعية في أيامنا هذه ، علماً بأن القرامطة لم يقفوا عند هذه الصرخات فقط ، بل تعدوها الى حمل السلاح وإشهاره في وجه المستغلين ، بغية تحويل الطروحات النظرية الى ممارسات عملية (١٢) بدءاً من :

١ ـ التنظيم الطبقي :

/وفق مفاهيم العصر الحاضر/ : كان اليسار الإسلامي منذ صدر الاسلام ، قد تبنى الفهم الطبقي للإسلام ، وعمل على ترسيخ هذا الاتجاه ، ولذلك حاول سلمان الفارسي ، في نهاية خلافة عمر ابن الخطاب وبداية خلافة عثمان بن عفان ، خلق تكتل للحرفيين في الكوفة ، ولم يتح له أن يتمعمله ، لكن هذا الصحابي تحول الى رمز نقابي منذ القرن الخامس للهجرة ، فأصبح الحلاقون والماشطون والحجامون والجراحون يأتون سنوياً في النصف من شعبان لزيارة قبره في المدائن لذا من الانصاف ، أن نسجل للقرامطة ، مهمة تطوير العمل النقابي

إن لم نتمكن من تسجيل فكرة خلق النقابات المهنية لهم (١٣) لأنه قبل القرامطة كانت نقابات العمال تنظيماً علنياً ، يقتصر على رؤساء النقابات والحرف ،الذين يعملون على تكييف علاقاتهم مع السلطة ، فعمد القرامطة إلى تحويل هذا الجهاز النقابي إلى تنظيم سري ، يضم العمال وقادتهم معاً ،وجعلوه جهازاً ثورياً يهدف الى العمل على إسقاط سلطان القمع والتقصير وبالتالى الى إقامة مجتمع جديد مبني على أساس سيادة العدل والقانون (١٤).

ومن الأمور التي عجلت في تبلور دور العمال والفلاحين وصغار الكسبة ، عبر تنظيماتهم النقابية ، ظهور الإسراف السلطوي والإستغلال الطبقي في الدولة العباسية ، فقد أنفق الوزير العباسي ابن الفرات ثلاثين ألف دينار على ستائر قصره من أموال الدولة ، وكان يشتري مسكاً وكافوراً بمبلغ عشرة آلاف دينار في السنة ، في حين كان يكفي الرجل وزوجته وأولاده للعيش الكريم ، مامقداره ثلاثمائة درهم في السنة (١٥) فكانت احدى مظاهر الرد على هذا الإسراف ، قيام القبائل العربية ،التي شرع أبناؤها بقطع طريق الحج الذي هو أحد موارد الرزق للجياع من أعراب القبائل قبل القرامطة وبعدهم ، وذلك بسبب الظلم الإقتصادي الذي جاءت به سياسة الانحراف لدى الامويين والعباسيين على السواء ، فضلا عن اضطراب حبل الأمن ، وتردي نظام القضاء ، وقد عبر عن هذا الواقع المر أحد شعراء الاعراب راجزا بقوله:

عليك ثوبان وأمي عارية

فألق لي ثوبك يابن الزانية

وبالطبع كان يعني بذلك أحد الحجاج الموسرين والمحسوبين على السلطة اللاهية (١٦).

وهكذا نظراً لقيام المدن الكبيرة في أرجاء الامبراطورية العربية الاسلامية ، ونتيجة لظهور التمايز في الشرائح الاجتماعية/،فقد ظهرت على سبيل المثال في بغداد والكوفة الاسواق الخاصة بأبناء المهن،ويذكر لنا التاريخ كثيراً من حوادث الصراع بين الجزارين والحدادين أو بين الحجامين والحلاقين ، وظهرت أسواق للقطانين والحلاجين والصبانين... (١٧).

ولقد استفاد القرامطة من هذه الظاهرة وغيرها ، فنظموا هذه الفئات

المسحوقة في خلايا سرية ، مستفيدين من تجارب الأمم ومن تجـــارب الحركات الثورية العربية سابقا ، بل ومن ظاهرة الحياة الاجتماعيـــة لدى النحل ، من حيث تقسيم العمل وتوزيع المهمات(١٨) ولكن كل ذلـــك ماكان ليلغي دور الانتماء الى العشائر والقبائل في الحركة القرمطيـــة من جهة ، وبسبب موقف السلطة الحاكمة ، تجاه أكثرية الرعيــــة ، فاندفعت القبائل المشار إليها وراء تحقيق مصالحها ، وجني المكاسب المادية والمعنوية ، ويظهر ذلك جلياً في حروب القرامطة مع خصومهـــم لدى الدارسين (١٩).

كان أكثر الذين اعتنقوا الدعوة القرمطية ، من الفلاحين والعمـــال وأهل الحرف ، وعلى العموم من الذين كان مستوى معيشتهم منخفضاً الـــى حد كبير ، /وكان قادتهم من الفلاسفة حسب تعبير خصومهم/فكان القاسم المشترك بين كل القرامطة ، وحدة المصالح والمشاعر ، فألف قــــادة ومنظرو القرامطة بين هؤلاء الثائرين(٢٠) وأحلوا اخوانية الحرفة والعمل مكان اخوانية العشيرة والقومية قدر الامكان/ لان الظروف الموضوعيـــة آنذاك كانت لاتسمح بأكثر من ذلك/ ولايتحقق مثل ذلك عادة فـــي التاريخ الا في المجتمعات السائرة نحو المحتمع المدني ، وبذلك حقـــق القرامطة خطوة متقدمة نحو بناء مجتمع متمدن بالنسبة الى جيرانهـــم الذين تراجعوا عن مبادىء الإسلام الأساسية ، فيما يتعلق بالعرقيـــة والعشائرية والمسؤولية الفردية (٢١) سعيا وراء ملاذ الدنيا التي تحـدث عنها إخوان الصفا/ منظرو القرامطة/ بسخرية وأشاروا الى أهل اللـــذة المستهترين الذين وصفهم تعالى بقوله : (يأكلون كما تأكل الانعـــام والنار مثوى لهم/(٢٢) فما دام موقف الله من الأغنياء والمستغلين هكذا فلماذا لايمشي قدماً في هذا الاتجاه كل من يتحلى باليقظة والحكمة ؟ كذي النون المصري الذي قال : لاتسكن الحكمة معدة ملئت طعاما(٢٣) وهذا القول بما فيه من الوضوح ، غني عن الشرح والتعليق ، وتمشياً مع هـــذا الفكر، حاول القرامطة عن طريق نظام الألفة ، حمع فئات العمال فـــي العالم الإسلامي ، في نقابات ، امتازت بخاصتين اثنتين هما :

١ ـ الاولى : إنها نقابات مهنية تمثل مصالح أعضائها طبقيـــاً .

٢ - الثانية : إنها مؤسسة قرمطية من حيث أهداف الدعوة القرمطية [٢٤]

وضمن هذا الإطار، ساهم القرامطة في تطوير دور الحرفيين ، بغية توجيه الحياة الإقتصادية والسياسية .. نحو مايحقق بناء مجتمع الكفاية والعدل . ولذلك تطلع القرمطي الى الأمام محاولاً بناء المجتمع الجديد ، على مبادىء العدل والإنصاف ، ديناً وفلسفة/ بالشرع والوضع/ بينما كان غيره يتطلع الى الوراء محاولاً تكريس الواقع المليء بالظلم والطغيان/ على مبدأ:هذا ماوجدنا عليه آباءنا/ ولهذا قال شاعر القرامطة مخاطباً خصومهم :

فكنتم وأنتم تهدمون وأبتني
فشتان بين من يبني وآخر يهدم [٢٥]

ومن هنا كان إخلاص الفرد في المجتمع القرمطي ، ومايقدمه من خدمات الى الجماعة ، هو الذي يحدد مركزه بين أبناء المجتمع ،علماً بأن القرامطة ، كانوا يتعهدون بالإنفاق على جميع أفراد المجتمع بلا تفريق أو تمييزوبمايتناسب مع مركزالفرد الاجتماعي النضالي ،وهذا المبدأ تأخذ به أرقى الدول الاشتراكية اليوم [٢٦].

وينبغي لنا ألا نتصور مابناه القرامطة ، وماحاولوا تحقيقه قد تم بدون مواجهة أعداء ، فمن قراءة تاريخ الشعوب ، يتبين لنا أن الملاك وكبار الاغنياء ، يكونون على رأي سياسة الدولة التي تحمي مصالحهم وتحقق أغراضهم ، وان كانوا من مختلف الأجناس ، بينما يكون الفقراء وكل الفئات المتذمرة من سلب الدولة وأعوانها لقوت معيشة الجماهير ، هي من نحلة المعارضة أو أحلافها ، وهم أيضا من مختلف الأجناس [٢٧].

ولكن هذا الحكم ، ليس حكماً مطلقاً ، فقد ذكر التاريخ أيضا أمثلة عن دور عدد من الاشخاص الاغنياء ، قد ساهموا في دفع عجلة التقدم ،الى الامام، ومنهم كان محمد بن الحسن الملقب بدندان ، أحد أغنياء وعلماء عصره ، الذي كان منظماً في صفوف الحركة القرمطية، بل وقام بالتبرع الى بيت مالها بمليون دينار [٢٨] ويذكرنا هذا بدور السيدة خديجة بنت خويلد ، *التي قدمت كل ماتملك للدعوة الإسلامية ، بهدف*

نصرتها وإعلاء شأن كلمتها ، وبدور الشري والمفكر أنجلز،الذي دعم الماركسية بماله وقلمه ..

ومن حسن حظ القرامطة ، أنهم وفقوا في بداية تكوين دولة لهم بقيادة ، كان من أهم رجالها ، أبو سعيد الجنابي وخلفاؤه من بعده الذين كانوا يعاملون الشعب بالعدل والانصاف ، كما كانوا يسمعون الى مطالب الرعية بكل رقة وتواضع (٢٩) وذلك من منطلق تطلعاتهم الاشتراكية الاصلاحية في ذلك العصر ، حيث كان نظام الألفة لدى القرامطة مستوحى من الإسلام بدليل الآيات التالية :/واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا/ وقوله/ ولو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم/وقوله :/وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان/ (٣٠).

وعلى هذا الأساس أعار القرامطة علاقات التعاون الإجتماعي أهمية قصوى ، باعتبار أن الانسان هو الأساسي في خلق المال ووسائل الانتاج بفكره وعمله (٣١) وتبعاً لهذا الفكر ، كلف في كل قرية رجل من ثقاتها ، بالإشراف على جمع وإحصاء الممتلكات لصالح بيت مال المجتمع القرمطي ، وكلف الشخص نفسه بالإنفاق على حاجات الناس .. وبذلك لم يبق فقير واحد من أتباع الدعوة القرمطية (٣٢) واذا انسان ما افتقر في دولة القرامطة أو استدان ، كانوا يتعهدونه حتى يتيسر عمله ، واذا كان لأحدهم دين على آخر لايطالبه بأكثر من رأس المال الذي له (٣٣) بل وكل غريب كان ينزل في بلاد القرامطة وله صناعة ، كان يعطى مايكفيه من المال حتى يشتري مايلزم صناعته من عددوآلات،ويرد الى الحكام ماأخذ حين يشاء ، دون أن يدفع فوائد عن المال الذي استدانه (٣٤) ،وكما كانت حكومة القرامطة تعتمد على تأييد العمال والفلاحين في دعم نظامها الاشتراكي/وفق معايير ذلك العصر/ كان لابد لها من تقديم الخدمات اللازمة للجماهير عن طريق الإكثار من المرافق العامة ، للتخفيف من أعباء المواطنين (٣٥) وبالمقابل عمل أتباع الدعوة *القرمطية بحماسة من أجل زيادة الإنتاج ، وقدموا إنتاجهم للتنظيم*

طواعيةً وانسجاماً مع شعاراتهم الاشتراكية المستوحاة من مبادىء أخوة الانسان للانسان في الاسلام المحمدي، وفي مبادىء العقل السليم لدى الفلاسفة [٣٦] ولاحكام قبضة الدولة على اقتصادها وبالتالي تمكينها من ممارسة استقلالها فقد حصرت دولة قرامطة البحرين التجارة الخارجية بيدها ، وفتحت الاسواق لها في الخارج ، كما تملكت الحوانيت والمستودعات اللازمة من أجل احكام سيطرة الدولة على مواردها وبالتالي تنظيم عمليتي الاستيراد والتصدير [٣٧] لما كان اصلاح المنازل والمزارع والمرافق العامة كافة ، من واجبات الدولة التي ألزمت نفسها ، بتقديم هذه الخدمات المشار اليها مجانا [٣٨] واستكمالا لهذا العمل التعاوني أقامت حكومة قرامطة البحرين نوعا من المصارف ، لتقديم القروض الى الزراع والصناع ، ومنع التعامل بالربا... كما قدمت للمعوزين الدواء واللباس والطعام مجانا .. وبغية استمرار الدولة في تقديم هذه الخدمات ، فقد أممت الافران اللازمة من أجل تأمين الرغيف الضروري لقوت الجماهير بعيدا عن الاستغلال ودعمت هذه الخطوة بمراقبة مذابح الحيوان ، وجعلت الحمامات مرفقا عاما لتأمين النظافة العامة للمواطنين ، ولكي تحقق شعار الفلاسفة الاطباء والذي يقول : العقل السليم في الجسم السليم [٣٩] ومن منطلق الشعور بالمسؤولية الاجتماعية فقد كانت دولة القرامطة تعطي الفقراء من مواطنيها بيوتاً للسكن مجانا ، وتطحن طواحين الدولة للناس حبوبهم مجانا أيضا [٤٠] وذلك الى جانب الطواحين الخاصة المشمولة برعاية الدولة ، بحيث اذا خرب منزل أو طاحون أحد الملاك في دولة القرامطة ، ولم تكن لديه القدرة على اصلاحهما ، أمرت الدولة جماعة من العبيد/ الذين أصبحوا موظفين لديها / بأن يذهبوا اليه ويصلحوا المنزل أو الطاحون ولايطلبون من المالك شيئا [٤١] مقابل جهودهم المبذولة .

٢ ـ التنظيم الاقتصادي :

كثرت الثورات في عهد المتوكل على الله العباسي /٨٤٧ ـ ٨٦١م/ حيث كان الضعف المالي والاداري قد تواكبا مع الضعف العسكري والسياسي وبدأ الهزال يتسرب الى جسم الدولة العباسية للاسباب التالية :

١ ـ كثرة نفقات جيوش الدولة
٢ ـ كثرة نفقات قصور الخليفة ورجال دولته .
٣ ـ كثرة الرشوة والتزلف وانتشار الفساد .
٤ ـ قلة الإنتاج وتدهور الوضع الاقتصادي .
٥ ـ اضطراب حبل الأمن وتحول حاميها الى حراميها .
٦ ـ استقلال أو شبه استقلال حكام العديد من الأقاليم (٤٢)

وبعد دراسة القرامطة لكل الحركات الثورية السابقة لتحركهم من حيث أسبابها وتطورها ونتائجها ، استخلصوا العبر منها وحاولوا تفادي الأخطاء قدر الامكان بعد ملاحظة جملة من الأمور الاقتصادية كتجمع المال بشكل احتكاري يتنافى مع روح الاسلام المحمدي الذى يعنى بمصلحة المجتمع ويرفض هذا الكنز للأسباب التالية :

١ ـ المال وسيلة تسلط اقتصادي واجتماعي .
٢ ـ المال وسيلة للهو والترف .
٣ ـ المال وسيلة للضغط على العمال والشغيلة كافة لكي يبيعوا قوة عملهم وفق ارادة ومصالح محتكري المال .
٤ ـ المال وسيلة لوصول غير الأكفاء الى مراكز لايستحقونها ولهذه الأسباب وسواها رفع أبو ذر الغفاري صوته عاليا محتجا على محتكري المال من المسلمين قائلاً :

المال للرعية وليس لله لان الله غني عن عباده اذ لوكان المال لله لنصب الحاكم نفسه وكيلا لله وتحقق الاستبداد والاستعباد بما لايتفق وروح الاسلام .

وعلى ضوء ماذكر سابقاً من فهم لروح الاسلام ، فقد أقام القرامطة نظامهم الاقتصادي ، وفق تطلعاتهم الاشتراكية الاصلاحية ، مهتمين بالجوانب التالية :

١ ـ تشجيع الزراعة وتنمية الثروة الحيوانية .
٢ ـ إقامة صناعة محلية لسد حاجات البلاد أولا ولتصدير الفائض قدر الامكان .
٣ ـ تنشيط التجارة بفرعيها الداخلي والخارجي .

٤ ـ توطيد النظام المالي من حيث نمو الواردات وضبط النفقات والاشراف على النقد .

آ ـ الزراعة والثروة الحيوانية :

بفضل همة ومساعي أبي سعيد الجنابي ، تقدمت زراعة الارض وعمارتها في دولة قرامطة البحرين(٤٣) فقبض على كل الاموال في البلاد /بمعنى تأميم الدولة لها/ وعلى الثمار، وعلى الحنطة والشعير(٤٤) وذلك من أجل توجيه الانتاج الزراعي وزيادة نموه من ناحية ولمنع احتكار المحتكرين ،/ أدوات الضغط على كل حركة تقدم من ناحية أخرى/،ولتوفير قوت الجماهير بعيدا عن الازمات المفتعلة أو الناجمة عن قصر النظر في التخطيط الاقتصادي ، ولتجنيب الناس استغلال بعضهم بعضا .

ولقد كان لحكومة القرامطة أراضيها الخاصة، فجعلتها مزارع حكومية نموذجية (٤٥) وهي من الاتساع والاهمية بحيث شغلت فيها ثلاثين ألف زنجي وحبشي ، عملوا في زراعة الارض وفلاحة البساتين(٤٦) والى جانب المزارع الحكومية ، كان القرامطة البارزون يمتلكون ممتلكات خاصة الى جانب ممتلكات رأسمالية الدولة/ بلغة العصر/ التي ظلت صامدة أكثر من قرن في وجه خصومها ،ثم تغلب في النهاية القطاع الخاص على القطاع العام من جراء أسباب داخلية وأخرى خارجية ، وبذلك تتضح لنا صعوبة التوفيق بين النظرية والتطبيق ، تلك الصعوبة التي ما تزال تلاحق التجارب الاشتراكية عند الشعوب حتى الوقت الحاضر ، مرورا بكومونة باريز وتجربة محمد علي /باشا/ في مصر وتجارب تشيلي واندونيسية وغير ذلك(٤٧).

لم تلجأ حكومة القرامطة في البحرين الى نزع ملكية الاراضي من يد أصحابها، كي يعاد توزيعها ، وذلك لعدم الحاجة الى مثل هذا الاجراء ، لان كل الفلاحين كانت لديهم الاراضي الكافية (٤٨) بينما لجأت حكومة قرمطية أخرى الى انتزاع ملكية الاراضي من يد أصحابها الاحتكاريين لان الظروف الموضوعية أوجبت ذلك لكون الارض هي مورد الرزق والعيش الاساسي ، كما هو الحال في اليمن ، فقد أقدم ((علي بن الفضل)) أحد مؤسسي دولة القرامطة في اليمن ، على مصادرة أملاك اقطاعيي المخاليف ، ثم وزعها على الفلاحين الذين لم ينعموا بها طويلا، بسبب

تحالف القوى الرجعية داخل اليمن وخارجه ضد علي المذكور فاغتيل وبالتالي سقطت دولته من بعده تحت ضربات المتآمرين (٤٩).

ومن أهم المناطق الزراعية في دولة قرامطة البحرين ،كانت ((الحسا)) التي يكثر فيها الجوز الهندي المسمى : النارجيل وفيها تمر كثير ، حتى انهم يسمنون به المواشي ، ويأتي وقت يباع فيه أكثر من ألف من/وزنة تزن مئتين وسبعة وخمسين درهما/بدينار واحد.. والى الشمال من الحسا بسبعة فراسخ ، تقع القطيف ، وهي مدينة كبيرة توجد فيها أشجار نخيل كثيرة (٥٠) وقد قدر ثمن محاصيل الحساذات مرة ، بحوالي ثلاثين ألف دينار (٥١).

وأما في ميدان تربية الحيوان ، فقد أقامت حكومة قرامطة البحرين رعاة للابل والغنم ومعهم قوم لحفظها ، والتنقل معها بنوبات معروفة ، وذلك لتنمية الثروة الحيوانية اللازمة لمتطلبات دولة القرامطة التي كانت تعرف مالها وماعليها ، لكي تدفع باقتصادها ورفاه شعبها نحو الأفضل (٥٢).

ب ـ الصناعة :

نظر القرامطة الى العمل من خلال نظرية إخوان الصفا الشاملة والتي ظهرت في عصر الإقطاع وتكون بذور علاقات بورجوازية تجارية في الإمبراطورية العربية الإسلامية خلال العصر الوسيط (٥٣) فقيموا الإنسان من خلال النزعة الاجتماعية لدى إخوان الصفا ، التي تقول:// بأن نقاء الإنسان وصفاءه ، مرتبطان بالحياة الدنيا ، ويمر الإنسان عبرها اجتماعياً من حيث سلوكه في القول والفعل// وبرأيهم يتفق ذلك مع قوله تعالى:// فمن كان في هذه الدنيا أعمى ، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا// • ولكي يقتربوا من الصواب قسموا العمل وأكدوا قيمة الانسان من الناحية الاجتماعية بارتباطه الإنتاجي ، فوضعوا الحوافز المادية للعمال ، من أجل إنجاز العمل وإتقانه • وعلى هذا الأساس ميزوا بين إنسان وآخر ، كما قالوا بضرورة تعدد الأنشطة لأناس كثيرين ، لكي يكمل بعضهم بعضاً وليسرعوا المشي نحو الكمال كهدف ، ولكي يحصل

الناس على طيب العيش ، استعان القرامطة لتحقيق ذلك الهدف بالعلم والتعلم في ميادين مختلف العلوم ، ومن آحل دفع حركة التطور والتقدم باستمرار (٥٤) باعتبار العمل اليدوي وعمل الفكر يلتقيان في قوة مشتركة بمعنى وجود تبادل وتكامل بين النشاط الفكرى والنشاط اليدوي، ضمن نطاق الدآب الاجتماعي (٥٥) .

انطلاقا من هذا الوعي لاهمية العمل ، شجع القرامطة الصناع على تأمين حاجات البلاد من المصنوعات الاساسية ، فجلبوا الحديد من سورية باعتباره معونة مقدمة لهم من قبل الامير سيف الدولة الحمداني في حلب(٥٦) وصنعوا السفن من مختلف الأنواع لمختلف الاغراض ، وضربوا السيوف والأسنّة ، كما نسجوا الدروع والمغافر/ زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة / واتخذوا الروايا /ثلاثة جلود لوضع الماء/ والمزاود/مايوضع فيه الزاد/ والقرب ، وآقاموا صناعة الغزل والنسيج ، فنسجوا فوطا جميلة ، صدروها الى مدينة البصرة وغيرها (٥٧) كذلك آقاموا صناعة دباغة الجلود وصناعة الأحذية والادوات الجلدية ، وأنشؤوا الصناعات الغذائية مثل مطاحن الحبوب ومعامل التمور ، على مستوى القطاعين العام والخاص ، وبذلك مكنوا دولتهم من الصمود والتصدي للطامعين بها عدة آجيال(٥٨) .

حـ ـ التجـــارة :

كان أبو سعيد الجنابي ، قبل تأسيسه دولة القرامطة في البحرين مثالاً يحتذى ، في الوفاء والصدق بتجارته/ يمارسها في القطيف(٥٩) ، وبعد تأسيسه دولة القرامطة في الحسا .. شجع العلاقات التجارية مع شعوب المنطقة المجاورة لدولته ، ولم يعترض على حرية مرور المسافرين عبر بلاده ، مدفوعاً برغبته وتطلعاته نحو كسب الجماهير في طول البلاد وعرضها (٦٠) ولكنه مع ذلك وضع يد الدولة على التجارة الخارجية وفتح الأسواق لها في الخارج ، كما فعل خلفاؤه من بعده مثل ذلك بهدف تنشيط التجارة ، حيث عينوا المقيمين لهم في المدن الهامة /كالملحقين والمفوضين التجاريين في السفارات في عصرنا/ ومن المدن التي كان لهم فيها مثل هؤلاء المقيمين البصرة وبغداد ودمشق .. وكلّلوا ذلك بتنظيم عمليتي الإستيراد والتصدير (٦١) .

وتبعاً لهذه الاجراءات ، أخذت عائدات الربح تتدفق على بيت المال العام في الدولة ثم تخرج منه لتنفق على مشاريع المجتمع وتحسين أحوال المزارعين والعمال والجنود (٦٢).وليتمكن القرامطة من تحرير تجارتهم من النفوذ الأجنبي ، إمتلكوا أسطولا من السفن/الشداه/ عمل في مياه الخليج العربي والبحار المجاورة /ويدل على ذلك إتساع رقعة نفوذهم وتدفق الأتاوات عليهم/ وأحكموا سيطرتهم على هذه المياه، فوصلوا الى شرق افريقية حاملين معهم بضائعهم ليعودوا ببضائع إفريقية،المكونة من العاج والخشب والمعادن الثمينة ، وكذلك وصلوا الى الهند ببضائعهم ليقايضوها بالحديد والمعادن المتعددة والتوابل والمسك ، فكانت أهم صادرات القرامطة مكونة من الفوط واللؤلؤ والتمور فضلا عن البضائع المستوردة من البلدان المجاورة بقصد إعادة تصديرها من بلادهم الى ماوراء حدودها (٦٣).

د ـ الواردات المالية :

فرض القرامطة ضرائبهم تدريجياً على اتباعهم بشكل إختياري وبدافع من الحماسة للعقيدة على الشكل التالي :

١ ـ ضريبة الفطرة : ومقدارها درهم على كل فرد من الرجال والنساء والصبيان .

٢ ـ ضريبة الهجرة : ومقدارها دينار على كل منتسب أدرك الحنث .

٣ ـ ضريبة البلغة : ومقدارها سبعة دنانير عن بعض الاعضاء المميزين اجتماعياً .

٤ ـ ضريبة الخمس : مما يملك عضو الدعوة .

٥ ـ ضريبة الهبات والتبرعات المقدمة الى الدعوة .

٦ ـ خطوة الألفة : وهي المرحلة الأخيرة بحيث تساعد الظروف الموضوعية على جعل الملكية جماعية . ولم تكن هذه الخطوة عامة من حيث المكان والزمان ، بل عمل بها بحسب الظروف . (٦٤)

كذلك فرضت حكومة قرامطة البحرين والحسا الضرائب على المراكب وعلى مقاطعة عمان وعلى الحجاج وعلى صيد اللؤلؤ ، كما فرضت الضرائب

على مدن وقرى العراق /التي عجزت الدولة العباسية عن حمايتها والدفاع عنها/ قدرت بمليون ومئتي ألف دينار ، كانت منها الأعشار والخراج ثلاثين ألف دينار فقط(٦٥). ومنذ عام ٣٢٥هـ – ٩٣٧م إحتل القرامطة مدينة الكوفة وفرضوا هدنة على الدولة العباسية، وألزموها بدفع مئة وعشرين ألف دينار كل سنة بالإضافة الى ضريبة معلومة عن كل حاج ، وأخذوا يتدخلون في شؤون سياسة بغداد مدة قرن من الزمن(٦٦)، كما كان للقرامطة ديوان/مال وجمارك/ في البصرة ، وكان لهم هناك رجل يأخذ المكوس من الميناء إلى جانب الموظفين العباسيين(٦٧) وكان الغواصون في الحسا يستخرجون من البحر اللؤلؤ ويقدمون مقابل ذلك الى دولة القرامطة نصف مايستخرجون(٦٨). ومن أرباح التجارة الخارجية توفرت لدى بيت المال العام مبالغ كبيرة(٦٩) فضلاً عن الأموال المتقاطرة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي آنذاك ويظهر ذلك جلياً في الجدول التالي: (٧٠)

مقادير خراج بعض الولايات القرمطية استناداً الى ابن خرداذبة في المسالك والممالك ليدن – ١٣٠٩ هـ .

كرمان	ستة آلاف ألف درهم
مكران	ألف ألف درهم
أصبهان	عشرة آلاف ألف وخمس مئة ألف درهم
سجستان	ألف ألف درهم
خراسان	سبعة وثلثين ألف ألف درهم
حلوان	تسع مئة ألف ألف درهم
ماه الكوفة	خمسة آلاف ألف درهم
ماه البصرة	أربعة آلاف ألف وثماني مئة ألف درهم
همذان	ألف ألف وسبع مائة ألف درهم

ماسبذان	ألف ألف ومئة ألف درهم
مهرجان قذق	ألف ألف ومئة ألف درهم
الايغارين	ثلثة آلاف ألف وثمانمئة ألف درهم
قم وقلسان	ثلثة آلاف ألف درهم
آذربيجان	أربعة آلاف ألف وخمسمئة ألف درهم
الري وديملوند	عشرين ألف ألف وثمانين ألف درهم
قزوين وزنجان وأبهره	ألف ألف وثمانماتئة ألف وثمانية وعشرين ألف درهم
قومس	ألف ألف ومئة ألف وخمسين ألف درهم
جرجان	أربعة آلاف ألف درهم
طبرستان	أربعة آلاف ألف ومائتي ألف وثمانين ألف وسبعمائة درهم
تكربت والطيرعان والسن والبوازيج	تسع مائة ألف درهم
شهرزور والصامغان	ألفى ألف وسبع مائة ألف وخمسين ألف درهم
كورة الموصل	ستة آلاف ألف وثلثمئة ألف درهم
قردى وبزبدى	ثلثة آلاف ألف ومئتي ألف درهم
ديار ربيعة	تسعة آلاف ألف وستمائة ألف وخمسة وثلثين ألف درهم
آرزن وميفارقين	أربعة آلاف ألف ومئتي ألف درهم
مقاطعة طرون	مئة ألف درهم
ارمينية	أربعة آلاف ألف درهم
امد	ألفى ألف درهم
ديار مصر	ستة آلاف ألف درهم

اعمل طريق الفرات	ألفى ألف وتسع مئة ألف درهم
قنسرين والعواصم	ثلثمائة ألف وستين ألف دينار
جند حمص	مائتي ألف وثمانية عشر ألف دينار
جند دمشق	مائة ألف وعشرة آلاف دينار
حند الأردن	مائة ألف وتسعة آلاف دينار
جند فلسطين	مائتي ألف وتسعة وخمسين ألف دينار
مصر والاسكندرية	ألفى ألف وخمس مائة ألف دينار
الحرمين	مائة ألف دينار
اليمن	ستمائة ألف دينار
اليمامة البحرين	خمس مائة ألف وعشرة آلاف دينار
عمان	ثلثمائة ألف دينار

ومما يدخل في شيء من الارتفاع جزية رؤوس أهل الذمة بحضرة مدينة السلم وهي مائتا ألف درهم

هـ ـ النفقات المالية :

كان من أهم إصلاحات حكومة القرامطة في البحرين والحسا أنها ألغت الضرائب المفروضة على الأراضي الزراعية ، كما أنها ألغت أو أنقصت الضرائب المفروضة على المزارع والعامل ، وعلى العموم ماكانت هذه الحكومة تأخذ عشوراً من الرعية ، بل ذهب الباحث/بندلي جوزي/ الى أبعد من ذلك حين قرر أن دولة القرامطة قد أعفت شعبها من دفع الضرائب تماماً ، ولايفهم سر ذلك إلا إذا كانت وارداتها المالية من أرباح المؤسسات العامة في الصناعة والتجارة ومزارع الدولة بالاضافة الى الغرامات المفروضة على بلدان أخرى ، قد كانت كبيرة وتكفي لتغطية النفقات المطلوبة (٧١) .

فيذكر أنه أثناء مرحلة الملكية الجماعية في دولة القرامطة ، كان يقوم قيم ثقة في كل قرية أووحدة جماعية بإكساء العاري والانفاق على الجميع مايكفيهم بحيث لايبقى فقير بينهم ولا محتاج أو ضعيف ، كما كانت الدولة تجري على موظفيها الجرايات اللازمة لتفادي العوز والحاجة (٧٢) ويذكر أن قرامطة البحرين قد أقاموا نوعا من المصارف لتقديم القروض الى الزارع والصناع لمنع التعامل بالربا وتيسير ظروف الشغيلة (٧٣) .كما كانت حكومة العقدانية القرمطية في البحرين ، تدفع دين المدينين وتساعدهم على إيجاد العمل المناسب، وكانت أيضا ترسل بعض المال الى صندوق الامام ووكلائه ، وتنفق أموالا أخرى على متطلبات دار الهجرة القرمطية (٧٤) .وفي مجال النقد / العملة/ كان البيع والشراء والعطاء والأخذ في دولة قرامطة البحرين تتم عمليات ذلك التعامل بوساطة نقود من رصاص توضع في زنابيل ،يزن كل منها ستة آلاف درهم فيدفع الثمن عدداً من هذه الزنابيل ، وكانت هذه العملية لاتسري في خارج بلاد القرامطة منعاً لتهريب الاموال وتخريب الاقتصاد الوطني من قبل من مات ضميرهم واختاروا معاداة النظام (٧٥) إن إقدام القرامطة على ضرب النقود من الرصاص يقودنا الى الإستنتاج المنطقي في الأمور التالية :

١ ـ كان الأغنياء يهربون بأموالهم خارج البلاد ومن الخارج كانوا يحرضون على القرامطة بل ويشاركون في محاربتهم .

٢ ـ احتكرت الدولة النقود الذهبية والفضية من أحل تغطية حاجة ميزانها التجاري الخارجي من النقود الدولية .

٣ ـ كان الفقراء خارج دولة القرامطة يتطلعون الى هذه الدولة بإعجاب بل كان بعضهم يتوجه اليها ليتمكن من العيش بعيدا عن الاستغلال ولتأمين سبل العيش .

٤ ـ كان كل من القرامطة وخصومهم يحارب ويعمل بشراسة كي يحافظ على وجوده .

٥ ـ كانت معظم الدول المجاورة للقرامطة بل والمعاصرة لهم تناصبهم العداء والبغضاء خوفاً من دعاية نظامهم الشعبي .

وجدير بالأهمية والتنويه ، أنه كان من تعاليم القرامطة العمل على اسقاط الجزية عن أهل الذمة ، انطلاقاً من المبدأ القائل : الدين لله والوطن للجميع وذلك من أجل تساوي جميع المواطنين في المعاملة ،وبعد التأمل في أهمية هذه الخطوة ، ندرك أن القرامطة قد سبقوا العديد من دول العالم اليوم في التوجه نحو علمنة الدولة اجتماعياً على الاقل فيما يتعلق بالضرائب وبالحريات العامة ، وبالتالي نجد أنفسنا ملزمين بالقول : ان القرامطة قد سبقوا بأفكارهم أبناء عصرهم ، فضيعهم الجهال والسفهاء من قومهم ، وزادوا هم أنفسهم الطين بلة عندما تنازعوا واختلفوا إلى أن ذهبت ريحهم ،(٧٦) وضاعت معظم أخبارهم وآثارهم .



* المراجع والمصادر *

المرجع	المؤلف
١ ـ الحركات السرية في الاسلام	د . محمود اسماعيل ص ١١٩
٢ ـ الحركات السرية في الاسلام	د . محمود اسماعيل ص ١١٥
٣ ـ الحركات السرية في الاسلام	د . محمود اسماعيل ص ١١٧
٤ ـ الحركات السرية في الاسلام	د . محمود اسماعيل ص ١١٨
٥ ـ الحركات السرية في الاسلام	د . محمود اسماعيل ص ١١٨
٦ ـ القرامطة	د . مصطفى غالب ص ٥٠×٦٠
٧ ـ القرامطة	د . عارف تامر ص ٦٤
٨ ـ الحركات السرية في الاسلام	د . محمود اسماعيل ص ١١٤
وقرامطة العراق	عليان ص ٢٨
٩ ـ أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٣٧ و ٢٢٣
١٠ـ أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ١٥٦
١١ـ القرامطة	د . عارف تامر ص ٦٣
١٢ـ آخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٥
١٣ـ ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٩٨
١٤ـ الحركات السرية في الاسلام	د . محمود اسماعيل ص ١٢٠
١٥ـ ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ١٥٩
١٦ـ ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٤٤
١٧ـ ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٩٨
١٨ـ ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٩٨
١٩ـ ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٩٨
٢٠ـ قرامطة العراق	عليان ص ٢٠٤
وتاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي جوزي ص ١٩٤
٢١ـ ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٩٧
٢٢ـ ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٣١٠
٢٣ـ ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ١٢٠

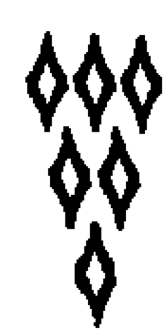
٢٤- ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٢٠٥
٢٥- ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ١٦٦
٢٦- قرامطة العراق	عليان ص ٢٠٠
٢٧- ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٧٦
٢٨- القرامطة	د . عارف تامر ص ٧١
٢٩- من تاريخ الحركات الفكرية والقرامطة	بندلي جوزي ص ٢٠٢ دي خوية ترجمة زينة ص ١٤٤
٣٠- الحركات السرية في الاسلام	د . محمود اسماعيل ص ١٣٠
٣١- القرامطة	د . عارف تامر ص ٦٧
٣٢- القرامطة	دي خوية ترجمة زينة ص ٣٥
٣٣- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ١٩٦
٣٤- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ١٩٦
٣٥- من تاريخ الحركات الفكرية	بندلي جوزي ص ١٩٤
٣٦- القرامطة	دي خوية ترجمة زينة ص ٣٥
٣٧- القرامطة	د . عارف تامر ص ٦٦و ٧١
٣٨- القرامطة	د . عارف تامر ص ٦٦
٣٩- القرامطة	د . عارف تامر ص ٦٦و ٧٠
٤٠- القرامطة	د . عارف تامر ص ٧٧
٤١- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ١٩٦
٤٢- من تاريخ الحركات الفكرية	بندلي جوزي ص ٧٤
٤٣- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٣٣٦
٤٤- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٣٣٦
٤٥- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي جوزي ص ١٩٧
٤٦- القرامطة	د . عارف تامر ص ٧١ وبندلي جوزي ص ١٩٦
٤٧- القرامطة	دي خوية ترجمة زينة ص ١٢٧
٤٨- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي جوزي ص ١٩٧

٤٩- ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٩٢
٥٠- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ١٩٨
٥١- الاسماعيليون في مرحلة القرمطة	سامي العياش ص ٢٤٥
٥٢- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٣٣٦
٥٣- النزعات المادية	د . حسين مروة ج٢ص ٣٧٤
٥٤- النزعات المادية	د . حسين مروة ج٢ص ٣٧٨
٥٥- النزعات المادية	د . حسين مروة ج٢ص ٤٠١
٥٦- النجوم الزاهرة وتجارب الامم	ابن تغري بردي ج٣ص ٣٦٦ مسكويه ج٦ص ٢٠٣
٥٧- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ١٩٨
٥٨- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٣٣٨
٥٩- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٣٣٤
٦٠- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي جوزي ص ١٩٧
٦١- القرامطة	د . عارف تامر ص ٧١
٦٢- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي جوزي ص ٢٠٠
٦٣- أخبار القرامطة ومجلة العربي الكويتية	د . سهيل زكار ص ٨٣× ١٩٨ العدد ١٨٠ ص ٩٨
٦٤- ثلاثية الحلم القرمطي ومن تاريخ الحركات الفكرية	محي الدين اللاذقاني ص ٩٠ بندلي جوزي ص ١٩٦
٦٥- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي جوزي ص ١٩٦
٦٦- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي جوزي ص ١٨٩
٦٧- ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٤٥
٦٨- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ١٩٨
٦٩- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي جوزي ص ٢٠٠

٧٠- ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٣٨٤
٧١- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي جوزي ص ١٩٦و١٩٧
٧٢- من أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٣٣١و٣٣٦
٧٣- القرامطة	د . عارف تامر ص ٧٠
٧٤- من تاريخ الحركات الفكرية	بندلي جوزي ص ١٩٧
وأخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٨٤
٧٥- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ١٩٦
٧٦- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٨٤
ومن تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي جوزي ص ١٩٧
٧٧- قرامطة العراق	عليان ص ٣١
٧٨- رسائل اخوان الصفا	المجلد٣ص ٤٠٢
٧٩- رسائل اخوان الصفا	المجلد٣ص ٥٢٩

٨٠ـ ملاحظة : خلافاً لما هو معروف لدي سابقاً فقد أعلمني الاستاذ محمد الخولي مدير متحف الآثار الاسلامية بدمشق ، بوجود عملة ذهبية ، سكها القرامطه فاقتض التنوية بذلك وله وافر الشكر .

منذر حمودي



حمص في التاريخ (قصيدة)

بقلم الأستاذ جميل منصور

حمصُ ياموكبَ العُلا والأماني … ياضياءً يزهو على الأزمانِ

ياحياةً تُعطي المَواتَ انتعاشاً … ياربيعاً ذا منظرٍ فتّانِ

أنتِ نورٌ خبأتُهُ في ضلوعي … أنتِ وحيٌ ، في خاطري وجَناني

أنتِ وهجٌ إشعاعُهُ في كِياني … أنتِ فخري وشمختي وبَياني

كم حباكِ المولى نفوساً كِباراً … هائماتٍ بالحُسنِ والإحْسانِ

كلُّ روضٍ زاهٍ حوالَيْكِ يبدو … بجميلِ الأشكالِ والألوانِ

أُشرِبَ العالمونَ حُبَّكِ حُبّاً … برفيفِ المُنى وروضِ الأمانِ

هل سُلُوٌّ لبائسٍ دونَ حمصٍ ؟ … فيكِ ياحمصُ أعظمُ السلوانِ !!

هل شفاءٌ لمُدنفٍ دونَ حمصٍ ؟ … أنتِ ياحمصُ بلسمُ الهَيْمانِ !!

لكِ عاصٍ يشدُّني بالتلاقي … هل فراقٌ ياعاصيَ الخُلّانِ ؟

هَلْ بعادٌ وبُعدُكُمُ شقَّ جسمي … هلْ جَفاءٌ ياكوثرَ الجِذْلانِ ؟

أَنتَ صفْوٌ في وحشتي واصْطِفاقٌ … وارتياحٌ يانهلةَ الظمْآنِ

أَنتَ نهرٌ أمواجُهُ ساحراتٌ … كلُّ حسناءَ غادةٍ مفْتانِ

أنتَ تِبْرٌ من فيضِهِ صُبَّ فكرٌ … وابتداعٌ في"نِيبِرِ" الرّومانِ

قد تربَّعْتَ في سَمَا عرشِ "روما" … بِطموحٍ وعزّةٍ واتّزانِ

وعلى شطِّكَ البديعِ المَغاني … في حمى حمصٍ منبعِ الإيمانِ

شعَّ نورُ الفادي المسيحِ ابْتِداءً … بالمضحّي قدّيسِنا "إيلْيانَ"

وتلاهُ " رُومانُسُ" الشاعرُ الفرْ … دُ بمدحٍ مرنَّمِ الألحانِ

ثمَّ خاضتْ صافي مياهِكَ فرسا … نٌ أسودٌ من جحْفلِ العُربانِ

نحوَ شعبٍ إيمانُهُ يعربيٌّ … مستغيثٌ بخالدِ الشجعانِ

سيفُ دينٍ وخالدُ العرْبِ حقّاً … حيثُ يَثْوي في زهرةِ البلدانِ.

تلك حمصٌ أطيابُها عابِقاتٌ … من خُزامى ميماسِها المزدانِ

زاهياتٌ أغصانُها مائساتٌ … رائعاتٌ من القُطوفِ الدّواني

حولَ هذا العاصي ازْدَهى شعرُ ديكِ الـ … جنِّ بين الخمورِ والأشجانِ.

وتسامتْ سهولُهُ بضريحٍ … لفتى المجدِ منْ بني حمدانِ

فاشمخي ياديارَ حِمْصٍ مديداً ... فيكِ يثوي أبو فراس الطِّعانِ

كم تصدّى لعصبةِ الرومِ صُلباً ... وتحدّى في حلبةِ الاقرانِ

من دم القلبِ صاغ شعراً فريداً ... ألْهبَتْهُ هواجسُ الاحْزانِ

وَجَرى عاصينا السريعُ التّداني ... في بلادٍ مخلوقةٍ للحِسانِ

قائلاً للنّهرِ الكبيرِ التّفاني ... نهرِ" واديإشْبيلِيَا "والجِنانِ

قولَ ودٍّ "إشبيلِيَا" هيَ حمصٌ" ... بالشّوقِ ولَقْيَةٍ واحْتِضانِ!!

بالفَنِّ مُحَلِّقٍ في علا أنـ ... دَلُس العُرْبِ رفعةً بالأغاني

كان سحرًا، أنغامُهُ فائِقاتٌ ... ببديعِ التّلحينِ والإتْقانِ

ثمَّ أضحى العاصي طريحَ اعْتِسافٍ ... يتلظّى من عصبةِ الطُّغيانِ

حين غطّى ضِفافَهُ زحفُ تُرْكٍ ... مُشبَعُ بالحقودِ والأضغانِ

فاستكانتْ مدينةُ النُّورِ حيناً ... ثمَّ غابَتْ في عالمِ النسيانِ

وَاسْتفاقَتْ من نومِها بعدَ ضيمٍ ... هَلْ تُلاشَى مدينةُ العقبانِ؟

فإذا النهرُ ينتحي باشتياقٍ ... أرضَ "أمْريكا" واحةَ الصّديانِ

فَالْتفاتاً الى السنينَ المواضي ... هل تَرى غيرَ هُجرة الشّبّانِ؟

كُلُّ نفسٍ أبيّةٍ تتحدّى ... مستحيلاً بعزمِها المُتَفاني

فإذا الغربُ قطعةٌ من نعيمٍ ... وإذا حِمْصُ غَضّةُ الأفنانِ.

شَهِدَ الحقُّ أنَّ خيرَ المجاني ... من سخاءِ المُهاجرِ المحْسانِ

شَهِدَ الحقُّ أنَّ أسمى المَعاني ... قد تجلّى بِهِمّةِ الإخوانِ

من رحيلٍ مكبّلٍ بالرّزايا ... عَمّروا المجدَ أيّما عُمْرانِ

فسلامٌ على مُهاجِرِ حمصٍ ... فارسِ الدّهرِ والحِجا الفَنّانِ

وعلى الشاعرِ العظيمِ نسيبِ الر ... وحِ وَالوحي والصّبَا الوَلْهانِ.

كيف لاتزهو حمصُنا بالدّراري ... لامعاتٍ في أروعِ التيجانِ؟

كيف لاتزهو حمصُنا بالمُضحّي؟ ... كم شهيدٍ ضحّى فِدى الأوطانِ!!

أنتِ ياحمصُ ربةٌ تُلهِمُ الشِّعْـ ... ـرَ بما فيكِ من عميقِ المَعاني

أنت ياحمصُ طلعةٌ تبرزُ الحسـ ... ـنَ بما فيكِ من عيونِ الرّواني

سوف أبقى مناجِياً طولَ عُمْري ... جنّةَ الحبِّ دُرةَ الأكْوانِ

حضارات أمريكا قبل الكشوف الجغرافية

ترجمه بتصرف عن الموسوعة البريطانية الأستاذ جرجس مخول
نائب رئيس الجمعية التاريخية ومدرس التاريخ في دار المعلمين
والمعلمات بحمص

يرجع دور حضارة الانذز (في العالم الجديد) الى حضارة سكان أمريكا الاصيلين من الهنود الحمر التي نشأت وازدهرت في المرتفعات الجبلية في الشمال الغربي لأمريكا الجنوبية منذ عدة آلاف سنة ق.م حتى احتلها الاسبان في عام ١٥٣٢م ،وبقايا عناصرها لاتزال موجودة حتى الان لدى الكثير من السكان الهنود للبيرو وبوليفيا والاكوادور وكولومبيا ،كما أن حضارة الانذز تشمل بصورة خاصة في أدوارها المبكرة سكان الساحل البوليفي .

ومثل كل الحضارات القديمة اعتمدت حضارة الانذز على الزراعة مع اتاحة الفرصة لعدد كبير من السكان والذين لديهم فراغ من الوقت ليؤسسوا ثقافة متطورة وأهم حضارات أمريكا قبل الكشوف .

١"- الانكا : تعد حضارة الانذز بالنسبة لمعظم الباحثين حضارة الانكا ونادرا مايكون كذلك في المفهوم الشعبي ،ومعرفتنا التامة عن حضارة الانذز هي عن الانكا ،كما أن كتابات العديد من المؤرخين الاسبان لفترة الاحتلال تدور حول ذلك ،ولكن لسوء الحظ ليس لديهم اتفاق بخصوص تاريخ الانكا(١)

والسبب ربما أنه ليس للانكا أسلوب للكتابة فتاريخهم نقل طبعا بالرواية وظهروا بشكل متأخر على مسرح التاريخ كالازتيك ،وحتى أن أساطيرهم لاتتعدى عام ١٢٠٠م وعرف تاريخهم من خلال حكم ملوكهم ، وتجمع معظم التقديرات على /١٣/ امبراطورا هم :

١ - مانكوكاباك ١٢٠٠م
٢ - سنتشي روكا
٣ - ليوك يوبانكي
٤ - مايتاكاباك

---

١ - الموسوعة البريطانية المجلد -١- ص ٨٨٩ - ٨٩١

٥ ـ كـابـاك يـويـانكـــــي
٦ ـ انكـا روكـــــا
٧ ـ يـاهوار هواكـــــاك
٨ ـ فيرا كوتشا انكـــــا
٩ ـ بـاتشاكوتيك يوبـانكي ١٤٣٨م ـ ١٤٧١م
١٠ـ توبـاك انكايويـانكـي ١٤٧١م ـ ١٤٩٣م
١١ـ هويـانـا كـابـــــاك ١٤٩٣م ـ ١٥٢٥م
١٢ـ هواسكـــــــــار ١٥٢٥م ـ ١٥٣٢م
١٣ـ اتـاهوالبـــــا ١٥٣٢م ـ ١٥٣٣م

ان الاباطرة السبعة الاول أسطوريون محليون ذوو أهمية ضعيفـــة رواياتهم مليئة بـالاحداث المستحيلة وغير المعقولة وخاصة المتعلقـــة بـالمؤســـس .

شكل الانكا في هذا العصر قبيلة صغيرة كـالعديد من القبـائل التي لاتتجاوز سلطتها عدة أميـال حول العـاصمة التي عرفت عند الانكا بـاسم كوزكو ،كانوا دوما في صراع مع جيرانهم المساوين لهم في الاهميـة ، أمـا التوسع الخيـالي وتـأسيس امبراطورية الانكا تتم على يـــــــد بـاتشاكوتيك عـام ١٤٣٨م الذي يعد من عظمـاء المحتلين في التـاريـــــخ العـالمي ،وفي هذا العـام ١٤٣٨م يبدأ التـاريخ المعول عليه والمتفـــق مع معظم البـاحثين وقدلقب السيد كليمنت . بـاتشاكوشيك أعظم رجـــل أنجبه السكان الاصليون لامريكا كما يشبهه مع ابنه توبـاك بفيليـــب وابنه الاسكندر المكدونيين .

كان بـاتشاكوتيك بحق أعظم مخطط مدني كما تنسب اليه الروايـة وضع مشروع مدينة "كوزكو" وشيد العديد من الابنية الضخمة التـــــي لاتزال آثارها تدهش الزائر لهذه العـاصمة القديمة .

كان التوسيع العظيم والمفاجيء لامبراطورية الانكا أحد أعظـــــم الحوادث الغريبة في التـاريخ والذي استغرق أقل من قرن/من ارتقـــــاء بـاتشاكوتيك العرش في عام ١٤٣٨م الى احتلال فرانسيسكوبيزارو فـــــي

في عام ١٥٣٢م/ ٠ معظمها أنجز على يد باتشاكوتيك وابنه تويـــاك انكا بين عامي ١٤٦٣م و ١٤٩٣م خاصة فوصل أعظم امتداد للامبراطورية حيث بلغت مساحة تتجاوز/٠٠٠ر٣٨٠ ميلا مربعا/ ،أي مايعادل مساحــــة فرنسا وبلجيكا وهولندا واللوكسمبورغ وسويسرا وايطاليا مجتمعــــة ويشبه توسع الانكا توسع أعظم الامم الاخرى في التاريخ ،وربمادفعهم لذلك حب القوة والتوسع ٠ فأول من هزموا في اقليم بحيرة "تيسيكــاكا" للمنافسين لهم والناطقين بلغتهم ومن ثم قبائل"تشانكا" ،ومـــــــن الحوادث الغريبة في التاريخ أن يحتل بيزارو هذه الامبراطورية العظيمة وليس معه سوى /١٨٠/ جنديا اسبانيا فقد استغل تخاصم ولـــــــدي الامبراطور على العرش فأمر"أتاهوالبا" بقتل أخيه "هواسكار" ثـــــم أمر بأسر أتاهوالبا وأعدمه وحل محله في قصره يصدر الاوامر واستمر الروتين الحكومي كالسابق ٠

حضـــارة الانكـــــا :

كانت الزراعة أساس حضارة الانكا بما في ذلــك الذرة والبطاطا الحلوة البيضاء والقرع والبندورة وجوز النخيل والفلفــــل والقطن ومعظم هذه لم تكن معروفة آنذاك في أوربا ،ويربى البـــــط والخنزير الهندي للاكل ،كما استخدمو حيواني اللاما والالباكا للنقــــل والصوف ،أما الصناعة فعرفوا صناعة نسيج الصوف والقطن وبنوا بيوتهــم من الحجارة واللبن ،والامبراطورية مزدهرة تخضع خضوعا كاملا للنظـــــام فلا أحد يقاسي من الحرمان ،ولكن لايسمح لاحدبتغيير مكان اقامتـــــه ولابتغيير وضعه الاجتماعي ،وملكية الارض جماعية توزع سنويا ولكـــــن بين الاسر الاشد قرابة والاكبر حجما ،وتقسم الاراضي الى ثلاثة أقسام : قسم للدولة ،وقسم للمعبد ،وآخر للشعب الذي يطلب منه أن يزرع للجميـــع وتخزن محاصيل أراضي الدولة في مخازن خاصة لتوزع عند الحاجة علـــى النبلاء والجيش والفنيين من الناس الذين يقدمون للدولة خدمات عامــــة ولعامة الناس في سنوات القحط أو سوء المحصول ،كما يعد اللاما مـــــن الممتلكات الرئيسية للدولة الى حد بعيد ،ويمكن أن تستبدل الضريبـــــة

بدعوة المكلف دوريا للخدمة في الجيش أو الاعمال العامة كانشاء الطرق أو المعابد أو العمل في المناجم وتعرف عندهم هذه الخدمة باسم "الميبتا" ،والحرفيون موظفون حكوميون يذهب انتاجهم الى النبلاء والكهنة ، وينتقى الذكور الممتازون ليكونوا خدما أو معاونين دائمين للامبراطور والنبلاء . أماالفتيات الجميلات فيؤخذن الى العاصمة "كوزكو ليتدربن كمحظيات للامبراطور والنبلاء أيضا أو ليعملن كعذارى للشمس أو ليعشن في دير خاص بهن ليحكن ثياب الامبراطور والنبلاء والكهنة .

كان ينظر لامبراطور الانكا أنه مقدس سليل الشمس ويتمتع بأعلى الامتيازات لديه عدد كبير من الحريم والاولاد وقد تزوج معظم الاباطرة أخواتهم ،وكلمة الامبراطور قانون لكنها مقيدة بالعرف والعادة ونادرا مايكون مستبدا ،ويشكل أقرباؤه الجزء الاكبر من طبقة النبلاء الذين يحتلون مراكز السلطة وخاصة في البلاد الخاضعة يأتي بعدهم في السلم الاجتماعي طبقة الضباط " الكواركا " وهكذا يتدرج السلم الى كبار النظار المشرفين على الاسر العشر .

أما عقيدتهم فنظمت تنظيما عاليا ،فهناك العديد من رجال الدين ومعابد الشمس تدار الاحتفالات الدينية من قبل الكهنة بشكل متقن وتستمر غالبا عدة أيام يقدمون خلالها الاضاحي ويضعون التنبؤات بعد استشارة الوحي ،ويسمعون الاعترافات ،وكثيرا ماكانت الاضاحي حيوان " اللاما" ونادرا تقدم الاضاحي البشرية مقارنة مع عادات الازتيك ،وتقام هذه الاحتفالات في أوقات منتظمة والهامة منها مرة كل شهر ،وهناك مئات الاماكن التي تقام فيها الاحتفالات ولكنها تختلف بحسب درجة قداستها ،وقد عبد الانكا اله الشمس ،مع اعتقادهم بأن " فيراكوشا" هو الاله الخالق العظيم ،كما عبدوا الكثير من الالهة الثانوية التي تمثل مختلف الامور المميزة .

أما الجراحة والطب عامة فقد تطور لديهم كثيرا فنشروا الجماجم لتحديد الكسور أو لاعتقادهم بطرد الارواح الشريرة ولو أن الفكرة غير واضحة ،والانكا ككل الحضارات الامريكية القديمة عدا المايا ليس لديهم

أسلوب للكتابة فجميع معارفهم وخبراتهم يتم انتقالهاشفاها بطريق الرواية ، ومع هذا فعدة معلومات أو بيانات حفظت بعقد حبال سميت عندهم "كويبو" التي استعملت في المقام الاول لاغراض خاصة كاحصاء السكان وذلك لمساعدة الذاكرة فقط .

وفي السنوات الاخيرة كانت الحرب من سياسة الدولة الرئيسية ،وكل الرجال مكلفون قانونا بالخدمة ،فجيوش الانكا كبيرة حسنة التجهيز والتدريب مثل كل الجيوش القديمة يقاتلون مواجهة ويستعملون الهروات والفؤوس والحراب والمقاليع لقذف الحجارة الى مسافات قصيرة ،ومما ساعدهم على القيام بحملات عسكرية لمسافات بعيدة استخدامهم الجيد للطرق ومخازن الغلال ،وحالما يتوقف النزاع العسكريمع الشعوب المغلوبة تعامل معاملة حسنة على شرط الاعتراف بسيادة الانكا ،وقد تتحسن أحوالهم الاقتصادية عن قبل ،أما المجموعات المتشددة في كل اقليم وخاصة القريب من العاصمة " كوزكو " فيجبرون على تغيير اقامتهم وغالبا مايؤخذ منهم رهائن الى كوزكو " .

ومع أن الانكا لم يتفوقوا على أسلافهم في الصناعة اليدوية لكنهم أتقنوا صناعة النحاس والذهب والفضة والخزف وخاصة النسيج الذي تفوقوا في نعومته وجماله على الصناعة الحديثة على الرغم من تقنيتها مع أنه كان يحاك من قبل النساء على أنوال صغيرة .

٢"- الازتيك :[1]

هم أحد أهم المجموعات الهندية في العالم الجديد والكلمة مشتقة من/AZTlon / وتعني الارض البيضاء ،فحسب اعتقادهم فيها نشأت قبيلتهم وهذه التسمية من المحتمل أنها مجرد اشارة عامة لمنطقة الشمال الغربي من مكسيكو ،ويعرف الازتيك باسم " تينوشكا" وهو مشتق من اسم الرئيس الاسطوري " تينوك " أو ربما جاء الاسم من المدينة التي أسسها الازتيك في جزيرة داخل بحيرة "تكسكركو ،في وادي مكسيكو والمعروفة ببحيرة القمر ،وقد أعطي اسم

١ - الموسوعة البريطانية المجلد -٢- ص ٩٣٧ - ٩٣٩

مكسيكا لبحيرة تكسكوكووربما أضاف الازتيك مقطع كالهوا ليعرفـــوا باسم كالهوامكسيكا وليظهروا علاقتهم بأكثر الشعوب حضارة في وادي مكسيكو والذي كان مركزه مدينة كالهواكان .

وكانت لغة الازتيك (نهوا) من المجموعة اللغوية التي بقيت الـى فترة اكتشاف أمريكا تسيطر على المساحة الممتدة منغرب الولايــــات المتحدة حاليا وحتى بناما ،مما دفع المحتلين الاسبان الى استخــدام لغة نهوا كاحدى وسائل الاتصال الرئيسية مع الهنود الحمر،وتقريبــا لايزال حتى الان حوالي مليون من سكان المكسيك يتكلمون اللغةالنهوية .

أما امبراطورية الازتيك في العالم الجديد فتعادل فيأهميتهــا امبراطورية الانكا في البيرو ،ويمكن مقارنة ازدهار حضارتهـــم بالحضارات القديمة العظيمة الاخرى سواء في أمريكا أو العالم القديم وقد وصلنا ازدهارهم السريع وانهيارهم المأساوي من خلال الروايــات الشفهية التي يرددها الازتيك ،ومن خلال تدوين المؤرخين الاسبـــان والمختصين بعلم الاجناس والمخطوطات الهندية ومن اعترافات ومشاهدات المهتمين بالتاريخ القديم .

اتخذ الازتيك أولا مدينة "تولا" (هيرالكو) عاصمة لهم ولــــم يرتبط ظهورهم وازدهارهم بازدهار تولا والحضارة التوليتكية بقــدر ارتباطه بانهيارهم ولاسباب لم تعرف بعد ،ولكنها متعلقـــــة الصراعات الدينية والسياسية والاجتماعية الداخلية .

ويقارن انهيار حضارتهم بانهيار الامبراطورية الرومانيـــة ولكن هذا حدث في نهاية القرن ١٢م فهوجمت تولا وبقية المراكز،مــن قبل قبائل دونها حضارة مستغلة الفوضى والانقسام ،حيث جاوّوا مــن النجد الجاف شمال المكسيك الى مناطق الاستقرار والخصب في وسط الــوادي فأسهموا في تدهور وتأخر حضارتهم السريع .

وعلى كل حال فالحقيقة أن الازتيك مزارعون قدامى خدموا لمدة طويلة جيرانهم كعسكريين قبل سقوط تولا على يد قبائل التشيميكـس وخلال بداية القرن ١٢ - ١٣م .تحول الازتيك الى باحثين عن مكان جديــد

للاستقرار بعد هدوء الاحوال في وادي المكسيك فأقاموا موقتا قرب آثار تولا حيث أتقنوا فنون الري والزراعة ،ولكن عقيدتهم دفعتهم لبحث عن مكان جديد وبدأت رحلتهم الطويلة ،وتجولوا في اقليم معاد وتعرضوا لمضايقات كثيرة ولكن الحظ ساعدهم بالتحالف الموقت مع جيرانهم ومنحوا بعض الاراضي مقابل تقديم خدمات عسكرية .

ولم تمض فترة طويلة على حمايتهم من قبل" الكولهواكان " حتى اضطروا للهرب من جديد ،وكادت رحلتهم تصل الى نهايتها حيث وجد المتجولون الارض التي تتحدث عنها نبوءاتهم في جزيرة صغيرة في بحيرة تكسكوكو وقام المعمرون في القبيلة برسم عقاب كرمز للشمس والههم " هو تيزيلوبوكتلي " مستريحا على الصبار،وشيدوا له معبدا وحوله مساكن القبيلة التي تحولت الى المدينة القوية " تينوكتيتلان التي أصبحت عاصمة للامبراطورية المكسيكية لاسبانيا المنتصرة وللامة المكسيكية الحديثة .

أحاط بالجزيرة مستنقع غير مغر باحتلاله ،لكن الازتيك حصنوه وتحالفوا مع عدة قبائل من بينها التيبانيكس فقد كانوا جنودا مرتزقة في خدمتهم حتى أن ملوك الازتيك الثلاث الاوائل وهم (أكابيكتلي ، هوتيزيلي هوتيك ،كيمال يوبوكا) ساعدوا في ترسيخ سيادة التيانيك وبدأوا بالتوسع وبهذه الطريقة بدأ بناء الامبراطورية حتى أصبحت مدينتهم غنية مزدهرة من وراء غنائم الحرب والتوسع على حساب الجوار.

أثناء حكم "اتزكوتل) رابع ملوك الازتيك (١٤٢٧ - ١٤٤٠م) استغل انقسام التيبانيكس وهزمهم وأقام تحالفا ثلاثيا بين "تينوكتيتلان وتيكوكو وتاكوبا " وانطلق توسع مكسيكا مع القادة العسكريين للتحالف الثلاثي وفرض الازتيك هيمنتهم على وادي المكسيك وفي عهد خامس ملوكهم " هوهوميكزوكا" (مونتيزوما الاول) (١٤٤٠-١٤٦٩م) امتد الاحتلال ووصلت حملات أخرى الى خليج المكسيك ولكن خلف مونتيزوما الاول وهو " اكسايل كاتل " شغل معظم حكمه في اخماد عصيان القبائل الخاضعة باستثناء حملة واحدة الى ساحل المحيط الهادي واحتلال"تلاتيلوكلو" المدينة التوأم لينتوكتيتلان .

وكانت فترة حكم سابع ملوك الازتيك "تيزوك "(١٤٨١-١٤٨٦) قصيرة ولكنها استمرار لسياسة سلفه مع المحافظة على الامبراطوريــــة أما حكم ثامن ملوكهم" أهويتزتــل"(١٤٨٦-١٥٠٢)فلم يحافظ علــــــى مكاسب أسلافه الاقليمية فحسب بل توسع على طول ساحل المحيط الهادي ثم خلفه "موكتيزوما أكسكوتيزن مونتيزوما الثاني(١٥٠٢-١٥٢٠م)الــذي أوجد تعديلا ملحقا لتنظيم الامبراطورية منح بموجبه ضباطه حــــق فرض أتاوة على كل اقليم بحسب انتاجه ،وهكذا وجدت سلطـــــــــات بيروقراطية عسكرية عن طريق الحكام والحاميات وجامعي الضرائـــــــب ولكن أكثر ايامهم ازدهارا كانت الاخيرة ،فمنذ عام١٥١٧م تواصلــت الحملات الاسبانية وتمكن كورتيز استغلال عصيان السكان ضد تينوكيتتلان ودمرها بعد مقاومة بطولية وأقام مدينة جديدة وشيدت كنيســــــة اسبانية بحجارة معبد هوتيزيلويوكتلي •

حضارة الازتيـــــك :

عبد الازتيك كغيرهم من الشعوب القديمة الشمــــس وسموها الاله "هوتيزيلوبوكتلي " الذي يبدأ نضاله اليومي ضد النجوم والقمر طاردا اياها بشعاع من النور ،وعند الغروب يموت ويعود الــــى حضن أمه الارض/كوتيك كو / حيث يستعيد قوته من أجل كفاحه ضــــــد الظلمة الممثلة باخوته النجوم وأخته القمر فهذه الدورة اليومية تسمح باستمرار الحياة ،أما طعامه فالدماء البشرية/سائل الحياة النفيــــس "كالكي كوتل"/ فالازتيك هم شعب الشمس المختار من الاله "هوتزيلوبوكتي" لتزويده بالغذاء ،لذا تعد الحرب عملهم المفضل وواجبهم الدينــــــي والاسرى من أعدائهم يقدمون أضاحي بشرية للاله ،ويتم ذلك بفتـــــح صدورهم وانتزاع قلوبهم من أجسادهم وتزداد قوة الازتيك بازديـــــاد ضحاياهم ،فجميع الاسرى من المقاطعات المحتلة يقدمون في العاصمـــــة "تينوكيتتلان " وهكذا يمكن استمرار الجنس البشري ،وقد وعدهم الالـــه بالسيطرة على العالم وسميت امبراطوريتهم بالارض العالمية ودعــــــي ملكهم بحاكم العالم •

ولقد اعتقد الازتيك بالقدر اضافة الى تقديم الاضاحي البشرية ونجحوا في استخدام الشدة الخالية من الرحمة ويذكر المؤرخون بأنه ضحي ب ٨٠ر٠٠٠ سجينا في العاصمة أثناء تتويج أحد ملوكهم،فقدمت قلوب الضحايا لاله الشمس واستخدمت أطرافهم في الاحتفالات الدينية فألقيت بقية الاجسام الى الوحوش المفترسة بعد التمثيل بها .

أما الزراعة فكانت أساس سيطرة الازتيك الاقتصادية المتمثلة بالحراثة والري وقد أخذوها عن " التولتكس " فساعدت في ازدياد السكان حتى قدر في بداية القرن السادس عشر للميلاد بحوالي مليوني نسمة في مدن تينوكتيتلان وتكسكوكو وتاكوبا وأكسوكي ملكو .

وتأمنت التجارة عن طريق البحيرات التي ترتبط مع بعضها بقنوات اصطناعية أغنت عن الطرق ووسائل الاتصال البري وساهمت في تأمين وحدة وادي المكسيك السياسية والاقتصادية المبكرة ، ووفقا لاراء المؤرخين الاسبان لتلك الفترة كان هناك مالايقل عن ٢٠٠ر٠٠٠ زورق في القرن ١٦م ،ومما ساعد في تنشيط التجارة اضافة الى واسطة النقل المائي السابقة الذكر تمركز السكان في الوادي والعقيدة الدينية وكان التجار منظمين في نقابات قوية حتى انها تستطيع اعلان الحرب وارسال الحملات التجارية الى الاماكن البعيدة ، فكثيرا ماكانت الحملات التجارية مقدمة للحملات العسكرية التي تعتمد في معلوماتها على التجار ووصول هؤلاء ينبيء عن وصول المحاربين الازتيك ،ولايختلف الاسلوب التجاري عن الاحتلال العسكري من حيث الادارة والضرائب .

أما تنظيمهم الاجتماعي فقد اعتمد على الاسلوب القبلي المتطور فتقسم القبيلة الى بيوت كبيرة " كاليبولي " اعتمد عليها الازتيك لفائدتها العسكرية والادارية ،وربما كانت القرابة خيالية بين البيوت ،ويتألف المجتمع الازتيكي من الاسرة الحاكمة ثم طبقة النبلاء وبعدهم الفرسان الذين يحق لهم امتلاك الارض ،ثم التجار وأخيرا بقية أفراد الشعب .

٣ - المايا (١): هم مجموعة كبيرة من الهنود الامريكيين يتكلمون ١٦ لغة ولهجة قريبة من بعضها جدا تعرف بالعائلة اللغوية الماياوية

---

١ - الموسوعة البريطانية المجلد ١٥ ص ٥ ومابعد

استوطنوا وسط أمريكا واستعمل اسم المايا أيضا للحضارة التي سبقت الاحتلال الاسباني ،كما يطلق بشكل أضيق لفرع المايا المستوطن شبه جزيرة "يوكاتان " الولاية المكسيكية الحالية ،وتدعى لغتهم "توكاتيك " ويقدر عدد الهنود الامريكيين المتكلمين بالمايا حوالي مليوني نسمة بحسب احصاء عام ١٩٦٠م أكثرهم في المناطق المرتفعة من غواتيمالا ،فهم قصار القامة سمر البشرة ذوو شعر مسترسل واستدارة في الرأس . وجاءت الحفريات الاثرية تؤكد ذلك .

مر تاريخ المايا بمرحلتين[1] الاولى وهي القديمة لـ٣٠٠م- ٩٠٠م) كونوا خلالها امبراطورية كبيرة زالت بسبب الكوارث الطبيعية والاجتماعية من زلازل وأمراض وحروب أهلية ، أما المرحلة الثانية أو امبراطورية المايا الجديدة فقد ظهرت بعد القرن العاشر الميلادي حيث عاد بعض هنود المايا الى موطنهم الاصلي وشيدوا أهم مدنهم "تشن شن اتزا " التي بقيت مجهولة عدة قرون بعد الاحتلال الاسباني أخفتها الغابة المدارية الى أن أكتشفت مصادفة عام ١٨٤٠م.

احتل المايا معظم أمريكا الوسطى عندما داهمهم الاسبان ١٥٤٠م وتقسم بلادهم الى ثلاثة أجزاء :

آ - الجنوبية : بركانية ،وديانها عميقة ،كثيرة البحيرات مناخها حار .

ب - الوسطى : قسمها الاكبر أراضيه منخفضة حارة ،غاباتها كثيفة ،أمطارها غزيرة .

ج - الشمالية : كلسية ،نفوذة للماء ،فيها أنهار وبحيرات أقل أمطارا من سابقتها .

تمت معظم حضارة المايا في المنطقة الوسطى حيث بذل السكان جهودا كبيرة في انتزاع الغابة ،في حين كون سكان المرتفعات الطبقة الغنية من النبلاء ،ويعود الفضل الى سكان المنطقة الوسطى المنخفضة في انجاز حضارة المايا من نحت وعمارة ، شاركهم فيه ولكن بصورة أقل سكان الشمال .

١ - المعرفة المصورة ص ١٥٧٩ .

حضارة المـايــــــا :

تشبه حضارة الازتيك المعاصرة لها من عـــدة وجوه ،وقد مرت بعد عصور : أولها العصر الكلاسيكي الذي استمــر حتى نهاية ٩٠٠م والذي عرف آنذاك بالامبراطورية القديمة كما أسلفنا وأهم ماما رسه السكان خلاله الاحتفالات الدينية موضع نواة الرمــوز الهيروغليفية وبناء الاهرامات التي أقيمت في أعلاها المعابدالدينية .

ثم جاء عصر المكسيكان حيث زادت فيه أهمية مدينة "تشنشن اتزا" ثم يأتي عصر المايابان حوالي ١٢٠٠م ،خضعت فيه تشن شن اتز لسلطة "هوناك سيل " واستمرت هي كمكان مقدس يحج اليه . لان هوناك سيــل وخلفاءه اتخذوا مدينة "كوكوم" عاصمة لكل شبه جزيرة يوكاتـــان وفي نهاية هذا العصر وقبيل الاحتلال الاسباني انقسمت شبه الجزيــرة الى عدة أقسام مما سهل ذلك على المحتلين .

أما أهم ما امتاز به هذا العصر الانجازات العقلية الرائعـــة للمايا ،وخاصة في مجال الكتابة الهيروغليفية والفلك والتقويم،فكانت الهيروغليفية رمزية في قسم منها وصورية في قسمها الاخر مع اعتماد كبير على الاشتقاقات اللفظية ،نحتت على نصب تذكارية أو على الابنية والخشب ،وبعضها على الحجارة الكريمة والصدف ،كما كتب بعضها فــي كتب لم يبق منها حتى الان الا ثلاثة أحدهما في" درسدن " يحتــوي جداول دقيقة للتنبوٌ عن الخسوف والكسوف ،وعرف المايا التقويم ودوران كوكب الزهرة الذي لم يخطئوا فيه الا بيوم واحد كل/٦٠٠٠ سنة/.

أما في العمارة فعلى الرغم من فشلهم في تطوير القوس واعتمادهم على العقود المنحنية فكانت غرفهم قليلة العرض ،ولكن أهم ماوصلــوه رغم تخريب الغابة كان بناء المعابد فوق الاهرامات على ارتفـــاع /٢٠٠ قدما / .

أما النحت فاقتصر على النصب التذكارية وعتبات الابواب وبعــض القطع الخشبية ،ولكن الاعمال الجصية استعملت بكثرة خارجا وداخـــلا بعضها لتمثيل مشاهد معركة حربية وبعضها لاحتفالات دينية ،وأكثـــر المعادن المستعملة من قبلهم النحاس والذهب اضافة الى الخشب والعظـــم

والحجر وخاصة الزجاج البركاني ،كما عرفو الحجارة الكريمة وخاصـــــة اليشـم أو اليشب الذي وصلوا فيه درجة فائقة من الدقة والمهـــــارة وعرفوا النسيج واستخدام الريش ٠

أما في الزراعة فقد اهتموا بشجرة الكاكاو والذرة التي زرعـــت في الاراضي التي انتزعت موقتا من الغابة ،ولعبت الهة المطر دوراهاما في عقيدتهم ،اضافة الى آلهة أخرى تمثل القمر والشمس ،وانتظمـــت عقيدتهم في مجموعة رباعية توافق كل واحدة منها احدى الجهات الاربع (الشمال والجنوب والشرق والغرب) أو الالوان الاربعة (الابيض والاســود والاحمر والاصفر) ،وانتشرت تجارتهم وخاصة لدى سكان المناطق المرتفعـة وبصورة خاصة تجارة الخزف فعثر على أنابيب فخارية في تشن شن اتــزا" مصنوعة في الشمال ومنقولة اليها ،أما أشهر المهارات عندهم فظهـــرت على اليشب ،وقد عثر على مستودع كبير للجثث في آحد الاهرامات ،ثـــم أصبحت عادة حرق الموتى عامة وذلك في العصر القريب من الاحتلال ٠

صدر عن الجمعية التاريخية

١ـ العدد الأول من مجلة البحث التاريخي .

٢ـ العدد الثاني من مجلة البحث التاريخي .

٣ـ العدد الثالث من مجلة البحث التاريخي .

٤ ـ ندوة حمص الأثرية التاريخية الأولى .

٥ ـ العدد الرابع من مجلة البحث التاريخي .

٦ـ العدد الخامس من مجلة البحث التاريخي .

مجلة البحث التاريخي

«مجلة محكّمة»

Historical Searching Magazine

published by

Homs History Society

تصدر عن الجمعية التاريخية بحمص

بالتعاون مع مؤسسة عـلا للصحافة والطباعة والتوزيع

العدد السادس ـ آذار /مارس / ٢٠٠٠

المراسلات:

سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٣١٦٢٥

حمص ـ ص.ب: ٢٥٢٤

: ٨٤٨

الاشتراكات

أفـــــراد : ٦٠٠ ل.س سنوياً

المؤسســات : ٢٠٠٠ ل.س سنوياً

خارج سورية: ٣٠٠٠ ل.س أو مايعادلها

سعر النسخة: ١٠٠ ل.س أو مايعادلها

أسرة التحرير

مجلة البحث التاريخي ترحب بمشاركتكم وترجو من الراغبين في إرسال بحوث للنشر تحقيق المواصفات التالية:

١ ـ أن لايزيد عدد صفحات البحث عن ٥٠٠٠ كلمة ولايقل عن ٢٠٠٠ كلمة.

٢ ـ أن يكون البحث منضداً على الآلة الكاتبة أو على الكمبيوتر.

٣ ـ أن يرفق البحث بالمراجع والصور.

٤ ـ أن يكون البحث جديداً، ولم ينشر في أي مطبوعة دورية أو كتاب.

٥ ـ أن يرسل الكاتب بطاقة معلومات شخصية.

٦ ـ أن يكون البحث على علاقة مباشرة مع الموضوع التاريخي.

كلمة العدد

إن ما تشهده سورية في ظل القيادة التاريخية للرئيس المناضل حافظ الأسد من تقدم وتطور، وسعي حثيث لبناء المستقبل، كان لابد من أن يترافق باهتمام مماثل بالماضي، بتاريخنا، بجذور أمتنا التي تضرب عميقاً في باطن هذه الأرض التي رواها أجدادنا بدمائهم وعرقهم ليبدعوا حضارة أنارت العالم ردحاً طويلاً من الزمن. وإذا كان مشعل الحضارة قد انتقل من أيدينا الآن فهذا لاينفي أن علينا مسؤولية أدبية كبرى تتمثل بحفظ تراث الأمة ليكون نقطة ارتكاز لها في عودة قريبة للمشاركة في بناء الحضارة.

ونظراً للصراع المصيري الذي تخوضه سورية ضد العدو الصهيوني إن كان في معركة الحرب أو في معركة السلام فإننا الآن بحاجة أكثر من أي يوم مضى لوعي تاريخنا في إطاره الحضاري الإنساني.

وإنطلاقاً من هذه المفاهيم نسعى من خلال عملنا في الجمعية التاريخية السورية وفي مجلتها (البحث التاريحي) كي نساهم في صياغة صحيحة لتاريخنا وللقيام بتوعية تاريخية أفضل لشعبنا، ترتكز على الإيمان بأن الأمة العربية وحدة ثقافية متكاملة.

مستلهمين قول السيد الرئيس حافظ الأسد:

(إننا إذ نحيي تراث أجدادنا فإننا نجدد العهد على الاقتداء بالجنود العرب الأوائل الذين نقلوا حضارة العرب إلى بقية الأمم).

ولأننا نرغب أن تكون جمعيتنا بحجم الطموحات الكبيرة المرجوة منها كجمعية متخصصة وحيدة في مجالها في سورية، فإننا نهيب بكل المؤرخين والمثقفين العرب الذين يهتمون بالتاريخ أن يساهموا معنا، فمجلتنا تفتح صدرها لكل جهد مخلص وترحب بأبحاث الزملاء وكتاباتهم، وبكل نقد أو رأي يهدف لتقويم عملنا وتطويره.

منذر الحايك

افتتاحية العدد

بكل الاحترام والتقدير نقدم هذا العدد من مجلة البحث التاريخي الذي تأخر إصداره لظروف خارجة عن إرادتنا نحن مجلس إدارة الجمعية التاريخية السورية. وتفادياً لهذه الظروف انتهجنا منهجاً جديداً نأمل من خلاله أن نحقق غايتنا ليبقى نبض الحياة يخفق في مسيرة هذه المجلة التي عملت منذ إصدارها على نشر المواضيع التاريخية والتراثية بين طياتها خاصة وإننا في هذه المرحلة نواجه غزواً فكرياً وثقافياً يستهدف النيل من تاريخ أمتنا وتراثها كما يستهدف طمس حضارتها.

لذلك سنعمل على تسليط الأضواء على تاريخنا العربي العريق بكل عناصره البشرية والمادية.

فمن كهوف ومغاور هذا البلد وغيره من البلاد العربية انطلقت الحضارة إلى الآفاق الرحبة الواسعة لتنتشر في مختلف أصقاع العالم.

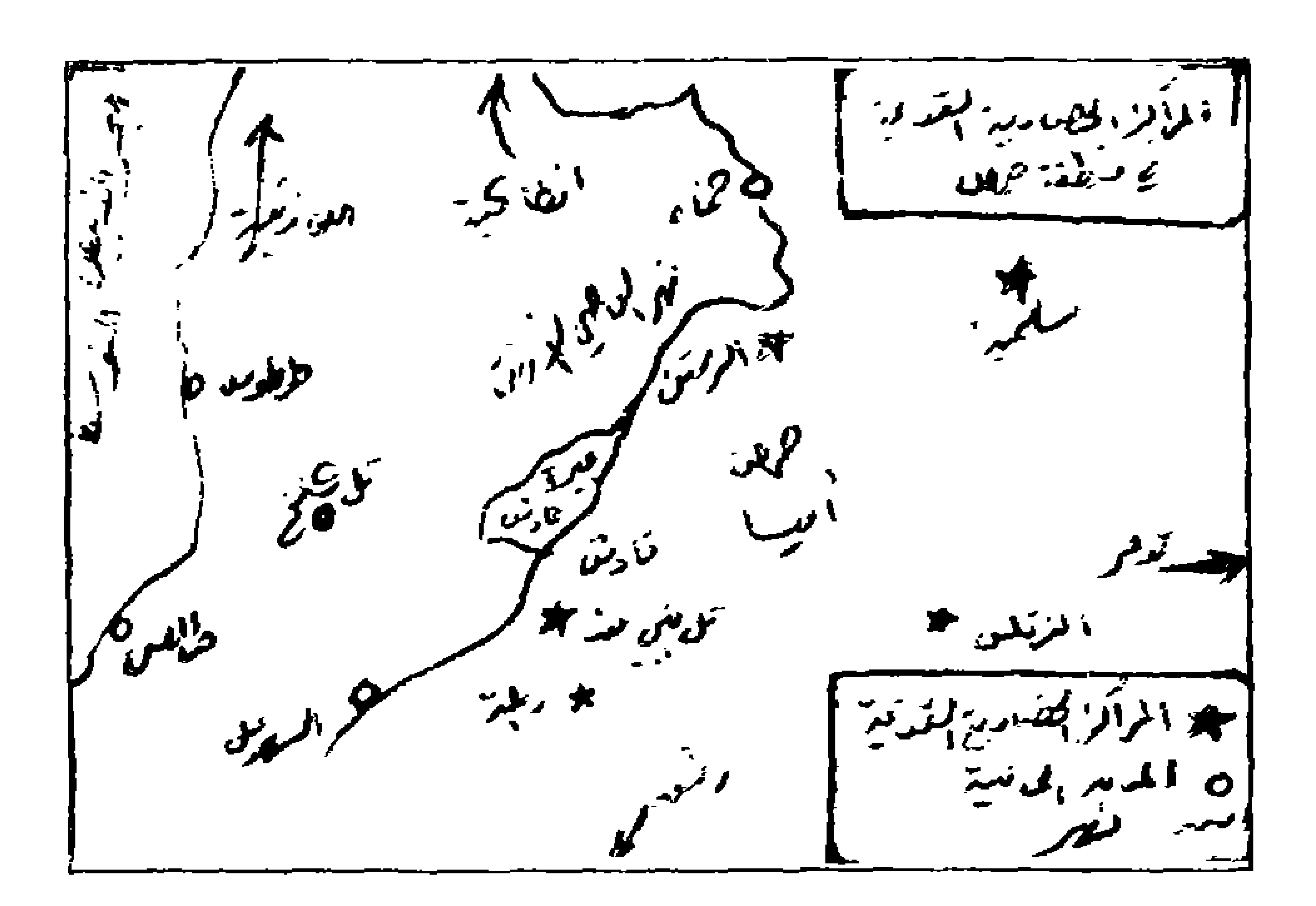
ومن خلال مجلتنا «مجلة البحث التاريخي» سنحاول وصل الحاضر بالماضي والتركيز على كل ما يمت إلى الحضارة العربية بصلة التي كانت مهد الحضارات البشرية في عهد تم فيه التركيز على العلم والعلماء وخاصة علم التاريخ ونحن كأسرة تحرير لهذه المجلة لايمكن أن نحقق أهدافها لولا تعاون زملاء لنا أفادونا بكثير من الأبحاث الجيدة التي أغنت هذا العدد وإنشاء الله ستغني غيره من الأعداد القادمة.

ولابد لنا في هذا من التوجه إلى المسؤولين لرعايتهم الكريمة للثقافة التاريخية ولتركيزهم الدائم على الأصول الحضارية لهذه الأمة المعطاء، ونخص بالشكر العقيد الركن الدكتور بشار الأسد وذلك لحرصه على رعاية الجمعيات العلمية والأدبية والتاريخية، فتحية له.

وتحية من القلب لكل من ساهم في إصدار هذا العدد، وتحية ملؤها الاحترام والتقدير لراعي العلم والعلماء وقائد البلاد نحو النصر والتحرير إن شاء الله سيادة الرئيس حافظ الأسد.

دعد تقلا

الفهرس



٧٧

المنصور من انجح الخلفاء الموحدين في قضية الصراع ضد الاسبان، بالرغم من مصاعبه الداخلية.

١٠٠

إن كراهية شعوب الارض لليهود على مر عصور التاريخ لاترجع إلى عقيدتهم وإنما ترجع إلى سلوكهم واخلاقهم وتصرفاتهم.

٩١

اللغارتم:
جاءت من (الخوارزمي) صاحب جداول الخوارزمي التي ترجمها روبرت تشستر.

١١٨

استخدام طريقة الكربون ١٤ في تحديد عمر الطبقات الاثرية

٦٥

القرطاس:
نوع من النسيج المصقول المصنع الرقيق الابيض، وهو من الحرير.
اسيران فرنسيان ينقلان سر صناعة الورق إلى فرنسا ثم اوروبا

قائد وشعب

مسيرة مظفّرة وإنجاز عظيم

د. سهيل زكار

يرى المستعمر لتاريخ بلاد الشام ـ ضمن إطار الوطن العربي ـ أن هذا التاريخ قد تأثر كثيراً بالموقع والتركيب الجغرافي، فالموقع المتميز جعل هذه البلاد مطموع بها من جيرانها وأصحاب الامبراطوريات، ثم إن الأطماع هذه تفاعلت مع التركيبة الجغرافية كثيراً ماأدت إلى التمزق السياسي والاضطرابات الداخلية،

ومع هذا ظلت هذه البلاد ـ على الرغم من الواقع السياسي المفروض ـ تسعى دوماً إلى الوحدة، والمثير للانتباه أن وحدتها كانت في الغالب تقود إلى وحدة عربية كبرى وتأثير إنساني واسع، يضاف إلى هذا أن التمزق السياسي لم ينتج عنه تمزق اجتماعي خطير، وتلون حضاري وعقائدي عميق.

وفي وقفة لتفصيل بعض هذا المجمل، نجد أولاً أن الجغرافيين العرب، ومن قبلهم الجغرافيين الكلاسيكيين قالوا حين عرّفوا بلاد الشام: هي صقع كبير من البر الآسيوي يحده من الشرق سقي الفرات على الجانبين، ومن الغرب البحر المتوسط، ومن الجنوب البحر الأحمر وعريش مصر، ومن الشمال السفوح الشمالية لجبال طوروس.

وجعل هذا الموقع المتميز من بلاد الشام قلباً لقارات العالم القديم، ولاأقول جسراً بين الحضارات، لأن الجسر لاينتمي إلى أحد، وقد يتبدل في كل ساعة، فالشام بلاد متصلة بالقارة الأوروبية عبر جسر آسيا الصغرى، وعبر البحر المتوسط، وهي متصلة بالقارة الأفريقية عبر مصر وشواطىء البحرين: الأحمر والمتوسط، ومنها يمكن الانطلاق إلى مختلف بقاع القارة الآسيوية: إن إلى شبه جزيرة العرب، فبحر العرب، فالشرق الأقصى، أو عبر بلاد الرافدين فالنهضة الايرانية، ومن شمالها الشرقي يمكن الوصول إلى أرمينية وأذربيجان وجورجيا وروسيا، ولهذا صلحت هذه البلاد لتكون قاعدة لنشر المعارف والعقائد ذات السمة العالمية الانسانية، وخير مثال على ذلك انتشار كل من المسيحية والاسلام، وقبلهما بكثير الأبجدية والميثولوجيا والفلسفات، والتجارة، وأنظمة المدن، والقوانين والآداب وفنون العمارة وغير ذلك كثير.

وتميزت هذه البلاد دوماً بالأصالة العربية، وبالعطاء الإنساني، وبالتجربة القومية

تاريخ بلاد الشام صنعه جميع أهل الشام، لكن البنية الطبوغرافية والموقع ودول الجوار لونو بعض هذا التاريخ،

المنفتحة عالمياً، وأبدعت هذه البلاد الكثير، وتلقت تجارب غيرها فأعادت صياغتها، ومزجتها بأصالتها، ونقلتها إلى أم الأرض، فهي بلد مصنع ومنتج مبدع.

ومثلما أثر الموقع على صنع تاريخ بلاد الشام وعلى دورها، أسهمت البنية الطبوغرافية في هذا المجال كثيراً، فبلاد الشام إذا ماتفحصناها من الغرب نجد أولاً شريطاً ساحلياً ضيقاً، ثم سلسلة من الجبال عالية، يليها وديان الأنهار الداخلية الكبرى، وبعد ذلك البادية، وأوجد هذا عدة أنماط حياتية: أمتداداً من النمط الساحلي، إلى النمط الجبلي، فنمط المدن الحرفية التجارية والأرياف الزراعية، ثم نمط الحياة البدوية الرعوية المتنقلة.

ومقرر أن تاريخ بلاد الشام صنعه جميع أهل الشام، لكن البنية الطبوغرافية والموقع ودول الجوار لونو بعض هذا التاريخ، لاسيما من الجوانب السياسية، فمع الاتصال بجميع بقاع الدنيا، امتازت البلدان الواقعة إلى الشرق من بلاد الشام بكونها قارية استهدفت دوماً الوصول إلى شواطىء البحر المتوسط.

ثم إن البلدان التي جاورت الشام، عرف تاريخها قيام عدة امبراطوريات، وقد سعت كل امبراطورية إلى الاستيلاء على كل الأراضي الشامية، أو على بعضها، وهكذا غدت الأرض الشامية مسرحاً للصراعات العالمية، ومطموع بها دوماً، عانت من الأعداء، ومن الأصدقاء الألداء، وانعكس هذا عليها سلباً وإيجاباً، وجعل تاريخها يمر بعدد من الأطوار والمراحل، أهم معايير التحقيب فيه هو الوحدة أو التمزيق السياسي.

العصر المعاصر بمراحله المتتالية، التي أميزها مانعيشه الآن في ظل القيادة التاريخية للرئيس الأسد،

لاأريد الاستطراد في هذا المقام أكثر بالشرح، فلهذا مكان آخر، قد يتحقق من خلال دراسة مفصلة تتناول التاريخ الشامي في الإطار المحلي والعربي والإنساني، وتتناول عصور ماقبل التاريخ، ثم العصور التاريخية حتى نهاية الحقبة الكلاسيكية، فعصور الإسلام حتى العصر الحديث، وأخيراً العصر المعاصر بمراحله المتتالية، التي أميزها مانعيشه الآن في ظل القيادة التاريخية للرئيس الأسد.

وأعود إلى التذكير بأن أهل الشام عانوا أكثر من سواهم من التمزق السياسي، ولذلك كانوا دوماً، وعرفوا أكثر من سواهم أنه عندما توحدت بلاد الشام في العصر الأموي توحد الوطن العربي شرقاً وغرباً، وتحققت معجزة

الفتوحات العربية الكبرى، وباتت الدولة العربية تمتد من تخوم الصين إلى عدن، ومن شواطىء الشام إلى تخوم فرنسا وسويسرا في قلب أوروبا، لكن عندما تمزقت الشام بفعل الثورة العباسية، انفرط من يومها عقد الوحدة العربية السياسية وكذلك عقد الوحدة الإسلامية.

وأهل الشام بحكم تطلعاتهم الوحدوية تميزوا بالانفتاح الإنساني، فكانوا دوماً رواد حضارة وتفتح وسماحة وعطاء.

وليس بنيتي استعراض تاريخ متاعب الشام من التمزق كله، لكن بودي التذكير هنا أن هذه المتاعب ازدادت كثيراً إثر قدوم الغزْو إليها في القرن الخامس هـ /الحادي عشر م، ثم ماحدث في أواخر هذا القرن لدى وصول الغزاة الفرنجة.

وكانت بلاد الشام قبل هذا تقاد من قبل المدن الكبرى: دمشق، حلب، وحمص، وحماة، وطرابلس، وجبلة، وأنطاكية، وعكا، وغزة، والقدس، وأريحا، لكن الآن باتت كل مدينة تحوي قلعة تمركز فيها حاكم غريب مع حامية عسكرية غريبة، وفرضت الصراعات مع الفرنجة ومع أنظمى الأقطاع بناء المزيد من القلاع، وتولت القلاع صنع أحداث تاريخ الشام، وفي ظل التمزق الدموي الحاد، جاء نور الدين محمود، فوحد الشمال الشامي مع الجنوب، ومالبثت حركة التحرر من الفرنجة إلا أن تسارعت، وتنامت عمليات الوحدة فوصلت إلى مصر، وامتدت إلى ليبيا واليمن، وأعدّت العدة لتحرير القدس، ولطرد الفرنجة، وتوفي نور الدين، فقام صلاح الدين بإكمال المسيرة، وخاض حطين، وحرر القدس، وأعاد لحمة الوحدة الشامية.

لكن لسوء الحظ توجب على صلاح الدين في أواخر أيامه التصدي لما يعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة، ويقينا لولا وحدة الشام ومصر لأغرق الطوفان الغربي الشام والوطن العربي، ولسوء الحظ ثانية أن صلاح الدين لم يعمر بعد انحسار موجة الحملة الثالثة، وعاد التمزق مجدداً سياسياً وقاسياً ومؤذياً إلى بلاد الشام، وألهت الصراعات الأيوبية الأيوبية خلفاء صلاح الدين، وبددت طاقات، حتى أن الكامل محمد بن العادل تحالف مع فردريك الثاني ضد أخوانه وآله وسلمه القدس.

وعرفت بلاد الشام يومذاك فورات عارمة ضد التمرق والخيانة والتفريط

اهل الشام بحكم تطلعاتهم الوحدوية تميزوا بالانفتاح الإنساني، فكانوا دوماً رواد حضارة وتفتح وسماحة وعطاء.

بالحقوق، وشهدت ساحات البلاد قيام حركات ومنظمات شعبية فعالة، لكن هذه المنظمات لم تتوفر لها القيادات القادرة على طرد المتحكم من القلعة وإقامة حكم شعبي.

واستمر هذا الحال طيلة مابقي من العصر الأيوبي، ثم جاء الغزو المغولي، وحدثت معركة عين جالوت، وكان الـدور الشعبي في هذه المعركة كبيراً، مثلما كان يوم حطين، فأعداد المتطوعة كانت أكبر من أعداد الجند المحترف، والشعب هو الذي موّل الآلة الحربية وصنع السلاح، ودعا إلى الجهاد، وقدم الكوادر الإدارية والقيادية.

ووقف الشعب ضد المغول، فالشعب هو الذي انتصر في معركة شقحب لا الناصر محمد ابن قلاوون، والشعب هو الذي دافع عن مدن الشام ضد تيمورلنك، وهو الذي أعاد بناء البلاد بعد انحسار آخر الأمواج المغولية العاتية، وكان شعب الشام في أواخر العصر المملوكي قاب قوسين أو أدنى من استلام السلطة، والحلول محل المماليك.

كان شعب الشام في أواخر العصر المملوكي قاب قوسين أو أدنى من استلام السلطة، والحلول محل المماليك

لكن هو القدر، حيث نجح العثمانيون في أحتلال لبلاد الشام، ثم مصر، وفي معركة مرج دابق انتقمت القسطنطينية ـ التي جلس على عرشها امبراطور عثماني لهزيمتها يوم اليرموك، ودار التاريخ دورة رهيبة، وعادت الشام ومصر وأرجاء الوطن العربي تدار من القسطينية، كما كا الحال قبل حركة الفتوحات العربية الكبرى، ولم يتوقف أهل الشام ومصر عن النضال التحرري والوحدوي العربي، وتجلى هذا لدى التصدي للطورانية ولسياسات التتريك، وكادت الجهود تنجح لولا تدخل الاستعمار الأوروبي، ومع هذا باتت البلاد على حافة الانفجار الثوري، نظر الثوار العرب من حولهم وفي أوساطهم، فلم يجدوا لا نور الدين ولا صلاح الدين، بل وجدوا «شريف مكة العثماني» صاحب مكماهون وأولاده الذين تلبسوا بالرغبة الملك، على طريقة الكامل محمد ـ ولو بأي سبيل ومهما كان الثمن: خيانة، عمالة، طغيان، لابأس، فالمهم الوصول إلى الملك...

وفي ظل هؤلاء الأدعياء مزقت أشلاء بلاد الشام شر ممزق، فانتزعت منها ولاية الجزيرة بما فيها الموصل، وعانت من الحركات العنصرية مالم تعانه ديار في الدنيا، وإذا سلمنا أن أشهر عنصريات هذا القرن وأخطرها هي: الطورانية،

والصهيونية، والنازية، فأهل الشام عانوا من هذه العنصريات أكثر من أي فئة من بني البشر: اقتطعت الطورانية أنطاكية والاسكندرونة والرها ونصيبين وماردين وغير ذلك، واقتطعت الصهيونية فلسطين (يجمع بين الصهاينة والطورانيين الانحدار من أصل خزري واحد، وكانت الزعامات دوماً من يهود الدونمة). واهل الشام هم الذين دفعوا ثمن آثار النازية.

وهكذا عاش أهل الشام في ظل قرون لأطول ولأحلك، ومع هذا ازدادوا أصراراً على الوحدة والتحرير، وفي أثناء النضال ضد الاستعمار الفرنسي، أسهم الشاميون في ثورات العراق، وحركات مصر، ودول المغرب العربي، وقامت ثوارهم في الغوطة وجبل الزاوية، وجبال اللاذقية وروابي فلسطين، وأسماء الشهداء جلها معروف ومدون، وتحقق الاستقلال بفضل النضال الشعبي، لكن لسوء الطالع تسلم القيادة بقايا أسر الاقطاع العثمانية مايعرف باسم «البرجوازية السورية» وكان هؤلاء يتسمون بقصر النظر والضعف والتخاذل، ولذلك عشنا عصر الصراع على سورية، وعصر الانقلابات.

وقامت الوحدة مع مصر، وجاءت نتيجة لزخم شعبي لامثيل له في أرض الشام، لكن لسوء الحظ، لم يكن هناك مايكافئه في أرض الكنانة، ولذلك تحولت الوحدة إلى تسلط وحكم بوليسي، لأنه كان من شروط الوحدة إلغاء الأحزاب، أو بالحري الغاء حرب البعث العربي الاشتراكي، الذي قاد نضال الجماهير في أرض الشام.

كان من شروط الوحدة إلغاء الاحزاب، أو بالحري الغاء حزب البعث العربي الاشتراكي، الذي قاد نضال الجماهير في أرض الشام.

واستعانت سلطات الوحدة ببقايا البرجوازية السورية، الضعيفة لأعطان والقصيرة للنظر، فكان الانفصال الذي لم يشارك في صنعه بعثي واحد، وتحكمت البرجوازية مجدداً بدمشق، ومجدداً أخفقت، وحبطت أعمالها، وسقطت يوم الثامن من آذار عام ١٩٦٣، وسعت الثورة إلى تحقيق الوحدة، فلم تتوفق، وقام عدوان عام ١٩٦٧ ، وتتالت الانتكاسات، وتسللت العقليات المناورة، أو التي بلا تجربة أو خبرة، أو إيمان، أو معرفة بتاريخ هذه الأمة إلى السلطة، وكانت هناك بارقة أمل مع حركة ٢٣ شباط، لكن العقلية المناورة التي لم تتحرر من رواسب الماضي عادت إلى التحكم، وإلى المزيد من الأنغلاق، واستيقظت من جديد

روائح الطائفية والاقليمية النتنة.

وكنت آنذاك طالباً في جامعة لندن، احضر للحصول على شهادة الدكتوراه، وفي أحد الأيام استدعاني الاستاذ المشرف المستشرق برنارد لويس، وشرع يسألني عن أوضاع سورية، وفاجأني وقتها بقوله: «أصحيح ان السلطة في سورية باتت عدس»؟ فأجبته: ماالذي تعنيه بقولك: عدس؟ فشرع يشرح لي بتشف صهيوني مقيت أن سورية تعيش في أجواء الصراع على السلطة، وباتت بالتالي ميداناً للطائفية والإقليمية.

ولقد كان ذلك اليوم من أقسى أيام حياتي، ثم عدت من الايفاد ـ بعد غياب سنوات ـ في أواخر عام ١٩٦٩، وشرعت من جديد أتعرف على أوضاع البلاد، وكنت في كل يوم أسمع خبراً وإشاعة، لكن شعرت «أن خلال الرماد وميض نار» وأن هذا الوميض «يوشك أن يكون له ضراماً».

شعرت «ان خلال الرماد وميض نار» وان هذا الوميض «يوشك ان يكون له ضراماً».

صرت أسمع كثيراً اسم «حافظ الأسد»، وتملكني شعور اقتبسته من مشاعر الشعب أن الأمل هنا، وأن صلاح الدين قريب الوصول، وأن الشعب الذي انتظر ـ منذ أيام سيف الدولة ـ مجيء القائد التاريخي من بين صفوفه لن ينتظر أكثر، فلقد قربت ساعة الفرج، وجاء فجر السادس عشر من تشرين، ونجحت حركة التصحيح، وعشت ـ مثلما عاش كل مواطن ـ أفراح مابعد التصحيح، وتتبعت أخبار البهجة في كل مدينة زارها القائد الأسد آنذاك، وتسارعت الأحداث، وأدرك الشعب تمام الادراك ان القائد التاريخي الذي انتظره قرابة العشرة قرون قد خرج من بين صفوفه فارساً يعربياً أصيلاً، ترقى به الأعراق إلى زفر بن الحارث الكلابي، وإلى صالح بن مرداس، وإلى ذات الهمة والبطال، إلى الشعب العربي الأصيل وليس إلى الهجناء.

وحكايتي مع «القائد التاريخي» حكاية طويلة فيها من رعاية الذات مكارم مواريث آل مرداس حين تفردوا فأحاطوا العلماء والشعراء بالرعاية، نعم بنو مرداس وحدهم هم الذين منحوا كل شاعر متميز لديهم لقب أمير.

وصلتي مع فلسفة «القائد التاريخي» عميقة: النقطة العلامة فيها سيرة النبي المصطفى «صلعم» وشمائله، وفيها خلفاء النبي والأئمة، وآل البيت وأبطال ورجال قدمتهم امتي للإنسانية طيلة أكثر من الف عام، فلقد ظلت الحضارة العربية

الاسلامية تعطي البشرية أكثر من ألف عام، وعندما تولى غير العرب قيادة الحضارة أعطوا بني البشر: الاستعمار، والتلوث، والاستغلال، والتمييزي العنصري والكيل بمعايير مزدوجة لأخلاقية، والاسلحة النووية، والايدز وغير ذلك من الآثام كثير، وذلك في مدة لم تتجاوز القرنين، مع حروب كونية كلها رعب وهوب.

والحديث عن القائد التاريخي ممتع، لايدخل في إطار الحديث عن عبادة البطل الفرد، لأن القائد التاريخي وإن كان بطلاً، هو ليس حاكماً فرداً، إنه صاحب رسالة، مثلما ائمة التاريخ، الذين صدرت رسالاتهم عن رسالة السماء التي أوحى بها الله تعالى إلى نبيه المصطفى، فختم بها بلسان عربي مبين رسائل الأنبياء قبله صلى الله عليه وسلم منذ آدم عليه السلام.

وترتبط حياة الرسل بالمعجزات، وحياة الأئمة بالكرامات، والكرامة أخت المعجزة، وعلى هذا الأساس يمكن أن أفقه ماحدث في سورية حين زالت الطائفية إلى ماغير عودة، وتحققت وحدة المجتمع، لا على أساس التعايش والتوازن، بل على أساس الاندماج، ولم تعد سورية البلد المصطرع عليه، بل البلد المسهم في الصراع من أجل البناء والوحدة والتحرير، وهكذا تحول الجيش خلال ثلاث سنوات من جيوش إلى جيش عقائدي، عالي التدريب والانضباط، مستوعب للسلاح، إرادة المقاتلين فيه حرة، يشعر كل منهم بالظهير الشعبي، وبمتعة أداء الرسالة، وكانت أولى المحصلات حرب تشرين التحريرية، وحرب الاستنزاف، والتصدي للمؤامرات وصيانة لبنان، ورفض كامب ديفيد، والوقوف ضد صليبية ٨٢ ـ ٨٣ حين اجتمعت جيوش وأساطيل الغرب وأمريكا والصهيونية ضدنا.

لقد ناضل هذا الشعب طوال قرون عديدة حتى التقى بقائده التاريخي، ولقد دعا كل واحد من أمتي خلال القرون المديدة حتى يأتي من يجدد له دينه وحياته، وجاءت الاستجابة من رب العزة، والله تعالى وحده قادر على أن يقول للشيء: كن فيكون، أما اساطيل العدوان فعاجزة أمام إرادة الله، ومقرر أن صوت الشعب هو صوت الحق، ولم تجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم قط على ضلالة، وهي مجمعة الآن على

الحديث عن القائد التاريخي ممتع، لايدخل في إطار الحديث عن عبادة البطل الفرد. إنه صاحب رسالة، مثلما ائمة التاريخ.

قبل الحركة التصحيحية كانت سورية جمهورية مفتقرة إلى سمات الدولة، فغدت في سنوات قلال، دولة عربية نموذجية.

أن حافظ الأسد هو قائد الجماهير العربية والمسلمة بلا منازع.

قبل الحركة التصحيحية كانت سورية جمهورية مفتقرة إلى سمات الدولة، فغدت في سنوات قلال دولة، دولة عربية نموذجية، تصلح نواة لدولة الوحدة الكبرى، فسورية جزء من بلاد الشام، وبلاد الشام بعض من الوطن العربي الكبير.

وقبل الاستطراد في الحديث عن منجزات العقود الثلاثة المتقدمة، أجد من الضروري معاودة الوقوف مجدداً للحديث أكثر عن فلسفة القائد التاريخي.

شغلت ظاهر القائد التاريخي المؤرخين والفلاسفة، وهناك اجماع على أن شخصيته تشكل استثناء متميزاً، وظاهرة جددت سماتها الجماهير قبل ظهورها، وقبل وصولها إلى السلطة برمن، وبناء عليه تملك نفوذها على الجماهير وتأثيرها لأنها أملها ونمطها الذي صاغته من خلال حاجاتها، ولهذا يبقى القائد التاريخي مع الجماهير، لايبرحها ملتصقاً بها، ومدافعاً عن قضاياها وحامياً لها، ومقرر أن الدور السلطوي هو غير الدور القيادي الشامل، ففي القيادة التاريخية قضية عظمى ونضال فعال وجماهير ومواقف، وفي السلطة تنفيذ لتوجيهات القائد، ومع هذا قد تلتقي السلطة مع القيادة وتتحدا في بطل واحد، ووقتذاك يكون الانجاز محولاً وهاماً جداً.

والقادة التاريخيون ندرة، وإن أطلق كثيراً من الحكام على انفسهم لقب القائد والقائد رجل حكيم مخطط، استراتيجي، فيه مروءة وكرم وشجاعة، وليس فيه ضغينة، يؤثر على نفسه، ويوقف ذاته كلياً على قضايا أمته، فيه بعد انساني، يجمع بين الدماثة والمضاء، لايعرف غير الصعود، يتماشى مع تطورات الأيام، أو بالحري يقود التطورات، يرتقي من ذورة إلى أخرى أعلى حتى لاينزلق، هو صادق وأمين وصريح، يستوعب الآخرين ويجمع الشتات، ليس سلطوياً بل صاحب رسالة، يتخرج من بين الجماهير، ومن خلال نضالها، ولذلك يظل مرتبطاً بالجماهير، والإجماع الجماهيري هو دستور القائد التاريخي ومرشده.

ومنذ قرون طوال لم تجمع الجماهير في أرض الشام وفي الوطن العربي إلا على القائد التاريخي حافظ الأسد، ولأن

الأسد قائد تاريخي جاء نسيج وحده فيه جميع الصفات التي تطلع إليها العربي دوماً في قائده، قال الشاعر لقيط بن يعمر الإيادي لقومه:

فقلدوا أمركم لله دركم
رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
مسهد النوم تعنيه ثغوركم
يؤم منها إلى الأعداء مطلعا
ماأنفك بحلب در الدهر أشطره
يكون متبعاًطوراً ومتبعا

والقائد العربي هو من:

قوم إذا اشتجر القنا
جعلوا القلوب لها مسالك
اللابسين قلوبهم
فوق الدروع لدفع ذلك

وهو أيضاً من قوم شعارهم:

الموت غايتنا فلا
قصر ولاعنه جماح
وكأنما ورد المنـ
ـية عندنا ماء وراح

«وهالك معذور خير من ناج فرور إن الحذر لاينجي من القدر، ولكن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور خير منه في الاعجاز والظهور».

والقائد العربي هو:

حمال ألوية شهاد أندية
قوال محكمة جواب آفاق

وهو أيضاً كما قالت الخنساء:

رفيع العماد طويل النجاد
ساد عشيرته أمردا

وصحيح أن الحديث في هذا الباب غني وممتع، وهو والحق يقال يحتاج إلى افراده في دراسات خاصة، ولعله يفيدنا الآن ويكفينا أن نتذكر أن القائد الأسد ولد في ليلة القدر من عام ١٩٣٠ من أسرة نضالية عربية أصيلة، وقد أهتم والداه بتعليمه، وقرأ القرآن الكريم منذ صغره، ولعله حفظه، ثم انتقل من بلدته القرداحة إلى اللاذقية، والتحق هناك بثانويتها، وحدثني رفاقه في المدرسة أنه امتلك المؤهلاته القيادية وكان المرجع لهم والملاذ دوماً، وبعد نيله الشهادة الثانوية أراد أن يدرس الطب، فلم يستطع لأسباب مالية، فالتحق بالكلية الجوية وتخرج ضابطاً طياراً.

وكان القائد الأسد من أوائل الذين انتموا إلى حزب البعث العربي الاشتراكي ومن ثم تسلم طوال عمره قيادة رفاقه في المدرسة وفي المراحل اللاحقة، وقد تميز بين الضباط في سلاح

«وهالك معذور خير من ناج فرور إن الحذر لاينجي من القدر، ولكن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور خير منه في الاعجاز والظهور».

بعدما عرف الشعب قائده التاريخي بدأت مسيرة الاستقرار، والانتاج ومازالت مستمرة، وستبقى بمشيئة الله،

الطيران، وتفوق في جميع الدورات التدريبية، وخدم في مصر أيام الوحدة وأعاد تنظيم الضباط البعثيين هناك، وبعد الانفصال جرى تسريحه من الجيش، ولقد شارك بدور قيادي فعال في الإعداد لثورة الثامن من آذار، وتمكن يوم الثورة بمفرده من السيطرة على قاعدة الضمير الجوية، وبهذا ضمن للثورة النجاح المؤكد.

وناضل مع رفاقه من خلال الثورة، وسعى دوماً إلى لمّ الشمل، ورأب الصدوع، وظل كذلك حتى قاد الحركة التصحيحية المباركة، واستطاع كما أشرنا من قبل خلال سنوات ثلاث من عمر الحركة التصحيحية المجيدة، أن يعيد اللحمة إلى المجتمع وإلى الجيش، وخاض حرب رمضان التحريرية، وقضى على الفتن المدبرة من الخارج لاسيما فتنة الاخوان المسلمين، ثم تدخل لانقاذ لبنان، وكان في انقاذه للبنان انقاذ لسورية.

لقد مضى الآن على عمر التصحيح مايقارب الثلاثة عقود من الزمن، جاءت من حيث التقسيم الدستوري في أربع مراحل:

وتعد المرحلة الدستورية الأولى، أو السنوات السبع الأولى من حكم قائدنا التاريخي الرئيس الأسد سنواتاً عصيبة، ومع ذلك شهدت إنجازات لايمكن للدهر أن يمحوها، فقد بدأت سورية تشهد مخاضاً اجتماعياً جديداً، ودعت فيه التوازنات الطائفية والاقليمية - أو مايسميه بعضهم التعايش بين الفئات إلى غير مارجعة، وخطت نحو الاندماج، وإلى إزالة كل الحواجز، إذا كان قد بقي حواجز، اندماج قوامه الجبهة الوطنية التقدمية، ومجلس الشعب، والتحضير للإدارة المحلية، وبدأت سورية تأخذ المظهر الفعلي للدولة، ولم تعد البلد المتنازع عليه من قبل الجوار وسواهم، ولا البلد المتنازع على السلطة فيه، فبعدما عرف الشعب قائده التاريخي بدأت مسيرة الاستقرار، والانتاج ومازالت مستمرة، وستبقى بمشيئة الله، هذا بإيجاز على الصعيد الداخلي.

عن نتائج تشرين يطو الحديث، ويكفينا أن نقول: إننا منذ تشرين وإلى اليوم، ونحن نحتفل بالإنجازات، ويقوم العدو بإقامة المناحات لما حدث،

أما على الصعيد العربي: فقد جرت آنذاك محاولات حثيثة لنهضة عربية، ولجمع الشمل العربي والإرادة العربية مجدداً، وتركزت الجهود باتجاه مصر، الشريك التاريخي الدائم لبلاد الشام، وشريك محنة عام ١٩٦٧ ، واستطاع القائد الأسد أن يقنع الرئيس السادات

بضرورة القيام بعمل تحريري ضد اسرائيل في أسرع وقت ممكن، بهدف تحرير الأرض والكرامة، ولازالة أسطورة العدو الصهيوني الذي لايقهر ماحتاج هذا إلى جهود عظيمة جداً، وعمل متواصل في الليل والنهار، لقد احتاج الأمر إلى إعادة توحيد الجيش في سورية، وإلى تطويره، وإلى التدريب المتواصل، والاستعداد المستمر للحركة، وإلى تزويده بالأسلحة المتطورة، والقيام بوضع الخطط اللازمة ليوم التحرير، كل ذلك ضمن تكتم كبير، لكسب عامل المفاجأة في اليوم الموعود، وفي خلال سنوات ثلاث، حدثت معجزة توحيد الجيش، وتوحيد المجتمع، وأمكن للجيش استيعاب السلاح الجديد، وبات جاهزاً للقيام بمهامه، يتحرك بذكاء وفعالية، ويغرر بالعدو، ويربكه، وكانت حرب تشرين العظيمة، والحديث عن حرب تشرين مديد، وعن نتائج تشرين يحلو الحديث، ويكفينا أن نقول: إننا منذ تشرين وإلى اليوم، ونحن نحتفل بالإنجازات، ويقوم العدو بإقامة المناحات لما حدث، هذا العدو الذي لم ينل منذ تشرين طعم الاستقرار، ولم ينعم بالأمن، وحاول الانتقام من تشرين في لبنان، وفي أكثر من مكان، إنما بلا استقرار: العنف يزداد في داخل هذا الكيان المصطنع، والزلزال تلو الزلزال يهز أركانه بشكل متواصل، ووزارة تسقط تلو الأخرى، ودور يأتي ومعه وجه قيادي جديد ودور يذهب، ومعه سقوط للوجه القيادي مع اتهامات واختلاسات وفضائح، في حين أن عملية الاستقرار وعملية البناء استمرت لدينا، ففي سورية التي خاضت حرب تشرين للتحرير لا للتحريك استمرت الانجازات، وتحملت سورية تشرين التحرير حرب الاستنزاف، ودخلت إلى لبنان لتصونه من الطائفية، ومن التمزق، ومن التبعية لإسرائيل، وحين كانت سورية تصون وحدة لبنان وأمنه تمكنت من صيانة ذاتها من عملاء الرجعية والمأجورين، ومع هذا بقي الخطاب التاريخي الإسلامي للقائد الأسد واضحاً تمام الوضوح، جوهره التمسك بالإسلام الصحيح، والرفض المطلق للمتاجرة بالإسلام والإرهاب باسم الإسلام، والحرص على علاقات داخلية فيما بين المسلمين وغير المسلمين، علاقات كلها ود وتسامح، وتعاون وانسجام، وبالوقت ذاته الحرص على إبقاء الجسور ممدودة مع بلدان العالم

احبط اخيراً المشروع الصهيوني في لبنان، واخفق التحالف الغربي في صليبية ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣ ، وخرج المارينز وحلفاء المارينز مدحورين من لبنان، وسقط اتفاق ١٧ أيار،

لم تتأثر سورية بإنهيار حليفها الاستراتيجي، واجادت التعامل مع الاستعمار الجديد، الذي أعلن أنه يريد فرض العولمة، وانه يريد تطبيق مفاهيمه عن الحرية والديمقراطية،

الاسلامي أجمع، ولاسيما مع كل من باكستان وإيران.

وفي الحقيقة هناك تداخل فيما بين الحقبة الدستورية الأولى والثانية، فقد استمرت في الثانية الأزمة اللبنانية، واستعضلت في كثير من الجوانب، ولم تستطع أية قوة من القوى أن تزيل قائدنا التاريخي عن موقفه القومي المتوازن، فهو مع لبنان كل لبنان، وليس مع طائفة دون أخرى، فأهل لبنان جزء لايتجزأ من الشعب العربي في سورية، الذي هو بدوره جزء لايتجزأ من الأمة العربية، وكما أنه لااعتراف بالطائفية في سورية، لااعتراف بأمراض الطائفية والاقليمية والعشائرية في سورية.

وأحبط أخيراً المشروع الصهيوني في لبنان، وأخفق التحالف الغربي في صليبية ١٩٨٢ - ١٩٨٣ ، وخرج المارينز وحلفاء المارينز مدحورين من لبنان، وسقط اتفاق ١٧ أيار، وكان سقوطه أول ضربة قاتلة لسايكس بيكو، وبات لبنان كتلة جهادية بنادقه ضد الصهاينة وأعداء الأمة، وانتقلت هذه الروح الجهادية إلى فلسطين المحتلة، فكانت ثورات أطفال الحجارة ثم قيام حماس وكتائب عز الدين القسام وسواها،واستعد لبنان في الوقت نفسه لخوض تجربة البناء والاستقرار، ولم تتوقف سورية أثناء ذلك كله عن تقديم كل المساعدات، فدائماً الأخ الكبير يحنو على الأخ الصغير ويرعاه، وستظل العلاقة فيما بين لبنان وسورية علاقة أخوية.

وفي أثناء ذلك كله امتلكت القيادة التاريخية للرئيس الأسد وضوح الرؤية تجاه المسلسل التدميري للمنطقة العربية واستمرت في مسيرة البناء الشاملة والاستقرار الذي لانظير له، والتطور الديمقراطي العقلاني المتوازن، والنماء الاقتصادي، فقد بنيت عشرات السدود، وخاضت سورية معركة الأمن المائي بكل نجاح اعتماداً على الذات، وصارت البلاد تمتلك شبكة استراتيجية من الطرق، وجرى تطوير الجامعات واحداث جامعات جديدة، وتأمين الكوادر اللازمة، وتضاعف عدد المدارس عدة مرات، وتضاعفت أعداد الطلبة في كل المراحل، وظل التعليم مجانياً وللجميع، وتطورت الصناعة، وصارت سورية هي البلد العربي الوحيد الذي ينتج من القمح والحبوب مايؤمن من كفايتها ويحقق الأمن الغذائي.

وازدادت أعداد المشافي والمعامل، وشهدت البلاد مسيرة ازدهار اقتصادي واعدة، على الرغم من الحصارات غير المعلنة ضدنا.

كل هذا والجهد مستمر لجمع الشمل العربي، ومواكبة التطورات العالمية، فبين أواخر المرحلة الثالثة وفي المرحلة الرابعة التي نعيش نهايتها في أيامنا هذه، انهار الاتحاد السوفييتي، وانتهت الحرب الباردة، وأعلنت أمريكا عن زعامتها للعالم، وأنها الوريث للامبراطورية البريطانية، التي لم تكن الشمس تغيب عن أطرافها، وذلك مع الامبراطوريات الاستعمارية الغربية الأخرى، ولم تتأثر سورية بإنهيار حليفها الاستراتيجي، وأجادت التعامل مع الاستعمار الجديد، الذي أعلن انه يريد فرض العولمة، وأنه يريد تطبيق مفاهيمه عن الحرية والديمقراطية، لكن بوساطة الصاروخ وطائرات الشبح وأحدث الاسلحة المدمرة.

والمثير للدهشة أن هذه الدولة العظمى سمحت داخلياً لمواطنيها بالتنافس الديمقراطي، لكنها لم تسمح بذلك فيما بين الدول والشعوب، وتحدثت دوماً عن مصالحها، وتجاهلت تماماً مصالح الشعوب وسيطرت على مجلس وسخرته لأهوائها، ولجأت دوماً إلى القوة المدمرة، واستنزفت طاقات الأمة العربية واموالها، وصدرت إلينا الاسلام الإرهابي الذي صنعته في أفغانستان.

واستطاع القائد التاريخي، أن يقلل إلى أبعد الحدود من هذا الأذى الذي لايعرف حدوداً ولاضوابط، وتمكن من ضبط الأمور، ومن ثم الاستمرار في مسيرة الاستقرار والنماء، وظل ثابتاً في مواقفه تجاه اسرائيل، ولم يتنازل قط، وفي عصر التنازلات أمام إسرائيل والولايات المتحدة، فقط سورية حافظت على الشرف العربي، وعلى كرامة الماضي، وضمان عدالة الحاضر والمستقبل، وهذا الموقف هو الذي ساند ـ ومايزال يساند ـ رفض التطبيع مع العدو في كل مكان من الوطن العربي، وبات القائد الأسد وحده الصائد للهوية العربية، ولأول مرة في تاريخ العرب الحديث، كان هو الزعيم العربي الذي امتلك شرعية الجماهير العربية عن قناعة كاملة. لاعن عاطفة وانفعال.

لاول مرة في تاريخ العرب الحديث، كان هو الزعيم العربي الذي امتلك شرعية الجماهير العربية عن قناعة كاملة. لاعن عاطفة وانفعال.

وفي واقع الأمر عندما نتناول المراحل الدستورية الأربع التي مرت، نجد القائد الأسد قد وصل في نهاية كل مرحلة إلى

ذروة شامخة على الصعد العربية والداخلية والاسلامية والعالمية، وهو بحكم مواكبته للتطور وللتقدم لم يركبه الغرور ليخلد إلى النجاحات، بل ثابر على التقدم والعطاء، وهكذا كانت كل ذروة بالنسبة له قاعدة للانطلاق نحو ذروة جديدة، أيضاً متجددة موائمة دوماً لمقتضيات التطور السياسي والاجتماعي لعالمنا الذي يودع الآن قرناً عجيباً في التاريخ، هو القرن الذي شهد ذروة الاستعمار وزاوله، وفيه كانت الحرب الكونية الأولى ثم الثانية، وبعد ذلك الحرب الباردة والتبدل في القوى، وتعقد الصراع ضد اسرائيل، وها نحن في أواخر هذا القرن قد دخلنا إلى عصر المعلوماتية ومن ثم نحن في طريقنا نحو المرحلة المقبلة التي نتمنى من الله تعالى أن تلوها مراحل أخرى، وأن يمد الله في عمر قائدنا التاريخي، ويمنحه القوة للاستمرار في حمل الرسالة.

ومرحلة الاستحقاق الدستوري الجديدة قد تختلف عن جميع المراحل المتقدمة، وصحيح أنها استمرار لها، لكنها متميزة لأن العالم داخل الآن في عصر جديد، عصر ستظهر فيه قوى جديدة، وستنكمش فيه بعض القوى القديمة، عصر ستكون المواجهات فيه للثقافات أو لنقل الحوار بين الحضارات أو الصدام، وأهم خطوات الحضارات العالمية الآن هو **الخط الغربي الكاثوليكي البروتستانتي** بزعامة الولايات المتحدة، مع محاولة للتملص من مظلة هذه الزعامة من قبل عدد من الدول الأوروبية الغربية بزعامة فرنسا (دول اليورو).

الخط الكونغوشي وتمثله الصين، وسيشكل هذا الخط خلال سنوات القوة الأعظم في جميع المجالات البشرية والاقتصادية،

والخط الثاني هو الخط الكونفوشي وتمثله الصين، وسيشكل هذا الخط خلال سنوات القوة الأعظم في جميع المجالات البشرية والاقتصادية، وربما العسكرية، وقد ينجح في أحتواء دول شرقي آسيا، ولربما سيكون بين ذلك اليابان، لابل أكثر من ذلك، لربما استراليا، والخط الآخر المفتت، لكنه الواعد جداً هو الخط الاسلامي، ثم هنالك **الخط الأرثوذكسي** الذي لم تظهر ملامحه بوضوح بعد، **أي خط موسكو - بلغراد - صوفيا - أثينا،** والذي نتلمس أثاره في حروب الصرب ضد مسلمي البلقان، لابل حتى ضد الكاثوليك، والمهم أن هذه الخطوط ستكون محور أحداث القرن المقبل.

ويحتاج الخط الاسلامي إلى دولة

مرجع او مركز عربية، ووحده القائد الأسد هو الذي يمتلك الرؤية الاستراتيجية، ويمتلك الأدراك والثقافة والحنكة، ويمتلك الثقة الجماهيرية العربية والاسلامية، وهو الذي يستطيع العمل بسرعة ونجاح في سبيل ايجاد دولة مركز عربية، تقود العرب والمسلمين، فدمشق العصر الأموي هي وحدها التي وحدت العرب والمسلمين، ولعل دولة المركز تكون في البداية مكونة من سورية ومصر والسعودية مع من يود الانضمام إليها، أو لنقل: الرئيس الأسد هو وحده الذي يملك القدرة على تطوير اعلان دمشق إلى دولة أو هيئة عربية مرجعية للعرب والمسلمين.

هذا إذا تركنا الصعيد الخارجي، تستدعي مقتضيات النجاح أعمالاً كثيرة في الداخل، على رأسها إعادة النظر في برامجنا وخططنا التعليمية والثقافية والاعلامية لتحمل مقتضيات المرحلة المقبلة والقيام بأعبائها، فنحن الآن نمتلك بنية تحتية صالحة لأن تشكل منطلقاً لما نستهدفه، ومتوجب علينا القيام علينا بها، وألح على كلمته المتوجب، لأن القائد الأسد أحرص الناس على أداء الواجب.

من غير الممكن ان نفي في محاضرة واحدة ذكر الانجازات العملاقة التي نعمنا بها، وحكم الاختصاص أقول: إن الحاجة قائمة لتوثيق هذا العصر بشكل علمي، وعلى العموم نلاحظ:

لقد نعم الناس خلال العقود الثلاثة الماضية بالاستقرار والأمن، وتطلعوا إلى السلم الاجتماعي الكامل، وإلى النمو الاقتصادي المتواصل، وإلى السلام والوحدة وإلغاء التخلف، ومواكبة مسيرة العصر، وتطلع الشعب بلهفة إلى الاستمرارية، ومثلما اكتشف يوم التصحيح قائده التاريخي، رأى شروط الاستمرار متوفرة في الباسل، النجل الأكبر للسيد الرئيس، وخلال حقبة قصيرة بات الباسل مالىء الدنيا وشاغل الناس، لقد بات هوية متميزة، وإن كانت متينة الروابط وعميقة الجذور، وقوية الأواصر بالمدرسة التي تخرجت منها.

الباسل مالىء الدنيا وشاغل الناس

وكان كلما ازداد الباسل تألقاً كلما عظمت أحلام المستقبل، وازدادت الطمأنينة على الوطن وعلى الأولاد، وعلى الرسالة وعلى التحرير والحضارة، وعلى أمانة الماضي وتطلعات المستقبل، لكن لامرد لقضاء الله، قضى الباسل

كلما ازداد الباسل تألقاً كلما عظمت أحلام المستقبل، وازدادت الطمأنينة على الوطن وعلى الاولاد

كان بيننا غريباً، فطوبى للغرباء، الصالحون إذا فسد الناس.

شهيداً، فصنع بشهادته آخر الملاحم من جلجامش، إلى كربلاء وذات الهمة، وعنترة وحمزة البهلوان والملك الظاهر، ومثلما تفجرت المآقي تفجرت الأقلام، وكتبت شعراً ونثراً عن الباسل.

وكنت قد شهدت عشية الفاجعة شباب وفتيات جيل الباسل يندفعون بحزن عميق وعفوية مطلقة نحو سفوح قاسيون لتوديع الباسل، وكان الوقت - كما نعلم - شتاء، البرد فيه شديد، ومع هذا شاهدت الفتيات والفتيان يندفعون بملابس خفيفة، وبأحذية وبدون أحذية، أنستهم النازلة أنفسهم.

وشهدت في اليوم التالي - في الطريق إلى القرداحة، أمواج من شعبي، جاءت من جبل لبنان ومن كل مكان في وطني، لقد شعرت وقتها أن أمتي عادت فأتحدت، مشاهد لن أنساها، لن أنسى مطلقاً صورة السيد الرئيس، وهو داخل إلى حرم المسجد ليصلي على الباسل، بالهول تلك الساعة، وفي اليوم التالي صافحته معزياً، فإذا به هو الذي يعزيني، وفي هذا مصداق لما قلته: غدا الباسل هوية، امتلكها كل مواطن، وفقدانه كان فاجعة لكل مواطن، والقائد التاريخي، وإن كان الأول في الخسارة، لكن ريادته ورسالته ترقى به لتقديم التعازي لمواطنيه، وهذا ماحصل، وكلنا يذكر حديث السيد الرئيس ورسالته إلى مواطينيه.

أسأل الله تعالى الذي فجعنا بفقدان الباسل، وابتلانا بفراقه أن يغفر للباسل يوم الحشر، وأن يفسح له في القبر، وأن يجعل سبيل الخير سبيله، ودليل الرشاد دليله، فلقد عاش حميداً رشيداً، واستشهد فقيداً سعيداً، فلقد كان عظيم الفهم، كثير الحلم، رفيع العماد واري الزناد، منبع الحريم، سليم الأديم، ولقد كان في المحافل شريفاً، وعلى الأرامل والمحتاجين عطوفاً، وعن الفحشاء عفيفاً، لقد كان بيننا غريباً، فطوبى للغرباء، الصالحون إذا فسد الناس.

أمد الله بعمر السيد الرئيس، قائدنا التاريخي، وأعان الدكتور بشار وأنار سبيله.

★ ★ ★

قطنة

وآخر التنقيبات الأثرية فيها

دعد تقلا

سورية بلد الحضارة والحياة عاشت كمملكة معروفة لها تاريخها العريق وآثارها الباقية إلى الآن تحكي قصتها مع الحضارة والتاريخ وهي دولة خضراء محاطة بها الصحراء.

وقد أهتم المؤرخون وعلماء الآثار بهذه البقعة من الأرض منذ بداية القرن الماضي وركزوا بحثهم وثقلهم العلمي على دراسة بعض الأوابد الأثرية والتاريخية والتي كان بعضها مجهولاً مستندين في ذلك على دراسة الطبوغرافية التاريخية لهذه المنطقة معتمدين على أمرين أساسيين وهما علم الآثار واللغات القديمة إضافة إلى الوثائق التاريخية، فالطبوغرافية التاريخية للمدن والقرى يعود تاريخ نشأتها وازدهارها إلى العصور الكلاسيكية (العصور الهلنستية والرومانية والبيرنطية) والطبوغرافية التاريخية للعصور المسماة بالعصور الشرقية أي تلك التي سبقت العصر الهلنستي.

وكان من رواد البحث في تلك الفترة الأساتذة مارتين هاراتان الذي كتب عدة أبحاث حول Sxinidshope.

واعتمد الدارسون في أبحاثهم على المصادر المتعلقة بالعصور القديمة في سورية والعراق والتي تقسم إلى (مصادر مصرية ـ مصادر حثية ـ مصادر آشورية ـ مصادر آرامية).

وفيما يلي عرض لأهم المعلومات التي عرفناها عن مدينة قطنة (المشرفة)

قطنة: موقع أثري قديم يشهد على أهمية المنطقة عبر آلاف السنين وهي موقع تل المشرفة الحالية على مسافة ١٥ كم شمال شرق مدينة حمص على طريق سلمية تنتصب المدينة فوق تلة صخرية وكانت تزنرها ٤ كم من الأسوار فيها أبواب وتحصينات دفاعية قوامها حجارة ضخمة، وتميز بها حصون وقلاع هامة. وأهم من بدأ التنقيب في هذه المنطقة الفرنسي الكونت (دو سينيل دبوسون في الأعوام /١٩٢٤ و ١٩٢٧ حتى عام ١٩٢٩/ على سجلات معبد الرب ين أغال التي أثبتت بجلاء أن

قطنة: موقع أثري قديم يشهد على اهمية المنطقة عبر آلاف السنين وهي موقع تل المشرفة الحالية على مسافة 18 كم شمال شرق مدينة حمص

تل المشرفة هو مدينة قطنة القديمة وقد كتب أسمها في هذه الوثائق ووثائق ماري وآلالاخ ورسائل العمارنة (قطنة). أما في اللغة المصرية فقد كتب (قادن) أي قطنة. وأوردته الوثائق الحثية بثلاثة أشكال: قطنة، جتما، كتنتا. وليس لهذا الأختلاف في كتابة الأسم أي مغزى فالمعول عليه هو كيف وردت بالوثائق المحلية.

وأثبتت التنقيبات أن الموقع قد أستوطن في الألف الثالث ق. م وكان على صلات وثيقة مع مناطق بلاد الشام الأخرى وبلاد مابين النهرين، وقد عثر نتيجة هذه التنقيبات على بعض الجرار الفخارية من صنع بلاد سومر، وكانت من عصر سلالة أور الثالثة (٢١٥٠/ ١٩٥٠) ق. م كما ارتبطت هذه المدينة بعلاقات تجارية مع مصر حيث وجد تمثال (ايتا) ابنة الفرعون امين ايمحب الثالث (١٩٢٩/ ١٨٩٨ ق. م) والذي عثر عليه في قطنة والمؤكد من خلال حفريات ألواح أرشيف معبد ين أغال أن قطنة كانت عاصمة المنطقة خلال الألف الثاني ق. م فقد كان لها علاقات تجارية جيدة مع مصر وغيرها من الدول القديمة في المنطقة. ومن المفيد أن نقول ان نقل البيوت السكنية من تل المشرفة سيساهم حتماً في إعطاء صورة أوضح عن هذه المنطقة وقبل أن أتحدث عن آخر المستجدات التي وصل التنقيب إليها لابد وأن نعتمد على وثائق ماري وآلالاخ في كتابة تاريخ قطنة. فالوثائق التي تم العثور عليها في مملكة ماري القديمة استطاعت أن تعطي نتائج جيدة خاصة وأنه كان هناك علاقة مشتركة بين ماري وقطنة بسبب اعتداءات البدو على القوافل التجارية بين المملكتين طيلة القرن الثاني عشر ق.م. ومما ساهم في تمتين الروابط بين هاتين المملكتين علاقات المصاهرة. فقد طلب (شمسي آدد) ملك آشور من ملك قطنة (يسخي آدد) ان يزوج ابنته من ولده (يسمخ آدد) ملك ماري. فمن وراء هذا الزواج مصلحة لقطنة فما أن وصلت العروسة حتى عقد الطرفان (شمسي آدد) و(يسخي آدد) معاهدة تعهد فيها الأول بالوقوف إلى جانب قطنة في تعرضها لأي اعتداء من جارتها مملكة يمخاض (حلب). ويقال بأن هذا الزواج لم يكن موفقاً. لكن المهم في الأمر أن علاقات قطنة مع أواسط بلاد الشام وماري على الفرات وأشور على دجلة قد

ساعد هذا الموقع الجغرافي في السيطرة على الطرق التجارية بين بلاد الشام والأناضول من جهة وبلاد بابل من جهة أخرى.

وساهم أيضاً في منع مملكة يمخاض (حلب) من التوسع شرقاً، وهذا في عهد (يسخي آدد) أما في عهد خليفته أموت بي ال تحسنت علاقات قطنة مع مملكة يمخاض وذلك لأن مملكة يمخاض استطاعت أن تتوسع حتى سواحل البحر المتوسط غرباً ونهر الفرات شرقاً إضافة إلى عودة (زمري ليم) إلى عاصمة مملكة ماري بعد أن تعاون مع أخوانه ملوك يمحاض في طرد (يسمخ آدد) من ماري فانقلبت بذلك موازين القوى وتغيرت العلاقات بين الدول.

فبعد أن كانت ماري حليفة قطنة ضد يمحاض أصبحت حليفة يمخاض. إلا أن هذه الدول الثلاث لم تتحارب ولم تحاول أي منها التعدي على جاراتها فقام في المنطقة نوع من التوازن يأخذ بعين الاعتبار مصلحة كل مملكة وقد حافظ أموت بي ال على مكانة قطنة السياسية وحسن علاقاته التجارية مع بابل وفي عهده تنقل تجار قطنة بين معظم عواصم ممالك عصرهم، فوصلو إلى حلب وكركميش وبابل وماري وآشور وغيرها، ولكن هذه العلاقات المتوازنة لم تستمر فقد ضرب بها حمورابي هذا الحلف بهجومه على ماري وقضائه عليها ولم تقم بها قائمة كعاصمة من بعد وكان ذلك عام ١٧٥٩ ق.م تقريباً.

عمليات التنقيب في المشرفة

البعثة الوطنية تقوم بالتنقيب باشتراك عدد من المختصين

بعد أن تم نقل البيوت السكنية من تل المشرفة بدأ موسم التنقيب الأول ١٩٩٤ بتكليف من المديرية العامة للآثار والمتاحف بقيادة البعثة الوطنية التي قامت بالتنقيب ولمواسم متتالية شارك فيها عدد من المختصين من المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق ومن دائرة آثار حمص إضافة إلى مشاركة عدد من طلاب قسم الآثار بجامعة دمشق وبعض المتخرجين من معهد الآثار بدمشق.

طبعاً تم تقسيم هذه المدينة إلى مواقع أُعطيت اسماء (ب - جـ - د) وبدء العمل بالطبقات السطحية وبشكل دقيق وبطيء حتى يستطيعون سبر أغوار هذه المنطقة، والعمل في هذا المجال لايعط نتائجه بين ليلة وضحاها، وإنما العمل في التنقيب يحتاج إلى فترات طويلة ولأيدي خبيرة لذلك كانت الأعمال محصورة في الطبقات السطحية تقريباً فقد بُوشر

العمل في هذه الحقول الثلاثة بدءاً من حقل (جـ) الذي يقع عند الأطراف الجنوبية للأكروبول ويبعد حوالي خمسين متراً إلى الغرب من الحقل (ب) حيث بدء بتنفيذ سبر لمعرفة طبيعة الطبقات حيث توضح أنها تعود إلى فترة الحديد الثاني المتأخر (القرن السابع قبل الميلاد) والتي نقب عنها سابقاً والذي يميز هذه الفترة أن الجدران كانت تبنى من اللبن وأساساتها حجرية مربوطة بأرضيات من التراب المدكوك والممزوجة مع نماذج فخارية من الأنماط المعروفة في تلك الفترة والمسماة (Redslip) والدراسة المعمارية لبداية فترة الحديد الثاني تحمل الكثير من التعقيد وتتألف بشكل أساسي من مجموعتين معماريتين متتاليتين طبقياً، فوق المجموعة الأولى وهي (الأحدث) تتوضح طبقة سميكة من التراب المسود بسماكاتٍ متفاوتةٍ والناتجة في أغلب الظن عن حريق كبير قضى على جدران وأرضيات هذه المجموعة. أما المجموعة الثانية (الأقدم) التي تتم دراستها بشكل منهجي مربوطة مع مجموعة من الكسر الفخارية التي تحمل في شكلها وزخارفها الكثير من خصائص المنتجات الفخارية لبدايات فترة الحديد الثانية، والدراسة النمطية لهذه المجموعة الفخارية سيكون لها أهمية كبيرة حيث يتوقع أن تسلط الضوء على طبيعة ودور منطقة حمص في النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد بين مواقع الشمال (حماة ـ تل أفس ـ تل قرقور ـ تل رفعت).

تسليط الضوء على طبيعة ودور منطقة حمص في النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد بين مواقع الشمال (حماة ـ تل أفس ـ تل قرقور ـ تل رفعت).

ومواقع الساحل السوري (تل الكزل ـ تل عربة ـ تل سوكاس ـ رأس ابن هانيء). وبنفس الحقل (ب) تم متابعة سبر الطبقات الأولى حيث ظهرت على أعماق بين (١,٧٠ م إلى ٢,١٥م) مجموعتان معماريتان طبقياً تقودان إلى فترة البرونز الوسيط الثاني دُرست المجموعة الأحداث بشكل دقيق ومُفصل وهي تتألف من جدران من اللبن محفوظة بشكل معقول ومربوطة مع أرضيات من التراب المدكوك والتي أنهار فوقها عدد كبير من الكسر الفخارية التي تحمل الكثير من الأشكال والزخارف المميزة للإنتاج الفخاري لمنطقة حمص وسهل عكار في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد وبعد أو وصل التنقيب إلى هذه المرحلة في الحقل (ب) قامت البعثة الوطنية التي كلفتها وزارة الثقافة برئاسة

الدكتور ميشيل مقدسي بأعمال الرفع الهندسي والتوثيق العام وأخذ المناسيب ثم القيام بأعمال التصوير الفوتوغرافي إضافة إلى دراسة بعض المقاطع الهامة التي تظهر بشكل جيد التسلسل الطبقي للسويات المكتشفة على أن تتابع مواسم التنقيب المقبلة طبعاً هذا بالنسبة إلى الحقل (ب) أما الحقل (جـ) فقد تم التركيز على المربعات (E.VII/I.20 و E.VIII/I.I و E.VIII/m.1 و /E.VIII n.1) وهذه المربعات واقعة عند القسم الغربي من الحقل حيث كُشف عن مجموعة معمارية مؤرخة في النصف الثاني من فترة الحديد الثاني تتألف من جدران من اللبن مربوطة مع أرضيات سكنية قاسية تتألف من الكلس المدكوك والممزوج مع الجص والتراب المصفر. هذه الجدران تؤلف فيما بينها مجموعة من الغرف المتصلة مع باحةٍ كبيرةٍ بينما المنتجات الفخارية فقد كانت كثيفة ومربوطة بشكل مباشر مع الأرضيات الأمر الذي يسهل دراستها بشكل منهجي. ولدى الكشف بنفس الموقع (جـ) في المربع (E.VIII.2,1) كشف في أعماق تصل إلى ٢,٧٠ م عن كتل من اللبن والتراب المدكوك قد تكون مؤرخة من البرونز الوسيط الثاني. كما كُشف بنفس المربع على أعماق تتراوح بين (٣,٨٠ و ٤ م) كشف عن سوية تتميز بأرضية قاسية من اللبن المدكوك المربوطة مع مجموعة من الأحجار المتوسطة الحجم والتي قد تؤلف فيما بينها جداراً من الحجم المتوسط.

وتعود المنتجات الفخارية ضمن هذه السوية إلى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد (وتتميز بشكل أساسي من كوؤس سورية مزخرفة من النمط المعروف بـ (Reservedslip) والمؤرخة في تل مرديخ. وفي القسم الغربي من هذا الحقل تم الانتهاء من دراسة وكشف المجموعة المعمارية المؤرخة في النصف الثاني من فترة الحديد الثاني وقد بوشر بأعمال التصوير والرفع الهندسي.

الانتهاء من دراسة وكشف المجموعة المعمارية المؤرخة في النصف الثاني

أما مايخص الحقل (د) فقد تم متابعة التنقيب في المربعات (G.IX/F.14 و G.IX/F.13 و G.IX/F.12 و /G.IX e.15 و G.IX/e.13 و G.IX/F.15) حيث كشف عن سوية معمارية تعود إلى النصف الثاني من فترة الحديد الثاني تتألف بشكل أساسي من مجموعتين معماريتين منفصلتين. المجموعة الأولى ضمن المربعات الجنوبية، عثر فوق

مجموعات من العظام الإنسانية المخلوطة بشكل عشوائي مع عدد من الكسر الفخارية المؤرخة في فترة البرونز الوسيط الثاني،

أرضياتها على مجموعات فخارية هامة منها على سبيل المثال صحن له قاعدة طويلة من النمط المعروف (Redslip) بالإضافة إلى أجزاء من جرة تخزين من النمط السوري.

وبنفس الحقل (د) تم كشف سوية معمارية تعود إلى النصف الثاني من فترة الحديد الثاني وهذه السوية محفوظة بشكل سيء على أعماق قريبة جداً من سطح الموقع وفي المربع (G.IX/F.II).

اسفر السبر الطبقي وفي أعماق تتراوح بين ١,٤٠ و ١,٦٠ م عن فوهة بئر منحوتة بالصخر الطبيعي لها مسقط منتظم له شكل مربع. وبعد تفريغ هذا البئر ظهرت مجموعات من العظام الإنسانية المخلوطة بشكل عشوائي مع عدد من الكسر الفخارية المؤرخة في فترة البرونز الوسيط الثاني، هذه الكسر الفخارية تنتمي إلى أوان من الحجم الصغير والتي وجد مايشابهها في الكثير من المدافن التي كشف عنها في العديد من المواقع السورية مثل (قلعة حماة، رأس شمرة، تل سوكاس، تل عمريت) وبنفس الحقل وفي المربع (G.IX/F.II) ثم متابعة تفريغ الحقل (٧٠٢) الواقعة في النصف الغربي من المربع تم كشف تراكمات تجمعت بصورة عشوائية ضمن بقايا فخارية تعود إلى فترة البرونز الوسيط بالإضافة إلى عظام بشرية وحيوانية مختلفة ممزوجة مع كتل هشة بألوان مختلفة (بني مصفر، بني مسود، وأصغرها فاتح). وتوقف الكشف عن هذه البئر على عمق يصل ١٢,٩٠ م من سطح المربع لعدم وجود الإمكانيات الفعالة والسريعة لإخراج الأتربة وقد ظهر عند هذا المستوى مجموعات من الأحجار المختلفة الأحجام والمختلطة مع تراب بني هش.

وأخيراً نتمنى التوفيق للبعثة الوطنية الجديدة التي كلفتها المديرية العامة للآثار والمتاحف في متابعتها أعمال الحفر والتنقيب في هذا العام.

مراجع البحث:

١ ـ الحوليات الموجودة في مديرية الآثار بحمص.

٢ ـ الندوة الأثرية الأولى الصادرة عن الجمعية التاريخية السورية.

٣ ـ وثائق ماري وآلاخ.

٤ ـ تقرير موسم التنقيب الثالث في موقع المشرفة.

القباب تتوج سقوف المساجد

دراسة لمسجد خالد بن الوليد
في حمص ـ الشام

محمد فيصل شيخاني

أمين سر الجمعية التاريخية السورية
ومتحف الآثار الإسلامية في جامع خالد بن الوليد

١ـ القباب في العمارة:
يعرف صاحب المنجد القبة (Dome) بانها بناء سقفه مستدير مقعر، وجمعه قباب وقبب، والقبة الزرقاء يكنى عنها بالسماء ويقال عن الخيمة القبة.

والقبة وثيقة الصلة بالسقف القوسي على شكل هلال وتوجد بعض السقوف المبنية بشكل أقواس في أبنية قديمة كما في بعض جوانب الأبنية الموجودة في رأس شمرة في الساحل السوري في حضارة أوغاريت وترجع إلى ١٤٠٠ سنة ق.م.

وتمتاز الأسقف المبنية على شكل قباب بأنها تريح الناظر إليها وتشعره بالرحابة والانطلاقة المتجهة نحو العلا ومشابهة السماء الزرقاء لها وهذا الشعور له مايبرره في دنيا المساحات، ففي حساب وتطبيق قوانين المساحة في الدائرة المستوية ونصف الكرة اللتين تشتركان بنفس قياس القطر الواحد نجد أن مساحة الكرة تشكل ضعف مساحة الدائرة المستوية، فإذا أضفنا مساحة الرقبة التي تستند إليها القبة الكروية أحياناً أدركنا ان المساحة ستزيد عندئذ عن الضعف في القبة عنها في المساحة المستوية.

وارتفاع قمة القبة عما جاورها يزيد في رحابة المساحة التي تعطيها القبة لناظريها وشعورهم بالرحابة والراحة والإطمئنان وقد أتيح لي أن أشاهد القبة الوسطى في

سبق المعماريون المسلمون المعماريين الآخرين في استعمال القباب في السقوف وزادوا في أطوال اقطارها

مسجد وجامع السليمانية في استانبول وشاهدت جموع السياح الألمان والإنكليز والفرنسيين ينظرون الدقائق الطوال إلى القبة الكبرى والقباب الأخرى وهم مشدوهون من عظمة هذا البناء السامق.

ومما لاشك فيه أن أبنية الكنائس قد سبقت ببناء هذا النوع من القباب ومما لاريب فيه أيضاً أن أولى المساجد في الإسلام كانت أسطحتها مستوية بسيطة وخاصة مابني منه زمن الرسول الكريم (ص).

كما لايغيب عن ذاكرتنا أن أول مسجد وجامع عظيم بني في بلاد الشام كان في دمشق زمن الأمويين قد بني جزء من سقفه بشكل سقف جملون هرمي galgele roof ولم يكن بشكل قبة.

ولكن الذي حدث فيما بعد أن سبق المعماريون المسلمون المعماريين الآخرين في استعمال القباب في السقوف وزادوا في أطوال اقطارها وبخاصة المعماري العثماني سنان باشا.

وكان هذا المعماري المبدع والبارع قد بني أول معمارية له في مجمع الخسرفية في مدينة حلب بقبة متسعة تغطي سطح الجامع بدون أعمدة وذلك في عام ١٥٣٦ .

وإنني افترض بأن عمالاً حلبيين عاونوا سنان باشا في العمل الريادي وهذا في رأيي لايعيب عمل هذا المعماري المبدع وبخاصة أنني شاهدت في بعض أنحاء حلب قباباً كاملة بنيت من الحجارة البيضاء المنحوتة وليس من الآجر الذي بنيت منه القباب الكبيرة الأخرى.

وقد وصف سنان باشا بأنه يخرج من الملاحظات والأفكار التي يلتقطها من هنا وهناك التقاليد المعمارية التركية(٤) وكان استاذاً كبيراً في بناء القباب وتنسيق المساحات فقد بلغت قبة جامع السليمانية ٢٦,٥ متراً في قطرها وفي الثمانين من عمره أبدع مسجد السليمية في أدرنة بقبقته ذات القطر ٣١,٥ متراً بأزيد من قطر كنيسة آيا صوفيا بعدما استحوذت فكرة لدى المعماريين الأوروبيين بأن لاأحد يجسر أن يزيد عن قطر آيا صوفيا.

وسواء أكانت الأقبية تشبه السراديب تحت الأرض Catacomb بدون دعامات أو بدعامات buttress فقد انتشر استعمالها في الأبنية الأوروبية والشرقية على السواء وقد انتشرت في

اسقف الأبنية المتنوعة في الشرق الإسلامي فغطت الأضرحة والحمامات العامة والمدارس والقصور والمساجد وصار يضاف إليها في قاعدتها رقبات تحتلها نوافذ تدخل الهواء والضوء لداخل الأبنية.

وفيما بعد صارت تقليداً تراثياً فلكلورياً تدخل في بناء البيمارستانات والمدارس والتكايا وقد وجد لها غرض مزدوج في الحمامات فهي تمد في ساحة الراحة بالإتساع ويمكن إضافة فناجين زجاجية للإضائة في النهار وفي مقاصير الإستحمام.

وعندما استعملت مادة الإسمنت في البناء في أوائل هذا القرن عادت أسقف الأبنية والمساجد إلى الإستواء ولم تستعمل مادة الإسمنت إلا فيما بعد عندما أدخلت التقنية والمهارة لدى المهندسين والمعماريين.

فصارت القباب تتوج رؤوس الأبنية من جديد وبخاصة في المساجد المحدثة.

ب ـ قباب مسجد وجامع خالد بن الوليد في حمص

مسجد وجامع خالد بن الوليد مَعْلَمة تاريخية وأثرية ومعمارية متميزة، ولها من المكانة والشهرة مايتجاوز حدود حمص ليصل إلى كل قطر عربي أو إسلامي، ولايتجاوز الواقع إذا قلنا أنه يصل إلى أكثر من ذلك بكثير.

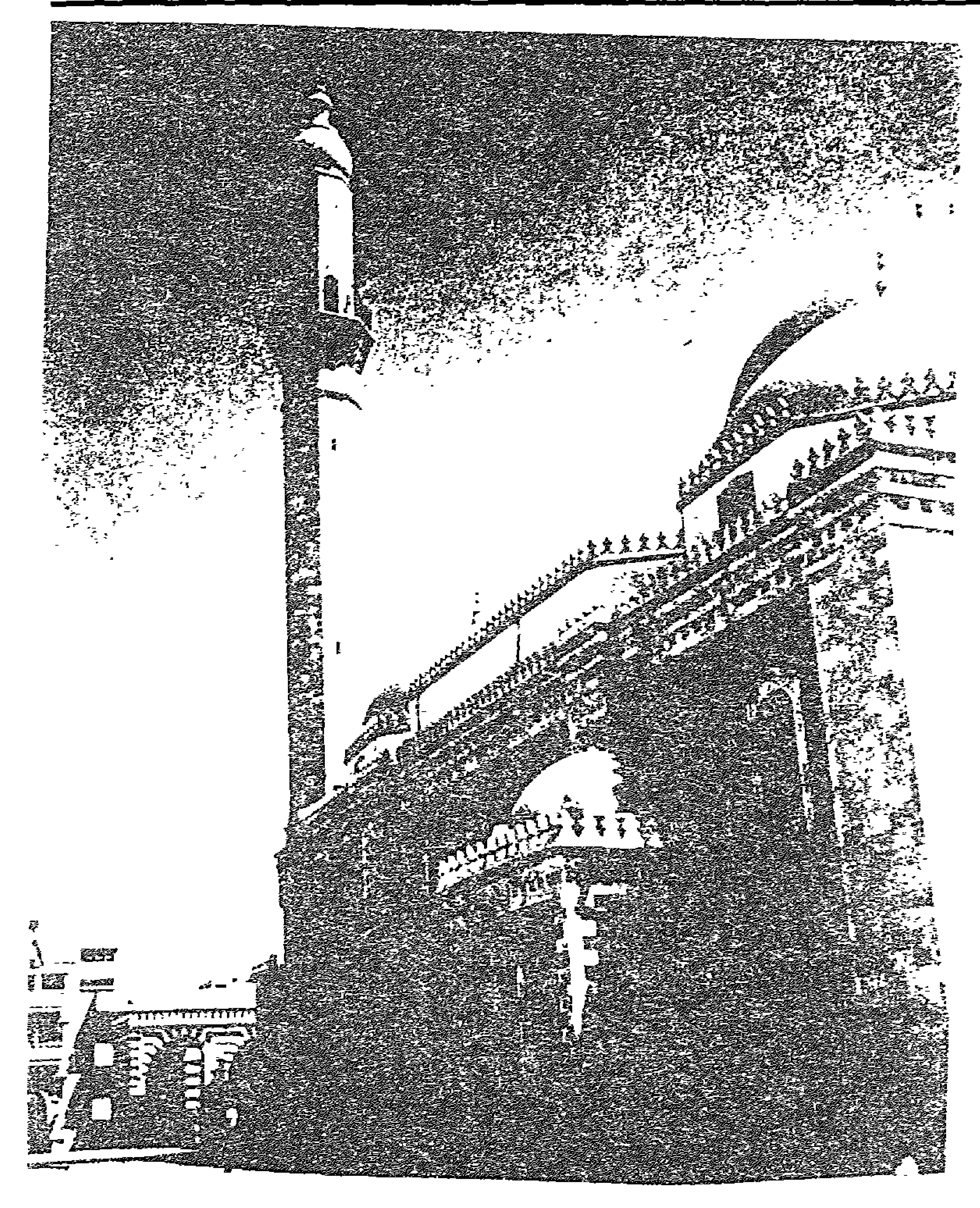
لاغرو في ذلك لأن ميزات شخصية الصحابي خالد بن الوليد قد عمت الأسماع في كل الأصقاع بما قام به من الفتوحات المذهلة وبما حباه الله من مهارة عسكرية لاتضارع في كل معاركه التي خاضها في الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام.

إن مساحة المناطق التي حررها ابن الوليد والتي تبلغ مليوناً وثمانمائة الف كيلو متر مربع لأمر بالغ الفخر لكل من يعشق البطولة والفداء والتضحية في كل زمان ومكان في دنيا القيادات العسكرية المتميزة بالاستراتيجية الواحدية والتكتيكات المعقدة في كل معركة على حدة.

مساحة المناطق التي حررها ابن الوليد والتي تبلغ مليوناً وثمانمائة الف كيلو متر مربع

لكل ذلك اكتسبت اعمال خالد بن الوليد الشهرة والمكانة اللائقة في نفوس القواد والعظماء وعامة الناس وصارت الصلاة في هذا المسجد تعبيراً عما يكنه الناس من تقدير ومحبة لهذا القائد خلال القرون.

لقد استمر التقدير لهذا القائد الفذ في نفوس العظام من القادة والزعماء أمثال



جانب من مسجد خالد وقد بدت مئذنته خالية من القاووق المخروطي الذي يميز المآذن العثمانية ويرى في الصورة وضوح ألوان الحجارة السوداء البركانية الواردة من منطقة الوعر في حمص

أخذت الصورة عام ١٩٩٦

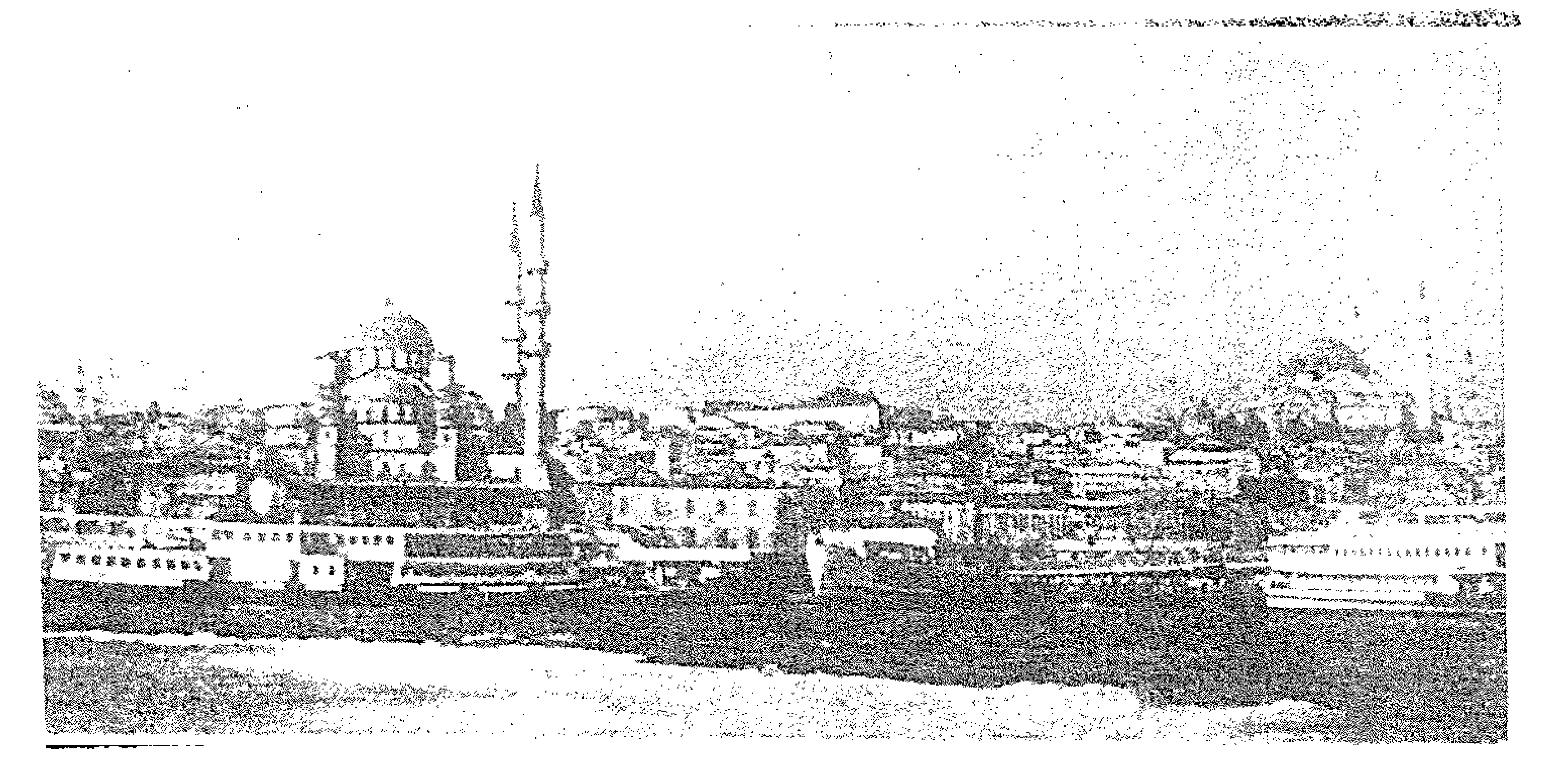
الظاهر بيبرس البندقداري الذي بنى أول مسجد فوق ضريح خالد بن الوليد ولم يصلنا شيء عن تصميم هذا المسجد ولكن يظهر أنه كان مبنياً على شكل مسجد بسيط مستطيل يشبه ماأقيم على ضريح عز الدين أبو حمرة خارج ريف حمص لأن المسجد المذكور كان في قرية الخالدية في ظاهر مدينة حمص وسقفه مستو وفي نهاية القرن التاسع عشر لم يعد المسجد بالشكل الملائم لمكانة هذا البطل ولأن قرية الخالدية التي يقع فيها المسجد صارت ضمن حدود المدينة بعد التوسع المعماري وقد اتجهت النية لتجديد هذا المسجد استطاع المسؤولون المحليون في حمص اقناع السلطة العثمانية الممثلة بشخص

السلطان عبد الحميد الثاني وقد امتد به العمر مبلغ ٧٧ عاماً بإعادة بناء المسجد بشكل جيد بعد هدم المسجد الأول.

أرسل السلطان المال والموافقة والمهندس المعماري التركي علاء الدين عبد الله أولصون وساهم المعماريون الحمصيون المهرة في تصميم المسجد وعمرانه واتخذ صفات معمارية متميزة بالخصوصية الحمصية بالمواد الموجودة وساهم ابناء حمص في جمع التبرعات وفي إتمام عمارة المسجد وصار أبناء كل حي يتبرعون بيوم عمل مجاني وبخاصة بعد انقطاع المدد السلطاني الحميدي بعد الإنقلاب الذي أطاح به، وقد بدىء بإشادة جامع خالد بن الوليد في بداية القرن العشرين وانتهى من اشادته عام ١٩١٢ وأما الرواق الشمالي فقد انتهى من عمارته عام ١٩٤٢ .

ومايهمنا من هذه الدراسة لهذه المعلمة الحضارية الإنسانية هو إخراج الفن المعماري لهذه الأنماط من البناء في هذه المعلمة وامتزاج الخبرة المحلية في الخبرة الوافدة، فأبعاد بيت الصلاة جاءت على النمط العثماني، والقباب جاءت على نفس النمط، لكنها صنعت وبنيت بأيدٍ حمصية عربية وإذا ألقينا نظرة متفحصة على المئذنتين المنارتين اللتين تنافسان لون السماء في ألقهما وبياضهما نرى فيهما لمحة من المعمارية المملوكية بكثرة أضلاع كل منهما وبما فيهما من

الفن المعماري لهذه الانماط من البناء في هذه المعلمة وامتزاج الخبرة المحلية في الخبرة الوافدة،



جامع السلطان أحمد بمناراته الست وجوامع أخرى كلها تنتهي بالقاووق المخروطي

مقرنصات بديعة وشيقة.

أما التراث المعماري الشعبي الحمصي فقد بدأ بإستعمال الحجارة التي يصفها المعماريون بالسوداء الزرقاء كناية عن صلابتها ومن وعر حمص والذي أعطى البناء الصلابة والقوة وبدا في بساطة الألوان الداخلية وخلو البناء من القيشاني والرخام فيما عدا المنبر والتكسية الجزئية للمحراب وماحوله.

وبدت العمارة الحمصية في الشبك الحديدي البسيط المجهز لدى الحدادين الحمصيين والذي ساد في فترات طويلة والذي يغطي المساحة الكلية للنوافذ بتناسق وجمال واستمرارية.

وما تم انجازه في هذه المعلمة هو تمازج الخبرة العثمانية للمهندس الإستانبولي مع الخبرة والتجربة الحمصية في تصنيع الفخار المشوي والقرميد الذي استعمل في إشادة القباب وأنصاف القباب في سقف الجامع.

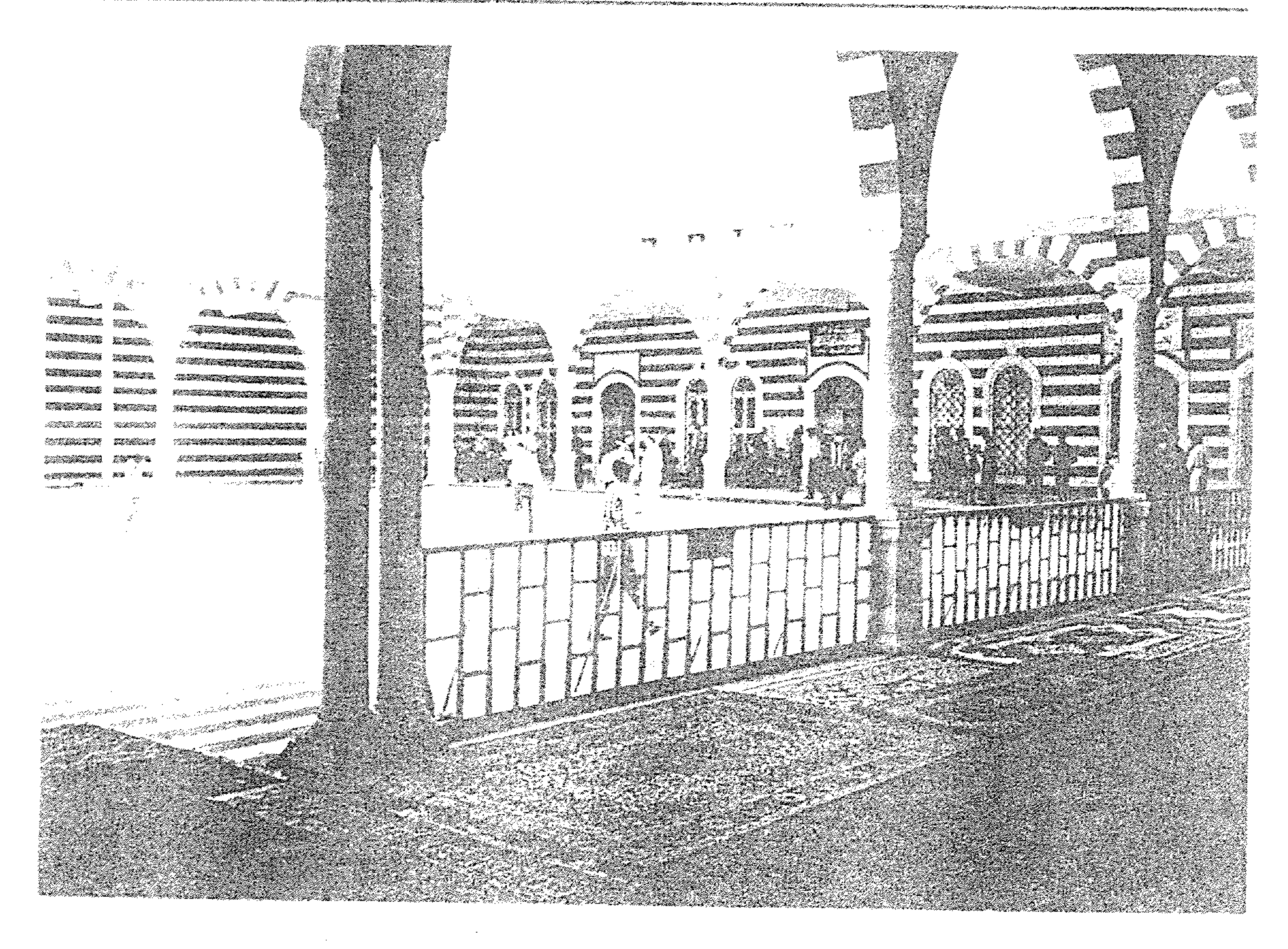
وقد حدثنا أحد أبناء آل الفاخوري الصانع البارع الذي صنع هذا القرميد ضمن التعليمات الخاصة بقياس اللبنات الفخارية من المهندس المسؤول وقام بإنشاء فرن قريب من منطقة الجامع لشي الفخار وقد بلغ عدد الفخاريات المستعملة حوالي /٥٥٠٠٠/ فخارية وقرميدية وقد كان ثمنها /٥٥٠٠/ ليرة ذهبية، ويتابع هذا الشاب الذي هو حفيد صانع الفخار بأن المهندس الإستانبولي قد قام بعمل قبة صغيرة تجريبية على أرض الجامع وعمرها بالكلس وتركها سبعة أيام ليتأكد من تشابكها وصلاحيتها، ثم أقدم بالفؤوس والمعاول والمطارق ضرباً بهذه القبة فلم تنفصل ولم تنكسر قرميداتها فتأكد له موافقة تربة حمص لهذا النوع من القرميد ومن ثم بدأ ببنيان القباب.

ولابد من الإشارة إلى أن القبة ذات القطر الذي يبلغ /١٤/ متراً مؤلفة من أربعة صفوف من الفخار فوق بعضها أما القباب الأربع الصغيرة فمشكلة من ثلاث طبقات وكذلك أنصاف القباب.

القبة ذات القطر الذي يبلغ /١٤/ متراً مؤلفة من أربعة صفوف من الفخار فوق بعضها

ويهمنا أن نذكر أن أبعاد هذا المسجد تكاد أن تقربه ليشكل مكعباً فأبعاده ٣٠ x ٣١ متراً وارتفاع القبة الكبرى عن الأرض ٣١ متراً ايضاً.

وتحمل القبة الكبرة والقباب وأنصاف القباب أربع دعامات سلمية متدرجة بدت بهذا التدرج رشيقة لطيفة وقد دخلت هذه المعلمة وصاحبها في عمق أفكار الجماهير ووجدانها وتراثها



باحة مسجد خالد وقد احتل الرواق الشرقي معه متحف الآثار الإسلامية والمعهد العلمي ١٩٩٦

الموروث فلا نجد أحداً في هذه المدينة إلا ويذكر أن أباه أو جده عمل فيه، فخالد بن الوليد رمز البطولة والفداء والشجاعة، وعندما يهرع الزوار والسياح للتفرج على هذا المكان الذي يضم مسجده وضريحه فإنما يبرهنون على حبهم للمثل العليا وللفداء والشجاعة التي تحلى بها هذا القائد الفذ.

ونضيف إلى ميزات هذه المعلمة ارتباطها بالتراث الفلكلوري الذي كانت تنطلق منه أعلام النصر (السيارات) أو (السناجق) في احتفال تراثي هو الوحيد في العالم العربي الإسلامي (هو خميس المشايخ) كان يقام في ربيع كل عام وكانت الجماهير تهرع إليه من المدن اللبنانية والسورية والأردنية قبل أن يلغى الاحتفال به منذ عام ١٩٥٤ ولايزال العلم الخاص بجامع

خالد بن الوليد موجوداً في متحف الآثار الإسلامية الكائن في الرواق الشرقي للجامع.

وتتلى في رحاب هذا المسجد في كل عام قصة المولد النبوي الشريف بتجمعات جماهيرية كبيرة وبإحتفال رسمي برعاية محافظ حمص وكبار رجالات المدينة ولهذا لانستطيع إلا ان نردد مع باني المنبر الخشبي القديم هذه الأبيات اللطيفة المحفورة على هذا المنبر:

لخالد بقعة للخير جامعه
فلا يضام ولايرتاع جامعها
شاد السباعي اسماعيل منبرها
وافته من نعمة الباري عواطفها
حوى زخاريف نوع في صناعته
حيث أشرقت تاريخ ظرايفها

كسوته الداخلية تتألف من لون أبيض وحيد

جـ ـ اسلوب معمارية جامع خالد بن الوليد

مما لاشك فيه أن المصلى في جامع خالد تشبه أنماط العمارة العثمانية قاعة مربعة مسقوفة بقبة لها رقبة ويتقدم المصلى رواق مسقوف بالقباب لكن بناء هذا المسجد اختلف برواقه غير المقبب مثل جامع الخسرفية بحلب ذي القبة الواحدة، ولكن اختلافات بينه فرقته عن اسلوب هذه العمارة: فمآذن المساجد العثمانية تنتهي بقلنسوة مخروطية مكسوة بالرصاص وتعتني الكسوة الداخلية ببلاط من القشياني تكسو الجدران، كما نجد أن الكسوة الخارجية مصنوعة من الرخام وجزئياً من القيشاني أحياناً وإذا القينا نظرة متفحصة على مسجد السليمانية وعلى كنيسة أيا صوفيا وعلى مسجد أبي ايوب الانصاري ومحمد الفاتح في استنبول وعلى مسجد محمد علي في القلعة في مصر وحتى في مسجد الخسرفية في حلب.

نجد أن الفخامة والتزيين بالغة الحد الأقصى في الخطوط والإضافات والأبراج والقبيبات والشرافات والزخاف الخارجية المعقدة مما لانجده في جامع خالد حيث تتألف كسوته الداخلية من لون أبيض وحيد فيما عدا المحراب المزين بالنقوش والألوان.

زيادة في التوضيح نجد منبر جامع الخسرفية العثماني يكاد يصل إرتفاعه إلى السقف بينما منبر خالد الرخامي بدا بإرتفاع معتدل بالنسبة لبقية المساجد ذات الاسلوب المعماري العثماني البحت.

وحتى عندما دخل الاسلوب

الامبراطوري على العمارة العثمانية التي سبقت بناء جامع خالد نجد الاختلاف بيناً بين مساجد هذا العهد مثل مسجد اوطاكوي على البوسفور ومسجد خالد الذي خلا من أي نوع من انماط العمارة الامبراطورية التي استمدت بعض اساليبها من العمارة الامبراطورية الأوروبية.

لذلك يمكننا القول أن مسجد خالد بن الوليد الذي شابه جزئياً بعض المساجد العثمانية لكنه في مواد بنائه من الحجر الأسود البركاني الوارد من وعر حمص ومن قلة التعقيدات فيه وفقدان البلاطات القيشانية والكسوة الخارجية الرخامية ومن ندرة النقوش الكورنيشية وعدم وجود نمط الاكساء والأبلق في داخله وعدم وجود الزنانير بالآيات القرآنية وبمآذنه التي خلت من القاووق المخروطي الرصاصي ومن جزئيات غنية عديدة تقول انه بناء قائم بذاته عبر عن تأثيرات محلية ولكنه بدا بيساطته ورشاقته بناءً قوياً معبراً عن شخصية صاحب القبر البطل خالد بن الوليد الموجود فيه.

* ظهر الاسلوب الامبراطوري في أوروبا في عهد الامبراطوريات الأوروبية بعد عصر الركوكو وانتقل إلى السلطنة العثمانية.

د ـ لمحات من حياة خالد بن الوليد

خالد بن الوليد بن المغيرة بن مخزوم ولد سنة ٥٨٥ م وأسلم في السنة الثامنة للهجرة وكان عمره يزيد على الأربعين عاماً، واتصف منذ صغره بالفروسية والمبارزات مع أقرانه كما اتصف بالكرم والشجاعة والأقدام والحزم.

فاز في كل معركة خاضها خلال عشرة اعوام في الجزيرة العربية والعراق والشام حارب وانتصر ضد جيوش امبراطوريتين عالميتين وعفّر انفيهما في الرمال كما انتصر في معارك ضد المسلمين في البدء ثم صار أكبر قادتهم وحارب وثنيي قريش ثم المرتدين ثم القبائل العربية المحالفة للفرس أو البيزنطيين.

فاز في كل معركة خاضها خلال عشرة اعوام في الجزيرة العربية والعراق والشام

كانت له استراتيجية حربية تتمثل بسرعة الهجوم على اعدائه فلا يترك لهم فرصة للم شملهم كما كان يجعل خطوط تموينية من ورائه دوماً.

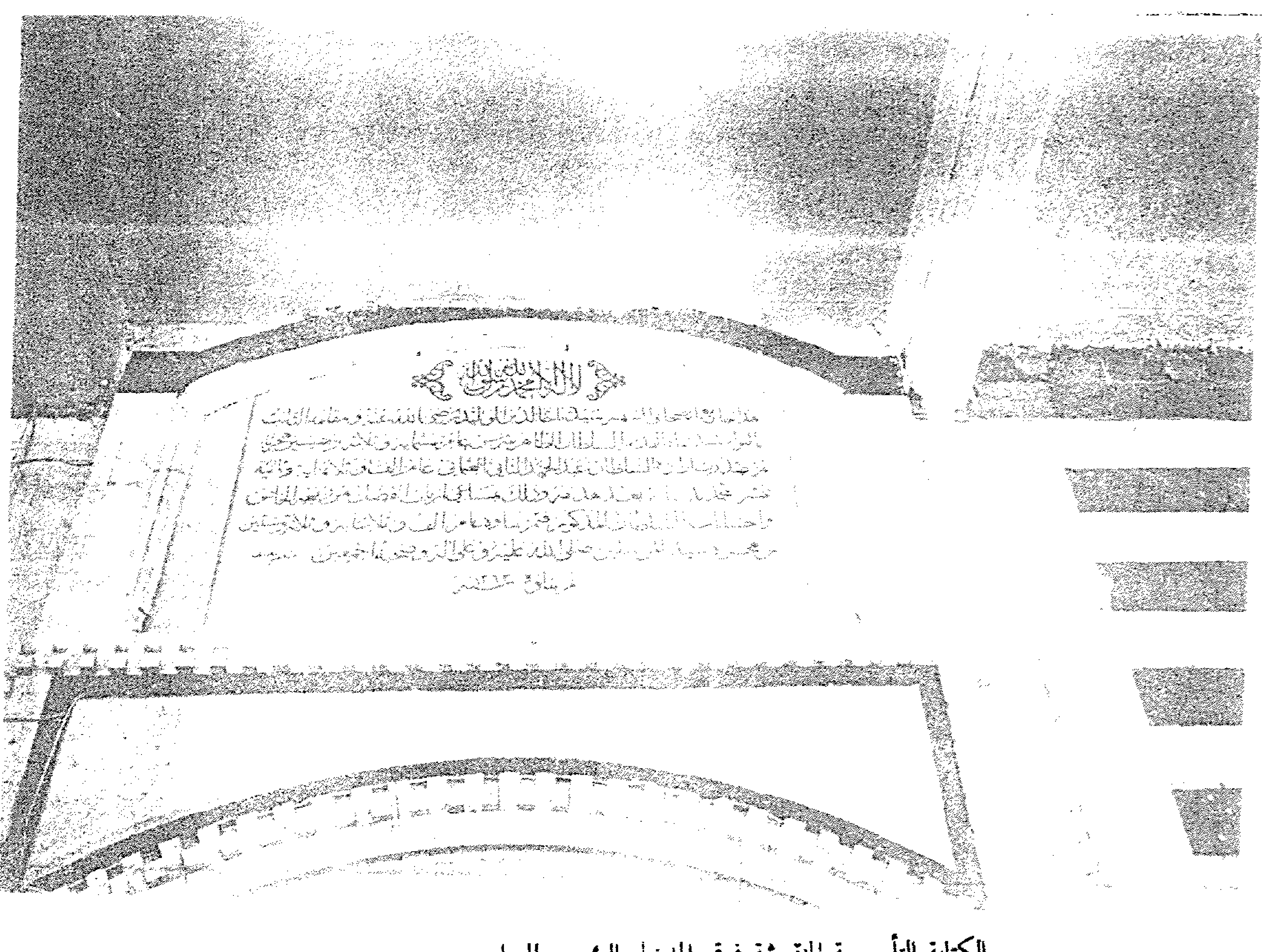
أما تكتيكاته فهي متنوعة حسب موقع المعركة وزمنها فطوراً يستعمل القتال الليلي وأخرى يستعين بالنبالة وثالثة بالإحاطة بعدوه ورابعة بالتقسيم

الخماسي لجنده كما في معركة اليرموك.

وهو على العموم قدوة لجنده وضباطه بقيادة المعركة امامهم يتلفح بالإيمان وحب الاستشهاد والجلد والصبر بتعاون تام وانضباط كامل وديموقراطية عفوية.

تحدث عن خالد بن الوليد وكتب عنه وحاضر الكثيرون وقد وجدت من المناسب أن أذكر بعضاً الملامح والصفات الإنسانية فيه ومنها:

ـ تأكيده على قوميته العربية في مجادلته



الكتابة التأسيسية المنقوشة فوق المدخل الرئيسي للجامع

إنه يمثل عبقرية عسكرية عالمية عربية قل أن يجود الزمان بمثلها ولكنه قبل هذا يمثل إنساناً اجتماعياً وشخصيته قوية جذابة وإدارياً مهيباً.

مع بعض العرب من حلفاء الفرس قوله: إذا كنتم من الفرس فلماذا لم تدخلوا في عدالتنا؟ وإذا كنتم عربا فلم لاتحالفوننا؟! وهذه العبارة وماشابهها قالها خالد لعمرو

بن عبد المسيح ولصلوبا.

- ومما لاشك أنه يعد من الخطباء المفوهين وإلا لما استطاع أن يقود هذه الجيوش الجرارة كما يعد من المحبين للمداعبات اللفظية التي تسحر مستمعيه من جنوده وضباطه فعندما دخل العرب المتصالحة معه في الصلح طلب انتقاء رسولين منهم لاعلام جيشين فارسين بالدعوة إلى الأسلام أو الجزية أو الحرب فقال لرسول صلوبا: ماأسمك؟ قال هزقيل! فقال امام الجمع (خذ الكتاب وقل اللهم أزهق نفوسهم) وقال للرسول الثاني: مااسمك؟ قال: مرة! قال: (خذ الكتاب فآت به أهل فارس، لعل الله يمر عليهم عيشهم، أو يسلموا).

- ترد على لسان خالد بن الوليد كلمات حكيمة في الطبري وغيره تدل على قوة بيانه حتى أن بعض ذهبت ضمن نسائم الأمثال، كقوله: (قتلت أرض جاهلها، وقتل أرضاً عالمها) وله مثل قوي آخر: (أردت أمراً واراد الله غيره) في حادثة كرامة ام شويل ويكفي خالد فخراً قول بعض أدباء العصر الحديث فيه (إنه رجل الطاعة والنظام) ويكفيه فخراً عند وفاته في حمص عام ٢١ هـ قوله: لانامت أعين الجبناء!

هـ - البرهان على وجود ضريح خالد في حمص

وفي الجهة الشمالية الغربية من جامع خالد بن الوليد يقوم ضريح خالد بن الوليد وبجانبه ضريح ولده عبد الرحمن بن خالد الذي بقي والياً على حمص مابين ٢٦ - ٤٦ هـ وقد جاء ذكر وفاة خالد في حمص من الواقدي والطبري في أحداث عام (٢١) للهجرة مايلي (في هذه السنة مات خالد بن الوليد في حمص، وأوصى إلى عمر بن الخطاب، شكك بوجود ضريح خالد في حمص ياقوت الحموي الذي اضاف إلى أن هذا الذي يزار هو خالد بن يزيد!! ولكن الموافقين عن وجود ضريح خالد في حمص يوردون مايلي:

١ - إن ياقوت يناقض نفسه بنفسه عندما يقول أن قبر عياض بن غنم بجانب قبر خالد في حمص في جانب آخر من أقواله عن حمص.

٢ - إن هناك فرقاً في المدة يصل إلى ٧٠ عاماً مابين وفاة الرجلين فخالد بن الوليد توفي عام ٢١ هـ بينما توفي خالد بن يزيد على رأي ابن خلقان سنة ٨٥ هـ وعلى رأي ابن عساكر في ٩٠ هـ.

٣ - وقد ذكر المصدر أن وفاة خالد بن يزيد في دمشق وليس في حمص كما قال

ياقوت الحموي هذا الذي يزار في حمص هو خالد بن يزيد

ياقوت الحموي.

٤ ـ ليس من المعقول أن تنقل رفاة خالد بن يزيد إلى حمص لتدفن بجانب رفاة عبد الرحمن خالد.

٥ ـ تذكر كثير من الوثائق أن خالد اشترى قرية في حمص.

٦ ـ ماكان الظاهر بيبرس ليبني مسجد خالد لو لم يتأكد ورجاله من وجود ضريح خالد فيه عام ٦٦٤ هـ ونفس الأمر في القرن التاسع الهجري ماكان تيمورلنك ليقول قوله (تركت حمص لخالد) لو لم يكن هناك تأكيد لوجوده.

٧ ـ ونفس الأمر ذكره من شاهد عمارة جامع خالد عام ١٩٠٠ م من أنهم شاهدوا حجارة تدل على وجود الضريح.

٨ ـ ليس من المعقول ان يعود خالد بن الوليد إلى المدينة بعدما ساءت العلاقة بينه وبين عمر بن الخطاب.

٩ ـ لم يقل أحد من محققي المدينة المنورة أن خالد بن الوليد قد دفن فيها.

١٠ ـ ذكر البعض أن هناك ذكر لخالد المخزومي في أخبار المدينة ونحن نعتقد أن يخص ذكر خالد بن عبد الرحمن بن خالد الذي انتقم لقاتل والده في حمص وعاد إلى بيته.

ملاحظة: اضيف إلى ذلك ماأطلعت عليه جاء في كتاب صحاح الأخبار في نسب السادة الفاطمية الأخيار لمؤلفه السيد الشريف عبد الله محمد سراج الدين وينفي فيه انتهاء عقب خالد بن الوليد وانهم موجودون في الشام ونجد والكتاب مطبوع عام ١٣٠٤ في مصر.

صورة
من الفكر الإداري والسياسي
في عهد الخليفة المأمون

(الاستاذ نبيل صافي)

لاشك ان إحياء التراث يعني إضافة إلى نشره وإخراجه إلى حيز التناول، واجب القيام بقراءته، وبالتالي استخلاص المعرفة الكاملة بمكنوناته، هذه التي تكفي لرسم صورة عنه مع تفهم خلفيته.

وفي الثلاثينيات من هذا القرن عمل «أحمد زكي صفوت» من مصر على نشر شيء من هذا التراث، فقد قام بتحقيق وضبط ماأصطلح على تسميته: «جمهرة رسائل العرب» واحتوى المنشور على جملة من الرسائل بين الطويلة التي تجاوزت العشرات من الصفحات، والأخرى التي لم تتجاوز الكلمات، وبالتالي تراوحت بين الغث والسمين في مادتها.

من المؤكد أن الرسائل تعكس حالة حضارية معينة إن لجهة الشكل والاسلوب اللغوي والفني التي صيغت بها مما يهتم به مؤرخ الأدب عادة، أو لجهة المضمون الفكري أو السياسي، أو الإداري الذي تحمله مما يهتم به المؤرخ وستحاول الدراسة هنا الإطلالة على واحدة من هذه الرسائل الآتية إلينا من عصر الخليفة المأمون ١٩٨ - ٢١٨ هـ وعلى لسان رجل هام من رجاله، هو طاهر بن الحسين ت ٢٠٧ هـ ووجهها إلى ولده عبد الله عندما ولاه الخليفة الرقة والجزيرة عام ٢٠٦ هـ. ونقل صاحب الجمهرة نصها من مصادر عدة هي:

تاريخ الطبري، والكامل لابن الأثير، ومقدمة ابن خلدون، مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعي، وتاريخ بغداد لابن طيفور.

لاشك أن المكان الأقدم لوجود النص هو كتاب الطبري الموف إليه، والطبري هو

فكراً سياسياً وخبرة إدارية، مؤطرة بخلفية دينية واضحة.

شيخ المؤرخين العرب توفي عام ٣١٠ هـ، ويعتبر رائد مدرسة التاريخ بالرواية تلك التي تعتمد التاريخ بالمنقول، وتحرص على النص بشقيه السند والمتن مع الحرص على عرض روايات متعددة للخبر الواحد مع بقاء الناقل خارج الرواية: «فنحن نؤدي على نحو ماأُدِيّ إلينا»، ولقد أورد الطبري أخباره دائماً متتبعاً في الوقت نفسه المنهج الحولي في العرض، كذلك إستعان في عرضه في أغلب الأحيان بالوثائق أو الرسائل، أو الشعر لتأييد عرضه، لعل هذه إحداها، أشار إليها عند تقديمها بقوله: «كان طاهر بن الحسين، قد كتب إلى ولده عبد الله حينما وُلّي ديار ربيعة كتاباً نسخته» دون أن يشير إلى كيفية حصوله عليه.

وطاهر بن الحسين هو ابن قائد المأمون الذي دخل بغداد على رأس الجيش الذي وجهه الثاني لقتال أخيه الأمين بعد أن قام الأخير بخلعه، وتمكن هذا القائد من الخليفة وقتله وأخذ البيعة للمأمون، فولاه المأمون شرطة بغداد، ومالبث أن ولاه خرسان سنة ٢٠٥ هـ أما ابنه عبد الله فقد ولاه المأمون الرقة وديار ربيعة لحرب نصر بن شعث ومُضر سنة ٢٠٦ هـ كما تولى اعمالاً كثيرة للدولة منها ولاية الاسكندرية حيث قضى على من تغلب عليها من أهل الأندلس سنة ٢١٠ هـ.

ومن هنا تأتي اهمية الوصية فهي تأتي من قمة السلطة في الفترة الأزهى من العصر العباسي، وبالتالي تعكس فكراً سياسياً معيناً من جهة، وخبرة إدارية مؤكدة من جهة ثانية، مؤطرة ذلك كله بخلفية دينية واضحة.

إن الملامح العامة للوثيقة الوصية تندرج في ثلاث أطر هي:

١ ـ الإطار الأخلاقي الديني.

٢ ـ الإطار الإداري.

٣ ـ الإطار الذرائعي.

١ ــ الإطار الأخلاقي الديني:

بدء أبن طاهر وصيته بتذكير إبنه بتقوى الله والخوف منه ومراقبته، مع التذكير بالمعاد الأخير: «والعمل في ذلك بما يعصمك الله، وينجيك يوم القيامة من عذابه، وأليم عقابه».

كما خصه في الإطار ذاته على المواظبة على الصلوات الخمس، والجماعة عليها بالناس قبلها في مواقيتها وعلى سننها وفي أسباغ الوضوء لها، وافتتاح ذكر الله فيها، والترتيل في قراءتها، والتمكن من ركوعها،

وسجودها، وتشهدها، «ولنصدق فيها لربك نيتك، واحضض عليها جماعة من معك ومن تحت يديك». وكذلك اقتفاء آثار السلف الصالح، واستخارة الله وتقواه، ولزوم ماأنزال الله في كتابه من أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، واتمام ماجاءت الآثار به عن النبي صلى الله عليه وسلم.

كما حذره من الحِدّة و الطيش والغرور، والقول أنه مسلط يفعل مايشاء، ويذكره بانه: «الملك لله يعطيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء».

٢ ـ أما الإطار الثاني الذي تندرج ضمنه الوصايا فهو الإطار الإداري وبيان الأساليب التي يجب اتباعها للوصول بالعمل إلى مراتب الكمال من حيث الغاية والوسيلة.

فهو يوصيه بإحسان اختيار عماله، بأن يكون من ذوي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة، والشهرة بالعفاف، لكنه لايقتنع بحسن الاختيار وحده فاعدة لضمان حسن سلوك العمال والولاة، وأما يطلب من ولده أن يتابع عمله بالمساءلة، والبحث عن الأمور ومباشرتها بنفسه إحتياطاً للرعية، والطريق إلى ذلك برأيه بيّن وسهل وهو أن يختار في طل كورة من عمله أميناً يخبره أخبار عماله، ويكتب بسيرتهم وأعمالهم، على أن لذلك مزالقه ومخاطره التي يدعوه إلى اجتنابها، بالإبتعاد عن سوء الظن: «لاتتهم أحداً ممن توليه»، واقبل الحسنة وادفع بها. وابتعد عن الكذب والزور والنميمة، ولاتقرب أهل الكذب، وجانب الشبهه والبدع. وأحب اهل الصدق والصلاح....

ولعل ميزان الأمر كله لديه، هو الاقتصاد في كل شيء والبعد عن التطرف لكن دون أن يعني ذلك الشح أو البخل، بل يدعوه إلى: «إبعاد أهل الذمة والبخل، واجتناب الشح وأهله»

ويبقى للقضاء دوره الأهم برأيه، فيوصي بالعناية به، وبإقامة العدل، وتبعاً لذلك يؤكد على ضرورة اقامة الحدود في الجرائم، والابتعاد عن الشبهه، والبدعة، مع التفرد بتقويم النفس تفرد من يعلم أن مسؤول عما صنع».

٣ ـ تشغل الذرائعية الحيز الأكبر من وصية طاهر، ولعلنا نلمع بشكل مؤكد الفهم الواضح لديه لعنصريها، الغاية، والواسطة.

فالغايات لديه دينية إلهية، أو دنيوية

«الملك لله يعطيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء»

أرضية تهدف إلى تحقيق مرضاة الخليفة من جهة أو اكتساب محبة الرعية من جهة ثانية.

فإرضاء الله سبحانه وتعالى غاية مثلى يحض ابنه عليها: «فإن الله قد أحسن إليك، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك امرهم من عباده، وألزمك العدل عليهم، والقيام بحقه وحدوده فيهم، والذود عنهم، والدفع عن مرميهم والحقن لدمائهم، والأمن لسبيلهم، وإدخال الراحة عليهم في معايشهم، ومؤاخذك بما فرض عليك، وموقفك عليه، ومسائلك عنه، ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت».

وأضاف: «ولاتقصر في طلب الآخرة، والأجر والأعمال الصالحة، والسنن المعروفة فلا غاية للاستكثار من البر والسعي له، إذا كان يطلب به وجه الله، ومرضاته، وكذلك قوله: «ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله، والوقوف عند محبته، والعمل بشريعته وسنته».

كما كانت الذريعة الدنيوية المتعلقة بإرضاء الخليفة والحرص على الولاء له والوفاء لأمره واضحة كل الوضوح في سياق الوصية حيث يقول: «ولاتقبل من أحد منهم إلا الوفاء، والاستقامة والعوق في امور امير المؤمنين، ولاتضعن المعروف إلا على ذلك».

لاتقبل من احد منهم إلا الوفاء، والاستقامة والعوق في امور امير المؤمنين، ولاتضعن المعروف إلا على ذلك

لكنه في نفس الوقت أكد ضرورة كسب رضا الشعب والرعية مرات عديدة: «والمعرفة بما يتقرب به إلى الله، فإنه الدليل على الخير كله، مع مافي ظهوره للناس من التوقيرلأمرك، والهيبة لسلطانك، والأنسة بك، والثقة بعدلك».

على أنه الأخطر من الغاية التي أكد عليها ابن الحسين هي الوسائل التي يرى أنه من المناسب اتباعها، للوصول إلى تلك الغاية المنوه عنها. مكمن الخطورة هنا أنه يجعل جميع المتاح مباحاً لتحقيق الأمر، فتصرفات الوالي الشخصية والعامة، وكذلك مؤسسات الدولة، وأموالها كلها مساقة نحو تلك الأهداف.

فتصرفات الوالي التي يجب أن تكون محسوبة، وموظفة لإرضاء الله سبحانه فعليه: «تقوى الله، والرأفة بمن استرعاك، والزمك العدل عليهم، ولزوم ماأنزل الله في كتابه من أمره ونهيه، وحلاله، وحرامه».

كذلك فإنها ستحسب له عند العامة، فعليه: «المواظبة على الصلوات الخمس

واقتفاء آثار السلف الصالح، واستخارة الله، واتباع آثار النبي، والاقتصاد في الأمور وعدم إتهام الناس قبل أن تكشف الأمور، واعتبار المتهم بريء حتى يدان، وتحسين الظن بالأصحاب، ومحبة أهل الصدق، والصلاح، مع إعزاز الإشراف بالحق ووصل الضعفاء.. كذلك أوصاه: «لاتمل عن العدل فيما أحببت أو كرهت، لقريب من الناس أو بعيد، وآثر الفقه وأهله، والدين وحملته، وكتاب الله والعاملين به...».

أما مؤسسات الدولة المتوفرة والمباحة لخدمة الغايات فعديدة لديه منها مؤسسة بيت المال، تلك التي عرفت في فترة ما باسم بيت مال المسلمين، والمال فيها مالهم، لايلبث وفقاً لهذه الوصية أن يصبح وسيلة مباحة لكسب رضا العامة منها الحث على الانفاق في اوجه مختلفة ليحصل على ذلك الرضا، فمن هذه الأوجه الانفاق على الرعية، وعلى الجند.

فالإنفاق على الرعية متنوع منه، عمارة البلاد، والتفقد لأمور العباد، وإغاثة الملهوف.. (ولتكن ذخائرك وكنوزك، البر والتقوى والعدالة، واستصلاح الرعية، وعمارة بلادهم، والتفقد لأمورهم والحفظ لدهمائهم، والاغاثة لملهوفهم، وأعلم أن الأموال إذ كثرت، وذخرت في الخزائن لاتثمر، وإذا كانت في إصلاح الرعية، واعطاء حقوقهم وكف المؤونة عنهم غث، وربت، وصلحت به العامة، وتزينت الولاة وطاب به الزمان».

الانفاق يكون مانعاً للثورة ومبرراً لجمع الخراج

ولعل هذا الانفاق برأيه يكون مانعاً للثورة ومبرراً لجمع الخراج إذ يشير بوضوح إلى هذه القضية الذرائعية. وكنت بذلك على جباية خراجك وجمع أموال رعيتك، وعملك أقدر ولتعظم حسبتك فيه فإنما يبقى من المال ماأنفق في سبيل حقه.

ولتأكيد ذرائعية الاستخدام لهذا الأمر الهام فقد أوضح له ميزاناً استثنائياً يستند إليه في تنفيذ ذلك إذ يقول: «واعرف للشاكرين شكرهم وأبثهم عليه..».

لاشك أن كسب مرضاة الجند كانت هي الأخرى الوسيلة المباحة الثانية التي يوصي بها طاهر إبنه بالحرص عليها سواء بتفقد أحوالهم، أو ايصالهم إلى اعطياتهم «تفقد أمور الجند في دواوينهم، ومكاتبهم، وأدر عليهم أرزاقهم، ووسع عليهم في معايشهم ليذهب الله فاقتهم، ويقوم لك امرهم،

ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً، وإنشراحاً. وحسب ذي سلطان من السعادة أن يكون على ضده ورعيته رحمة في عدله، وحيطته وانصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته.. .

إضافة إلى ذلك فإن اقامة القضاء هي احدى تلك الوسائل المتاحة للحصول على رضا الله من جهة، ورضا العامة أيضاً.. يقول: «واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور لأنه ميزان الله الذي تعتدل عليه» أحوال الأرض، وبإقامة العدل تصلح الرعية، وتأمن السبل، وينتصف المظلوم ويأخذ الناس حقوقهم، وتحسن المعيشة، ويؤدي حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة.أحمل الناس كلهم على الحق فإن ذلط أجمع لالغتهم وألزم لرضا العامة».

وإذا كانت الدراسة قد قامت حتى الآن بإبرار الأطر التي قدمت الوصية نصائحها من خلالها، فإن تلك الوثيقة عملت أيضاً في ثناياها مفاهيم محددة بدأت في النضوج في هذه المرحلة من تاريخ المجتمع العربي الأسلامي توضح مدى تطور الفكر السياسي والإداري وتبلوه بالتأكيد، من استعراض لواجبات

القضاء هي احدى تلك الوسائل المتاحة للحصول على رضا الله من جهة، ورضا العامة ايضاً.

الحاكم وبالتالي حقوق الرعية لديه، إضافة إلى ابراز آلية الشورى وإتخاذ القرار لدى ذوي السلطة، كما تبدي تصور أولئك للخراج وغرضه في المجتمع العربي الإسلامي، وكذلك مرجعية الحكم والملك في هذا المجتمع.

لعل أوضح ماأبرزته الوثيقة كانت تعداد واجبات الحاكم تجاه الرعية وحقوق هذه عند الحاكم وهي:

١ - العدل فيهم - بينهم.

٢ - القيام لحقه، وحدوده، واتمام حدود الله في أهل الجرائم.

٣ - الذّب عن الرعية، والدفع عن حريمهم.

٤ - الحقن لدمائهم.

٥ - ادخال الراحة عليهم في معايشهم.

٦ - استعمال ذوي الرأي، والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف.

٨ - النوسع على الرعية بالرزق.

٩ - مصادقة أحرار الناس.

١٠ - اعطاء أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة.

١١ - النظر في امور الفقراء والمساكين.

١٢ - تعهد البؤساء واليتامى، والأرامل بارزاق من بيت المال.

١٣ - إعطاء المال لحملة القرآن والحافظين لأكثره.

١٤ - انشاء دور للمرضى المسلمين وإقامة أطباء يعالجون أسقامهم.

١٥ - تسهيل دخول الناس عليه.

١٦ - محاسبة العمال على ماجمعوه من الأموال.

١٧ - جماع القول أن: «الحاكم خازن وحافظ وراعٍ، وإنما سمي أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم،وقيمهم، تأخذ منهم ماأعطوك من عفوهم ومقدرتهم، وتنفقه في قوام أمرهم، وصلاحهم، وتقويم أودهم».

كما حددت الوصية آلية لاتخاذ القرار تقتضي مشاورة الفقهاء، وأهل التجارب وذوي العقل، والرأي، والحكمة، والابتعاد عن أهل الدقة والبخل في هذا الأمر وهذه الآلية استنسابية كما يمكن الملاحظة تتوائم وطبيعة العلاقة بين عبد الله ومن هم حوله ومزاجية تلك العلاقة وحرارتها.

كذلك بلور النص مفهوماً يختلف كلياً عن «الخراج» وطبيعته الذي بداء اصلاً كتعويض تحصل عليه الدولة لقاء ترك الأراضي المفتوحة بيد أصحابها في إطار العمل على استمرارية الحياة الزراعية فيها وصيانة للمصلحة العامة، التي عرفت باسم المصالح المرسلة فقها، وقد نسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب البدء بالعمل في هذا النظام، لكننا هنا نرى تجلي الفكر البيروقراطي المحض المجسد للتسلط البعيد عن فهم روح الاسلام بقول: طاهر بن الحسين في وصيته: «انظر إلى هذا الخراج الذي هو للإسلام عزاً ورفعة، ولأهله سعة ومنعة، ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً، ولأهل الكفر ذلاً وصغاراً..» الأمر الذي يعني ابراز التعالي وتأكيد التمايز البعيد كل البعد عن روح التعاقد الاجتماعي بين الدولة، وبعض مواطنيها، تجاوزت خلاله الدولة تلك اللحظة التي أفرزت غالباً ومغلوباً.

وليس هذا التغير وحده هو البارز بل مصير هذا الحال العام وكيفية استعماله من قبل رجال الدولة، هذا الأمر ظهر هنا دون أية قيود سوى مايوائم مصلحة السلطة ولرجالها وهكذا انتهى وبموجب هذا النص وبصورة عملية واقعية تلك النصوص المقدسة التي توضح آلية صرف هذه الأموال.

كذلك تعرضت الوثيقة لمرجعية الحكم العليا، وأكدت الصفة الآلهية له فالملك

الحاكم خازن وحافظ وراع، وانما سمي أهل عملك رعيتك لانك راعيهم،وقيمهم، تأخذ منهم ماأعطوك من عفوهم ومقدرتهم، وتنفقه في قوام أمرهم، وصلاحهم، وتقويم أودهم

الله يعطي الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء

لله يعيطه من يشاء وينزعه ممن يشاء.

يمكن القول أن أهمية الوثيقة تأتي من تكريسها جملة من ممارسات ومفاهيم كانت تتراكم عبر السنين وتجسد تجربة الحكم والإدارة والسياسية في المجتمع العربي الإسلامي فالوصية تؤكد على ترابط الإداري السياسي بالديني من جهة والذرائعي من جهة اخرى، فالحاكم الذي يؤدي الصلوات الخمس، يرضي الرب كما يكسب رضا العامة ويضمن تغطية دعائية مسبقة لأي عمل سيقوم به رجل السلطة إستناداً إلى مظهرية الايمان لديه المتأتية من اداء الصلاة، ومما لاشك فيه أن التأكيد على هذه المظهرية كانت نتيجة لحاجة رجال السلطة العباسية، ربما لتأكيد هويتهم العربية الإسلامية التي كثيراً ماشكك بها من خلال الصراع العروبي والشعوبي، ولقد ظهر هذا الأمر بداية باتهام نصر بن سيار الوالي الأمولي الأخير في خراسان لأبي مسلم الخراساني بالزندقة، وكرر الجاحظ الاتهام لكتاب الدولة العباسية من الفرس بعدم الجدية والصدق في اسلامهم.

كما أكدت الوثيقة وعددت مايراه طاهر واجبات للحاكم وحقوقاً للمحكومين، هذا الأمر التي كانت بدايته في خطبة أبي بكر الأولى: «القوي عندكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه» وتراكم الأمر على مر السنين، والممارسة على الأرض سلباً وإيجاباً وجرى التأكيد عليه من خلال الخطب، ولالرسائل التي كانت تصدر عن رجال السياسة والحكم وقتدئذ، وتحسس رجال الفكر والأدب ضرورة تدوين ذلك بشكل مباشر أو بالمواربة من خلال ماترجمه ابن المقفع في كليلة ودمنة، وفي رسائل عبد الحميد الكاتب على لسان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، لتكون تلك بذوراً لما سيعرفه الأدب العربي من كتب السياسة المتنوعة التي ألفها من كانوا على صلة وثيقة بالعمل السياسي في المجتمع العربي الإسلامي، وعلى امتداده، كالفخري في المشرق، والتذكرة الحمدونية في المغرب، تلك التي بدأت ترى النور بعد القرن الرابع الهجري.

وإذا كانت الوثيقة قد أكتفت بتعداد واجبات الحاكم فهي لم تلمح إلى آلية تنفيذ هذه الواجبات، ولا ماهية المؤسسات التي ستقوم بذلك والتي على السلطة ايجادها لمثل هذه الغرض،

هذا إذا تم تجاوز أن العدل يتحقق بالقضاء الذي اكدت الوثيقة على وجوده، وكذلك الأمن بالجند، وأبرزت الوثيقة في هذا المجال بشكل مؤكد اقامة المشافي للعناية بالمرضى، وتخصيص الأطباء لمعالجته اسقامهم، بينما تركت مسألة ساعدة المحتاجين والفقراء دونما توضيح لكيفية تحقيق هذا الأمر، أو المؤسسة التي من الممكن أن تؤمن ذلك.

ولقد أكدت الوثيقة على أن الحكم والملك وتولي أمور الناس انما هي منحه إليه فالرب يعطي الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ولعل هذا القول جاء تكريساً لمفهوم بدأت ملامحه بالظهور في نهاية العهد الراشدي عندما نسب إلى عثمان بن عفان قوله للذين طالبوه بالتنحي وترك الخلافة والله لأخلع قميصاً، أو سروالاً ألبسينه الله وفي بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم حذر عثمان بالقول: «إن الله مليسك قميصاً، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه» ومع بداية العهد الأموي، وعلى لسان معاوية ورد في جداله مع الحسن بن علي بن أبي طالب أنه الله نصر معاوية على والده الذي مازعه ملكاً خصه الله به، ولقد شجع الأمويون هذه الفكرة، وكان لفرقة المرجئة دوراً مهماً في الترويج لها بالتأكيد على الجبرية إلى أن جاء العصر العباسي ومنذ بدايته تمسك المنصور بآلهية الخلافة ولقد برز ذلك واضحاً من خلال رسائله المتبادلة مع منافسه زعيم الشيعة الحسينية، محمد النفس الزكية... بقوله: «وميراث النبي له والخلافة في ولده فلم يبق شرف ولا فضل في الجاهلية أو إسلام في دنيا ولا آخرة إلا والعباس وارثه ومورثه.». على أنه لابد من الإشارة إلى أن هذه الجبرية الواضحة لاتتماشى وماسيثبناه المأمون فيما بعد ومنذ العام ٢١٨ هـ من فكر المعتزلة.

> ميراث النبي له والخلافة في ولده فلم يبق شرف ولا فضل في الجاهلية أو إسلام في دنيا ولا آخرة إلا والعباس وارثه ومورثه.

تبقى القضية الأخيرة التي تبلورت كمفهوم مختلف عما بدأته ألا وهي قضية جباية الخراج، والتي لابد من وقفة مطولة حول تاريخته ذلك المفهوم وتطوره عبر العهود الإسلامية المتعددة.

في البدء تجب العودة إلى تحديد معنى المصطلح، ويجب أن يترافق ذلك بتحديد المقصود من مصطلحات أخرى جرى تداولها، وهي الغنيمة والضيء والجزية والعشر. فالغنيمة

الخراج، وهو أن مايجبى عموماً من غير المسلمين، إنما يجبى لقهرهم وإذلالهم،

ماغلب عليه المسلمون بالقتال والضيء ماصالحوا عليه، أي من الجزية والخراج والجزية هي ضريبة على الرؤوس تؤخذ من غير المسلمين، ويحدد تعدادها ضمن شروط الصلح، والعشر ضريبة تؤخذ من المسلمين لقاء استثمارهم الزراعي.

ولعله من المفيد التأكيد على أن كلمة الخراج أكثر شمولاً من غيرها إذ أنها تشكل كل مايجيء من ضرائب من غير المسلمين، ويبدو أن التباساً مستمراً شاب استعمال هذا المصطلح مع ملاحظة ان ماورد جاء من خلال مصادر فقهية ليس إلاّ. وبالتالي ليست هي التي تهم الدراسة هنا فهي لاتعطي صورة للفكر وبالتالي الغاية المحركة بقدر ماتقنن قضية مادية وتنظمها.. ولعله بالرجوع إلى تاريخية المصطلح مايفيد في معرفة تلك الفكرة والغاية المحركة ورائها.

إن التضاد الواضح هنا هو بين أمرين:

١ ــ الخراج: وهو أن مايجبى عموماً من غير المسلمين، إنما يجبى لقهرهم وإذلالهم، وهي ماعبر عنه طاهر بن الحسين، المذكور سابقاً يؤيده ظاهر «الآية ٢٩» من سورة التوبة «حتى يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون».

٢ ــ الخراج: بشقيه جزية الرؤوس، أو ضريبة الأرض، تجبى كواجب لقاء حق يحصل عليه الدافع، وبالتالي فهو حصيلة عقد بين الدولة، ومجموعة من رعاياها الجدد، تقدم فيه الدولة الحماية ويدفع المواطن لقاء ذلك ضريبة محددة بموجب عقد الصلح.

بالتالي فإن تمثل رجال السلطة في المجتمع العربي الإسلامي وتبينهما لأحد هذين المفهومين هو مانريد رصده لمعرفة كيف توصل طاهر بن الحسين إلى هذا التقرير الفظ لمفهوم الخراج بنظره.

قد يبدو للوهلة الأولى أن الاية ٢٩ من سورة التوبة هي الأساس الفكري العقائدي للمفهوم الأول، لكن الرجوع: إلى أسباب النزول وليس التفسير توضح الظروف التي نزلت خلالها الآية وبالتالي الخلفية الموضوعية لها، فالآية الكريمة إنما كانت توجيها لحالة معينة ورداً على تحدٍ قام به المشركون من سكان الجزيرة العربية بمنع توريد الطعام إلى مكة المكرمة بعد فتحها في العام الثامن للهجرة، وشكوى بعض المسلمين لذلك، مما شكل استفزازاً كانت الآية الكريمة الرد المناسب عليه.

وسرعان ماأنتفى هذا المفهوم من

خلال الممارسة العملية حيث ارتدت الجزية لتأخذ صفتها التعاقدية البحتة، وخلال فترة لاحقة وجيزة، وفي حياة النبي صلى الله عليه وسلم الذي عقد مع اهل نجران صلحاً ثم تلاه آخر مع أهل هجر في البحرين، وفي المرتين نوضع أن المال المؤدى هو في مقابل الحماية والمتعة وتمتع الطرف الآخر بكل مميزات الاستقلال الذاتي، والحرية التامة في الأمور الاجتماعية والدينية، (ولنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله، على أموالهم، وانفسهم، وأرضهم وملتهم، وعشيرتهم وبيعهم، وكل ماتحت أيديهم، لايغير اسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولايطأ أرضهم جيش...».

ولعل هذا المفهوم العقائدي استمر في العهد الراشدي ففي صلح الحيرة الذي عقده خالد بن الوليد مع أهلها ورد في النص: «عاهدهم على.. وعلى المتعة، فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم، وكذلك مع تحسن الناطف، الذي جاء في صلحه.. (فإن منعناكم فلنا الجزية، إلا فلا حتى تمنعكم، وتأتي واقعة أهل حمص مع أبي عبيدة عندما أعاد إليهم الجزية عندما أراد إخلاء المدينة بعد حشد هرقل الذي أدى إلى وقعة اليرموك.

وإذا كانت الجزية مقابل المتعة، فإن المسلمين رضوا في بعض الوقائع أن يعفوا أهل الذمة من الجزية، حين تعهد هؤلاء أن ينهضوا معهم بواجب الدفاع ويحملوا عبء القتال إلى جانبهم، كما حدث حين غزا حبيب بن مسلمة الفلهري أهل الجرجومة فطلبوا الصلح على أن يكونوا أعواناً للمسلمين، وعيوناً، ومالح في جبل اللكام فقبل منهم ذلك، وكذلك حين توجه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي إلى ناحية الباب جهة قزوين عرض عليه عامل الفرس الصلح دون جزية قائلاً: «يدي مع أيديكم، وجزيتنا إليكم النصر لكم، والقيام بما تحبون» وقد أجاز الأمر عمر بن الخطاب، وهكذا تبرز بوضوح الطابع التعاقدي للأمر حيث الجزية مساهمة مالية في واجب الدفاع، نظير ضريبة الدم التي كان يدفعها المسلم في حوقة القتال للدفاع عن الدولة كلها، وبالتأكيد فإن الظروف الموضوعية لذلك العصر هي التي فرضت ذلك، ولقد استمر هذا المفهوم سائداً طيلة العهد الراشدي فعمر

ولنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله،

يوصي الخليفة من بعده قائلاً: أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، خيراً أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولايكلفوا فوق طاقتهم» وكتب عثمان بن عفان إلى عماله: «إن الله أمر الأئمة أن يكونوا راعاة.. ولم يتقدم إليهم يأن يكونوا جباة».

على أن هذه الممارسة ومن خلفها المفهوم سقطت في العهد الأموي بدأ من معاوية الذي قبل إضافة إلى الخراج والجزية هدايا الفيروز والمرجان، وفرض الوظائف الضريبية المختلفة، واعتبر الأمر سيادة لغالب، وقهراً لمغلوب، وقد اتخذت هذه القضية أبعادها خلال هذا العهد بين مد وجزر إلى تام نصر بن سيار وإلى خراسان بإيجاد حل للأمر بحيث أعفى المسلم الجديد من جزيته مع تحميلها لمن بقي على دينه من الموالي ولم يكتب لمحاولة الخليفة عمر بن عبد العزيز رد الممارسة التعسفية إلى المفهوم العقائدي الناجح.. ذلك أن الخراج بشكله الكامل كان المورد الذي نعيش عليه الدولة ومنه تأتي نفقاتها.

وفي العهد العباسي الذي نحن بصدده جرت محاولة اصلاحية رئيسية أولى في الجمال السياسي في عهد المنصور، ثم أخرى في عهد الرشيد، وقد تبلورت هذه خلال طلب الخليفة الأخير من قاضيه أبي يوسف يعقوب بن آدم أن يضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالي.. وغير ذلك مما يجب عليه والنظر فيه والعمل به وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته، والصلاح لأمرهم وقد استجاب القاضي مبيناً أنه قد كتب له ماأمر وشرحه، واني لاجور إن عملت بما فيه من البيان أن يوفر للأخراجك من ظلم مسلك ولا معاهد، ويصلح لط رعيتك.. ورغم الصيغة القانونية الفقهية التي طبقت الكتاب إلا أنه أكد على الروح التعاقدية للجزية والخراج كضرائب مفروضة على جزء من الرعايا مبيناً تاريخية هذه الضرائب بعيداً عن ذلك المفهوم الذي ظهر من خلال وصية طاهر ابن الحسين التي نحن بصددها.

ويظهر ان رجال السلطة لم يكونوا دوماً من المتقبلين للمفهوم التعاقدي يدل على ذلك قيام الثورات في مناطق مختلفة من الدولة في عهد المأمون شاكية من الخراج وممارسات عماله،

وصي الظيفة من
عدي بذمة رسول
لله صلى الله عليه
سلم، خيراً أن يوفى
هم بعهدهم، وأن
قاتل من ورائهم،
لايكلفوا فوق
طاقتهم

فمصر ثارت عام ٢١٣ فأرسل المأمون أخاه المعتصم وجعل على الخراج صالح بن شيرازاد، فظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم فإنتفض المصريون وعسكروا وهزم جيش المعتصم.

يبدو أن الأمر قد جرنا إلى الإفاضة لكنه يبقى بشكل أو بآخر أحد أهم المعضلات التي عانت منها الدول والمجتمعات، وهي قضية الموازنة بين الإيرادات والنفقات والعدل فيها، بين متطلبات الانفاق والقدرة، والطاقة على ذلك النوع من الإدخار الإجباري، كي يبدو أن حاجة السلطة الدائمة للمال تدفع رجالها دائماً إلى إيجاد الذرائع، والمسوّغات لتلك التي اظهرها طاهر بن الحسين بقوله: «فانظر إلى هذا الخراج الذي جعله الله...»

وبعد فمما لاشك فيه أن الوصية كانت جامعة شاملة تعكس الفكر السياسي والخبرة الإدارية لرجل لعب دوراً مهماً في الحياة العامة لذلك العهد الذهبي للدولة العربية الإسلامية، ولقد تأكدت أهمية الوصية بما أشار إليه الطبري بعد نصها من أن المأمون أمر بنسخ الوصية وتوزيعها على العمال للعمل بمضمونها.

أن حاجة السلطة الدائمة للمال تدفع رجالها دائماً إلى إيجاد الذرائع، والمسوغات

دعوة إلى الكتّاب والباحثين

إن هذه المجلة «مجلة البحث التاريخي» يسرها مشاركتكم والاستفادة من معلوماتكم لكي نقدم المادة الأفضل لقرائنا الأعزاء.

نتمنى ممن يرغب في الكتابة أن يرسل بطاقة تعريف

مع الشكر والامتنان
أسرة التحرير

صناعة الورق والوزّاقة
في بلاد الشام
أواخر العصر العباسي

د. محمد زيود

- اسهم الورق اسهاماً كبيراً في حفظ الحضارة ونقلها وتطورها وعد بحق من أهم العوامل الداعمة لها، ولايقل دوره واهميته عن دور اختراع الطباعة ومساهمتها في تاريخ الحضارة البشرية.

استعمل الإنسان مواد كثيرة في الكتابة من أقدمها الطين والحجارة ثم لحاء الأشجار والعظام والجلود وسعف النخل، كما أستعمل الحرير الأبيض، عالي القيمة في الكتابة أيضاً، وتفاوتت الأمم في ذلك كتب أهل الصين على ورق صنعوه من الحشيش والكلأ، وعنهم أخذ الناس صناعة الورق، وكتب أهل الهند في خرق الحرير الأبيض، واستعمل الفرس الجلود المدبوغة من جلود الجواميس والبقر والغنم والوحوش، وعلى اللخاف «وهي حجارة بيض رقاق» والنحاس والحديد وغيرها وفي عظم اكتاف الأبل والغنم. وفي كتابة القرآن في عهد الرسول (ص) اللخّاف والعُسب فعن زيد بن ثابت أنه قال عند جمعه للقرآن «فجعلت اتتبع القرآن في العُسب واللخّاف» وفي حديث الزهري «قبض الرسول (ص) والقرآن في العُسب» والورق جمع واحدة ورقة وجمعة أوراق وجمع الورقة ورقات وسمي الرجل الذي يكتب وراقاً واطلق عليه القرآن الكريم قرطاساً وصحيفة، ويسمى أيضاً الكاغد، ويقال للصحيفة أيضاً طِرْس ويجمع على طُروس، ومُهْرَق ويجمع على مهارق واحسن الورق ماكان ناصع البياض، واستعملت أوراق البردي، منذ العصور القديمة، واحتكرت مصر صناعته وتصديره منذ العصر الروماني، ويعد أعظم ماقدمه المصريون للحضارة، وبذلك خطت الحضارة البشرية خطوة واسعة في تحسين مواد الكتابة،

الورق اختراع صيني يعود إلى سنة (١٢٣ ق.م)،

وكانت صادرات مصر إلى بيزنطة القراطيس المصرية، وهي الطوابير التي عدت من خصائص مصر، وافضل ماكتب فيه «وهو من حشيش أرض مصر ويعمل طوله إلى ثلاثين ذراعاً وأكثر من عرض شبر»، ولقد نافس تصدير القراطيس المصرية في بداية القرن الرابع الهجري وحل محله نوع من الورق المصنوع من الكتان سمي الكاغد، وبهذا يقول الثعالبي «إن كواغد سمرقند هي من خصائصها وقد عطلت قراطيس مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون فيها لأنها أنعم وأحسن وأرفق ولاتكون إلا سمرقند والصين».

ـ ويذكر المؤرخون بأن الورق اختراع صيني يعود إلى سنة (١٢٣ ق.م)، وعندما فتح العرب المسلمون سمرقند جلبوا منها مجموعة من أسرى الحرب الصينيين، وكان بعض هؤلاء الأسرى بارعاً في صناعة الورق فعمل على إقامة صناعة الورق في سمرقند في سنة ١٣٤ هـ/ ٧٥١ م فنشطت فيها، وصنعوه من القنب والكتان والياف الحشيش، وصدرت للعراق وغيرها من المناطق العربية والإسلامية.

القرطاس، نوع من النسيج المصقول المصنع الرقيق الأبيض، وهو من الحرير.

ـ وفي العصر الأموي صنع الورق من الكتان وكان يسمى بالخرساني، ويعتقد أن مدن الشام صنعت الورق قبل هذا التاريخ فقد صنع في دمشق وطبرية وطرابلس وحماة، ومنبج، ويستدل على ذلك من بيت شعر لطرفة بن العبد البكري في معلقته أن القرطاس ينسب إلى الشام ويقول طرفة:

وخد كقرطاس الشآمي ومشفر
كسيف اليماني قده لم يجرد

وإذا ماصدُق طرفة فتكون القراطيس من الصناعات القديمة التي تعود للفترة الجاهلية خلافاً لما ذكره مؤرخو العرب، وأن دمشق وطبرية كانت تصدران كميات كبيرة منه على ماأورده المقدسي وغيره من دون تحديد لزمن هذا التصدير، ولابد لنا من مناقشة هذه الفكرة التي اوردها بعض الدارسين والباحثين، ويبدو من قول طرفة أن القرطاس كان يصنع في الشام قبل الإسلام ولكنه ليس بالورق وإنما هو نوع من النسيج المصقول المصنع الرقيق الأبيض وقد كان من الحرير، واستمر تصنيعه كذلك في العصر الأموي، ومن ثم تمَّ استبدال الحرير بالقطن لأنه أرخص، وذلك في عهد الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦ هـ ـ ٧١٤ م)، وربما

تكون الحاجة الماسة والكبيرة الى القراطيس، وخاصة بعد تعريب الدواوين في عهد الملك عبد الملك (ت ٨٦ هـ ـ ٧٠٥ م)، هي التي كانت وراء هذا الابتكار الذي أصبح القرطاس الدمشقي يصنع من القطن، واستمر الخلفاء في العصر الأموي يستعملون ورق البردي المصري لأنه أرخص من القرطاس الشامي القطني هذا، ونظراً للطلب المتزايد عليه ولاسباب أخرى كثيرة تعود لطبيعة الصراع العربي الإسلامي والبيزنطي - فقد توقف تصديره إلى بلاد الروم وابتداء من عهد عبد الملك بن مروان وتعريب الدواوين، وبقي الطلب على القرطاس المصري متزايداً في العصر العباسي الأول واستمر غالي الثمن، وقد شكا الناس من ذلك الوقت من ندرته وغلاء ثمنه، ولقد أعطت القراطيس المصرية، من البردي اسمها الدرب من دروب بغداد وسمي «درب القراطيس»، ولبعض الباعة حيث عرف بعضهم «بالقراطيس»، غير أن هذه القراطيس، تراجعت أمام الورق الصيني بعد أن بدأ بالإنتشار من الشرق في اواخر القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وكثر على اثر ذلك ظهور الوراقة والوراقون، ولم يمض القرن الثالث الهجري حتى صار في بغداد أكثر من مائة وراقة، ويبدو أن الورق ظهر بشكل متدرج ومتطور واستعملت أنواع منه مختلفة في نفس الوقت وذلك تبعاً لجودتها وغلائها ورخصها، ووجد في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي عراقياً محباً للكتب كان لديه في خزانة كتبه مخطوطات فيها الجلود، والصطام، وقرطاس مصر، والورق الصيني، والورق الشامي، وجلود آدم وورق خرساني.

ونظراً للنهضة الفكرية، والاقبال الكبير على استهلاك الورق في العصر العباسي الأول، أقدم الوزير البرمكي «الفضل بين يحيى سنة ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م» على إقامة أول مصنع للورق في بغداد، ثم امر أخوه فيما بعد جعفر البرمكي بإستخدام الورق محل الرق في دواوين الدولة وكان أخوه في السنة نفسها والياً على سمرقند، وهذا يوضع لنا أن دخول تركستان في الفلك السياسي والاقتصادي للعالم العربي الاسلامي سهل هجرة التقنيات الصينية نحو الغرب الإسلامي، ويؤكد الرأي القائل بانتقال صناعة الورق من الصين إلى سمرقند ومنها إلى بغداد ثم إلى بلاد

الوزير البرمكي الفضل بين يحيى يقيم اول مصنع للورق في

الشام وغيرها من الأقاليم العربية الإسلامية.

- ويقول بعض الكتاب ان صناعة ورق البردي وإعداده للكتابة انتهت نحو منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، ونجد أن ورق البردي المؤرخ ينتهي في عام ٣٢٣ هـ / ٩٥٣ م في حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م وهناك وثيقة تؤكد استعماله قبل سنة ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤ م، وانتشرت هذه الصناعة بسرعة كبيرة لمواجهة الاستهلاك المتزايد جداً وذلك بسبب كثرة المترجمات والاقبال العام والكبير على اقتناء الكتب ومارافق ذلك من طلب كبير على الورق، فازدادت معامل الورق ونقلت مطاحنه إلى بلاد الشام وأسست معامل لصنع الورق في دمشق بعد تأسيس معمل في بغداد في (١٧٨ هـ) كما أشرنا، ثم تتابعت بعد ذلك مواكب صناعة الورق المتقدمة وزحفت سريعاً، فاقيمت المعامل في معظم المدن الشامية أمثال طرابلس، وطبرية وغيرها، وذلك ابتداء من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وهذا مايشير إليه المقدسي وغيره حيث صادفت زراعة القنب ظروفاً مناسبة في بلاد الشام، ومنذ القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين)، اصبح الورق أهم مادة للكتابة في العالم العربي والإسلامي إن لم نقل المادة الوحيدة، وكان مثل السكر يصنع في مصانع ضخمة وينتج بكميات وفيرة وبنوعيات والوان مختلفة، ويبدو أن صناعة الورق في العالم العربي الإسلامي كانت بيد الحكومات، حتى ظهر المصنعون الكبار في الأزمنة اللاحقة، ولقد نقل العرب استعمال عجينة الكتان في صناعة الورق من سمرقند إلا أنه سرعان ماستبعد الكتان فيما بعد وحل محله القطن لأنه أقل كلفة وأكثر انتشاراً في الشام وغيرها.

- وكانت طرابلس من أهم مراكز صناعة الورق في بلاد الشام وفاقت سواها من البلدان في ذلك، وقد زارها الرحالة ناصر خسرو واطرى على ورقها بقوله أن أهل هذه المدينة «يصنعون فيها الورق الجميل مثل ورق سمرقند بل أحسن منه، واشتهر ورقها بمختلف أنواعه المعروفة في ذلك الوقت، من الكاغد، والطوامير، والقراطيس وسد حاجة حوانيت الوراقين، وكانت

«طرابلس من أهم مراكز صناعة الورق في بلاد الشام وفاقت سواها من البلدان في ذلك»

دمشق وهي أم المدن الشامية فقد اشتهرت اشتهاراً كبيراً في ذلك، وقد نوه بورقها المؤرخون البيزنطيون

مصانعها تمد المشتغلين ببيع أو نسخ أو تأليف الكتب بكميات وفيرة من الورق بختلف أنواعه، وكان لهذا أثره على حركة التأليف والكتابة والترجمة والنسخ التي نشطت في طرابلس خلال العصر الفاطمي، فكثر فيها الوراقون والمؤلفون، والكتاب، والمجلدون، وفي سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٩٧ م قام جلال الملك ابن عمار (ت٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م) ابن أخي أمين الدولة (ت ٤٦٤ هـ / ١٧٠١م) بتجديد «دار القلم» في طرابلس[٢٤] وبالغ المؤرخون في عدد الكتب التي كانت موجودة في مكتبة طرابلس عندما هاجمها الصليبيون. ومن المعروف أن الفاطميين قد اهتموا بنشر مذهبهم واولوه اهتمامهم، وعملوا على نشر التشيع وتعليم الدعاة والعلماء والفقهاء وغيرهم، ولهذا اكثروا من دور العلم حتى أصبحت طرابلس مركزاً هاماً لنشر المذهب الشيعي ونشطت فيها الحركة العلمية، واستمرت دار العلم فيها تؤدي رسالتها الدينية والفكرية في ايام بني عمار الشيعة أيضاً حتى لقد قيل «إن طرابلس في زمن آل عمار صارت جميعها دار علم»، وكان في هذه المكتبة عدد كبير من النسّاخ ممن يعملون بصورة دائمة بلغ عددهم أكثر من مئة وثمانين ناسخاً كانوا يعملون بشكل دؤوب لصيانة محتوياتها وتجليد مخطوطاتها وزخرفتها بالذهب والفضة والكتابة عليها بخطوط جميلة وانيقة، وبولغ في عدد محتوياتها من الكتب حتى لقد قيل أنها وصلت إلى ثلاث ملايين مجلداً منها خمسون ألف نسخة من القرآن الكريم وثمانون ألف نسخة تفاسير، ولهذا فقد اعتقد الصليبيون خطأ أنها لاتتحدث إلا القرآن وتفسيره فدمّرت المكتبة أثناء الغزو الصليبي لبلاد الشام.

وامتازت طبرية بصناعة الورق ايضاً وقد ذكر ذلك المقدسي البشاري وأما دمشق وهي أم المدن الشامية فقد اشتهرت اشتهاراً كبيراً في ذلك، وقد نوه بورقها المؤرخون البيزنطيون، أما المؤرخون العرب والمسلمون فقد مدحوا الورق الدمشقي واثنوا على محاسنه وجماله، فقال أبو البقاء البدري «وفيها تعمل صناعة القرطاس بحسن صقاله ونقي أوصاله»، ونظراً لجودة ورق طرابلس ودمشق وتفضيله على الورق المصنوع في سمرقند لقيت تجارته رواجاً عظيمياً وكان يصدر بكميات كبيرة إلى مصر، وتتحدث أحدى الرسائل عن

أوربا الشرقية تبتاع ورقها من بلاد الشرق الأدنى مباشرة على مايشهد بذلك اسم الورق الدمشقي (شارتاداماسينا)

حمولة «٢٨» جمل (١٤٠٠ ألف رطل تقريباً) من الورق تحمل العلامة (أو الماركة المسجلة) الخاصة بابن إمام من دمشق، وفي الوقت نفسه أرسل هذا التاجر إلى الأسواق المصرية عشرين بالة من الورق الدمشقي عن طريق البحر من صور، ويستدل من هذا إلى جانب ماسبق بأن كمية كبيرة من الورق الدمشقي كانت تصدر للخارج ومنها الأسواق المصرية والأقطار الأخرى «فقد كانت أوربا الشرقية تبتاع ورقها من بلاد الشرق الأدنى مباشرة على مايشهد بذلك اسم الورق الدمشقي (شارتاداماسينا). وعبر العصور كان معظم الورق الشامي يصدر إلى مصر وبعضه يصدر إلى بيزنطة أيضاً. وقد وصف محمد كرد علي ورق الشام وطريقة صنعه وبين أهم المواد التي تدخل في صناعته كالخروق البالية، والحرير، واستبدل ورق القطن الذي منه الورق الدمشقي بالحرير في سنة ٨٨ هـ /٧٠٦م رجل اسمه يوسف بن عمر كما اشرنا سابقاً، ولايزال في خزانة دار الكتب العربية (الظاهرية) بدمشق كتاب سُطِّر سنة ٢٦٦ هـ/ ٨٧٩ م على ورق يظن أنه من الورق الشامي وهو أقدم مخطوط عرف بالشام ولايزال على متانته.

وكان الورق المعروف بورق الطير الذي تكتب به البطائق وتعلق في أجنحة الحمام الزاجل صنف من الورق الشامي الرقيق للغاية وفيه وعليه ملطفات الكتب وبطائق الحمام، ويعد هذا النوع من الورق مفخرة لتقنية صناعته في هذه الفترة.

وأما حلب فقد امتازت فيها صناعة الورق من حيث الجودة والكمية وصدر ورقها داخلياً وخارجياً، ولشهرة صناعته فيها وكثرته، سمي حي من احيائها، حيث اقيمت معامل الورق باسم الوراقة، وحافظ الورق الحلبي الصقيل المتين على شهرته حتى العصر الحديث، كما اشتهرت مناطق أخرى في بلاد الشام بصناعة الورق، وقامت مصانعه في حمص، وحماه، ومنبج، واستمرت هذه المدن بإنتاج الورق في الأزمنة اللاحقة.

رافق صناعة الورق وازدهارها ظهور طائفة من الناس يعملون بالورق والكتابة والكتب، فقد كان الورق عاملاً مساعداً على النشاط العلمي وتقدمه، وظهر التنافس الكبير في إقتناء الكتب والمكتبات وزاد عدد العاملين بالوراقة

وتجارتها، وكثر المشتغلون بتجليد الكتب ونسخها وبيعها، ونشطت صناعة الأقلام والبحث عن الحبر والصمغ واختيار اجودها، وتقدم فن التجليد وظهرت الحاجة إلى الجلود من الغزلان والماعز والعجول، واستخدم الحرير والديباج والأطلس في تجليد المصاحف بشكل خاص، ومهر أهل الشام بفن تجليد الكتب ومما يذكر في هذا المجال أن الجغرافي المقدسي كان قد برع في فن التجليد على الطريقة الشامية وكان في رحلاته يطلب لتجليد الكتب كلما نزل من منطقة، وعندما زار اليمن ونزل في عدن أعجب الأهالي هناك بتجليده وكانوا يدفعون له دينارين عن تجليد كل مصحف، وتعلم العرب المسلمون من المسيحيين العرب جمع الصحف بين دفتي كتاب مشدود، والمسيحين العرب في بلاد الشام والجزيرة وغيرها كان لديهم من الكتب الدينية المجلدة مما اتيح لبعض العرب المسلمين رؤيته والإعجاب بالجلود التي كانت تحفظ مافيها حق الحفظ، وفكر العرب المسلمون في اتباع هذه الطريقة وجمع صحف القرآن بين لوحين لحفظها، واستخدموا الأغلفة من الخشب وذلك قبل أن يتعلموا صناعة الجلود واتقانها عن القبط، لتأخذ عنهم بعد ذلك مدينة البندقية أساليبهم هذه وتنشرها بدورها في انحاء أوروبا.

كما أرتبط بالوراقة مهنة الخطاطة، واشتهر هؤلاء الخطاطون في العالم العربي والإسلامي، واحتلوا مراكز ممتازة في المجتمع، واعجب المؤرخون بمشاهيرهم واصبحوا يكتبون أسماء من يخط المخطوطة أو الكتابة عليها فيما إذا ماأرادو الرفع من أهمية المخطوطة وقيمتها.

ورافق الوراقة ايضاً مهنة المذهب وهو يلي الخطاط في المرتبة، ويقوم بعملية الزخرفة وكانت العناية تتجه إلى /المقدمة والفاتحة/ بحيث تلون وتذهب وتزين بعض المخطوطات وبالرسم والصور، متأثرة بالصناعة الفارسية في هذا المجال، وتقدمت هذه الصناعات وحفظت معظم المخطوطات في جلود جميلة النقوش بديعة الصنعة مما حدا بالمماليك فيما بعد للنسج على منوالها، وقام الأوروبيون بدورهم بأخذ هذه الأساليب واستعملوها.

وعرف الناس في هذه الفترة كثرة الدلالين، واقتصرت مهمتهم على البحث عن الكتب النادرة وشرائها

رافقة مهنة الوراقة،
التجليد..
الخطاطة..
المذهب..
****

دكاكين الوراقين ملتقى الأدباء والعلماء

ومن ثم بيعها، ولهذا كانوا يجوبون الأمصار ويبحثون في الأسواق والمكتبات للحصول على أندرها وأفضلها وشكل هؤلاء همزة وصل بين تجار الكتب في العالم العربي والإسلامي وسبب اتباع استخدام الورق انتشار الكتب في كل مكان، وقامت أسواق بيع الكتب والوراقين، وامتلأت حوانيتها، بالنساخين والخطاطين، وغدت مصدر زرق لعدد كبير من الناس، وألحق في هده الفترة بمعظم الجوامع مكتبات عامة، غدت مقصد طلاب العلم للإطلاع عليها والنهل من مهارفها. وزاد الإقبال على هذه الأسواق كل يفتش عن علمه، فالشاعر، والفيلسوف، والفلكي يبحثون عن كل جديد من الكتب وفي هذه الحوانيت كانوا يعيشون ويلتقون فقد استقبل ابن النديم ندماءه وخلانه وتعرف إليهم في السوق حيث كان وراقاً يعمل تاجراً بالكتب على الرغم من أنه كان عالماً مشهوراً الف الفهرست الذي يتضمن اسماء جميع الكتب والترجمات التي ظهرت بالعربية حتى أيامه، وكانت واجبات الوراق كثيرة إذ كان ينتخب الورق وينسخ الكتب ويقوم بعملية النسخ والتصحيح حتى لايقع فيه التحريف ومن ثم يجري عملية التجليد والبيع، ولقد اشتهرت الوراقة في هذه الفترة وتدل الكتب التي صدرت، وتعدد المكتبات ودور العلم والنهضة الثقافية على مبلغ رقي صناعة الورق وتطورها ونشاط الوراقة وتفننها، فالوراقة كانت مهنة محترمة عمل بها علماء أجلاء ومؤلفون مشهورون منهم كما أشرنا ابن النديم، وكذلك كان ياقوت الحموي وراقاً يبيع الكتب ويقوم بنسخها وغيرهم كثيرون من أكابر العلماء كابن الجوزي، وابن الفوطي، وكانت دكاكين الوراقين ملتقى الأدباء والعلماء، ولعبت دوراً كبيراً في تثقيف المجتمع العربي والاسلامي، وكان الكثيرون من الوراقين يعرفون بدلالي الكتب.

وكان للاهتمام الكبير بالكتب والمكتبات أكبر الأثر على النهضة التي شملت كل مرافق الحياة فقد نهل الجميع من العلوم والمعارف وأهتم بها رجال الدين والحكام والأمراء والأغنياء والتجار، وعملوا جميعاً بسخاء على دعم النهضة الثقافية، ويكفي أن نتذكر سيف الدولة الحمداني ومجالسه وتشجيعه للشعراء والأدباء والاسراف

الكبير في العطاء وسكه الدنانير الخاصة لمنحها للشعراء والأدباء، وكان يزن الدينار منها عشرة مثاقيل، وجود سيف الدولة شمل كل من عمل وساهم في النهضة الحضارية والثقافية بشكل خاص وشمل الصناع، والعاملين والمبدعين وكل من احترمهم الأمير العربي فكانت النتيجة إبداعهم المتميز الذي ظهر في عصره وكان يضاهي شجاعته في ساحة الحروب وانتصاراته الباهرة والوقوف في وجه الأعداء، وقد اهتم أكثر ماأهتم برعاية الأدباء والشعراء وكانت ندوته المشهورة التي كان يقيمها وقت السلم في قصره حافلة بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة يقصدونه من كل صوب يلقون من كرمه مايدفعهم ذلك إلى تجديد صناعتهم والإرتقاء بها ويكفي أن نتذكر كرمه مع أبي فراس عندما أعجب في بيت واحد بشعره فأعطاه ضيعة بمنبج تغل ألف دينار، وماصنع مع المتنبي حين أنشده قصيدة فأكثر له الأمير العربي في العطاء لحد الإسراف، وأما قصته مع أبي الفرج الاصفهاني صاحب كتاب الأغاني فقد قدم له ألفا دينار معتذراً لقلة هذا المبلغ.

ويذكر ابن أبي اصيبعة في طبقات الأطباء أن سيف الدولة كان له أربعة وعشرون طبيباً منهم عيسى الرقي الذي كلف بالترجمة من السريانية إلى العربية وكان سيف الدولة يعطيه ويغدق عليه اربعة ارزاق، كما شجع سيف الدولة أصحاب الخط الجميل وأجذل العطاء للخطاطين الماهرين ولهذا فقد ازدان قصر الحلبة، قصر سيف الدولة في حلب بالآيات القرآنية وأبيات الشعر المكتوبة بخط مذهب جميل يثير الإعجاب والدهشة، وكان سيف الدولة لفرط اعجابه بصحائف ابن مقلة «وهو أخو الوزير أبي علي محمد بن علي بن مقلة» حيث كان هذا خطاطاً لسيف الدولة ـ كان يصحبها معه حتى وقت خروجه لغزو الروم ويذكر ابن العديم مشيراً إلى ذلك إن سيف الدولة خسر في معارك ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م خمسة آلاف ورقة بخط أبي عبد الله الحسن بن مقلة، ولاشك أن حلب في عهد سيف الدولة احتوت على مكتبة عظيمة كثيرة الكتب وقد ذكر أن مجلس سيف الدولة تضمن ملوك الشعراء وكان منهم الأخوين هما الخالديان: (ابو بكر محمد بن هاشم وأبو عثمان سعيد بن هاشم، وكانا من خواص سيف الدولة وندمائه وتوليا

سيف الدولة الحمداني يسك ديناراً خاصاً لمنحه للشعراء والادباء

الأشراف على خزانة كتبه).

واورد ابن العديم في كتابه الانصاف والتحري خبراً مفاده أن خزانة كتب الشرقية التي بجامع حلب نهبت في فتنة في بعض أيام عاشوراء، وكان ذلك في زمن ابي العلاء المعري، ولم يبق في خزانة الكتب إلا القليل وجدد الكتب فيها فيما بعد الوزير أبو النجم هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان، ثم وقف غيره كتباً أخرى بها.

وكان هذا هو الحال في العصر المرواسي في الاهتمام بالكتب وبالعلم والمكتبات كما لم يقصر بنو منقذ من حيث الاهتمام بالكتب والمكتبات عن سيف الدولة ومما يذكر في هذا الصدد، شغف اسامة بن منقذ بالكتب وبالمكتبات، ويتضح ذلك من ملاحظة ابداها عندما عادت أسرته من مصر فوقعت في أيدي الأفرنج وخسر الكثير من المال فلم يأسف عليه اسفه على مافقده من الكتب وعددها أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، وملاحظته جاءت «فإن ذهابها علي ماقال حزازة في قلبي ماعشت».

وبالغ الفاطميون كثيراً في اهتمامهم بالكتب والمكتبات، وينقل المقريزي علي بن أبي طي قوله «إن لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقصر في القاهرة ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان نسخة من تاريخ الطبري، وبلغ عدد مجلداتها مليون وستماية ألف بالإضافة لدار الحكمة بالقاهرة وهي التي أسسها الحاكم سنة ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٤ م وبلغ عدد مجلداتها مائة الف مجلد.

طرابلس..١ مائة الف كتاب في عهد امين الدولة ابن عمار... وثلاثة ملايين كتاب في عهد فخر الملك عمار بن عمار

وفي طرابلس وصل المستوى الحضاري والثقافي أوجه في عصر أسرة بني عمار وساهم كما سبق القول مصنع ورق طرابلس في إثراء المكتبات بما يلزمها من كميات وفيرة من الورق الأمر الذي كان له الأثر الكبير على حركة التأليف والترجمة والكتابة والنسخ، وقد أقام امين الدولة بن عمار دار علم جمع من مكتبتها مايزيد على مائة الف كتاب، وارتفع هذا الرقم حتى وصل إلى ثلاثة ملايين في عهد فخر الملك عمار بن عمار ولايفوتنا إلا ان نتذكر هنا ابن العميد وزير البويهيين ومكتبته الرائعة التي زهت بأن خازنها كان المؤرخ الشهير ابن مسكوية، وكان ابن العميد يحب الكتب حباً شديداً فقد جمع مكتبة حوت كل علم وكل نوع من أنواع

المعارف والآداب وظهر طوال حياته مهتماً بها يتفقدها ويغذيها ويشتري لها الكتب ويأمر باستنساخها، وفاقه بحب الكتب والمكتبات تلميذه اسماعيل بن عباد المعروف باسم الصاحب ابن عباد فجمع مكتبة كبيرة بلغ فهرستها عشرات مجلدات ويعلق ول ديورانت في قصة الحضارة على ذلك بقوله «وكان عند بعض الأمراء كالصاحب ابن عباد من الكتب بقدر مافي دور الكتب الأوروبية مجتمعة».

ويجب ان نتذكر دائماً بأنه من المآثر الهامة لبلاد الشام على الغرب الأوروبي نقل الورق إليه، فخلال الحروب الصليبية تعلم اسيران فرنسيان في دمشق سر صناعة الورق وعندما عاد إلى بلادهما نشرا هذا السر. وعمت بعد ذلك صناعة الورق في فرنسا، وأوروبا. كما كان لمصانع الورق التي اقامها العرب المسلمون في صقيلية والاندلس أكبر الأثر في نقل هذه الصناعة إلى ايطاليا وبقية بلدان العالم الغربي التي كانت تزود مباشرة بالورق مما تصنعه معامل الورق في بلاد الشام لفترة طويلة، ومعروف ان الاوروبيين في القرون الوسطى كانوا يكتبون على رقوق من جلود الحيوانات غالية الثمن وكان ثمنها المرتفع عائقاً كبيراً أمام انتشار المؤلفات المكتوبة، ومع تقدم الزمن اصبحت الرقوق نادرة وقليلة مما أضطر الرهبان إلى حك المؤلفات القيمة لعظماء الرومان والاغريق ليكتبوا مواعظهم الدينية عليها، ولولا العرب لفقدت أكثر المؤلفات الخالدة القديمة ويكفي أن نتذكر فضل العرب في هذا الميدان لندرك مبلغ اسهامهم في الحضارة البشرية وفضلهم في الحفاظ على التراث الانساني وتطويره، وماعلى الذين يريدون الانتقاص من شأن العرب والحضارة العربية الاسلامية إلا أن يفكروا قليلاً، ويتذكروا في آثار ونتائج هذه الصناعة الخالدة ودور العرب الايجابي في النهوض بها وتطويرها فقد جاء في الموسوعة البريطانية «ولما سقطت دولة العرب في اسبانيا وانتقلت صناعة الورق من ايديهم إلى النصارى الأقل كفاءة منهم انحطت الصناعة وانحط الصنف». وكل هذا وذاك يؤكد على الدور الهام الذي قام به العرب من حفظ الحضارة البشرية وتطويرها والإبداع في جميع مفرداتها وعناصرها وما مساهمتهم في الاهتمام بالورق

أسيران فرنسيان ينقلان سر صناعة الورق إلى فرنسا ثم أوروبا..

ستبقى الحضارة العربية بمختلف اشكالها المتطورة مهما علت شاهداً على اصالة وعراقة ودور الحضارة العربية الاسلامية

وصناعته وتطويره ومانقله إلى أوروبا إلا شاهداً ودليلاً أكيداً على الدور الهام والفعال للعرب في النهضة الأوروبية الحديثة وقيامها، وستبقى هذه الحضارة بمختلف اشكالها المتطورة مهما علت شاهداً على اصالة وعراقة ودور الحضارة العربية الاسلامية في تقدم وتطور الحضارة البشرية بجميع اتجاهاتها وفرعها.

الأعمال الحربية
بين الموحدين والاسبان

دبلوم دراسات عليا تاريخ عرب وإسلام
عبد الكريم الشيخ حمود (*)

ولكن مالبث المرابطون أن ضعفوا وقامت الثورات ضدهم في الأندلس ولكنهم بالرغم من سقوط دولتهم في المغرب حافظوا على سلطانهم في الأندلس لفترة أطول وحينما بدأت الأمبراطورية الموحدية تمد نفوذها إلى الاندلس طلب الثائرون والمرابطون النجدة من أعداء الأمس الاسبان الشماليين ورحب الأسبان بمدِّ يد العون لان ذلك يعني مدَّ نفوذهم ويعني إضعاف الجبهة العربية المعادية وتفتيتها ولذلك وجد في شبه الجزيرة الإيبرية قوتان كبيرتان متصارعتان:

١ ـ الاسبان الذين اطلق عليهم المؤرخون العرب اسم الروم أو الإفرنج أو أسماً مشتقاً منه ديانتهم ألا وهو النصارى.

٢ ـ الموحدون.

واتخذ الصراع شكلين:

١ ـ صراع مباشر ويتمثل بالمعارك البرية والبحرية التي دارت بين القوتين الكبيرتين.

٢ ـ صراع غير مباشر وذلك بتشجيع الأعمال التي تضعف العدو وتؤدي إلى انهياره

كان المرابطون يقفون في وجه الاسبان في القسم الثاني من امبراطوريتهم أعني الاندلس واستطاعوا صد الخطر الذي يهدد بابتلاع الاندلس العربية في عدة معارك خاضها المرابطون بنجاح مثل معركة الزلاقة ومعركة إفراغه ومعركة اقليش

(*) أثناء الإعداد لإصدار هذا العدد وخلال مراجعة ملفات الأعداد القديمة وجدت هذا البحث، وعند قراءتي اسم صاحبه وجدت نفسي أردد: رحمه الله، والذاكرة تقود بي سنوات طويلة عبر الزمن، نحو شاب كله تفتح على الحياة،طموحه بلا حد، وآماله بلا قيد. بكل جهد حصل ودرس، وبكل عصامية بنى نفسه وثقفها، إنه الزميل المرحوم عبد الكريم الشيخ حمود، الذي قضى شهيد العلم وهو يعد لرسالة الماجستير في بغداد. وكان لزاماً علينا أن نفي لذكرى زميل عزيز بذل نفسه وهو يسعى في سبيل العلم. فقدمت موضوعه هذا إلى هيئة التحرير بعد تحكيمه ومناقشته تمت الموافقة على نشره.

رحمك الله يا عبد الكريم. لقد فقدناك صديقاً وباحثاً ومحباً للتاريخ، وعهداً لنتابع الطريق الصعب الذي اخترته، وأن نبذل كل جهد لبعث تراث أمتنا

منذر الحايك

كالثورات مثلاً وتأييدها مادياً ومعنوياً.

هذا الصراع هو موضوع بحثنا القادم.

الصراع المباشر بين الموحدين والاسبان

١ ـ في عهد عبد المؤمن بن علي:

عين أبو زيد عبد الرحمن بين يخيت والياً على قرطبة CORDOBA وعين عبد الرحمن بن حفص والياً على اشبلية SEVILLA وذلك سنة ٥٥٠ هـ.

فهاجم ابن يخيت الحصون الإسبانية القريبة ومنها حصن البطروج LOSPEDROCHES ومايليه من الحصون وذلك سنة ٥٥٠ وفتحه واسر قائده القشتالي القمط وبعثه إلى مراكش ومالبث أن قام بحملة ثانية استولى فيها على حصني منتور والمدور ALMODOUAR جنوبي قرطبة وخرج عبد الله بن ابي حفص لغزو ابن الرنك ـ ابن الريق في بعض المصادر ـ في غرب الأندلس وكان معه براز صاحب المخزن وابن الجمام صاحب بطليوس BADAIOZ فعبر نهر التاجة عند قنطرة السيف ALCANTARA وهاجم حصن اطرونكش من أحواز بطليوس وانتصر عليه وقتل الاسبان الموجودين فيه فلما سمع الفنش بذلك أرسل قوة لإغاثة الحصن ونشبت معركة اخرة انتصر فيها العرب وقتلوا ٦٠٠ من عساكر الفنش ـ الأذفونش ـ وعاد ابن ابي حفص إلى اشبيلية ومعه الغنائم والسبي.

استعادة المرية ALMERIA

المرية مركزاً للبحريين العرب على سواحل اسبانيا، فرنسا، وإيطاليا

كانت المرية مركزاً للبحريين العرب الذين يغيرون منها على شواطىء اسبانيا وفرنسا وايطاليا فجهز الفرنج حملة صليبية برية وبحرية اشترك بها كل من قشتالة والنافار واراجون وقطلونية وجنوه وبيزة وحاصروها ثلاثة أشهر ودخلوها عنوة في ٢٠ جمادى الأولى سنة ٥٤٢ بقيادة السليطين ـ الفونسو السابع ريموند ـ الموافق ١١٤٧ م. وكان وجود الفرنج في المرية يهدد مواصلات الموحدين البحرية بين الأندلس وشمال افريقيا فارسل عبد المؤمن ابنه السيد أبو سعيد عثمان ومعه الشيخ أبو حفص فأرسل السيد حملة استطلاعية من غرناطة CRANADA وصلت باب المرية وقتلت عدداً من الفرنج ثم ارتدت إلى حصن برجة في الشمال الغربي من المرية وذلك سنة ٥٤٦.

ثم مالبت ان سار السيد بنفسه على رأس جيش ضخم وحاصرها براً واتاها

سطول سبتة وحاصرها بحراً بقيادة عبد الله بن سليمان وذلك سنة ٥٥٢ هـ وبنى سوراً على الجبل المشرف عليها إلى البحر وعمل عليها فندقاً حتى يمنع النجدات للفرنج المحاصرين بها. واستغاث النصارى بالفنش - الفونسو السابع - السليطين فسار على رأس ١٢٠٠٠ فارس وسار معه ابن مرونيش بـ ٦٠٠٠ فارس وحاولوا كسر الحصار والوصول إلى الحامية المحاصرة ولكنهم فشلوا وعاد كل إلى بلاده ولم يصل السليطين إلى بلاده لأنه توفي في الطريق إلى طليطلة TOLEDO في مورتله في ٢١ آب ١١٥٧ واستمر حصار الموحدين للمرية بضعة اشهر حتى سقطت سنة ٥٥٢ بامان.

وفي ربيع الأول سنة ٥٥٢ جرت وقعة زغبولة قرب اشبيلية وهزم بها ابي يعقوب يوسف ابن الخليفة واستشهد فيها ابن عزون وابن الجمام والحافظ ميمون وهرب ابو يعقوب وابن وزير واسر الكثير من المسلمون.

وفي سنة ٥٥٥ استولى ابن الرنك - الفونسو هنريكيز على قصر ابي دانس ALCACEDOSAL وقتل جميع حاميته.

وفي نفس السنة جاءت «من جهة جيان» (JAEN) سرية من الاسبان لتتطلع الأخبار فخرج الأمر العزيز باتباعهم فادركهم الموحدون فغزوهم وسبوهم....

وفي سنة ٥٥٦ ارسل عبد المؤمن جيشاً إلى فحص البلقون فانهزم الاسبان وكان على القبائل ابن الشرقي وعلى الأندلسيين ابن صناديد.

وفي نفس السنة أرسل عبد المؤمن قائدين هما ابو سعيد بن الحسين وابو عبد الله بن يوسف وعندما وصلا اشبيلية أرسلا ٥٠٠ فارس لبطليوس فغزوا شنترين SANTAREN وهزموا الاسبان وملك الموحدون بطليوس وباجه BEJA ويابره وحصن القصر واراد عبد المؤمن أن يحقق انتصاراً ضخماً ضد الاسبان بغزوة عظمى براً وبحراً فأمر ببناء السفن فبنى منها ٢٠٠ قطعة على قول ابن صاحب الصلاة و ٤٠٠ قطعة على قول ابن أبي زرع وجمع الجنود وسار إلى سلا في يوم الخميس ١٥ ربيع الأول سنة ٥٥٨ فأجتمع له اعداد ضخمة قدرها ابن صاحب الصلاة بـ ١٠٠٠٠٠ فارس و ١٠٠٠٠٠ راجل بينما قدرها ابن ابي

٢٠٠ أو ٤٠٠ قطعة عدد السفن التي أمر ببنائها عبد المؤمن ليغزو الأسبان براً وبحراً

زرع بـ ٣٠٠٠٠٠ فارس و ١٠٠٠٠٠ راجل و ٨٠٠٠٠ من المطوعة جهات:

١ - جهة ابن الرنك بقلمرية COIMBRA

٢ - جهة الببوج بالبطاط.

٣ - جهة ادفونش بطليطلة.

٤ - جهة برشلونة BARCELONA.

من ذلك نرى ان عبد المؤمن كان يفكر بهجوم عام وشامل ضد الأسبان ولكن القدر لم يمهله فمرض وتوفي يوم الثلاثاء ١٠ جمادى الآخرة ٥٥٨ هـ ١٦ أيار ١١٦٣ ولكن ابن صاحب الصلاة يذكر أن اليوم هو يوم الجمعة ١٠ جمادى الآخرة ٥٥٨ .

٢ - في عهد أبي يعقوب يوسف:

كان يولي غزو الاسبان اهتماماً خاصاً حتى أنه كان أول الملوك الموحدين الذين غزوا بأنفسهم وقد شغل في بداية حكمه بالقضاء على خصومه وتثبيت دعائم حكمه فاستغل الاسبان ذلك وقاموا بمهاجمة العرب بالأندلس. فمثلاً

أبي يعقوب يوسف أول الملوك الموحدين الذين غزوا بأنفسهم

مهاجمة اسبان شنترين نظر طلياطة بجهة اشبيلية فارسل ابو عبد الله بن أبي ابراهيم عسكر اشبيلية بقيادة ابو العلاء بن عزون فأدركوهم وانقذوا الغنائم واسروا مائة فارس منهم وكان ذلك سنة ٥٦٠ هـ.

وكذلك مهاجمة جراندة لمدينة ترجاله TRUJILLO في جمادى الآخرة سنة ٥٦٠ ومهاجمته لمدينة يابرة EVORA في ذي القعدة من نفس العام وهاجم قامرش في صفر عام ٥٦١ وحصن منتانجش في جمادى الأولى من نفس السنة وحصن شيربه في آخر جمادى الأولى وحصن جلمانية حيث اتخذه لمهاجمة بطليوس حيث احتل هذه الأخيرة بمساعدة ابن الرنك وحصر الموحدين في قصبتها وكانوا بقيادة أبي علي عمر بن تمصيلت وكان ذلك في رجب سنة ٥٦٤ وشدد الاسبان الحصار على الموحدين مما أدى إلى جواز الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى إلى اشبيلية وبينما هو يستعد للسير إلى بطليوس إذ جاء الخبر بأن فرناندة الببوج جاء لطرد ابن الرنك وجراندة وفعلاً استطاع الانتصار عليهما بمساعدة من الموحدين المحاصرين في العقبة الذين فتحوا باباً من أبواب المدينة وادخلوا جيش الببوج المدينة ودارت المعركة بين الببوج والغرب من جهة وابن الرنك وجراندة من جهة أخرى ففر ابن الرنك وكسرت ساقه اليمنى اثناء الفرار ثم اسر في

الموضع المعروب بقاية ولكن الببوج أحسن معاملته واطلقه وفر جراندة ايضاً وبذلك خرج الاسبان من بطليوس في ٢٢ شعبان سنة ٥٦٢ ثم عين ابو يحيى بن ابي حفص والياً عليها بعد تحريرها ودارت بينه وبين جراندة المقيم في حصن جلمانية عدة معارك وفي آخر هذه المعارك خدعة جراندة إذ تحالف مع أهل شنترين فامدوه بقوة كبيرة فأكمنهم ثم اغار على بطليوس فلاحقه ابو يحيى وجراندة يفر أمامه حتى وصل إلى مكان الكمين فخرج عليه الكمين وانهزم العرب واسر جماعة منهم ولم تكن الجبهة الغربية هي الجبهة الوحيدة وإنما وجدت عمليات حربية بين الطرفين في القطاع الأوسط فمثلاً في جمادى الآخرة سنة ٥٦٣ غزا أهل جراندة المقيمين في وادي اش GUADIX مدينة رندة RONDA فغنموا فعلم الشيخ ابو عبد الله بن ابي ابراهيم والي غرناطة بذلك فأرسل قوة لاقت الاسبان بين نظر وادي آش وبين نظر غرناطة فالتجأ الاسبان إلى جبل شاهق فهاجمهم الموحدون وانتصروا عليهم وقتلوا وسبوا واسروا ٥٣ منهم ساقوهم إلى غرناطة حيث قتلوا.

وتعرضت رندة إلى هجوم آخر من قبل نونة ظئر اذفونش بن السليطين ووصل في هجومه إلى الجزيرة الخضراء ALGECIRAS ووصل إلى البحر الأبيض المتوسط وقتل العرب وباسر منهم، وإذا عدنا إلى جبهة بطليوس نجد أن جرندة قد حاصرها بطليوس مما أدى إلى ضائقة تموينية بها مما سبب ارسال ٥٠٠٠ دابة ميرة من اشبيلية وكان قائد القافلة ابو يحيى زكريا بن علي ولكن عندما وصلت القافلة قرب بطليوس خرج جراندة عليهم ومعه أهل شنترين وهزمهم وقتلهم واسرهم ونهب الميرة وكان ذلك يوم الخميس ٢٦ شعبان ٥٦٥ واستشهد قائد القافلة في هذه المعركة.

انقسام في جبهة الاسبان وعقد الصلح بين العرب والببوج

ولكن مالبث الموحدون بقيادة السيد ابو سعيد ان ساروا إلى بطليوس لإخراج الاسبان منها وفي نفس الوقت وصل فرناند الببوج إلى قرب بطليوس قاصداً احتلالها حتى لايتغلب عليها ابن الرنك وجراندة مما يدلنا على انقسام في جبهة الاسبان ثم مالبث أن عقد الصلح بين العرب والببوج وتابع السيد ابو سعيد هجومه باتجاه حصن جلمانية وفتحه عنوة وطرد جراندة منه وكان ذلك في

ربيع الأول سنة ٥٦٦ وفي سنة ٥٦٦ جاز أبو يعقوب يوسف إلى الاندلس بنية الهجوم على الاسبان فوصل اشبيلية يوم الجمعة ١٢ شوال واقام بها (١٠ ايام) ثم شار إلى قرطبة فوصلها في أول ذي القعدة ووجه منها عسكراً يقدر بـ ٢٠٠٠٠ وعليهم أبا محمد عبد الله بن أبي حفص بن تقريجين إلى طليطلة فعبر وادي تاجه وغنم ثم انصرف إلى قرطبة ووجه الميره على ٤٠٠ دابة إلى بطليوس وبعد ايصال الميرة عرج الموحدون أثناء عودتهم على حصن لبيون وفيه اسبان من اصحاب جراندة ففتحوه.

وحدثت غزوتان لطليطلة الأولى بقيادة أبي يعقوب نفسه والثانية بقيادة السيد ابي بكر ابن الخليفة وقابل في هذه الغزوة شانسوفيمينو (ابو برذعة) فانتصر عليه ابي بكر وقتله وقتل جميع جنوده وعددعهم ٣٦٠٠٠.

غزوة وبذة HUETE

خرج ابو يعقوب بنفسه لهذه الغزوة يوم الأثنين ١١ شوال سنة ٥٦٧ فوصل قرطبة الأحد ١٧ شوال واقام بها حتى الاثنين ٢٥ شوال ثم سار إلى القصير واندوجر ANDUJAR حتى وصل قرب بياسة BAEZA ثم فتح حصن بلج يوم السبت ٣٠ شوال وحصن الكرس ALCARAZ يوم الجمعة ٦ ذي القعدة ثم سار إلى بلاط الصوف ثم إلى غدر ثم إلى مرج البسيط ثم إلى وادي جزيرة شقر JUCAR حيث ارسل اخاه أبا سعيد في ١٢٠٠ فارس للإغارة على أول بلاد الاسبان بجهة وبذة ففتح حصن برج خمل ثم سار إلى وبذة حيث جرت معركة انتصر فيها الغرب وبات ابا سعيد على الجبل المطل على المدينة أما ابو يعقوب يوسف فقد وصلها يوم الثلاثاء ١٧ ذي القعدة. حيث اشتبك مع الاسبان وادخلهم المدينة وحاصرهم ومنع عنهم الماء وتجددت المعارك يوم الأربعاء ودخل العرب المدينة وحاصروا الاسبان في القصبة ولم يبق في المدينة قتال إلا في جهة الغرب جهة أبو العلاء ابن عزون الذي طلب العون من أبو يعقوب ولكن هذا لم يمده لاشتغاله بمذاكرة الطلبة.

المطر سقى الاسبان المحاصرين في القصبة ومنع العرب من اسقاطها.

في يوم الخميس ١٩ ذي القعدة وصل موفد من الاسبان لتسليم المدينة مقابل تأمين أهلها ولكنه صرف دون جواب طمعاً بفتحها بالقوة وعاد الموفد يطلب الأمان مساء اليوم نفسه ولكنه أيضاً لم يجاوب. واستمر الحصار وفي يوم الأحد

٢٢ ذي القعدة جاء مطر وابل سقى الاسبان المحصورين وهبت ريح شديدة وكذلك حدث صبيحة الاثنين مما أضعف معنويات العرب وتجددت المعارك بعد ظهر يوم الاثنين وفي ليلة الأربعاء ٢٥ ذي القعدة خرج الاسبان المحاصرين وهاجموا قبيلة هسكورة مما اضطرها إلى الفرار وفي يوم الجمعة ٢٧ ذي القعدة عرض الأمان على الاسبان وبذه فرفضوه وفي يوم الأحد ٢٩ ذي القعدة اقلع ابو يعقوب عن وبذه وبعد ان عجز عن فتحها فلما شاهده الاسبان المحاصرون خرجوا وهاجموه واشعلوا النار في معسكره وقتلوا الضعفاء والمرضى. وسار عائداً على طريق قونكة CUENCA فوصلها يوم الثلاثاء ١ ذي الحجة ثم سار منها إلى البورت يوم الأربعاء ٢ ذي الحجة حيث التقى باذفونش الصغير وقمطة نونة فلجأ ابو يعقوب إلى جبل حصين على الضفة الأخرى من وادي شقر بينما الاسبان على جبل توينس وفي يوم الجمعة اشتبك الفريقان وانتصر العرب ثم انسحب اذفونش إلى بلاده في ٥ ذي الحجة.

ثم عاد أبو يعقوب إلى اشبيلية على طريق جبل الصومعة - وادي تامطة - وادي برج قبلة حيث عانوا قلة التموين - عقبة الاباليس - مرح القبداق - حصن ركانه - مجمع الأدوية - حصن بنيول - شاطبة - حصن بليانة - حصن عصف - حصن الج - حصن اوريوله - مرسيه - غرناطة - اشبيلية حيث وصلها يوم الخميس ٨ ربيع الأول ٥٦٨.

ما هو سبب فشل هذه الغزوة علماً أن الجيش كان يقدر بـ ١٠٠٠٠٠ فارس وراجل؟

١ - الظروف الجوية السيئة وذلك أن الأمطار نزلت في فصل الصيف وهذا غير مألوف.

٢ - الغلاء وقلة الأقوات وسوء الحالة التموينية للجيش.

٣ - فساد البنية في الجهاد.

مطر الصيف (الغير مألوف) سبباً في فشل غزوة كبرى

وفي أثناء تراجع ابو يعقوب وفي شهر محرم من سنة ٥٦٨ هاجم ابن الرنك مدينة باجه واخذها من عمر بن مسحنون.

وفي شعبان من نفس السنة خرج شان منوس - الأحدب - من مدينة آبلة وعبر الوادي الكبير وهاجم استجه ECIJA فغنم ٥٠٠٠٠ رأس وأسر من العرب مايزيد على ١٥٠ رجلاً ثم عاد وعبر الوادي من مخاضة بليارش فارسل ابو

يعقوب خلفه اخاه ابو زكريا يحيى يوم الخميس ١٣ شعبان وعبر الوادي الكبير من مخاطة قطيفان وسار إلى قرطبة حيث سار معه الشيخ ابو حفص ثم ساروا إلى حصن البطروج ثم لحقوا شان منوس بفحص كركوي قرب قلعة رباح CALATRAVA فهرب إلى جبل في المنطقة فهاجمه الموحدون وهزم الاسبان وقتل الأحدب وجميع من كان معه عدا مائتين واسترجعت الغنائم والأسرى يوم الأربعاء ١٩ شعبان. وفي سنة ٥٦٨ ايضاً ارسل ابو يعقوب ٤٠٠ فارس ومعهم ميرة على ٣٠٠٠ دابة إلى بطليوس فاوصلوا الميرة ثم خرجوا غازين لنظر طلبيرة TALAUERA فغنموا ٣٠٠٠٠ رأس وسبوا وقتلوا وارسل ايضاً من غزا طليطلة ايضاً.

وفي سنة ٥٦٩ غزا ابو يعقوب مدينة كركونة في شرق الأندلس.

وفي سنة ٥٧٠ يبدو أن الصلح بين الموحدين وفرناندة البيوج قد انفصمت عراه لذا نرى هجوماً من قبل الموحدين على البيوج واحتلالهم لقسم من اراضيه يتمثل بقنطرة السيف وناخوش.

غارات دائمة بين العرب والاسبان ولم تكن اعمالاً حربية كبيرة

وهذه الأعمال كلها كانت غارات دائمة يقوم بها الطرفان ضد بعضهما بعضاً بداعي الجهاد ولم تكن اعمالاً حربية كبيرة ذات اثر حاسم، وتستمر هذه الغارات فمثلاً:

في سنة ٥٧٢ نشبت معركة بين الموحدين والقتاليين وانصارهم الأرجوانيين فانهزم الموحدون واستولى المتحالفون على قونكة.

وفي شوال من نفس السنة اغار ابي الحسن على جهات طليطلة واغار ابو علي على طلبيرة وفتح حصناً على وادي تاجه.

وكرد على هجوم الموحدين على أراضي البيوج نجد أنه يغير في هذه السنة على أركش ARCOS DEAFRONTERA وشريش JEREZ ولكن جند اشبيلية يلاحق جنوده ويهزمهم ويأسر ٨٠ منهم وفي الجهة الغربية حيث كانت الحرب تدور ضد ابن الرنك نجد هذا قد حاصر مدينة باجة BEJA في سنة ٥٧٣ ثم اقلع عنها وتوغل في أراضي العرب حتى وصل طريانة قرب اشبيلية وتغلب عليها ورد العرب بهجوم ابن تمصليت على فحص ابي دانس وبينما هو يقاتل إذا اتت الامدادات من أهل شنترين لاعدائه فانهزم العرب.

وفي ١٠ محرم سنة ٥٧٦ حاصر محمد بن بوانودين الهنتاني يابرة ولم يتمكن من فتحها فرفع الحصار وسار إلى حصن فخ وفتحه.

وفي سنة ٥٧٧ اغار اهل شنترين على الشرف ALJARAFE فخرج عليهمي عسكر اشبيلية وقتلوا منهم ١٧٠ وتبعوهم فخرج على المسلمين كمين فانهزموا. واغار اهل طليطلة على اتجه وجهة قرطبة وفي سنة ٥٧٨ اغار أهل شنترين واشبونة ALSBONA على شلوقة من منطقة الشرف في ١٠٠٠ فارس و ١٠٠٠ راجل وكذلك اغاروا على حصن القصر.

أما في جبهة قشتالة فقد جرت حوادث برية هامة في سنة ٥٧٨ قام بها اذفونش الصغير اذحاصر قرطبة في ٤ صفر ثم سار إلى مالقة MALAGA ورندة وغرناطة واتجه واحتل حصناً من عمل روندة واسر فيه ١٤٠٠ مسلم ثم استولى على حصن شنتفيلة وحصن المنار في ١٧ صفر فاسر ٧٠٠ عربي ووضع فيه ٥٠٠ فارس و ١٠٠٠ راجل وعاد إلى بلاده في ١٣ ربيع الأول ولكن هذا الحصن مالبث أن عاد إلى العرب في ١٥ جمادى الأولى.

ورد العرب في ٨ جمادى الآخرى حيث خرج عبد الله بنن وانودين من اشبيلية إلى حصن بثه فاسر ٢٠ فارساً ثم سار إلى طلبيرة فغنم وعاد فتبعه أهل طلبيرة فاشتبك معهم وهزمهم وقتل منهم ١٠٠٠ ومن اليهود أحلافهم ١٠٠٠.

وهذه المعارك كانت كلها برية ولكن كانت هنالك معارك تدور في البحر أيضاً بين الطرفين على الشواطىء الشرقية والغربية وعند مصب نهر التاجه ولكنها لم تسفر عن نتيجة حاسمة.

هجوم عربي واخر أسباني على مواقع هامة وأسر وغنائم من الطرفين.

فقد غزا غانم بن مردنيش اشبونة بحراً وغنم قطعتين وعاد إلى سبتة وكان ذلك سنة ٥٧٥ فرد الفرنج بغزو شلطيش SALTES فاسروا عدداً من العرب وفي منتصف محرم سنة ٥٧٦ اغار الاسبان على سبتة واسروا غانم وغنموا كثيراً من القطائع. فرد العرب على ذلك بهجوم بحري قاده عبد الله جامع وابو العباس الصقلي بعد أن اجتمعا بقادس GADIZ وكان معهما ٤٠ قطعة وجرت معركة مع اسطول اشبونة وانتصر العرب وغنموا ٢٠ قطعة واسروا ١٨٠٠ من الاسبان وكان ذلك في منتصف محرم ٥٧٧ .

غزوة شنترين SANTAREN:

لكي يضع ابو يعقوب حداً لهذه الغارات رسم خطة لضرب الدويلات الاسبانية وأراد أن يبدأ بضرب اقوى أعدائه حتى إذا ماعم الرعب بعدها بقية الدويلات من جراء الانتصار اخضع بقية الدويلات بسهولة.

لتطبيق هذه الخطة اراد مهاجمة البرتغال براً وبحراً حتى إذا وصل نهر دويرة DUERO زحف على ضفاف التاجو ودويره إلى قلب قشتالة وليون LEON.

جملة تلفظها الخليفة أودت بحياته

خرج أبو يعقوب من اشبيلية يوم الخميس ٢٦ صفر سنة ٥٨٠ فوصل في طريقه إلى حصن العرجة يوم الجمعة ٤ ربيع الأول ثم سار إلى بطليوس وتركها يوم الخميس ١٠ ربيع الأول حتى وصل شنترين وحاصرها يوم الأربعاء ١٦ ربيع الأول بينما يجعل ابن ابي ررع بدء الحصار في ٧ ربيع الأول واستمر في الحصار حتى يوم الأثنين ٢١ ربيع الأول بينما يجعل ابن أبي زرع نهاية الحصار يوم الثلاثاء ٢٢ ربيع الأول وارتكب ابو يعقوب خطأ وذلك بتحويل معسكره من شرق شنترين إلى شمالها وغربها مما يعرض الجيش لخطر التطويق. وحدث سوء فهم للأوامر الصادرة عن الخليفة فقد امر أبو يعقوب ابنه أبا اسحق ان يبكر صباحاً بالقيام بهجوم تجاه اشبونة لكي يحمي الهجوم على شنترين من مفاجأة من هذه الناحية وان يكون رحيله نهاراً.

ولكن أبا اسحق ظن أنه امره بالرحيل ليلاً وعبر نهر التاجو باتجاه اشبيلية بدلاً من السير باتجاه اشبونة واشيع عن عزم الخليفة على الرحيل بسبب رحيل أبو اسحق وبسبب جملة تلفظها الخليفة في مجلسه الخاص «نحن راحلون غداً ان شاء الله» ولكنه لم يصدر أمراً بالرحيل فقوض أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الرحمن المالقي خباءه وقوض الناس اخبيتهم عندما رأوه والخليفة لاعلم عنده بذلك وفي الصباح لم يجد الخليفة الا خاصته. فلما رأى الاسبان المحاصرين ذلك هاجموا الموحدين ووصلوا إلى خيمة ابو يعقوب وطعن عدة طعنات، وعاد أبو اسحق في هذه الأثناء بمن معه وجرت معركة اخرى انتصر فيها العرب وقتلوا ١٠٠٠٠ من الاسبان ثم مالبث ابو يعقوب ان توفي. واختلف المؤرخون بكيفية هذه الوفاة:

١ - يذكر ابن زرع ان الخليفة طعن عدة

طعنات وانه توفي متأثراً بها يوم السبت ١٨ ربيع الآخر.

٢ - يذكر عبد الواحد المراكشي أن الخليفة طعن تحت سرته وانه توفي في ٧ رجب.

٣ - يروي ابن الاثيرانة مرض وتوفي اثناء الحصار ويؤيده في ذلك الحميري.

ولكن بصورة عامة لم يكن أبو يعقوب موفقاً في قتاله للاسبان لا في حصار وبذه ولافي حصاره لشنترين حيث فقد حياته في هذا الحصار.

٣ - في عهد أبو يوسف يعقوب المنصور:

يعتبرالمنصور من أنجح الخلفاء الموحدين في قضية الصراع ضد الأسبان بالرغم من أنه عانى بعض المصاعب الداخلية عند تسلمه السلطة فاستغل الأسبان في الجبهة الغربية ذلك وأرسل ابن الرنك - ابن الريق - جيشاً برياً ودعمه بصليبيين قدموا من انكترا إلى مدينة شلب Slives فدخلها وسبى وقتل إذ كان عدد سكانها ٦٠٠٠٠ فلم ينجو منهم سوى ١٣٠٠٠ ثم تابعوا زحفهم واستولوا على باجة ويابرة.

أما القشتاليون فقد كانوا بقيادة اذفونش - الفونسو الثامن - فاستولى على حصن المنار اثناء غزوه لقرطبة واشبيلية وحاصر أم عزالة واحتل ربيئة ووصل إلى حصن شلير ثم سار إلى الجزيرة الخضراء وتحدى المنصور واستمر في غزوته من ربيع الآخر حتى أوائل جمادى الآخرة سنة ٥٨٥ .

أما رد فعل المنصور تجاه هذه الأحداث فقد وبخ قادة الأندلس عند سماعه سقوط تسلب وأمرهم بغزو الغرب وفعلاً سار والي قرطبة محمد بن يوسف في سنة ٥٨٦ واعاد فتح شلب وباجه ويابرة وفتح قصر ابي دانس ورجع إلى قرطبة ومعه ١٥٠٠٠ سبيه و ١٣٠٠٠ أسير في شوال ٧٥٨ وفي سنة ٥٨٥ أي قبل خسارة شلب عبر المنصور إلى الأندلس وأغار على شنترين لينتقم لهزيمة والده وعلى الأشبونة وقتل وسبا وعاد إلى العدوة بـ ١٣٠٠٠ سبية.

معركة الأرك ALARCOS:

في سنة ٥٩١ وبعد قدوم كتاب التحدي من الفونسو عبر المنصور البحر في جمادى الآخرة واسرع إلى لقاء عدوه الذي كان ينتظره في مكان يدعى الأرك ين قرطبة وقلعة رباح وقبل وصول المنصور إلى المكان بمرحلتين عقد مجلساً حربياً يوم الخميس ٣ شعبان ٥٩١

المنصور من انجح الخلفاء الموحدين، في قضية الصراع ضد الاسبان، بالرغم من مصاعبه الداخلية.

القلب.. الميمنة.. الميسرة.. المقدمة.. خطة انتصر فيها المنصور

استشار الأشياخ وخاصة الأندلسيين منهم وذلك لخبرتهم بقتال الاسبان فأقترح عليه ابن صناديد ان يقدم أحد شيوخ الموحدين بالجيوش للقتال وبقاء المنصور مع احتياطي جيوش الموحدين قريباً لحماية المنهزمين وبنفس الوقت يكون القدو قد انكسرت شوكته من قتال المتقدمين فوافق المنصور على الخطة وفي ٥ شعبان عين ابي يحيى بن أبي حفص قائداً للجيش المتقدم.

التعبئة عند المسلمين:

القلب: وفيه القائد العام أبو يحيى ومعه قبيلة هنتاتة.

الميمنة: وفيها ابن صناديد ومعه جنود الأندلس.

الميسرة: وفيها العرب بقيادة جرمون بن رياح ومغراوة بقيادة منديل المغراوي ومرين بقيادة محيو بن أبي حمامة وهسكورة والمصامدة بقيادة تجليد بن علي.

المقدمة: وفيها المطوعة بقيادة أبي خزر يخلف الأوروبي.

وتقدم الجيش وكان الأسبان على ربوة عالية فنزل العرب أمامهم في الوطا يوم الأربعاء ٩ شعبان ٥٩١ - ١٩ تموز ١١٩٥ وكان يحيى جناح العرب قلعة الأرك وبعض التلال.

سير المعركة:

خرج القادة يشجعون المقاتلين ولما أندفع للهجوم انقض عليهيم ٧ - ٨ آلاف من الفرسان القشتاليين المثقلين بالدروع ورد العرب الهجوم مرتين وعززت قوى القشتاليين وهجموا للمرة الثالثة على القلب ووصلوا إلى القائد العام وقتلوه ولكن الجناح الأيمن بقيادة ابن صناديد التف على المهاجمين واصبحت المعركة اكثر عنفاً وتقدم الموحدون وحينئذ هجم المنصور ببقية الجيش وحطم بقية المقاومة وهزم الأسبان وفر الأذفونش في ٢٠ فارساً.

أما بالنسبة للخسائر:

١ - يذكر ابن عذاري ويوافقه الحميري أن قتلى العدو كان ٣٠٠٠٠ بينما خسائر العرب ٥٠٠.

٢ - بينما يذكر ابن الايتر أن قتلى الأفرنج ١٤٦٠٠٠ وان الاسرى ١٣٠٠٠ وخسر العرب ٢٠٠٠٠ قتيل واستفاد المنصور من النصر فحاصر قلعة الأرك ودخلها عنوة واسر في الحصن ٢٤٠٠٠ اطلقهم المنصور وغير كنيسة الحصن إلى مسجد وصلى بها المسلمون.

وفي سنة ٥٩٢ خرج المنصور يوم الأثنين منتصف رجب وفتح حصن منتانجش وترجاله وطلبيرة وشن الغارات على طليطلة وقطع اشجارها وانكى في الروم.

وجدد غاراته في السنة التالية ٥٩٣ وتوغل في بلاد الروم ووصل إلى مواضع لم يصل إليها ملك من العرب فقد فتح رباح ووادي الحجارة GUADAJARA ومجريط MADRID وجبل سليمان واقليج UCLES وحاصر طليطلة وفيها الفونسو لمدة ١٠ ايام ثم رحل إلى طلمنكة TALAMANKA فدخلها عنوة وفتح البلاد وترجاله وعاد إلى اشبيلية في صفر ٥٩٣.

٤ ـ في عهد محمد الناصر:

استولى العدو البرجلوني على حصون من نظر بلنسية VALENCIA وكان ذلك سنة ٦٠٧ وجرت في عهده وقعة العقاب.

وقعة العقاب LASNAVAS DELOLSA

في سنة ٦٠٧ نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين العرب وقادهم الفونسو ـ اذفونش ـ عدة مرات إلى الأندلس يقتل دليسبي وخرب اراضي جيان ورياسة BAEZA واندوجر ووصل اهواز مرسية MURCIA وعاد إلى طليطلة فاستغاث المسلمون بالناصر الذي استنفر المسلمين للجهاد وجمع الجيوش وجاز بهم إلى الأندلس في ١٩ ذي القعدة سنة ٦٠٧ وقسم جيشه خمسة فرق: الأولى وتضم الاندلسيون والثانية الموحدون والثالثة المتوعة وعددهم ١٦٠٠٠٠ من الفرسان والمشاة والرابعة العرب ولايذكر ابن أبي زرع الفرقة الخامسة بينما السيد سالم يجعل الفرق كالآتي:

الأولى للعرب والثانية لزناقة وصفهاجة والمصامدة وغمارة وسائر قبائل العرب والثالثة للمتطوعة والرابعة للأندلسيين والخامسة للموحدين. وكان عددهم ٥٠٠ ٠٠٠ دون المرتزقة. في أول صفر ٦٠٨ سار الناصر إلى قشتالة ونزل على حصن شلبطرة بخيرة جنده وحاصره ثمانية أشهر حتى فنتيت ازواد الناس وقلت العلوفات وكلت العزائم وغلت الأسعار واشتد البرد ومرض الجند وحاول الفونسو مد الحصن إلا أنه فشل وفتح حصن شلبطرة بفعل الجوع في آخر ذي الحجة ٦٠٨ هـ. وفي أثناء ذلك كان وزيره ابن جامع يسيء الأشياخ

الجوع يفتح حصن شلبطرة امام محمد الناصر

الموحدين واهان قواد الأندلس ففسدت نياتهم.

قتل الناصر لابن قادس أثار حنق الاندلسيين ودفعهم إلى الفرار

وعند سقوط شلبطرة طلب ملك قشتالة تنظيم حملة صليبية ضد عرب الأندلس وفعلاً نجد أن ملوك الأسبان قد اتفقوا فيما بينهم وقدمت قواتهم إلى طليطلة واصبحت هذه القوات تتألف من قوات قشتالة وفرسان رباح وشانت ياقب SANTIAGO والفرسان الاستبارية والفراسن الداوية ونافار واراجون وجيليقية والبرتغال وكذلك اتت جيوش من فرنسا وايطاليا والمانيا.

وزحفوا من طليطلة ٢٠ حزيران ١٢١٢ - ٦٠٩ هـ وساروا في ثلاثة جيوش باتجاه الجنوب: الجيش الأول وقائده ديجولوبيت دي هارو وفيه ١٠٠٠٠٠ مقاتل.

الجيش الثاني وقائده بدرو الثاني ويضم الأرغونيين والقطلونيين وفرسان الداوية.

الجيش الثالث وقائده الفونسو الثامن ملك قشتالة ويضم القشتاليين والليونيين والبرتغاليين وفرسان رباح وشنت ياقب والاستبارية.

تقدم الجيش الأول وهاجم حصن مجلون في ٢٤ حزيران وقتلوا من فيه ثم اجتمع الجيش على قلعة رباح وحاصروها وسقطت المدينة ولكن القلعة لم تسقط ثم أعطي العرب المدافعون عن القلعة وعددهم ٧٠ فارساً بقيادة ابن قادس. الامان وانسحبوا دون سلاح مما أدى إلى انقسام في الجيش الفرنجي لعدم قتل العرب ثم تابعت الجيوش مسيرها واستولوا على حصن الأرك. أما الناصر فقد تألم لسقوط قلعة رباح وقتل ابن قادس فور وصوله مما آثار حنق الأندلسيين ودفعهم إلى الفرار من المعركة دون قتال.

خرج الناصر من اشبيلية في المحرم سنة ٦٠٩ على رأس جيشه فوصل قرطبة ثم سار منها إلى جيان ثم إلى بياسة ونزل بفخص البلوط بين جيان ورباح واحتلت سرايا من جنده ممرات جبال الشارات المؤدية إلى ابدة UBEDA وبياسة ومنع الفرنج من عبور هذه الممرات ولكنهم مروا من طريق في مرتفع آخر دون أن يفطن العرب وانحدروا إلى سهل ابده دون أن يتمكن العرب من اعاقتهم وبقي قسم من الجيش بمكانه لخداع العرب.

التعبئة:

الأسبان:

القلب وفيه ملك قشتالة وفيه ٤ فرق.

الجناح الأيمن وقائده سانشو ملك نافارا.

الجناح الأيسر وقائده بيدرو الأرجواني وفيه ٤ فرق.

العرب:

المقدمة وفيها المتطوعة وهم ١٦٠٠٠٠

الميمنة وفيها الاندلسيون.

الميسرة وفيها البربر

القلب وفيه الموحدون ومعهم الناصر

الساقة

اشتبك الجيشان في ١٥ صفر ٦٠٩ وهاجم المتطوعة ولكن الفرنج انطبقوا عليهم وافغرهم عن آخرهم ثم تقدم القشتاليون وهاجموا ففر الاندلسيون لقتل ابن قادس ومعاملتهم السيئة من قبل ابن جامع ومع ذلك صد هجومهم وتابعهم الفرسان العرب ولكن اتت الأمدادات للفرنج الفارين فعادوا للهجوم باتجاه القلب وكان جناحا الجيش العربي قد تحطما بسبب فرار الاندلسيين ثم مالبث القلب أن تحطم وفر الناصر باتجاه بياسة ثم إلى اشبيلية.

خسائر المسلمين: لم ينج من المسلمين سوى ١/١٠٠ أو كانت السبب في هلاك الأندلس إلى الآن. بينما يقدر العدو خسائر المسلمين ٦٠٠٠٠ كحد أدنى إلى ٢٠٠٠٠ كحد أعلى.

خسائر الأسبان: تقدر كحد ادنى بـ ٢٥ شخصاً وكحد أعلى ٢٠٠ شخص.

نتائجها: سقطت حصون فرال وبلقس وتولوسا وبياسة حيث احرق العرب اللائذون بالمسجد وحوصرت مدينة ابدة وقتل فيها ٦٠٠٠٠ من العرب وسبي منها مثل هذا العدد وسقطت مدينة بسطة أيضاً وباغو.

وفي سنة ٦١٤ هـ هزم العرب بقصر ابي دانس هزيمة تقرب من هزيمة العقاب إذا حاصر الفونسو الثاني ملك البرتغال قصر ابي دانس فخرجت جيوش اشبيلية وقرطبة وجيان وغرب الأندلس لاعانة القصر ولكن المسلمين وقد خامر قلوبهم الرعب بسبب هزيمة العقاب فلم يلتقوا بالعدو إلا وقد فروا فقتلهم العدو عن آخرهم ثم عاد الفونسو إلى قصر ابي دانس وحاصره ودخله بالسيف.

هزيمة العقاب كانت السبب في هلاك الاندلس وسقوطها

الصراع غير المباشر بين الموحدين والاسبان

ويتمثل هذا الصراع بتشجيع كل طرف لكافة الأعمال التي تؤدي إلى اضعاف الطرف الآخر كتشجيع الثورات

يتمثل الصراع في الاندلس بتشجيع كل طرف للأعمال التي تؤدي الى إضعاف الطرف الآخر

وتأييدها مادياً ومعنوياً.

الجانب المسيحي:

حالف النصارى أبن مردنيش القائم بالثورة ضد الموحدين في شرق الأندلس وتمثل هذا التحالف بمساعدة كل طرف للطرف الآخر من الناحية العسكرية وقد مر معنا مساعدة أبن مردنيش لاذفونش عندما حاول الأخير امداد المرية المحاصرة من قبل الموحدين سنة ٥٥٢ هـ، أما ابن مردنيش فقد «استدعى النصارى.. فجعلهم اجناداً له واقطعهم.. واخرج كثيراً من أهل مرسية واسكن النصارى دورهم» وفعلاً نجد أنهم ساعدوه في كثير من معاركه ضد الموحدين وساعدوا صهره ابن همشك قبل توحيده.

ففي سنة ٥٥٤ قام ابن مردنيش بمساعدة «اصحابه النصارى» باحتلال جيان وحصار قرطبة ومهاجمة اشبيلية. وكذلك هاجم ابن همشك قرطبة في نفس السنة وكان «يستعين باخوانه النصارى» وهاجمم غرناطة واحتل المدينة وحاصرا لموحدين في القصبة وطلب النجدة عن ابن مردنيش وحلفائه النصارى الذين امدوه بـ ٢٠٠٠ فارس ورجالة كثيرة عليهم الأقرع حفيد البرهانس وساعدوه في موقعة مرج الرقاد ضد نجدة موحدية للمحاصرين في القصبة وكانوا بسبب انتصاره في هذه المعركة، ثم وصل ابن مردنيش واصحابه النصارى وقوادهم الأقرع والقمط ارجال واخوه وكان عددهم ٨٠٠٠ فارس ولكن الموحدين انتصروا عليهم في معركة جبل السبيكة وقتلوا الأقرع حفيد البرهانس وكانت المعركة يوم الجمعة ٢٨ رجب ٥٥٧ .

ونجد النصارى يساعدون ابن مردنيش في معركة الجلاب التي جرت يوم الجمعة ٧ ذي الحجة ٥٦٠ ولكن ذلك لم يمنعه من خسارة المعركة. وكان النصارى أكثر قتلى المعركة.

وكمكافأة لمساعداتهم نجد أن ابن مردنيش يعطيهم بعض الحصون مثل: حصن لبة وحصن بلج وحصن الكرس.

ونلاحظ أن ابن مردنيش قد اسكن النصارى بعض الحصون كحصن لبسة واسكن ٤٠٠ من النصارى مدينة لورقة LORCA مع قائده أبي عثمان بن عيسى.

ولكن النصارى فقدوا حليفهم بوفاته في ١٠ رجب ٥٦٧ وتوحيد أولاده.

وتدخل النصارى في الصراع على السلطة الذي جرى في فترة انقسام

وضعف الدولة الموحدية فقد ايدوا بعض المطالبين بالعرش بشروط كانت في صالحهم فمثلاً طلب السيد عبد الله البياسي التحالف مع الفونسو ضد أخيه العادل مقابل بياسة وقيجاطة QUESADA فامده الفونسو بـ ١٠٠٠٠ فارس. ولم يكتف البياسي بذلك وإنما اعطاهم ايضاً اندوجر ومرترس ومدسس والتراب و٢٠ حصناً ثم اعطاهم شلبطرة.

وكذلك نجد ملك قشتالة يسارع إلى دعم المأمون الذي استنصره على الموحدين الذين نكثوا بيعته وبايعوا يحيى فارسل معه ١٢٠٠٠ فارس بشروط قاسية:

١ - اعطاءهم ١٠ حصون مما يلي قشتالة.

٢ - بناء كنيسة بمراكش.

٣ - ان اسلم أحد من الروم لايقبل اسلامه ويرد إلى إخوانه.

٤ - من تنصر من المسلمين فليس لاحد عليه سبيل.

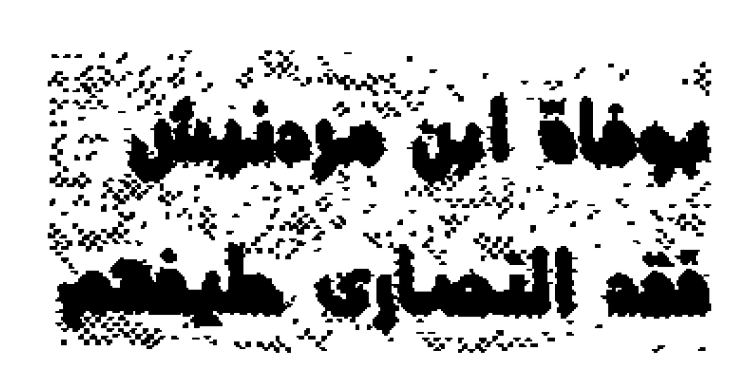
وحققوا له النصر على يحيى بالقرب من مراكش يوم السبت ٢٥ ربيع الأول ٦٢٧.

الجانب المسلم:

كذلك نجد المسلمين قد حالفوا فرناندة الببوج رايس صاحب ترجاله في سنة ٥٦٣ على ان يضمن عن نفسه ثغور الموحدين وان يكون حليفاً للمسلمين ثم حالفوا فرناندة الببوج صاحب البسطاط الذي كان على خلاف شديد مع القمط نونه ضثر اذفونش ونجد الموحدين يستجيبون إلى طلبه المساعدة العسكرية ليقاتل نونة فارسلوا معه عسكر اشبيلية بقيادة ابن عزون وابن تمصليت وابن حمو فساروا إلى بلاده وقاتلوا اعداءه ووصلوا في حروبهم معه إلى اشتريش واقاموا عنده خمسة اشهر.

وفعلاً نرى الببوج يرد الجميل حينما احتل جراندة وابن الرنك بطليوس نجدة قد سارع وأمد الموحدين المحاصرين في قلعتها وتمكن من هزيمة ابن الرنك وترك بطليوس بيد المسلمين وكان ذلك في ٢٢ شعبان ٥٦٤.

وجدد الصلح مع الببوج في سنة ٥٦٦.



ولكنهم مالبثوا ان خسروه فهاجموا اراضيه واحتلوا قسماً منها.

المصادر

١ - علي بن ابي زرع الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ط الرباط ١٩٧٢

٢ - ابن عذارى المراكشي البيان المغرب ط تطوان ١٩٦٠

٣ - عبد الواحد المراكشي المعجب في تلخيص اخبار المغرب ط القاهرة ١٩٦٣

٤ - محمد عبد الله عنان عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ط أولى القاهرة ١٩٦٤

٥ - السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ط ١٩٦٦

٦ - ياقوت الحموي معجم البلدان ط بيروت - دار صادر ١٩٦٨

٧ - ابن الأثير الكامل في التاريخ جـ ٩ اصدار المكتبة التجارية الكبرى

٨ - عبد الملك بن صاحب الصلاة تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بإن جعلهم اللدائمة وجعلهم الوارثين جـ ٢ ط بيروت ١٩٦٤

٩ - أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري صفة جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ط القاهرة ١٩٣٧

١٠ - ابن خلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ط دار الكتاب اللبناني ١٩٦٨ .

فضل العرب
في تطوير أوروبا العلمي

نقولا زيادة

(١) مقدمة تاريخية في القرن الثالث للميلاد اتخذت القبائل البربرية، كما دأب المؤرخون على تسميتها، خطة الهجوم على الامبراطورية الرومانية، وكانت الحرب بين الفريقين سجالاً، فالامبراطورية كانت قد أصابها الانحطاط (الذي انتهى إلى زوالها رسمياً سنة ٤٧٦ م)

وبدل أن تكون الجيوش حصناً للامبراطورية اصبحت، في حالات كثيرة، اداة تخريب وتدمير إذ آل أمرها إلى أن صارت الاعيب في ايدي قوادها الطامعين في العرش الامبراطوري وأحياناً كان القواد أنفسهم العوبة في أيدي الجيوش الرومانية.

وفي مقابل ذلك كانت هذه القبائل البربرية نشيطة قوية، كانت موزعة الأصول: فهناك الجرمان، وهم الذين استقروا في القرن الخامس ومابعده في إطار الامبراطورية الرومانية، وهناك السلاف الذين انتهى بهم الأمر ان عمروا أواسط أوروبة وشرقها: وهناك المغول (مثل الهون والماغيار) الذين انتشروا بين هنغاريا وفنلندا.

خلال القرنين الثالث والرابع، وحتى في اوائل القرن الخامس، كانت هذه القبائل، ولنحصر اهتمامنا بالجرمانية منها، تقاتل وتحارب فإذا انتصرت جازت الحدود واحتلت. لكن في القرن الخامس قبلت هذه القبائل الإقامة داخل الحدود معترفة للإمبراطورية الرومانية بوجودها. وحتى لما قضي على الامبراطورية نهائياً ظلت بعض هذه الدول الجرمانية مقيمة، مثل القوط الشرقيين، في ايطالية وما إليها (٤٨٩ / ٥٢٥). ومملكة الفرنجة التي قامت في أوائل القرن الخامس، توسعت بعد سقوط أوروبة أيام ملكها كلوفيس (٤٨٦ / ٥١١). وكانت هذه اقوى الدول الجرمانية، ويعود ذلك إلى أن الفرنجة، بعد ان استقروا في جزء كبير من فرنسا والمانيا الحاليتين لم يرحلوا عن بلادهم، بل توسعوا فتحاً وضماً. وكانت دولة القوط الغربيين قد قامت في اسبانيا سنة ٤١٥ واستمرت هنالك حتى الفتح العربي سنة ٧١١ .

وليس من شك في أن دولة الفرنجة شهدت اكبر عصورها نشاطاً لما حكمها شارل الكبير (شارلمان ٧٧١ / ٨١٤)، وقد اعترف به البابا ليون، فتوجه امبراطوراً على ماعرف في التاريخ باسم الامبراطورية الرومانية المقدسة وذلك في عيد الميلاد سنة ٨٠٠ .

إلا أن امبراطورية شارلمان تدهورت تدريجياً حتى انتهى امرها سنة ٨٩٩ ، واقتصرت على مملكة فرنسا.

وفي القرن العاشر نعمت الأجزاء الألمانية من امبراطورية شارلمان السابقة بحكام أقوياء، وفي مقدمتهم اوتو (الأول) الكبير (٩٣٦ / ٩٧٣)، لكن اوتو الثالث (٩٨٣ / ١٠٠٢) الذي جرب ان يقلد شارلمان، كان دون هذا مقدرة بمراحل، فتسربت نواحي الضعف إلى الامبراطورية، إلا أن الدولة لم تنحل، وقد تمكن الأباطرة الألمان، على العموم، من دفع عادية قبائل جديدة اتجهت نحو أوروبا الغربية مثل الصقالبة (السلاف) والدانيين والهنغاريين، ومن ثم فإنها مكنت لهذه المنطقة من السير في طريق الحضارة، ولو بخطوات بطيئة جداً.

البابا ليون، يتوج شارلمان امبراطوراً على الامبراطورية الرومانية المقدسة.

ومنذ أواسط القرن الحادي عشر تصبح فرنسا وانكلترا مسرحي العمل الجدي المثمر.

على أن قعقعة السلاح التي لم تنقطع عن الدوي خلال الفترة التي تحدثنا عنها وحتى فيما تلا ذلك، لم تكن الصوت الوحيد الذي كان يسمع في انحاء اوروبا الغربية. فقد كان إلى جانبها أصوات خافتة، لكنها كانت ذات شأن في بناء تلك المنطقة مع الزمن، فصوت المحراث الذي كان يكشف من الأرض سطحها دون أن يعمق اسنانه في أعماقها كان عاملاً مهماً في تطوير اقتصاد البلاد الزراعي، ولأن القبائل كان عدد افرادها يتزايد، وكانت قطعانها تتكاثر، ولم يكن للسكان معرفة فنية كافية لاستثمار الأرض، فقد كانت هجرات السكان، خاصة حتى القرن السابع، هي الطابع الذي ترك أثره في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في ربوع أوروبا الغربية، وكان ثمة صوت القلم الذي كان الراهب يديره في عزلته ناسخاً بعض ماتبقى من الآداب الكلاسيكية، ذا أثر في تطوير الحياة الفكرية فيما بعد.

وكان هناك صوت المدرس الذي كان يعلم من تصبو نفسه إلى رتبة كنائسية أو وظيفة في البلاط، يترك بصماته في

نفوس الناشئة. ويجب أن لاننسى صوت الراعي الكنسي أو المتعبد في ديره أو صومعته الذي كان ينشد ترانيم التسبيح بكرة واصيلاً. هذه الأصوات تستحق منا نظرة خاصة، لأنها كثيراً ماكانت تلجأ إلى ماكتبه أباء الكنيسة الأوائل كي تحصل على ماتنشد أو ترنم أو ترتل.

(٢) عناصر الحضارة القديمة

ونحن إذا حاولنا التعرف إلى العناصر الحضارية، على ضآلتها أحياناً، وحيائها من بساطتها أحياناً أخرى، لوجدنا أموراً كثيرة ظلت في ضمير أوروبا الغربية، ولما آن لها ان تُستغل استغلالاً صالحاً مفيداً جاءت بثمار جيدة.

فإن أوروبيي العصور الوسطى، كانوا يرون في رومة ضمير الحضارة. فهي التي تركت في نفوس الناس آراء هامة تتعلق بالوحدة والعالمية والنظام وحاول أوتو الكبير، ملك المانية وأمبراطور الأمبراطورية الرومانية المقدسة (Otto I, the Great ٩٣٦ / ٩٧٣) وخليفتاه، أن يقوموا بالعمل الذي قام به شارلمان، لكن النجاح كان هنا حتى أقل مما أصابته آخن. وذلك أن اتو لم يكن له بلاط مثل بلاط شارلمان، فلم يكن للحركة مركزُ دفعٍ ونشاطٍ.

هذا الجو الفكري الذي حاولنا وصفه يمثل الناحية الوضاءة من حياة أوروبا في العصور الوسطى، لأنه يتحدث عن الذين تعلموا ودرسوا وكتبوا. أما القراء فكانوا ايضاً قلة، وهم الذين وصلت إليهم الخلاصات التي تحدثنا عنها. أما السواد الأعظم من الأوروبيين فلم تصل اليهم حتى هذه المعرفة. وقد استمر هذا الوضع حتى مطلع القرن الثاني عشر إذ تبدلت الحال. على أنه حري بالذكر أن التبدل لم يأت دفعة واحدة. فشؤون كثيرة ظلت تحتل حيزاً لايستهان به في حياة أهل الفكر.

فنحن إذا أخذنا مثلاً مكتبة محترمة تعود إلى سنة ١١٠٠ وجدنا أنها تحتوي على الكتاب المقدس، وقد يكون في نسخ متعددة وكتابات آباء الكنيسة من القرن الثاني حتى ذلك التاريخ والشروح والتعليقات على الموضوعين، والكتب المدرسية التي وضعها أمثال بوتيوس وسواه، ومن المرجح أن يرصع هذه المجموعة ايزيدور ومؤلفات الكتاب الكلاسيكيين باللاتينية. وكان من النادر ان تعثر فيها على كتاب باللغة اليونانية. فهي أصلاً لم تنتشر مافيه الكفاية في المنطقة الواقعة إلى الغرب من هنغاريا

روما ضمير الحضارة، كما يراها أوروبيين العصور الوسطى.

الحالية. والأفراد القليلون الذين كانوا يعرفون بعض اليونانية جاءهم ذلك من علاقاتهم التجارية مع بيزنطة.

أما بعد سنة ١٢٠٠ فقد كانت مثل هذه المكتبة تزينها مدونة جستنيان القانونية والتشريعات والمراسيم البابوية وكتب اللاهوت التي وضعها انسلم (Anselm) وبيتر لومبارد (Peter Lombard) وهي حديثة العهد نسبياً. وأهم من هذا أنه كانت تحتوي على كتب في الرياضيات والفلك والفلسفة ودواوين الشعر البطولي والغنائي، خاصة البروفنسالي. كان الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة تحتفظ بمكانتها. وكان هناك أيضاً مؤلفات بوتيوس وايزيدور وأمثالهما.

وحتى الموسوعة التي وضعها لامبرت (Lambert) سنة ١١٢٠ كانت تحتوي الكثير الكثير مما ضمنه ايزيدور موسوعته، مع إضافات وقع عليها، إلا أنها لاتمثل إلا خطوة أولى نحو التطور الذي شمل أوروبا في القرن الثاني عشر.

مابين سنة ١١٠٠ وسنة ١٢٥٠ خطت أوروبا، خاصة فيما وراء البرانيز، خطوات كبيرة في العلم والفلسفة، أقل مايقال فيها أنها كانت خطوات تختلف نوعاً وكماً عما عرفته البلاد نفسها في تاريخها القريب، بحيث أصبح العالم والفيلسوف، كل في المجال الذي يحبه، ولاأقول الحقل الذي يتخصص فيه، فهذا أمر هو من تطورات العالم خلال القرنين الماضيين، اصبح العالم والفيلسوف يجادل ويناقش ويبحث ويجرب ويقارن ويقابل لأنه حصل على مادة جديدة واطلع على نهج جديد في التعامل مع المشكلات الفكرية والعلمية.

حركة النقل والترجمة من العربية إلى اللاتينية، كان الاسبق والاوسع نطاقاً في تطوير الحركة الفكرية الاولى في اوروبا.

الترجمة والنقل من العربية إلى اللاتينية

أن الذي أحدث هذا التبدل، في اوروبا والغربية خاصة، كان حركة النقل والترجمة من العربية إلى اللاتينية أصلاً، مع بعض الترجمات من اليونانية إلى اللاتينية ـ على أن نذكر أن العمل الأول (أي النقل من العربية) كان الاسبق والأوسع نطاقاً والأعمق أثراً في تطوير الحركة الفكرية الأولى في اوروبا.

كانت الرقعة التي تم فيها نقل المؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية واسعة ـ فقد امتدت من بلاد الشام عبر الشمال الأفريقي (تونس) وصقلية إلى اسبانية. وكان الجزء الأقل انتاجاً في هذه الناحية بلاد الشام. فاولئك الذين حملوا السيف

للقتال في أيام الحروب الصليبية لم يكونوا، في غالبيتهم، من أهل القلم، لذلك فالفترة التي امتدت قرنين من الزمان تمت فيها ترجمة كتابين: الواحد مؤلف لعلي بن عباس (٩٩٤/٣٨) والمعروف باسم الكتاب الملكي (Liber regius) الذي نقله اسطفان البيزي والمعروف أيضاً باسم اسطفان الانطاكي (لاقامته في هذه المدينة) وذلك حوالي سنة ١١٢٧ والثاني فهو «سر الأسرار» المعزو لارسطو، وقد نقله فيليب الطرابلسي (philip of tripoli) بعد ذلك بنحو القرن.

أما تونس فقد كان لها دور خاص، ذلك أن قسطنطين الأفريقي (Constantinus afticanus) الذي كان يتردد على مدرسة القيروان الطبية، التي يرجع انشاؤها إلى اواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع للهجرة (أواخر التاسع أو أوائل العاشر للميلاد). وقد وضع اساتذتها اسحق بن عمران واسحق بن سليمان وأحمد بن الجزار وسواهم كتباً طبية قيمة نقل عدداً منها قسطنطين وكان يدعي تأليفها. وأكثر الباحثين يربطون بين ماترجمه قسطنطين وبين تدريس الطب في جامعة سلرنو (Salerno) وهي أول معهد لدراسة الطب باللغة اللاتينية في أرض أوروبية إذ لعله كان يعني بالترجمة لهذه المؤسسة أو لاساتذتها. وقد قضى قسطنطين سنيه الأخيرة في دير مونتي كاسينو (تو ١٠٨٧).

وكان شيء من بقايا المعرفة الطبية والتنجمية قد ظل بين أيدي الناس في جنوب ايطاليا وكان الناس يتناقلون ذلك فيما بينهم، لكن دور هذه المنطقة بالنسبة للترجمة من العربية كان محدوداً جداً.

أما البلد الذي تم نقل القسم الأساسي من العلم العربي عن طريقه فهو اسبانية. وكانت الترجمة تتم في برشلونة وترزونة وسيغوفيا وليون (الأسبانية) وبامبلونة، لكنها تركزت أخيراً في طليطلة. أما شمالي البرانيز فقد كانت بينزيه وناربون ومرسيليا من الأماكن التي اسهمت بالترجمة أيضاً.

والذين عملوا في نقل العلم والفلسفة العربيين إلى اللغة اللاتينية كثر. وقد جاء أكثرهم من خارج اسبانية بالذات - من انكلترا وفرنسا والمانيا وسواها.

ونود، قبل أن نعرض لعمل المترجمين والنقلة، أن نشير إلى بضعة امور مرتبطة بالعمل ذاته.

اسبانيا، تم عبرها نقل القسم الاساسي من العلم إلى اوروبا

(١) لم يكن ثمة جرد للكتب الموجودة، على أن يتخير النافع والضروري والمفيد منها للترجمة. أن المصادفة اصلاً والميل الشخصي ثانياً كانا المرشدين للمترجمين.

(٢) عمل المترجمون في أماكن متباعدة، فلم يكن بينهم اتصال يحول دون التكرار في نقل الكتب.

(٣) لعل بين ماترجم مالم يكن يستحق الجهد، وإلى جانب ذلك فقد كانت ثمة كتب كثيرة لم ينتبه إليها، ومن ثم فقد خسرها العالم،

(٤) إلا أن الأمر الذي لاخلاف حوله بين الباحثين هو ان جماع ماترجم كان كبير الفائدة وعميق التأثير بالنسبة للحضارة العالمية، ويرى هوسكنز مثلاً أنه لولا ذلك لما تقدمت أوروبا في ذلك الوقت.

المصادفة والميل الشخصي من اهم أسباب الترجمة

ليس من اليسير التأريخ حتى لاشهر الترجمات، ذلك لأن المترجمين انفسهم لم يؤرخوا دوماً لأعمالهم، كما ان بعض الأرقام أمّحت أو محيت عمداً وزورت التواريخ واسماء المترجمين، فضلاً عن ذلك فهناك ترجمات على درجة من الأهمية لكننا لانعرف اسماء العاملين في الترجمة.

يجدر بنا ان نتذكر ان المترجمين لم يتقنوا جميعهم اللغة العربية بحيث انهم كانوا يستطيعون تفهم النص بشكل دقيق. ومن ثم فقد كان لابد من واسطة بين النص العربي والنص اللاتيني بشكله النهائي. وكانت الواسطة واحدة من اثنتين: أما أن ينقل النص من لغة الكتاب الأصلية إلى اللغة المحكية (ويغلب عليه في هذه الحالة أن ينقل شفوياً) وبهذه الطريقة يمكن للمترجم الأجنبي بالتعاون مع آخرين أن يصيغه باللاتينية. وفي هذا الأسلوب مافيه من ضعف ومايؤدي إليه أحياناً من تشويش في المعنى. وعلى كل فالذين درسوا تاريخ الترجمة في هذه الحقبة لم يعثروا على الكثير مما ثم نقله عن هذا السبيل.

وكان الأسلوب الآخر هو الذي يتم عن طريق علماء يهود كانوا قد شاركوا في الحضارة العربية إلى العبرية ثم يساعدون المترجم الأجنبي على نقله إلى اللاتينية. ونحسب ان هذا الاسلوب كان يؤدي أحياناً إلى اساءة فهم النص أو تفسيره. ومن ثم نقله إلى اللغة الأجنبية أي اللاتينية نقلا فيه شيء من البعد عن الأصل.

قد يكون من الصعب تتبع خط زمني

للترجمة، فهناك ترجمة لجداول فلكية قام بها ادلارد الانكليزي (Adelard of Bath) مؤرخة سنة ١١٢٦ . ولعله يصح القول بأن الربع الثاني من القرن الثاني عشر هو فترة الانطلاق نحو الترجمة.

ويعتبر جيرار الكريموني (Gerard of Cremoma ١١١٤ / ١١٨٧) شيخ المترجمين. أحب جيرار أن يتعرف إلى كتاب المجسطي من تأليف بطلميوس القلوذي[1] (القرن الثاني م) والذي نقل إلى العربية (٨٢٧ م). فرحل إلى اسبانية، وهناك تكشفت له، بالواسطة لأنه لم يكن يعرف العربية، محتويات المكتبة العربية. فاستقر في طليطلة وتعلم اللغة العربية وعمل في الترجمة، فنقل فيما أحصي، واحداً وسبعين مؤلفاً إلى اللاتينية، إذ ظل يقوم بعمله حتى وفاته سنة ١١٨٧ ، ويؤكد الباحثون أن الفترة التي قضاها في طليطلة متعلماً ومترجماً زادت عن الستين سنة. وقد حقق امله في ترجمة المجسطي سنة ١١٧٥ .

كان بين مانقله جيرار كتب ارسطو في المنطق مع شروح ثيميسيوس والفارابي ومبادىء اقليدس وكرويات ثيودوسيوس ورسالة لأرخميدس فضلاً عن كتب متعددة في فروع الهندسة والجبر والبصريات. لكن أكبر جزء من فهرست ترجمات جيرار كان في ميدان الطب. فقد نقل عن العربية مؤلفات جالينوس وابقراط وقانون ابن سينا وكتابي المنصور والحاوي للرازي وماوضعه أبو القاسم الزهراوي الأندلسي في الجراحة. وهو إلى ذلك الذي نقل ماكتبه الفارابي، خاصة في شرحه لارسطو.

وعندنا أن جداول الخوارزمي ترجمها روبرت تشستر (Robert Chester) سنة ١١٢٦ ، وفي السنة ١١٤٥ ترجم روبرت نفسه الجبر للخوارزمي (ومن هنا جاءت كلمة اللغار ثم). وفي سنة ١٢٠٢ وضع أو ترجم (؟) ليونارد البيزي (Lenardo of Pisa) كتاب في الأباكوس، (وهي «مَعَدَّة» تحسب فيها الاشياء على أسياخ تتعلق بها كلل خشبية صغيرة)، ولما تم نقل هذه الأمور في الجبر وصل هذا العلم إلى الدرجة التي ظل عليها حتى القرن السادس عشر.

اللغارثم جاءت من (الخوارزمي) صاحب جداول الخوارزمي التي ترجمها روبرت تشستر.

ليس من اليسير وضع جدول كامل بأسماء الكتب جميعها التي نقلت إلى اللاتينية ولا باسماء النقلة، لكن حري بنا

أن نتذكر أن افلاطون التيفولي (Plato of Tivoli) نقل زيج البتاني إلى اللغة اللاتينية سنة ١١٥٠ ، وتمت أيضاً ترجمة جداول الخوارزمي (ادلارد) ثم جداول الزرقالي الاندلسي والفرغاني (فرغانة في اواسط اسيا)، وتم نقل المجسطي رأساً من اليونانية سنة ١١٦٠ ، فأصبح في متناول المشتغلين بعلم الفلك كل المادة الأصلية، وصار بإمكان فلكي مونبيليه أن يكون لديهم مركز أساسي لهذا العلم.

وقد شهد القرن الثالث عشر ثلاثة من كبار المترجمين هم الذين يضعهم مؤرخو الفكر العربي بعد جيرار في الأهمية وهم الفرد الانكليزي (Alfred the Englishman) ومايكل الايقوسي (Michael the scot ١٢٥٣) وهرمن الجرماني (Hermann the German تو ١٢٧٢) فهم، من هذه الناحية، معاصرون للذين عملوا في بلاط فردريك الكبير أو الثاني (Frederock II, the great ١١٩٤ - ١٢٥٠) وابنه وخليفته مانفرد Manfred المتوفى سنة ١٢٦٦ ، ذلك بأن خروج صقلية عن سلطان العرب سنة ١٠٩١ لم ينتج عنه رحيل سكانها العرب المسلمين عنها. لذلك بقيت هناك جاليات عربية متعلمة

الفرد الانكليزي ومايكل الايقوسي وهرمن الجرماني أهم المترجمين في القرن الثالث عشر

وذات صناعات راقية فكانت عوناً لروجر وفردريك ومانفرد في تطوير الحياة في الجزيرة. بل أن روجر نفسه دعا الجغرافي العربي الكبير الأدريسي ليقيم في بلاطه وكلفه رسم خريطة للأرض ووضع معها كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» (١١٥٤م). وكان في حاشية ملوك صقلية منجمون وفلكيون عرب.

فالبلد كان جوه الفكري والاجتماعي والسياسي مهيأ لأن يقوم بدور في هذا العمل الكبير - نقل العلوم من العربية إلى اللغة اللاتينية. صحيح أن العمل كان في النصف الأول من القرن الثالث عشر، لكنه كان يجاري الإحياء العلمي الذي كانت أوروبا قد أخذت نفسها به، فكان كل عمل يتم هو لبنة في البناء.

والذين عملوا في البلاد الصقلي هم الأمير يوجين (Eugene the Prince) وثيودور الانطاكي (Theodor the Antichian) ومايكل الذي مر ذكره. وقد نقل يوجين البصريايت البطلميوسية، وقام ثيودور بترجمات متنوعة تتعلق بالحيوان بشكل خاص لأن الأمبراطور كان مغرماً بالحيوانات والطيور وكانت عنده حديقة كان شديد العناية بها عملاً

وعلماً.

ولنعد الآن إلى مترجمي القرن الثالث عشر، كان الفرد الانكليزي فيلسوفاً من حيث نشأته واتجاهه، وكانت فلسفة ارسطو في الطبيعة هي موضوع عنايته، وهذا معناه، عندما يحاول أن يترجم هذا الصنف من الفلسفة الأرسطية، فلا بد له من أن يشد على ابن رشد بالنواجذ، فكان الفرد من أوائل الذين أوصلوا ابن رشد إلى أوروبا، ولو أن بعض ماكان معروفاً قد نقل من قبل، وكان الجاكوب اناتولي (Jacob Anatoli ١٢٩٤ / ١٢٥٦) فضل في أنه أول من نقل فلسفة ابن رشد إلى أوروبا.

أما مايكل الايقوسي الذي عمل في طليطلة (كان فيها سنة ١٢١٧) فقد نقل دوائر (افلاك) البطروجي (في الفلك) سنة ١٢٢٠ وعمل على نقل ماكتبه ارسطو في الحيوان، وبذلك وضع بين ايدي العلماء اللاتين دروساً منظمة مبينة على المشاهدة والأختبار، فهذا هو المعروف عن الحيوان لأرسطو، ومع هذا كانت هناك تعليقات عربية، لكنها كانت في علم الحيوان قليلة، إذا قيست بغير ذلك من نواحي المعرفة. وعني مايكل بنقل شروح ابن رشد لارسطو، ومايكل كان أول من ترجم القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية.

وكانت عناية هرمان الألماني تدور بارسطو وخاصة بالأخلاق النيقوماخية وقد نقل كتاب الشعر وكتاب البيان (البلاغة) لارسطو مع الشروح التي دارت حولهما وعليهما.

كتاب الشعر وكتاب البيان لارسطو مع الشروح نالت اهتمام هرمان الالماني فنقلها

حري بنا أن نتوقف هنا لنشرح نقطة اشرنا إليها من قبل، وهي أن الكثيرين من المترجمين الأوروبيين كانت معرفتهم بالعربية بحاجة إلى مساعد ومعين. لذلك فإننا نعثر على أسماء لهؤلاء المساعدين منها غاليبوس (Galippus) الاسباني الذي كان ساعد جيرار الأيمن، واندراوس (Andrew) الذي كان يعرف العربية والعبرية والسريانية واللاتينية، وذلك بشهادة البابا فيه (سنة ١٢٢٦)، وبطرس الفونسي (Petrus Alfonsi) الذي انتهى به الأمر بأن طب لهنري الأول ملك انكلترا، وسافاسوردا (Savasorda)، واسمه الأصلي ابراهام بن حيا، وقد كان ضليعاً في اللغة العبرية وآدابها والفلسفة اليهودية، لذلك كان عوناً للذين نقلوا ارسطو وشروح ابن رشد، وابراهام بن عزرا (١٠٩٢ - ١١٦٧) كان ايضاً

عاملاً مساعداً في الترجمة. فضلاً عن ذلك فهناك اسماء وردت في مناسبات مختلفة، لكن لم يتضح دورها بعد مثل جون الاشبيلي وابن داود.

كان ابن رشد، فضلاً عن بروزه في الفقه والفلسفة الأرسطية، طبيباً، وقد نقل كتابه الكليات في الطب الى اللاتينية باسم (Colliget) في بادوا سنة ١٢٥٥ . ومع أننا لانؤرخ هنا لما أنجزه في نواحي المعرفة، فنحن معنيون بالترجمة والمترجمين، فإنه حري بالذكر ان ابن رشد وجه نقداً علمياً لجالينوس في شؤون التنفس. وبهذه المناسبة فهناك طبيبان عربيان آخران وجهاً نقداً لجالينوس هما ابن بطلان (٤٥٩/ ١٠٦٦) وابن النفيس (٦٨٧/ ١٢٨٨) وهذا هو الذي اهتدى، بطريقة التعليل المنطقي، الى دورة الدم الصغرى.

تفوق العرب في طب العيون بسبب انتشار امراض العين، واهتمام العرب بالبصريات.

وقد كان للعرب تفوق في طب العيون، ويعود ذلك، فيما يرى بعض الباحثين، إلى امرين ـ الأول انتشار امراض العين في المنطقة، والثاني اهتمام العلماء العرب بقضايا البصريات. واشهر اطباء العيون العرب هو علي بن عيسى الذي ترجم كتابه مرتين إلى اللاتينية كما نقل إلى العبرية.

ثمة عدداً من الكتب نقلت عن العربية إلى اللاتينية لكنها مجهولة المؤلفين والمترجمين، وتشمل هذه كتباً متفرقة في التنجيم والطبيعة وماوراء الطبيعة وأعمالاً صغيرة في العلوم معزوة لأرسطو، وقد ظهرت هذه في الغرب حوالي سنة ١٢٠٠ . وثمة نسخة من المجسطي مجهولة المترجم (غير ترجمة جيرار) ولكنها نقلت عن العربية، وقد ظهرت في أواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر رسائل لاتينية في الكيمياء اصلها عربي وهي منسوبة إلى جابر بن حيان.

وهنا نتوقف لنشير إلى أن أموراً هي في غاية الأهمية:

أولاً ـ ان لغة العلم كانت، بين القرن الثالث والسادس/ التاسع والثاني عشر، العربية، ونقل الكتب التي اشرنا إلى نموذج منها من العربية إلى اللاتينية كان الخطوة الأولى في انتقال المعرفة العلمية إلى اوروبا.

ثانياً ـ ان الذي نقل إلى أوروبا لم يكن العلم وتفاصيله فحسب، بل كان ثمة منهج مبني، في كثير من الأمور على التجربة، فقد أدخل العرب، وهم

يطورون ماأخذوه عمن سبقهم وينمونه، اسساً جديدة، فضلاً عن التطوير الذاتي للعلوم، هذا هو الذي يصح أن يسمى عادات عقلية ورغبات في إجراء التجارب، هذا كله انتقل إلى الغرب المسيحي.

ثالثاً - ان الرازي ترجمت أعماله الطبية إلى اللاتينية قبل اعمال ابن سينا. ولكن ابن سينا هو الذي اصبح «قانونه» كتاب الطب التدريسي في جامعات أوروبا. ويعود ذلك، على مايرى الذين بحثوا هذه القضية، إلى أن اسلوب ابن سينا كان على القاريء ايسر.

رابعاً - ان واحداً من أكبر اهل العلم الذي ظهر في دنيا العرب، وهو ابو الريحان البيروني (بعد ٤٤٢ /١٠٥٠)، لم تنقل كتبه إلى اللاتينية، ويبدو ان صعوبة لغة هذا العالم، مع فصاحة اسلوبه، حالت دون ذلك. ولسنا نشك في ان نقلة تلك الأيام وخلفاءهم قد خسروا الكثير لأن آراء هذا العالم لم تصلهم.

خامساً - ثمة أدب / علم لم ينقل من العربية إلى اللاتينية، وهو الأدب الجغرافي العربي.

ان حركة الترجمة للمؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية لم تتوقف في اسبانية بانتهاء القرن الثاني عشر. ذلك أن طليطلة ظلت مركزاً للدرس والنقل حتى في القرن الثالث عشر، فإن الفونس الحكيم، ملك قشتالة (١٢٥٢ / ١٢٨٤) كان يرعى مدرسة تعلم فيها العربية، وكان يرئسها ابو بكر الريقوتي. ويرى بعض الباحثين أن عدداً من الذين تعلموا العربية فيها قام بترجمة كتب من العربية إلى اللاتينية. ولعل الترجمة كانت هنا اقرب إلى الصحة من بعض مانقل من قبل.

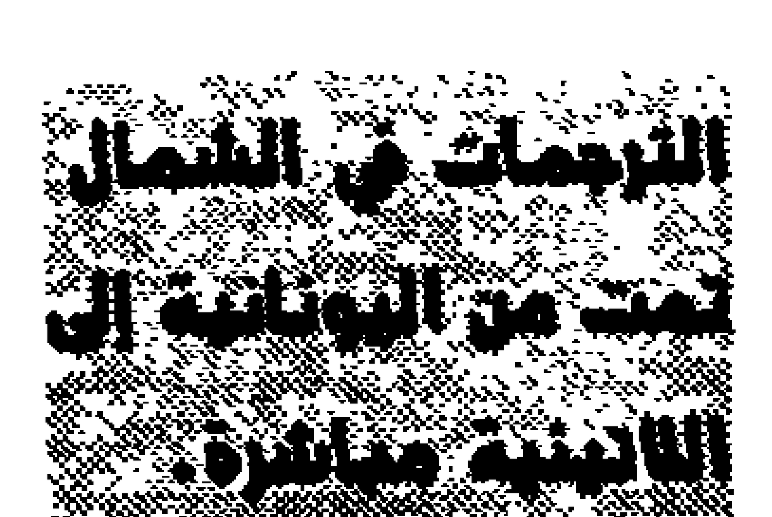
الادب الجغرافي العربي لم ينقل من العربية إلى اللاتينية.

رغبة منا في اتمام الصورة نشير إلى ماترجم رأساً من اليونانية إلى اللاتينية، وقد تم أكثر هذا في بلاط الملوك النورمان في صقلية. فهي، وجنوب ايطاليا، كانا ملتقى اليونانية واللاتينية والعربية على مامر بنا. في صقلية عمل هنريكوس ارستبوس (Henricus Arstippus) والامير يوجين (Eugene). فنقل يوجين بصريات بطليموس وكليلة ودمنة، وعمل ارستبوس على نقل اعمال آباء الكنيسة وترجمة مينو وفيديو لافلاطون وجزء من كتاب الأنواء لارسطو. فضلاً عن ذلك فقد عمل هذا الراهب، الذي كان رئيساً

للكوريا (المجلس الكنسي) في صقلية، على حمل مخطوطات بيزنطية إلى صقلية (حفاظاً عليها بسبب اضطراب الأمور في الدولة الشرقية)، وكان بينها مخطوط جميل للمجسطي وعنه نقلت أول ترجمة لاتينية مباشرة عن اليونانية، وقد كان ليوجين الأمير دور في عمل ارستبوس.

يلاحظ من هذا ان الغالب على البلاط الصقلي ايضاً، كان النزعة العلمية، هذا الاهتمام العلمي في صقلية كان يجاريه وجود مدرسة سلرنو الطبية الايطالية، فكان للمؤسستين - البلاط والمدرسة اثر في توجيه العناية نحو العلم.

إلا ان العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين القسطنطينية في الجهة الواحدة وبين البندقية وبيزا في الجهة الأخرى، يسرت للكثير من الأدب الفلسفي واللاهوتي واليوناني الانتقال إلى العالم اللاتيني مترجماً، وتظهر في تاريخ هذه الفترة (العقود الأولى من القرن الثاني عشر) ثلاثة اسماء هي جايمز البندقي (James the Venetian) وبرغنديو البيزي (Burgundio the Pisan) وموسى البرغاموي (Mises of Pergamo) وكان هذا ايطاليا. وقد تم على ايديهم نقل المنطق الحديث لارسطو وأعمال آباء الكنيسة وشروح نيميسيوس على افلاطون ومختارات من خلاصة قانون جستنيان على افلاطون ومختارات من خلاصة قانون جستنيان وحتى ماورد في كتاب قديم في الفلاحة عرف باسم جيوبونيكا (Geoponica)[٢]



واما إلى الشمال من جبال الألب فقد تمت ترجمات من اليونانية مباشرة إلى اللاتينية، وهي في مجملها فلسفية لاهوتية، الأمر الذي اقتضته الخلافات بين البابوية ومناوئيها، إلا أن هناك ترجمات لأعمال ارسطو، فضلاً عن ترجمات مجهولة النسب والزمن. وثمة ترجمات من اليونانية ومن العربية إلى اللاتينية لكنها غير مؤرخة.

يجدر بنا، بعد أن أشرنا إلى الترجمة المباشرة وتحدثنا ببعض التفصيل عن الترجمة عن طريق العربية، أن نقارن بين نوعي العمل (ولو أننا اشرنا إلى بعض ذلك من قبل) كي تكون الصورة واضحة على قدر الإمكان.

أولاً - الترجمات المباشرة، على العموم، أصح وأدق إذ أنها تمت دون وساطة كما حدث بالنسبة للنقل من العربية، فالوساطة (العبرية أو العربية

المحكية) سهلت النقل لكن لعلها يسرت للأخطاء ان تتسرب إلى المتن.

ثانياً ـ الاهتمام في الحالتين كان يشمل الفلسفة والرياضيات والطب والعلوم الطبيعية.

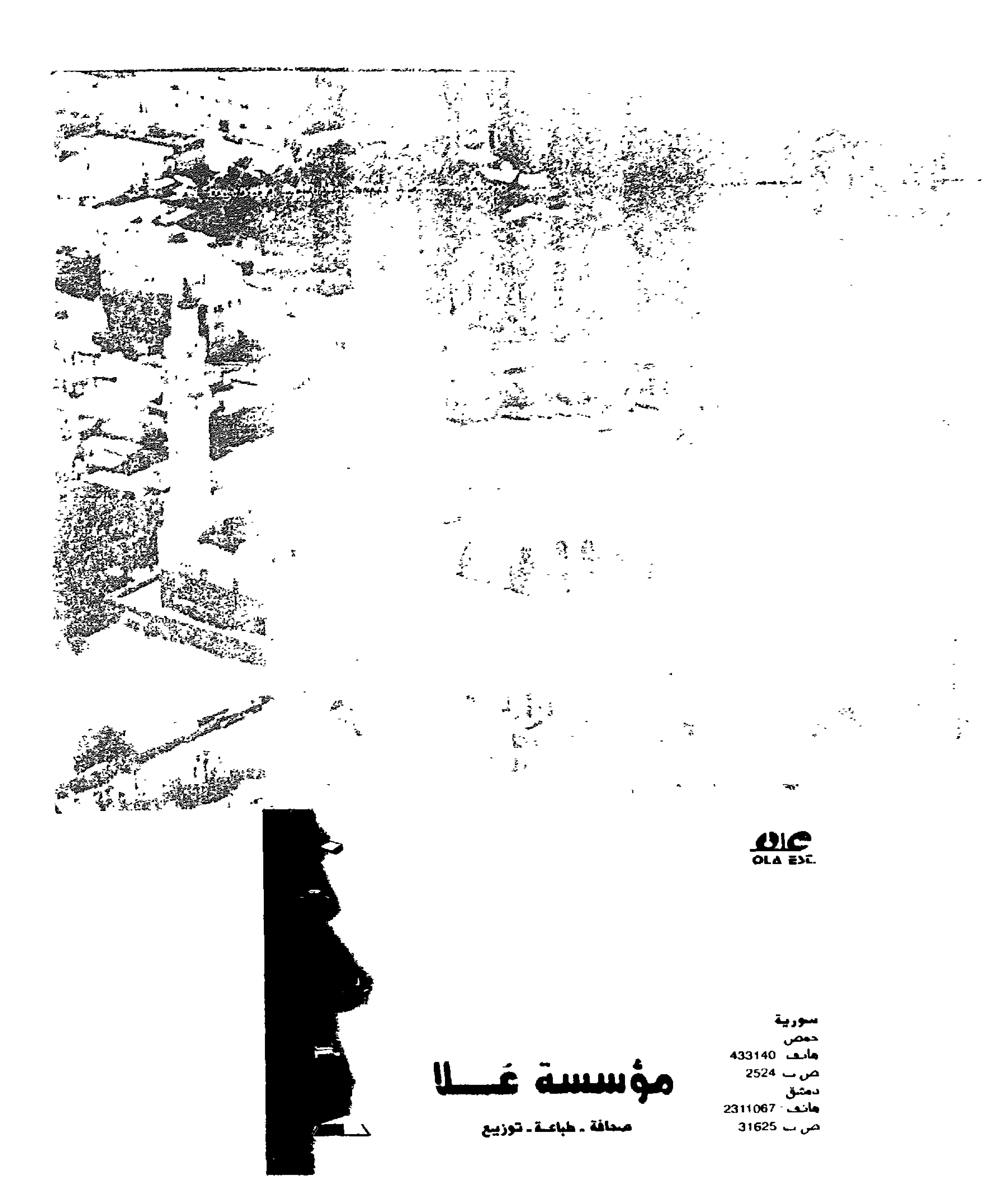
ثالثاً ـ لقد ظل افلاطون يونانياً، أما أرسطو فقد تعرب في الطريق وحمل معه، لما نقل إلى اللاتينية، الشروح والاضافات التي ضمها العلماء العرب اليه.

رابعاً ـ اللاهوت والنحو انتقل من اليونانية إلى اللاتينية مباشرة، أما الموضوعات الأخرى فقد جاءت بطريق الواسطة، وثمة علم (أو شبه علم) التنجيم الذي كان يغلب عليه الطابع العربي.

والذي يتفق عليه الباحثون هو أن نهضة القرن الثاني عشر في أوروبا كانت علمية وكانت عربية / يونانية.

١ كان بطليموس كلوديوس (Cjaudius Ptolemaeus) يونانياً مقيماً في الاسكندرية، وفيها وضع مؤلفاته المتعددة ومنها كتابه «الجغرافيا» الذي عرف باسم الكبير (magestus)، ولما نقل هذا الكتاب إلى العربية سمي المجسطي، وظل اسمه كذلك خلال العصور الوسطى، والكتاب في الجغرافية الفلكية.

٢ كتاب في الزراعة وضعه كاسيانوس باسوس (Cassianos Bassos) بناء على رغبة الأمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩ م).


OLA EST.
مؤسسة عَـــلا
صحافة - طباعـة - توزيع
سورية
حمص
هاتف 433140
ص ب 2524
دمشق
هاتف 2311067
ص ب 31625

اليهود في العصور الوسطى

دراسة مقارنة بين الشرق والغرب

د. حسن مبيض

دأب اليهود في دعايتهم الواسعة التي سمموا بها الرأي العالمي، في القرنين التاسع عشر والعشرين، على تأكيد فكرة شائعة، هي أن أمة من أمم العالم لم تتعرض كما تعرض له اليهود في تاريخهم الطويل من اضطهاد وتشريد.

وتختار الدعاية اليهودية أمثلة واقعية في التاريخ وخاصة تاريخ العصور الوسطى - منتقات من أدق الوثائق والمصادر، ليستشهدوا بها على مالاقاه اليهود على أيدي المسيحيين جميعاً من اضطهاد في تلك العصور، حتى أنهم كثيراً ماشردوا في الأرض، بل ربما تعرضوا لمذابح جماعية، راح ضحيتها آلاف من الأبرياء. ويدّعون أن كل ذلك حل بهم لالشيء، سوى أنهم اتباع موسى عليه السلام.

وأمام الأمثلة الواقعية التي تسوقها دعاية اليهود قد يخدع الإنسان، ويتسرب العطف إلى قلبه على تلك الجماعات التي عانت الكثير بسبب عقيدتها الموسوية، فهل حرية العقيدة جرم يؤاخذ عليه الأفراد والأمم والشعوب؟ وهل التمسك بديانة الأباء والأجداد ذنب لايغتفر تعاقب عليه الأجيال بالقتل والتشريد.

ولكن مهلاً، إن نظرة فاحصة دقيقة تعتمد على دراسة علمية عادلة، كفيلة بأن تظهر لنا أن الدعاية الصهيونية لاتساير الحقيقة. وإذا سايرتها فإنها لاتظهرها كلها كاملة، وإنما تُظهر جانباً وتخفي آخر.

وبعبارة أخرى فإن الدعاية اليهودية تقول ماللبهود ولاتقول ماعليهم، وبذلك تظهر المعتدي في صورة الضحية، وماهم بضحايا ولكنهم كانوا دائماً معتدين آثمين.

حقيقة أن اليهود تعرضوا لكراهية مختلف الشعوب في مشارق الأرض ومغاربها، وهي كراهية لاننكر أبداً أنها تحولت في بعض حلقات التاريخ إلى اضطهاد وتشريد، ولكن هل كانت هذه الكراهية لليهود لمجرد الإحساس بأنهم يدينون بعقيدة معينة؟

إن كراهية شعوب الأرض لليهود على مر عصور التاريخ لاترجع إلى عقيدتهم وإنما ترجع إلى سلوكهم وأخلاقهم وتصرفاتهم.

وهل تحولت هذه الكراهية في كل بلد حلَّ فيه اليهود إلى اضطهاد وتشريد لالشيء، سوى أن تلك الجماعة تتمسك بشريعة موسى عليه السلام وهنا يبدو الجانب المستتر الذي تحرص الدعاية اليهودية على إخفاءه وإسدال الستار عليه لحجبه عن الأنظار.

إن كراهية شعوب الأرض لليهود على مر عصور التاريخ لاترجع إلى عقيدتهم وإنما ترجع إلى سلوكهم وأخلاقهم وتصرفاتهم تجاه الشعوب التي حلّوا بينها، وهو سلوك لايتغير ويقوم دائماً على أساس الاستغلال ومقابلة الإحسان بالإساءة والمعروف بالجحود والجميل بالأذى.

إن عيسى عليه السلام عندما اصطدم بيني إسرائيل لم يصطدم بهم لمجرد أنهم اتباع موسى عليه السلام، ولكن لأنه نصحهم بتعديل سلوكهم الجشع فلم يستجيبوا، فقال لهم في صراحة:

«إنكم تركتم وصية الله وتتمسكون بتقليد الناس» بل لقد أنذرهم وقال: «ويل لكم أيها الناموسيون لأنكم تحملون الناس أحمالاً عسرة الحمل» ولكن اليهود كانوا لايستطيعون أبداً أن يتخلوا عن سياستهم في حب المال، وعندما خيروا بين الله والمال، اختاروا المال لأن فيه حياتهم وسعادتهم الدنيوية، ونسوا النصيحة التي قدمت لهم بأنه «لايقدر خادم أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحتقر الآخر. لاتقدرون ان تخدموا الله والمال»، ولم يعجبهم هذا الكلام فاستهزأوا به «أي المسيح» وهكذا نادى اليهود بصلب المسيح، وكان في أمره عليه السلام ماكان.

وعندما دمر تيطس أورشليمو ٦٩ م تفرق بنو إسرائيل في الأرض، وانتشروا بين مختلف الأمم والشعوب، في المشرق والمغرب جميعاً، وأقبلت العصور الوسطى لتشهد على أن اليهود ظلوا طوال تلك الحقبة يمثلون طبقة رجال المال في العالم المعروف. حقيقة أن اليهود انتشروا في بلاد واسعة متعددة ولكن ربطت بينهم ثلاث روابط، هي الدين والدم والمال. وهكذا احتكر اليهود في العالم المسيحي النشاط المالي طوال العصور الوسطى. وسيطروا سيطرة تامة على التجارة المحلية والعالمية. وقد بلغ من سيطرة اليهود على التجارة الأوروبية أن لفظ يهودي في الغرب الأوروبي أصبح مرادفاً للفظ تاجر، ومن المعروف أن الكنيسة في العصور الوسطى حرّمت

أكل الربا الذي نهى عنه الأنجيل والمسيح، ولذلك لم يجرؤ المسيحي في تلك العصور على المجاهرة بإقراض المال بفائدة، فاستغل اليهود هذه الظاهرة التي تتفق وأخلاقهم وحبهم للمال، واحتكروا النشاط المالي في غرب أوروبا على أوسع نطاق، فأقرضوا الفرسان والأمراء، بل أقرضوا الكنيسة نفسها لتتمكن من اتمام منشآتها الضخمة الباهظة التكاليف.

وكما يحدث في مثل هذا النوع من المعاملات كثيراً مايكون المدين فريسة الدائن، إذ لاتلبث ان تتراكم الديون وتتكاثر أرباحها وفوائدها الفاحشة، حتى يعجز المدين عن الوفاء بالتزاماته ويصبح هو واملاكه تحت رحمة الدائن، الأمر الذي يولد الضغائن في قلوب المدنيين ويحرك الرغبة في الثأر.

وهكذا تلفت ملوك أوروبا وأمراؤها وفرسانها وأساقفتها وعليّة الناس فيها، فوجدوا أنفسهم أمام شراذم من اليهود تعيش بينهم، يزدادون غنى ويزدادون هم فقراً، يمتصون دماءهم وينتزعون ممتلكاتهم، دون أن تعرف الرحمة طريقاً إلى قلوبهم، وكان هذا وحده هو السبب الرئيسي لما يتعرض له اليهود على أيدي المسيحيين في غرب اوروبا من كراهية تحولت أحياناً إلى اضطهاد، إنه شعور الضيق والتذمر في جماعة اتصفت بغلظة القلب والحرص على الأذى.

وليس هذا مجال الإفاضة فيما تعرض له اليهود نتيجة لما كسبت أيديهم - من اضطهادات في غرب أوروبا طوال العصور الوسطى، ولكن تكفي الإشارة إلى أن لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٢٦ - ١٢٧٠) ضاق ذرعاً باليهود فالغى ديونهم التي على الكنيسة والحكومة، كما ألغى قلق كل ماكان لهم على رعاياه من المسيحيين، ولما علم أن التلمود (وهو مجموعة التعاليم اليهودية التي وضعها الأحبار شرحاً للتوراة) يحوي عبارة نصها الحرفي «يحق لليهودي أن يغش غير اليهود ويبتز مالهم» عن طريق «الربا الفاحش» أمر بجمع كافة النسخ من بلاده واحرقها جميعاً في باريس، ثم أمر بطرد اليهود من فرنسا، وإذا كان لويس التاسع قد سمح لهم بالعودة بعد عشرين سنة، إلا أن فيليب الرابع (١٢٨٥ - ١٣١٤) عاد فطردهم. وهكذا ظل عمال اليهود في فرنسا، يتقلب بين الإقامة والطرد إلى أن ضاق الشعب بهم، فقامت ثورة شعبية

اليهود في أوروبا، أقرضوا الفرسان والأمراء، بل أقرضوا الكنيسة نفسها لتتمكن من اتمام منشآتها الضخمة الباهظة التكاليف.

جامحة في فرنسا سنة ١٣١٢ م وضد اليهود، أدت إلى قتل كثيرين منهم، وفر الباقون ينتقمون لأنفسهم بتسميم آبار المياه، مما أدى إلى إزدياد شعور النقمة عليهم، والحقيقة أن كل الاضطهاد الذي تعرض له اليهود كان بسبب محاولتهم السيطرة على التجارة والاقتصاد.

وفي إنكلترا رحب وليم الفاتح النورماني باليهود، وأحسن معاملتهم، ولكنهم أبوا إلا أن يتمسكوا بطباعهم، فمارسوا في إنكلترا نفس النشاط الهدام الذي مارسوه في فرنسا، وجعلوا الثروات الضخمة عن طريق اشتغالهم بإقراض الأموال بالرباء فانتهز الشعب الإنكليزي فرصة غياب مليكه ريتشارد قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة، وعاقب اليهود عقاباً قاسياً.

في عهد الملك هنري الثالث (ملك إنكلترا) ثبت أن اليهود يجمعون العملة الذهبية والفضية ويزيفونها بمعادن أخرى.

وفي عهد الملك هنري الثالث ملك إنكلترا، ثبت ان اليهود يجمعون العملة الذهبية والفضية من الأسواق ويزيفونها بعد أن يستبدلوا مافيها من ذهب وفضة بمعادن أخرى رخيصة مما أخر باقتصاديات البلاد، لذلك أمر هنري الثالث بمصادرة ثلث أموال اليهود في بلاده. وعندما ثار الشعب الإنكليزي بأكمله ضد اليهود سنة ١٢٩٠ م آثروا النجاة بأرواحهم وأموالهم فغادروا البلاد ولم يستطيعوا العودة إليها حتى عهد كرمويل.

أما في ألمانيا فكانت أكبر موجة لاضطهاد اليهود في العصور الوسطى مرتبطة بالحركة الصليبية، ذلك أن اليهود أنفسهم وقفوا في تلك الحركة موقفاً معادياًلاعتقادهم أنها ستعرقل نشاطهم المالي، ليس في الغرب فحسب بل في الشرق أيضاً. وفي الوقت نفسه أحس الأمراء والفرسان الصليبيون المشتركون في الحملة الصليبية الأولى بأنه من الخطر أن يتركوا بلادهم متجهين إلى الشرق، وخلفهم بين ذويهم شراذم من اليهود، يستغلونهم دون شفقة أو رحمة، وربما ألقت الحروب الصليبية على كواهل الفرسان والأمراء أعباء مالية ضخمة أثقلتهم، في الوقت الذي أقروا بأن الديون التي تستوجب دفعها لليهود لاسبيل للخلاص منها إلا بالخلاص من اليهود أنفسهم. لذلك شهدت مدن حوض الراين كما شهدت براغ مذابح كبرى ذهب ضحيتها عدد كبير من اليهود سنة ١٠٩٦ م وجدير بالذكر أن البابوية نفسها لم تكن أقل عداء لليهود. فأصدر البابا أنوسفن الثالث مرسوماً

بابوياً سنة ١٢١٥ م يحد من استغلال اليهود للصليبيين سواء في عمليات الإقراض أو رهن المخلفات أو غير ذلك.

هذه عجالة سريعة عن شعور المسيحيين في بعض بلاد الغرب الأوروبي نحو اليهود ومعاملتهم إياهم في العصور الوسطى. فإذاً كيف كان أمر اليهود في العالم الإسلامي في نفس تلك العصور؟ الواقع أن ثمة حقيقة كبرى يصح أن نبدأ بها وهي أنه إذا كانت الحضارة العربية الإسلامية هي بإعتراف الباحثين أعظم حضارة شهدها العالم أجمع في العصور الوسطى، فإن السر في إزدهار تلك الحضارة إنما يرجع قبل كل شيء إلى روح التسامح التي عرف بها الإسلام والمسلمون.

ولسنا في حاجة إلى الإشارة أن الإسلام أوصى بأهل الكتاب من المسيحيين واليهود خيراً، وإن الله أمر آخر أنبيائه محمد (ص) بأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

«فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد» وبمثل هذه الروح الطيبة فتح المسلمون أبواب بلادهم أمام اليهود ليدخلوها آمنين، وينتقلوا بين ربوعها سالمين، وسمحوا لهم بممارسة نشاطهم الخاص على أوسع نطاق، وأباحوا لهم التتلمذ على أيديهم والأخذ عنهم، وأجازوا لهم تولي الكثير من المهام والأعمال والمناصب الرسمية وغير الرسمية، فصار منهم التجار والصيارفة والأطباء و...

ولأدل على تسامح المسلمين مع اليهود من السماح لهم بالاحتفاظ بهياكلهم ومعابدهم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، في الوقت الذي أمرت الكنيسة في غرب أوروبا بتحطيم هياكل اليهود، وقد روى أحد المعاصرين من اليهود في القرن الثاني عشر للميلاد وهو بنيامين التطيلي، أنه أثناء زيارته الكوفة شاهد بها معبداً لليهود ينسب للنبي دانيال، وليس هناك دليل واحد في التاريخ يشير إلى أن المسلمين أساءوا معاملة اليهود لمجرد أنهم يهود، بل على العكس كثيراً ماأعطى المسلمون بعض اليهود حقهم من المديح والثناء، دون إعتبار الدين أو العنصر، ولاعبرة إطلاقاً بأن يلجأ بعض الحكام الذين عرفوا بعدم سلامة تصرفاتهم إلى اضطهاد الذميين من مسيحيين ويهود في فترات محدودة جداً من التاريخ الإسلامي.

فإذا كانت قد حدثت موجات من

لا أدل على تسامح المسلمين مع اليهود من السماح لهم بالاحتفاظ بهياكلهم ومعابدهم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

عدد اليهود في القرن الثاني عشر في بلاد المسلمين بحدود ثلاثمائة ألف يهودي:

الاضطهاد لأهل الذمة في عصر سلاطين المماليك مثلاً، فإنه ينبغي أن نقدر روح العصر - وهو عصر الحروب الصليبية - وطبيعة المماليك أنفسهم وحداثة عهدهم بالإسلام وعدم تشربهم روحه بالقدر الكافي.

وقد إضطر موسى بن ميلمون، الفيلسوف اليهودي - أمام موجة طارئة من تلك الموجات - إلى التظاهر بالإسلام والفرار من الأندلس إلى مصر حيث نزل بين اليهود في مصر القديمة، وكان أن وجد في مصر جواً مشبعاً بالتسامح، وتوثقت الصداقة بينه وبين القاضي عبد الرحمن بن علي البياني، ولكن رجلاً ممن كانوا يعرفونه بالأندلس - اسمه ابي غريب - لحق به في مصر، وحاول تجريمه لإرتداده إلى اليهودية، وعندئذ وجد ابن ميمون من عطف القاضي المسلم مافيه الكفاية، إذ حماه البياني وقال: «رجل يكره الإسلام لايصح إسلامه شرعاً» ويعلق أحد الباحثين من المستشرقين على هذه القصة بقوله: إنها تنطوي على تسامح جميل.

وثمة قصة أخرى تدل على روح التسامح التي نظر بها المسلمون إلى اليهود، وهي أن الوزير علي بن عيسة بن الجراح - وزير الخليفة المقتدر العباسي - أمر الطبيب سنان بن ثابت بإرسال جماعة من الأطباء وخزانة من الأدوية والشراب لتجدب السواد من أرض العراق وتداوي المرضى وكانوا أن وجد الأطباء أن هناك مناطق من العراق جمهرة سكانها من اليهود، فكتبوا يتساءلون عما إذا كان مطلوباً منهم علاجهم والاقتصار على علاج مرضى المسلمين، وبسرعة جاء الرد من الوزير بضرورة علاج الجميع، مع البدء بعلاج المسلمين.

ونخرج من القصة السابقة بدلالة أخرى، هي كثرة أعداد اليهود في العالم الإسلامي في العصور الوسطى. وهي ظاهرة تشهد على إحساسهم بالأمن والإستقرار في ظل الحكم الإسلامي بالذات.

ويذكر البلاذري أن معاوية بن أبي سفيان ماكان يستولي على طرابلس حتى جلب إليها اليهود وأسكنهم فيها، وكذلك حصل في الأندلس وغيرها، وفي ظل الأمن والسلام اللذين نظم بهما اليهود في بلاد المسلمين تكاثرت أعدادهم حتى أن بنيامين اليهودي قدر عددهم في القرن الثاني عشر بثلاثمائة

ألف يهودي في المشرق الإسلامي وحده ويقول بنيامين أنه كان يسكن دمشق ثلاثة آلاف يهودي تحت حكم المسلمين وفي حلب خمسة آلاف يهودي، كما يقول أن اليهود ازدحموا على جانبي نهري دجلة والفرات وفي مدن الجزيرة. فكان في الموصل سبعة آلاف... أما في مصر فيقول بنيامين أنه كان في القاهرة سبعة آلاف يهودي وبالإسكندرية ثلاثة آلاف.

وقد ازداد عدد أولئك اليهود بالقاهرة في عصر سلاطين المماليك نظراً لنشاط التجارة.

وكلما تقدمنا شرقاً إزداد عدد اليهود في الوطن الإسلامي فكان بهمدان ألفاً وبأصفهان خمسة آلاف وبشيراز عشرة آلاف وبسمرقند ثلاثون ألفاً. وهذه الأرقام التي يذكرها بنيامين يؤيدها المقدس في القرن الرابع الهجري.

وفي كثير من المدن الإسلامية نجد أحياء تنسب إلى اليهود مثل حارة اليهود بالقاهرة ودرب اليهود في بغداد وفي المغرب خصص الإمام إدريس الثاني حياً كبيراً لليهود في مدينة فاس.

وهذه الكثرة العددية لليهود في العالم الإسلامي وخاصة في الشرق تطلبت أن يكون لهم رئيس ديني يرعى أمورهم. ولقب هذا الرئيس «رأس الجالوت» وله السلطان والرياسة على جميع أبناء ملته. ولقبه المسلمون «بسيدنا» وفرض الخليفة المكتفي العباسي على المسلمين في بغداد تقديم واجب الإحترام له والوقوف أمامه إجلالاً له، ومن لم يقف له ضرب مئة سوط وبقيام الدولة الفاطمية لم يعد للخليفة العباسي في مصر والشام نفوذ، فصار لليهود في مصر رئيس طائفة مستقل لقبه «سرهاريم» أي أمير الأمراء وكان هو الذي يعين أحبار اليهود في مصر والشام، وقد تولى هذه الرئاسة سنة ٦٨٤ هـ الشيخ المهذب أبو الحسن الموفق بن شمويل الطبيب وكتب له توقيع برئاسة سائر الفرق اليهودية في جميع ديار مصر والشام.

وخير مثل نسوقه على الفارق العظيم بين مالقيه اليهود في ظل الحكم الإسلامي من تسامح وأمن واستقرار وماتعرضوا له على أيدي الصليبيين في العصور الوسطى من اضطهاد.

أن مدن الشام التي كانت بها جاليات ضخمة من اليهود تحت حكم المسلمين كادت تفتقر من اليهود بعد إستيلاء الصليبيين عليها. ويقول بنيامين أنه لم

لقب المسلمون رئيس الطائفة اليهودية «بسيدنا» وفرض الخليفة المكتفي العباسي على المسلمين في بغداد واجب الاحترام له والوقوف امامه إجلالاً، ومن لم يقف له ضرب مئة سوط.

بلغ تسامح المسلمين مع اليهود أن استخدموا اليهود في وظائف الدولة، وعلى رأسها الوزارة.

يبق في بيت المقدس بعد إستيلاء الصيبيين عليها سوى أربعة من اليهود في حين كان في صور تسعة فقط لذلك لاعجب إذا هلل اليهود عندما سمعوا باستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة ١١٨٧ م.

وفي ظل التسامح الإسلامي تمتع اليهود بحرية واسعة في مباشرة نشاطهم الاقتصادي فاحتكروا التجارة بين الشرق والغرب، واعتادوا أن يبدؤوا رحلتهم التجارية في إقليم بروفانس بوادي الرون في جنوب فرنسا، ولذلك أطلق عليهم المسلمون اسم اليهود الراذانية بنسبة إلى الرون.. ويستأنفون رحلتهم إلى الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر.

ومامن مركز تجاري كبير في العالم الإسلامي إلا وكانت به جالية ضخمة من اليهود تسيطر على النشاط المالي فيه. فكانت مدينة اليهودية، على مقربة من اصفهان، هي المركز التجاري لهذه المدينة الفارسية الكبيرة.

أما في مصر فيذكر المقريزي أنه حدث في أيام الخليفة الحاكم بأمر الله أن يتبع أخوان يهوديان يتصرف أحدهما في التجارة والآخر في الصرف وبيع مايحمله التجار من العراق. وفي بيت المقدس احتكر اليهود تجارة الأصباغ في حين اشتغل يهود الأندلس بخصي الرقيق الصقالبة.

وإلى جانب التجارة عرف عن اليهود احتكارهم لأعمال الصيرفة وهي الأعمال التي باشروها بحرية واسعة في العالم الإسلامي.

ولم يكن إطلاق الحرية لليهود لمباشرة نشاطهم المالي والمصرفي هو كل ماحظيوا به من امتيازات في ظل الحكم الإسلامي، بل لقد بلغ من تسامح المسلمين أن استخدموا اليهود في وظائف الدولة. وسمحوا لهم بتقليد اسمى الوظائف وأرقاها، وعلى رأسها وظيفة الوزارة، وظهر منهم في العصر الفاطمي يعقوب بن كلس الذي لجأ إلى مصر حيث تاجر لكافور الأخشيدي ثم استوزرة المعز لدين الله الفاطمي ويقال أنه هو الذي اشار عليه بفتح مصر. ورغم إعتناقه الإسلام إلا أنه ظل يتحيز لإخوانه اليهود، ومع ذلك فقد كان المعز لايفعل شيئاً إلا بمشورته. أما الخليفة العزيز الفاطمي فقد استوزر عيسة بن فطوروس النصراني واستناب في الشام يهودياً اسمه منشا فاعتز بهما أهل الذمة وأنزلوا اضراراً كبيرة بالمسلمين. وفي عهد

الخليفة المستنصر الفاطمي أصبح أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحي وزيراً ـ وكان يهودياً فأسلم ، فأشرك معه في تدبير شؤون الدولة أبو سعد التستري اليهودي.. وقد أثار هذا الأخير كراهية المسلمين لليهود، واسناده مناصب الدولة إليهم مما مكنهم من اضطهاد المسلمين اضطهاداً واضحاً. وعبّر عن ذلك الشاعر المصري الحسن بن خاقان بقوله:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية مالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهمو ومنهم المستشار والملك

ولم يقتصر الأمر على مصر فقد استوزر ملكشاه السلجوقي لنفسه أمين الدولة أبا الحسن بن غزال ـ وهو طبيب يهودي ـ وجدوا عنده بعد موته ثلاثة ملايين قطعة من الذهب.

وفي المغرب اتخذ باريس بن حبوس بن زيدي ملك غرناطة ٤٦٦ ـ ٥٣٠ هـ أحد اليهود ابن تغزالة وزيراً. وكان لمهنة الطب خطرها في المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى ومع ذلك فقد أباح المسلمون لأهل الذمة مزاولة تلك المهنة. وسلم الخلفاء والحكام أرواحهم وأنفسهم لأطباء من اليهود وإذا كان قد عيب على الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي أنه إضطهد أهل الذمة خلال فترة معينة من حكمه، فإن كتب التاريخ تحكي عن الحاكم نفسه أنه أصيب بجرح في ساقه فأحضر إليه طبيب يهودي نجح في علاجه. وعندئذ منحه الحاكم ألف دينار وخلع عليه وجعله من أطبائه الخاصين، كذلك اختار الملك العادل الأيوبي يعقوب بن صقلان طبيباً خاصاً له. وقد أدركه وجع المفاصل في أواخر أيامه. فكان الملك العادل إذا احتاجه استدعاه إليه في محفة يحملها الرجال.

وبعد فلعله من الواضح بعد هذه اللمحة السريعة أن اليهود لم يلقوا طوال عصور التاريخ معاملة أكرم وأطيب من تلك التي عاملهم بها المسلمون. لقد أدت أنانية اليهود وجشعهم إلى تعرضهم لاضطهاد الرومان في العصور القديمة ومختلف شعوب أوروبا المسيحية في حين أنهم وجدوا في المسلمين ـ بإعتراف كتاب اليهود أنفسهم ـ أخوة رحماء، يعتبرونهم أهل كتاب ولايجعلون للفوارق الدينية وزناً في تحديد نوع المعاملة التي يعاملونهم بها.

ولكن تجربة المسلمين مع اليهود كانت دائماً مريرة قاسية، إذ كان اليهود يقابلون

> **تجربة المسلمين مع اليهود كانت دائماً مريرة قاسية، إذ كان اليهود يقابلون الوفاء بالغدر والإحسان بالنكران.**

> إن البلدان العربية والإسلامية هي التي دفعت ثمن الاضطهاد الغربي لليهود عندما شكلوا تجمع لليهود في دولة واحدة التي عرفت باسم إسرائيل»

الوفاء بالغدر والإحسان بالنكران والمعروف بالجحود، لذلك أخذ المسلمون في العصور الوسطى يتخوفون من السفر مع اليهود خوفاً من خديعتهم.

ولعل هذه الأمثلة وغيرها هي التي جعلت المستشرق أولبري يقول مانصه: «إن النظام الإداري للدولة الإسلامية قد أمدّ اليهود بفرص أظهروا فيها مدى ماأنطوت عليه نفوسهم من الظلم والخيانة، وهي تلك الأخلاق التي لم يستطيعوا كبح جماحها.

وبالمقابل بلغت الحملات ضد اليهود في الغرب ذروتها حيث تعرضوا للمذابح في اسبانيا وأوروبا ورغم ذلك فإن البلدان العربية الإسلامية هي التي دفعت ثمن الاضطهاد الغربي لليهود عندما شكل هذا الاضطهاد مبرراً معنوياً للغرب لتجميع اليهود في دولة واحدة هي التي عرفت بإسم «إسرائيل». أما المجتمع الغربي الذي تسبب في هذا كله فقد تنصل من مسؤولياته، بل ساعد في إلقاء الجريمة على اكتاف المجتمع العربي، ولايزال الصراع مستمراً حتى هذا اليوم لأن القضية الفلسطينية لاتزال تدور في دوامة مفرغة من القلق والإضطراب.

المصطلحات التقنية/ الأثرية وحدود مدلولاتها

د. محمد ماجد الموصلي

لكل علم من العلوم مصطلحاته الخاصة به، وقد عرفت المصطلحات الخاصة بالعلوم بالتعبير اللاتيني (Terminus tecnicus) أي المصطلحات التقنية حسب تعريبها الحرفي، ومن دون استخدام المصطلحات التقنية (مصطلحات عمل البحث العلمي)

لايمكن للشاغلين وللباحثين في حقل من حقول العلوم التفاهم وتفسير وشرح نتائج أبحاثهم ودراساتهم حتى أننا لن نكون فعالين إذا قلنا أن تلك المصطلحات التقنية لأحد العلوم هي لغة خاصة ضمن اللغة التي يكتب بها الباحث أو الدارس. وعلم الآثار والتنقيب هو أحد العلوم التي لها لغتها الخاصة بها أي أن علم الآثار يزخر بالمصطلحات التقنية. سوف نحاول في هذا الموضوع استعراض أهم وأشهر المصطلحات التقنية في علم الآثار والتنقيب وتحديد مدلولاتها والمفاهيم المرتبطة بها. نصنف المصطلحات ضمن الفقرات التالية:

أ ـ مصطلحات المراحل الحضارية.

ب ـ المصطلحات الخاصة بالمواقع الآثرية.

جـ ـ المصطلحات الخاصة بالفخار.

د ـ المصطلحات الخاصة بالتنقيب الآثري.

هـ ـ المصطلحات الخاصة بالتاريخ.

و ـ مصطلحات أخرى.

لنبدأ أولاً بمصطلحات المراحل الحضارية.

من المعروف أن الفيلسوف اليوناني لوكريتسيوس كاروس كان أول من تحدث عن ارتقاء الحضارة البشرية من الحالة الدنيا إلى الحالة الأكثر تطوراً فقد صنف الحضارات التي كانت قائمة في عهده وفق مايلي:

١ ـ مرحلة الإنسان الذي لم يعرف النار.
٢ ـ مرحلة الإنسان الذي تعرف على النار.
٣ ـ مرحلة الإنسان الذي تعرف على صنع الأدوات.
٤ ـ مرحلة الإنسان الذي يعيش في الحالة البربرية.
٥ ـ مرحلة الإنسان الذي ابتكر الحضارة المدنية (ويقصد اليونانيين).

النظرية الدوروانية حول مسألة الارتقاء من الأدنى إلى الأعلى

ثم ظهرت النظرية الدروانية حول مسألة الإرتقاء من الأدنى ونحو الأعلى وطبقت تلك النظرية في مجالات الدراسات الثقافية والحضارية واعتبرت منهجاً اختلف الباحثون في التقيد به وخاصة بما يتعلق بتصنيف الحضارات البشرية ضمن نظرية الإرتقاء وفق خط واحد أو وفق خطوط متوازية الخ.

وهكذا اضطر الباحثون في علم الآثار لدى تقييمهم وتأريخهم للسويات الآثرية التي اكتشفوها إلى استخدام مصطلحات خاصة تفرق السويات الحضارية عن بعضها وتعبر عن المرحلة والزمن الحضاري لمكتشفاتهم.

١ ـ الحضارة البدائية: Primitiu Culture.

يبدو أنه يوجد اليوم مايشبه الاتفاق العام حول الاستغناء عن مصطلح بدائي وإبداله بمصطلح ابتدائي فحسب رأي الكثير من المؤرخين، لاوجود لحضارة بدائية فأكثر الشعوب بدائية عرفت شكلاً من أشكال الثقافة ولو كانت معرفتها قاصرة على مستوى معين من التعامل مع الطبيعة لإثبات الوجود الحياتي.

٢ ـ العصر الحجري القديم: Palalolithic.

مصطلح يطلق على السوية الحضارية التي عرفت نموذجاً معيناً من نماذج صنع الأدوات الحجرية ويغطي هذا المصطلح عصوراً زمنية طويلة ونظراً لاحتمال وقوع التباس في معرفة أية فترة من الممكن أن تغطي من خلالها السورية الحضارية المعينة لهذا فقد عرفت مصطلحات أخرى ترتبط بالمصطلح الآنف الذكر وهي:

العصر الحجري القديم الأدنى Lower Palaeolithic

العصر الحجري القديم الأوسط: Middle Palaeolithic

العصر الحجري القديم الأعلى: Upper Palaeolithic

يطلق مصطلح العصر الحجري القديم الأدنى على أقدم الحضارات البشرية الحجرية وهي الحضارة المرتبطة بصناعة حجرية ابتدائية للإنسان الجنوبي Austvalopithecus والإنسان المنتصب

.(Homo Erectus)

أما مصطلح العصر الحجري القديم الأوسط فهو يغطي مرحلة حضارية حجرية انتقالية بين الصناعة الحجرية القديمة الدنيا (أدوات القبضة الحجرية البسيطة والحصى) وبين المرحلة الحضارية الحجرية القديمة العليا التي يعبر عنها مصطلح العصر الحجري القديم الأعلى وهي التي تبدأ نحواً من حوالي ٤٠,٠٠٠ عام قبل عصرنا الحاضر وهي مرتبطة بما يسمى بالإنسان العاقل.

هناك أيضاً مصطلحات تعبر عن سويات العصر الحجري القديم وهي في الحقيقة أسماء لمواضع جغرافية اكتشفت فيها سويات حضارية حجرية لكنها متفاوتة في الدنو أو الرقي وهي مستخدمة اليوم بشكل متواز مع المصطلحات الآنفة الذكر منها مثلاً حضارة Chellean (أقدم حضارة حجرية قديمة) وحضارة آشول (Acheulian) (سورية اكثر رقياً عن الشيلين) وليفالوا - موستريان (Leuallois - Mousterian) التي وجدت آثارها في جنوب فرنسا وفي منطقة الجبال التدمرية وهناك أيضاً الحضارة الحجرية المجدلانية (Magdalenian) وهي أحدث الحضارات الحجرية القديمة (عرفت من مواضع في بريطانيا وفرنسا واسبانيا / آلتاميرا) انتهى مصطلح الباليوليثيك.



٣ - العصر الحجري الوسيط (Mesolithic)

مصطلح يطلق على السوية الحضارية الحجرية الانتقالية بين الحجري القديم والحجري الحديث، ولايغطي هذا المصطلح نفس الفترات الزمنية لمختلف المواقع الحجرية في العالم شأن ذلك شأن مصطلح العصر الحجري القديم، إذ أن التاريخ الزمني لسويات العصر الحجري الوسيط في أوروبا لاتتطابق زمنياً مع تاريخ سويات العصر الحجري الوسيط المكتشفة مثلاً في المريبط أو الكوم ضمن أراضي القطر العربي السوري.

وهناك مصطلح معروف باسم الحضارة النطوفية (جبال الكرمل وهضاب القدس) الذي يتطابق زمنياً إلى حد ما مع العصر الحجري الوسيط وتقع فترته بين ١٠٠٠٠ و ٨٣٠٠ ق. م.

٤ - العصر الحجري الحديث (Neolithic)

يعبر مصطلح العصر الحجري الحديث عن آخر مرحلة من مراحل الحضارة

الحجرية وذلك قبل العصرالانتقالي إلى اكتشاف النحاس. ومسألة العصر الحجري الحديث غاية في التعقيد من حيث ابتدائه زمنياً واستمراره فالحضارة النطوفية هي من فترات العصر الحجري الحديث حسب بعض الآراء وحسب المواقع الجغرافية وهي حسب رأي البعض الآخر مجهولة كحضارة في مناطق أخرى.

وعليه تتأرجح التغطية الزمنية للعصر الحجري الحديث بشكل عام بين الألف العاشرة أو التاسعة ق. م وبين منتصف الألف الثامنة ق. م وهي الفترة المعروفة باسم أقدم سويات العصر الحجري الحديث (حسب تنقيبات الأستاذ كوفان في موقع المريبط) (أي بين ٧٦٠٠ و ٦٦٠٠ ق. م) وتمتد فترات العصر الحجري الحديث إلى نحو من إنتهاء عصر حلف وابتداء عصر العبيد.

٥ ـ عصر حلف (Halaf)

نسبة إلى موقع حلف فقد درج على استخدام مصطلح عصر حلف الذي يغطي فترة الألف الخامسة ق. م ويعبر المصطلح عن أحدث فترات العصر الحجري الحديث وغالباً مايرتبط مصطلح حلف بنموذج فخار معين معروف باسم فخار حلف.

العصر الحجري الحديث بين الألف العاشرة والثامنة ق.م

٦ ـ عصر العبيد

نسبة إلى موقع العبيد في بلاد مابين النهرين فقد درج على استخدام مصطلح عصر العبيد وهو عصر حضاري أحدث من عصر حلف أي أنه يقع زمنياً قبل الألف الرابعة ق. م، ظهرت سوية العبيد في مواضع آثرية كثيرة عن بلاد مابين النهرين وفي سوريا.

٧ ـ عصر الوركاء

الوركاء أو كما ترد في الآداب الأثرية الأوروبية باسم أوروك، موقع آثري اكتشفت فيه سوية بداية صناعة الآنية الفخارية فوق الدولاب، وتغطي هذه السوية الألف الرابعة ق. م.

اكتشفت سوية الوركاء أيضاً في مواضع مختلفة من بلاد مابين النهرين وسوريا. ويقسم عصر الوركاء إلى مرحلتين عصر الوركاء المبكر وعصر الوركاء المتأخر الذي ينتهي حوالي ٣١٠٠ ق. م.

٨ ـ عصر جمدة نصر

نسبة إلى موقع جمدة نصر ويغطي الفترة الزمنية بين ٣١٠٠ و ٢٩٠٠ ق.م.

٩ ـ عصر ماقبل السلالات (Pre - Dynashic)

يطلق مصطلح عصر ماقبل السلالات على الفترة الزمنية التي لم تعرف منها

سلالات حاكمة في المدن المصرية القديمة وخاصة من البداري والفيوم وغيرها وتتوافق تلك الفترة زمنياً مع الألفين الخامسة والرابعة ق. م).

أما الفترة الزمنية التي يتوافق معها مدلول عصر ماقبل السلالات في بلاد مابين النهرين فتعود إلى مابين ٢٩٠٠ و ٢٢٥٠ ق. م. وبالنسبة إلى مصطلح عصر ماقبل السلالات في بلاد مابين النهرين فهو يقسم إلى عصر ماقبل السلالات من I إلى III.

يقابل مدلول مصطلح عصر ماقبل السلالات في سوريا مصطلح فجر التاريخ السوري.

أما مصطلح العصر الحجري النحاسي أو مايسمى بـ الحجري الحديث المتأخر (Emealithic) فهو يغطي الفترة الزمنية الواقعة بين ٥٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق. م وهي الفترة التي عرفنا أن مدلولها مغطى بمصطلحات عصر حلف وعصر العبيد وعصر الوركاء وعصر جمدة نصر.

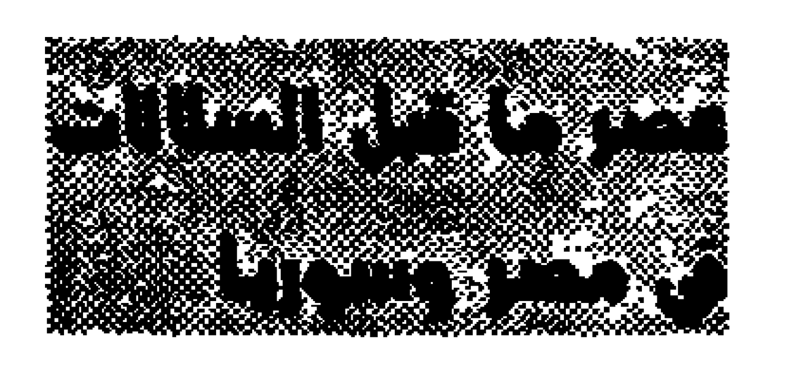
١٠ ـ عصر البرونز القديم I و II و III Early Brenze196

يعتبر كريستيان تومسين الدانماركي رائد التصنيف الحضاري وفق النظام المعروف باستناده إلى صناعة الحجر ومن ثم الانتقال إلى اكتشاف المعدن وقد قسمت الفترة الزمنية التي اكتشف فيها معدن البرونز القديم (Early Brenze) وعصر البرونز الوسيط (Muddle Branze) وعصر البرونز الحديث (late Bronze) يغطي عصر البرونز المبكر الفترة الزمنية الواقعة بين ٣٠٠٠ أو ٢٩٠٠ و ٢٤٠٠ ق. م وتتوافق تلك الفترة زمنياً مع عصر جمدة نصر وعصر ماقبل السلالات الرافدية.

١١ ـ عصر البرونز القديم الرابع Early Brenze IV

يغطي هذا المصطلح الفترة الزمنية بين عامي ٢٤٠٠ و ٢٠٠٠ أو ١٩٠٠ قبل الميلاد ويتوافق عصر البرونز القديم الرابع زمنياً مع عصر أكاد وعصر أكاد المتأخر أو عصر سلالة لجاش وعصر أور الثالث.

وهناك خلافات حادة حول استخدام مصطلح عصر البرونز القديم الرابع فبالنسبة إلى سوريا وفلسطين طرح مصطلح عصر البرونز الانتقالي بين عصري البرونز القديم والبرونز الوسيط ومثل هذا المصطلح يغطي الفترة الزمنية الواقعة بين ٢٢٥٠ و ١٩٠٠ ق. م أي عصري لجاش واور الثالثة ويرتبط الموضوع أصلاً بالكرونولوجي أو التقديم (التاريخ) المحلي والعام الذي

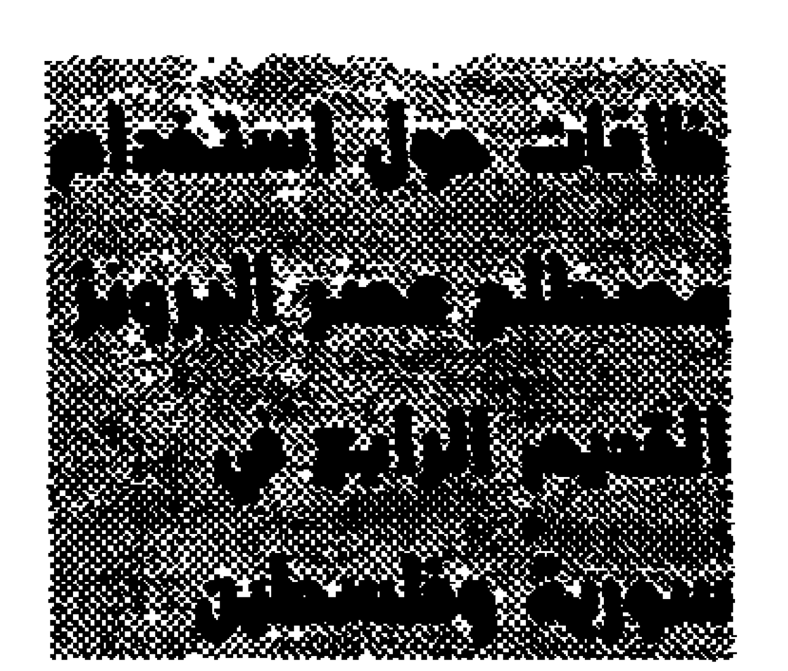


يشمل منطقة تاريخية محددة.

١٢ ـ عصر البرونز الوسيط Middle Brenze

يغطي مصطلح عصر البرونز الوسيط الفترة الزمنية الواقعة بين عامي ٢٠٠٠ أو ١٩٠٠ و ١٦٠٠ أو ١٥٥٠ ق. م حسب كرونولوجي تل مرديخ /ايبلا وحسب كرونولوجي مواقع أخرى الفترة الواقعة بين ١٩٠٠ و ١٥٥٠ ق. م. يقسم عصر البرونز الوسيط إلى مرحلتين هما عصر البرونز الوسيط I وعصر البرونز الوسيط II وهناك خلافات أيضاً وعدم استقرار حول التحديد الزمني الدقيق لمصطلح عصر البرونز الوسيط، فعصر البرونز الوسيط I يبدأ حوالي عام ٢٠٠٠ وينتهي حوالي عام ١٨٠٠ ق. م في تل مرديخ ويبدأ عصر البرونز الوسيط I حوالي عام ١٨٠٠ وينتهي حوالي عام ١٦٠٠ ق. م في نفس الموقع. يطلق أيضاً مصطلح العصر السوري القديم على نفس فترات عصر البرونز الوسيط.

١٣ ـ عصر البرونز الحديث (Late Brenge)



يبدأ عصر البرونز الحديث في وسط سوريا (تنقيب البعثة الدانماركية في حماة) حوالي عام ١٥٥٠ ق. م وينتهي حوالي عام ١٢٠٠ ق. م اما التقدير الزمني للبرونز الحديث في تل مرديخ فيبدأ عند عام ١٦٠٠ وينتهي عند عام ١٢٠٠ ق. م وهو يقسم إلى مرحلتين البرونز الحديث I من ١٦٠٠ أو ١٥٥٠ وحتى ١٤٠٠ ق. م والبرونز الحديث II من ١٤٠٠ وحتى ١٢٠٠ ق. م. وحول التقدير الزمني للبرونز الحديث وتقسيمه إلى فترات فهناك أيضاً عدم إجماع حول الموضوع حيث يقسم البرونز الحديث لمناطق لبنان والساحل السوري إلى ثلاثة مراحل تنتهي عند حوالي عام ١٢٠٠ ق. م وهي فترة إنتهاء الحكم الحثي لمناطق شمال ووسط سوريا. يطلق أيضاً مصطلح العصر السوري الوسيط على نفس الفترة الزمنية التي يغطيها مصطلح عصر البرونز الحديث.

١٤ ـ عصر الحديد: Iron - Ase

يطلق مصطلح عصر الحديد على الفترة الزمنية التي تبدأ من عام ١٢٠٠ ق.م وهي فترة اكتشاف معدن الحديد وتبدأ فترة عصر الحديد مع انهيار الحكم الحثي في سوريا وسطوع نجم الدول الآرامية. ويوازي مدلول عصر الحديد زمنياً مدلول مصطلح العصر السوري الجديد أما مصطلح العصر الآشوري الجديد فيغطي الفترة الواقعة بين ١١٠٠ و ٦١٠ ق.م وهو زمن سطوع نجم

الدولة الآشورية. يقسم عصر الحديد إلى أربعة أو إلى ثلاثة مراحل: هي الحديد I من ١٢٠٠ وحتى ٩٠٠ ق.م والحديد II من ٩٠٠ إلى ٧٢٠ ق.م والحديد III من ٧٢٠ وحتى حوالي ٥٥٠ ق.م.

١٥ ـ العصر الأخميني

مصطلح يطلق على فترة سيطرة الدولة الفارسية على المنطقة وذلك بين حوالي عام ٥٥٠ وعام ٣٢٥ ق.م.

١٦ ـ العصر الهلنستي

يطلق مصطلح العصر الهلنستي على الفترة التي تقع بين ابتداء الغزو الهلنستي للمنطقة (فتوحات الأسكندر المكدوني الكبير) وغزو الامبراطور الروماني بومبي للمنطقة في عام ٦٤ ق.م.

١٧ ـ العصر الروماني

بين عام ٦٤ ق.م وانفصال القسطنطينية عن روما وقيام الدولة البيزنطية في عام ٣٠٦ م.

١٨ ـ العصر البيزنطي

من عام ٣٠٦ وحتى ٦٣٠ م

١٩ ـ العصر الإسلامي

من ٣٦٠ حتى يومنا هذا.

ب ـ المصطلحات الخاصة بالمواقع الأثرية

نتج عن القيام بالتنقيب في مواقع آثرية عديدة وعبر تاريخ التنقيب الآثري الحديث استخدام تعابير خاصة في نشر النتائج العلمية للحفريات وأضحت مثل تلك التعابير مصطلحات لم يعد من الممكن الإستغناء عنها أو تجنب الاستشهاد بها. من تلك المصطلحات مثلاً HamaJ أو مرديخ IIB ٢٤٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م إلخ. ومثل تلك التعابير هي كناية عن اسم السوية أو الطبقة الآثرية حسب الحرف اللاتينية يضاف إليها اسم الموقع الآثري الذي جرى فيه التنقيب والكشف عن الطبقة الآثرية المعنية.

والتعبير المختصر من أسم الموقع والحرف المؤشر إلى الطبقة يعبر عن فترة زمنية للسكن في الموقع وظهور نموذج أو نماذج معينة من الفخار الآثري أو اكتشاف نموذج معين من العمارة وأسلوبها الخ. وأضحت مثل تلك التعابير مصطلحات يستخدمها الآثريون في تدوين نتائج حفرياتهم فمثلاً يقول الأستاذ فلان أنه اكتشف في الموقع الآثري الفلاني سوية تبين أن فخارها هو مماثل لفخار Hamaj أو غيره نستعرض فيما يلي أهم تلك التعابير المصطلحية الخاصة بمواقعنا الآثرية:

١ ـ العمق (Amuq F)

يقصد بالتعبير العمق F السوية الأثرية

العصر الهلنستي وفتوحات الاسكندر المكدوني الكبير وغزو الامبراطور الروماني بومبي

نماذج الفخار تساعد في تحديد الفترات الزمنية للعصور

المكتشفة في تلال الجديدة وتشاتال هويوك وغيرها من تلال أثرية تدفن مدن قديمة ازدهرت في سهل العمق (لواء الاسكندونة) ويغطي العمق F زمنياً من ٣٥٠٠ - ٣٣٠٠ ق. م ويقابل تعبير العمق F التعبير نينوي III وغاورا XI - XII.

٢ ـ حماة (J)

يغطي التعبير حماة (J) الفترة الزمنية الواقعة بين ٢٤٠٠ و ٢٠٠٠ ق. م وهناك تقسيمات معروفة أنها تبدأ بـ حماة J١ وتنتهي بـ حماة J٨ ونظراً لقبول أو رفض التحديد الزمني وتاريخ التسوية HJ لذا فيفضل عوضاً عن ذكر التاريخ القول أن السوية المعينة كذا هي مماثلة (HJ) الخ.

٣ ـ مرديخ من I إلى VII:

يقابل تعبير مرديخ IIB١ تعبير حماة ٤ - Hama J١ المتوافق مع الفترة الزمنية من ٢٤٠٠ - ٢٢٥٠ ق. م. أما فترة مرديخ IIB٢ فهي الفترة الواقعة بين ٢٢٥٠ - ٢٠٠٠ ق. م وفترة مرديخ IIB١ هي فترة ازدهار ايبلا قبل تدميرها من قبل نارام سين خليفة صارغون الأكادي.

ج ـ المصطلحات الخاصة بالفخار

هناك تعابير خاصة بالفخار لاحصر لها وقد أضحت مصطلحات يتفاهم بها الكتبة والقارؤون للآداب والأبحاث الآثرية وهي تعبّر غالباً عن نموذج محدد من نماذج الفخار الأثري الذي ظهر ضمن فترة زمنية محددة واختفى بعدها، لذا أضحت تلك المصطلحات رموزاً لفترات زمنية حضارية فمثلاً هناك مصطلح معروف باسم الفخار المعدني (metallic - Ware) وبما أن الفخار المعدني ذا المواصفات المحددة معروف على أنه ظهر بين ٢٢٥٠ و ٢٠٠٠ ق. م لذا فإن قارىء البحث الأثري يعرف عند قراءته لمصطلح الفخار المعدني أن المقصود هو الفترة الزمنية التي ذكرتها آنفاً. والمشكلة أنه إذا ورد لدى أحد الباحثين أنه اكتشف الفخار المعدني في سوية عصر البرونز الوسيط أي بعد عام ١٩٠٠ ق. م. فالمسألة تتعلق عندها باستمرار تقليد صناعة الفخار المعدني في الموقع الآثري المحدد.

١ ـ الفخار المعدني:

هو أحد نماذج الفخار الذي يتصف بأن التربة المصنوع منها ناعمة جداً وتحتوي على نسبة عالية من الذرات

المعدنية وهو مشوي تحت درجة عالية ورقيق القوام وينتج عند الطرق عليه رنيناً خاصاً.

٢ ـ الفخار المدهون المعروف بإسم Polychrome

هو الفخار المدهون بلون أو لونين فوق اللون الأصلي للطين المصنوع منه الآنية.

٣ ـ الفخار المدهون المعروف باسم Moraclrome

هو الفخار المدهون بلون واحد فقط فوق الطين المصنوع منه الآنية.

٤ ـ الفخار الفايانس Faience

هو نموذج محدد من الفخار المصنوع من الطين المخلوط مع الرمل وهو مشوي تحت درجة حرارة عالية تحول عندها الرمل إلى قوام زجاجي ذا لون أخضر اوز نجاري ومثل هذا النموذج من الفخار معروف من مصر وفلسطين وانتشرت صناعته خلال الألف الثانية ق.م.

إلخ من مصطلحات تتعلق بالفخار وأنواعه ونماذجه.

د ـ المصطلحات الخاصة بالتنقيب الآثري

من المعروف أن التنقيب والحفريات الآثرية هي أعمال تقنية منهجية بحتة ولها مصطلحاتها الخاصة بها. ومثل تلك المصطلحات غاية في الفقه والمدلول وهي مرتبطة أصلاً بنشوء علم الحفريات الآثرية ولايمكن الاستغناء عنها او تبديلها، نورد فيما يلي بعضاً من تلك المصطلحات:

١ ـ الستراتيغرافي Strategvaply:

يعبّر مصطلح الستراتيغرافي عن تمييز الطبقات الآثرية أو دراسة الطبقات الآثرية فجّل المواقع الأثرية تتألف من طبقات أثرية تتوضع فوق بعضها البعض والمصطلح يتألف من كلمتين هما Strata ومعناها طبقة و graply ومعناها الوصف أي وصف الطبقات ومثلاً نجد تلاً أثرياً هو عبارة عن أنقاض عدة طبقات أثرية تتوضع فوق بعضها البعض أقدمها هو أدناها عمقاً وأحدثها زمنياً هو أعلاها.

٢ ـ الكرونولوجي (Chranalogy):

يعبّر مصطلح الكرونولوجي عن التسلسل الزمني وتتابع القدم وتعريه هو كما رأينا بشرح الوصف والمدلول المتعلق بالمصطلح وغالباً مايستخدم هذا المصطلح بلفظته اللاتينية شرحه في ذلك شرح مصطلح الستراتيغرافي. الكرونولوجي لموقع آثري معين هو البيان الزمني وتسلسل القدم بالنسبة لتاريخ السكن فيه، فالكرونولوجي لتل

مصطلحات التنقيب الآثري لايمكن الاستغناء عنها في علم الحفريات الآثرية

طريقة الكربون ١٤ في تحديد عمر الطبقات الأثرية.

حمص مثلاً هو تاريخ السكن في التل المذكور ونحن نعرف من دراسة اللقى الفخارية السطحية أن تل حمص كان مأهولاً خلال النصف الثاني من الألف الثالثة ق. م وفي عصر البرونز الحديث وفي عصر الحديد وفي العصور الهلنستية والرومانية والبيزنطية والإسلامية.

٣ ـ في مكانه الأصلي (In situ)

تكتشف أثناء التنقيب قطع آثرية تماثيل أو آنية إلخ في مواضعها الأصلية أي التمثال في هيكل المعبد أو قدر الطبخ في المطبخ، لذا يقال أن القطعة الآثرية الفلانية وجدت insitu.

٤ ـ مربع الحفر Trench٣

يقصد به مربع الحفر المحدث وفق مقاييس محدثة فمثلاً مربع الحفر ٩x٩ م أو ٥ x٥ م إلخ...

٥ ـ المقطع Seetin

مقطع الحفر هو أحد الواجهات الداخلية لمربع الحفر حيث تحفر الأرض ضمن المربع باستقامة شاقولية وللمقاطع أهمية بالنسبة لفحص الطبقات الآثرية المتوضعة فوق بعضها البعض.

هـ ـ المصطلحات الخاصة بالتاريخ Datiuy

إن التاريخ من أهم المسائل في علم الآثار والحفريات، ومازال التاريخ الشغل الشاغل للآثريين والعلماء والباحثين في الحضارات وهي معضلة وجرت لها بعض الحلول، لكن تلك الحلول مازالت بدورها موضوعاً للجدل والمناقشات الحادة وتستخدم في عملية التاريخ مصطلحات أضحت شائعة نورد فيما يلي أهمها:

١ ـ الكربون ١٤ C14 datiuy

تعتبر طريقة الكربون ١٤ من أشهر طرق التاريخ المستندة إلى النتائج المخبرية. اكتشفت هذه الطريقة في عام ١٩٤٩. تتشكل في الجو وبتأثير الاشعاعات العالية نسبة ضعيفة من الكربون ١٤ المشع وتأخذه الكائنات الحية ويدخل إلى بنية عظام الإنسان والحيوان مع التغذية النباتية وعندها تموت تلك الكائنات تتوقف عملية أخذ الكربون ١٤ وتبدأ مرحلة فقدانه، فيفقد الجسم الميت خلال فترة زمنية تقدر بـ ٥٥٦٨ + ٣٠ عام حوالي نصف نسبة المركز منه وعليه فبحساب نسبة مابقي من الكربون ١٤ في عيّنة فحمية أو عظمية أو صدفية بواسطة قياس كثافة الإشعاع يمكن الحصول على عمر العينة المحددة وبالتالي عمر الطبقة الآثرية التي وجدت فيها. يضاف إلى الرقم المستخلص فترة زمنية

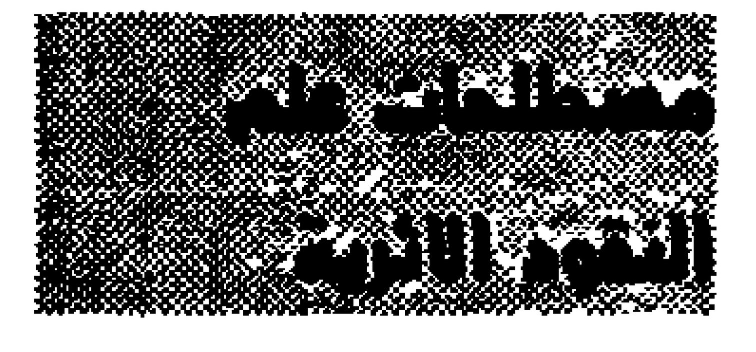
تلحظ بإشارة + أو - وهي الفترة التي تعّبر عن إمكانية حصول خطأ في تحديد عمر العينة. ويعتقد بشكل عام أن نسبة صحة التاريخ بواسطة قياس الكربون ١٤ لاتتجاوز ٦٨٪ من مطلق العمر الزمني الحقيقي.

٢ ـ تحليل غبار الطلع (Pollen Analysis)

هي إحدى الطرق المخبرية للتاريخ، فغبار الطلع لمختلف أنواع النباتات يحتفظ بخصائصه المميزة والتي يمكن التعرف عليها بواسطة رؤيتها مكبرة ٥٠٠ مرة. وعن طريق الحصول على عينات من غبار الطلع يمكن الحصول على التاريخ النباتي لطبقة من الطبقات، ومثل هذه الطريقة تطبق في تاريخ العصور الحجرية القديمة وعصور ماقبل التاريخ وتاريخ الأدوار الجيولوجية.

و ـ مصطلحات أخرى

هناك مصطلحات أخرى لاحصر لها وخاصة في مجال علم النقود الآثرية (Nimismaty) (النميّات) وفي مجالات الزجاج والخزف الآثري ودراسة الكتابات الآثرية وغيرها. نقتصر الحديث في محاضرتنا هذه على البعض القليل من تلك المصطلحات:



١ ـ الدينار Solidus

هي الوحدة النقدية المصكوكة من معدن الذهب، وقد بلغت قيمة الدينار البيزنطي زمن صكّه ٦٠٠٠ فلس نحاسي.

٢ ـ الخزف:

هو المصطلح الذي يطلق على الآنية المصنوعة من الطين والمكسية بطبقة زجاجية تختلف سماكته أو براقته حسب درجة الشي ومواد السيليكس المؤلف منها قبل إدخال الإناء إلى الفرن.

٣ ـ الباليوغرافيا Palaeoynphy

هو علم دراسة أشكال الأقلام الأبجدية القديمة وتطورها.

٤ ـ الايبغرافيك:

هو علم دراسة النقوش والنصوص والكتابات القديمة.

٥ ـ الاستنساخ Facsimile:

هو نسخ الكتابة كما نقشت زمن تدوينها والنقل Tramscriptien هو عملية نقلها إلى أحرف اللغة التي ينشر بها الباحث دراسته.